

النَّعْصَبُ لِلشَّيْبِخِ

عَوَاطِفُ مَشُوبَةٍ بِالْأَهْوَاءِ

دَاءٌ وَبَيْلٌ مَرَّقَ الْأُمَّةَ شَيْعًا
صَفَحَاتٌ مِّنْ تَارِيخِ الْمُتَعَصِّبِينَ الْأَسْوَدِ

تَأَلَّفَ

أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ بْنِ خَالِدٍ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْمُبَارَكِ

رَاحِلَةً وَقَدَّمَ لَهُ

بِسْمَاعَةُ الشَّيْبِخِ

حَسَنُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ مَرْزُوقُ الْبَنَّا
شَدِيدُ الْعَقِيدَةِ بِالْمَعَاذَةِ لِلْإِسْلَامِيَّةِ وَتَضَمُّنُ قِيَّةِ
الشَّرْعِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ بِالْمَدِينَةِ سَائِقًا

فَضِيلَةُ الشَّيْبِخِ
هَسَامُ بْنُ مَوْحَى الْغَدَّافِ الْقُدْرِيُّ الْبَلَدِيُّ
رَئِيسُ بَلَدَةِ إِسْمَاعِيلِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْمَكَّةِ الْبَلَدِيَّةِ
لِلدَّرَاسَاتِ الْمَرْجُوعَةِ بِرَأْسِ اللَّهِ الْبَلَدِيِّ

مَكْتَبَةُ الْمَوْلَانِ

بِالْمَكَّةِ الْبَلَدِيَّةِ

النَّعْصَبُ لِلشُّبُوحِ

عَوَاطِفُ مَشُوبَةٍ بِالْأَهْوَاءِ

دَاءٌ وَبِيلٌ مَرَّقَ الْأُمَّةَ شَيْعًا

صَفَحَاتٌ مِنْ تَارِيخِ الْمُتَعَصِّبِينَ لِلسُّودِ

ابن عثمان، أبو عبد الأعلى خالد بن محمد.
التعصب للشيخ، عواطف مشوبة بالأهواء، داء وبيل مزق الأمة شيعاً، صفحات من تاريخ المتعصبين الأسود.
تأليف: أبي عبد الأعلى خالد بن محمد بن عثمان.
راجعه وقدم له: حسن بن عبد الوهاب البناء، هشام بن موسى العارف المقدسي.
الطبعة الأولى، القاهرة، دار علم السلف. ٢٠٠٨ م.
٣٢٠ صفحة، ٢٤X١٧ سم
١- التعصب الديني. (٢٩١/١)
(أ) البناء، حسن بن عبد الوهاب (مراجع، مقدم)
(ب) المقدسي، هشام بن موسى العارف (مراجع، مقدم)
(ج) العنوان.
رقم الإيداع: ١٧٧٩٩/٢٠٠٨

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



ش صهاريج المياه- خلف حديقة الميريلاند- حي مصر الجديدة

القاهرة - ج.م.ع. جوال: ٠١٢/٦٥٦٧٥٦٥



**ALMAWRED BOOKS
CENTER**

ISLAMIC BOOKS PUBLISHERS

SAUDI ARABIA: 009662 / 7435942 - 0505790985
EGYPT: 00202 / 25062962 - 0105769955

مكتبة المورد
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية، الطائف، الشهداء الشمالية - ٠٢/٧٤٢٥٤٢ - ٠٥٠٥٧٩٠٩٨٥
HAMDYNOFAL@HOTMAIL.COM
جمهورية مصر العربية، القاهرة - الأهرام - ١٠ درب الأتركة - ٠٢/٢٥٠٢٩٦٢ - ٠١٠٥٧٩٩٨٥٥
HAMDYNOFAL@YAHOO.COM

توزيع

النَّعْصَبُ لِلشُّبُوحِ

عَوَاطِفُ مَشُوبَةٍ بِالْأَهْوَاءِ

دَاءُ وَبَيْلُ مَرْقِ الْأُمَّةِ شَيْعًا
صَفَحَاتُ مَنْ تَارِيخِ الْمُتَعْصِبِينَ الْأَسْوَدِ

تَأْلِيفُ

أَبِي عَبْدِ الْأَعْلَى خَالِدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عُثْمَانَ
رَاجِعَهُ وَقَدَّمَ لَهُ

فَضِيلَةُ الشَّيْخِ

هَسَامُ بْنُ مَوْسَى الْقَادِرِيُّ الْقُدْرِيُّ الْفَلَسْطِينِيُّ
رئيس لجنة التفتيش بالسفيرة بالركن الإسلامي
للدراسات النرجية - رام الله - القدس

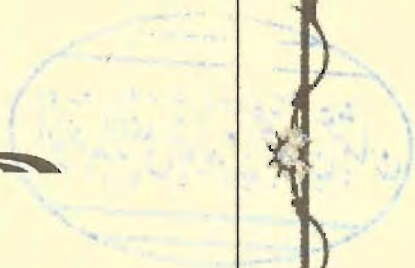
سَمَاعَةُ الشَّيْخِ

حَسَنُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ مَرْزُوقِ النَّبَا
مُدَرِّسُ الْقِيَادَةِ بِالْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَخُصَّةُ هُدَايَةِ
الْشَّرْعِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْمَدِينَةِ سَائِقًا

مَكْتَبَةُ الْمَوَازِينِ

دَارُ الْعِلْمِ وَالْإِسْلَامِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ





بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة فضيلة الشيخ

حسن بن عبد الوهاب بن مرزوق البنا

حفظه الله

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه ومن اتبع هداه.

أما بعد:

فقد يسر الله عز وجل لي أن أطلع على هذا الكتاب «التعصّب للشيخ» وأن أقرأه قراءة كاملة، وقد ألفيته كتاباً عظيم الفائدة؛ لمعالجته لآفة تُعتبر من أخطر الآفات التي تؤدي إلى تفرق الأمة إلى شيع وأحزاب.

فإن التعصّب للشيخ والتحزب حوله لهو أثر من آثار التصوف، والذي هو ريب الرفض، والذي يجعل الشيخ مُحجماً لحركات وأفكار وعقيدة المُريد، أمّا أهل السُنّة فإن لهم صبغة خاصة ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَتَحَفُّذَهُمْ عَيْدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨] فهم وإن احترموا الشيخ الذين تعلموا على أيديهم، وتأدبوا معهم بأداب طالب العلم، فهذا لا يقتضي أن يتعصّبوا لهم بغير حق.

لكن مَكْمَنُ الْخُطُورَةِ أنه أثناء تحصيل الطلاب العلم على يد الشيخ يُخلص لهم الشيخ، ويُخلصون له، فيحدث بينهم تآلف قلبي، وربما يتعلق به البعض إلى درجة يتجاوزون بها القواعد الشرعية بين الشيخ وطُلاب العلم، فتحول هذه العلاقة إلى مذهبية حزبية.

وإن الغلو في الأموات من الصالحين يتبعه بالأولى الغلو في الأحياء منهم، فلا ينبغي التقليل من شأن هذه الآفة أو اعتبارها أمراً عادياً، فإن الناظر في آيات القرآن وصحيح السنة يجد أن فتنة الناس بالناس قد بدأت بمثل هذا؛ فتعصّب النصارى للمسيح ﷺ حتى جعلوه إلهاً مع الله،

وتعصبت طائفة من هذه الأمة لعلي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، حتى كفروا غالب الصحابة الآخرين، بل وصل الأمر بهم إلى تأليه علي -رضي الله عنه-، كما فعل النصارى مع المسيح عليه السلام، وصاروا من الفرق الضالة.

وما زالت هذه النعرات والفجوات موجودة في الأمة لقلة الحرص على العلم النافع، وانصراف الناس عن حسن التأسي بالسلف الكرام مع ذهاب القدوة الصالحة، واشتداد النعرات الحزبية.

والتقليد هو أحد آثار التعصب الذميمة، والله عز وجل يقول: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] الآية. وأولو الأمر هم: العلماء والأمراء، والطاعة لأولي الأمر مقيّدة بالمعروف، فليست الطاعة في المعروف هي التقليد المُنهي عنه شرعاً، والذي هو قبول قول الغير بدون حجة، بل هي طاعة مقيّدة بالحجج من الكتاب والسنة.

ويزداد ظهور الاحتياج إلى أهل العلم وضرورتهم عند النوازل والأزمات فعندها يجب التزام غرضهم، ولا يجوز مخالفتهم والخروج عن أقوالهم بغير دليل واضح، فإن الخروج عليهم خروج عن الجماعة وإثارة للفتنة.

ولا مانع أن يُحب الرجل قومه وعشيرته دون أن يتعصب لهم تعصباً عرقياً أو طائفيّاً، وكذلك لا مانع أن يُحبّ شيخه وأستاذه الذي علّمه وأفاده ما دام على المذهب الحق، مع تجريد الولاء والبراء لله وحده، وتجريد المتابعة للرسول ﷺ، أمّا إن خالف شيخه الحق، فلا يجوز أن يكذب عنه بالباطل، وأن يُصر على ذلك، فإن هذا من عبية الجاهلية التي ليست من صبعة أهل السنة.

والتعصب ضد الحق إذا لم يكن عن جهل فإنه يكون عن هوى في النفس، كما هو صنيع أهل الأهواء من الصوفية والرافضة بالغلو في مشايخهم، وفي المقبورين من أهل البيت، فهم لا يقبلون كلمة حق في أنتمهم أبداً مهما جنتهم بالأدلة، فقد انغلقت قلوبهم على أن أنتمهم على الحق المُبين، لأنهم يعتقدون بعصمة الأئمة.

ثم إنه من حجج المتعصبين قولهم لمن جاءهم بالحجج والأدلة من كلام العلماء لن تكون أفقه من شيخنا أو أفهم منه لحجج العلماء؛ فمن قال هذا فانفض يدك منه، واعلم أنه من غلاة المتعصبين.

والبعض يعتقد أن تحذير العلماء من خطأ لشيخهم نابع عن وقية أحدثها البعض من الشيخ والعلماء، وكأنها خلافات شخصية، وكأن العلماء يغتابون الشيخ في عرضه وشخصه لا في منهجه.

وقد كان علماء الجرح والتعديل يقول أحدهم لصنوه في العلم: «ها بنا نغتاب ساعة»، أي يكلمون في رواة الأحاديث بقولهم: هذا كذاب، هذا مُدلس، هذا عنده أوهام... إلخ. وهي قاعدة ثابتة في السابقين واللاحقين لا تتغير بتغير الزمان، وتشمل رواة الحديث وغيرهم من أهل العلم والدعوة إذا خالف في أصول الاعتقاد والمنهج.

وهذا التراث العظيم من كلام أئمة الجرح والتعديل، وقواعد علوم الحديث هو الذي حفظ الله بسببه لهذه الأمة دينها الصحيح، ولولا ذلك لاندثر الحق -حاشا لله-.

ويجب على كل سلفي أن يتحرى الإنصاف، ولا تأخذه في الله لومة لائم، ولكن قد تتنازع الإنسان -لضعفه- عوامل أخرى تجعله يتردد في الحسم في الخلاف رغم علمه به، ومن هذه العوامل: أنه يستصعب تجريح شيخه فيما قد يكون خالفه من أصول المنهج الحق؛ حيث إن شيخه له سبق في الدعوة الخالصة لله، وقد هدى الله على يديه الكثيرين، ثم هو من تلاميذه وقد تعلم على يديه، فنصح لهؤلاء بالإنصاف ابتغاء وجه الله حتى يُعرف الحق ويُدحض الباطل، فيقبل المسلم الحق من شيخه ومن غيره من الأشياخ، ولندكر في ذلك ما كتبه المصنف -جزاه الله خيراً- من مقولة شيخ الفاضل صديق حسن القنوجي في كتابه «أبجد العلوم» (١/٣٦٢):

«وأهم ما يحصل لك أن تكون منصفاً غير متعصب في شيء من هذه الشريعة فلا تمحق بركتها بالتعصب لعالم من علماء الإسلام بأن تجعل رأيه واجتهاده حجة عليك وعلى سائر العباد، فإنه وإن فضلك بنوع من العلم وفاق عليك بمدرك من الفهم فهو لم يخرج بذلك عن كونه محكوماً عليه مُتَعَبِداً بما أنت متعبد به، بل الواجب عليك أن تعترف له بالسبق وعلو الدرجة اللائقة به في العلم مُتَعَبِداً أن ذلك هو الذي لا يجب عليك غيره ولا يلزمه سواه، وليس لك أن تعتقد أن صوابه صواب لك أو خطأه خطأ عليك بل عليك الاجتهاد^(١) والجد حتى تبلغ إلى ما بلغ إليه من

(١) بسؤالك لغيره من أهل العلم الكبار من أهل السنة والجماعة.

أخذ الأحكام الشرعية من ذلك المعدن الذي لا معدن سواه^(١)، والموطن الذي هو أول الفكر وآخر العمل، فإذا وطنت نفسك على الإنصاف وعدم التعصب لمذهب من المذاهب، ولا لعالم من العلماء فقد فزت بأعظم فوائد العلم وريحت بأنفس فرائده...» اهـ.

وقد ذكر المصنف كواشف المتعصبين، فوفق فيما ذكر، وكان مِمَّا ذكر: أن المتعصب لشيخه تمنعه عقيدته في شيخه من قبول الحق -ولو ظهر الدليل-، إذا كان هذا الحق مُخالفاً لما قرره شيخه، وقد يدعوه تعصبه لشيخه إلى المبالغة في تزييف هذا الحق، وإظهار إبطاله.

ومن هذه الكواشف: أن المتعصبين قد أوتوا الجدل بالباطل، مع المرء، والتزيد والتكلف والمخاصمة، ونقل المؤلف -جزاه الله خيراً- عن الحافظ ابن رجب رحمته الله ما قاله في «جامع العلوم والحكم» (ص ٤٣٢): «إذا كان الرجل ذا قُدرة عند الخصومة -سواء كانت خصومته في الدين أو في الدنيا- على أن يتنصر للباطل، ويخيل للسامع أنه حق ويوهن الحق، ويخرجه في صورة الباطل، كان ذلك من أفتح المحرمات، وأخبث خصال النفاق» اهـ.

وصدق ابن حبان لما قال في «روضة العقلاء» (ص ٧٩): «المرء أخو الشنآن كما أن المناقشة^(٢) أخت العداوة، والمرء قليل نفعه، كثير شره» اهـ.

وأورد المصنف -جزاه الله خيراً- عدة آثار ونقولات هامة في بيان منهج السلف الصالح في ترك مجادلة أهل الأهواء وعدم الدخول معهم في خصومات مبنية على المرء والتزيد والمغالبة، وحب الزعامة، ونصرة النفس دون الحق، مِمَّا يقسي القلب، ويزيد المرء بُعداً عن الصفاء والنقاء والمروءة والتقوى.

ويُنَّ أيضاً بجلاء ضوابط دخول العالم الرباني مع أهل الأهواء في مناظرة بقصد تجلية الحق، وإقامة الحججة ودفع الشبهة، وأردف هذا بذكر آداب الجدل بإيجاز غير مخل من خلال ما ذكره الخطيب في «الفقيه والمتفقه».

وأشار المؤلف أيضاً إلى أن من كواشف المتعصبين أنه مهما كنت مؤدباً في بيان خطأ الشيخ المتعصب له بالباطل، فلم تسبه بل بينت الحق بالدليل الصريح، فإن أتباعه المتعصبين له يمتقون

(١) وهو معين الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة.

(٢) أي: المناقشة في الحق الأبلج.

كلامك لمجرد بيانك خطأ شيخهم، وكأنهم يقولون: إن كلامك ثقیل، رغم أنه لا يعيبك شرعاً، لكن الموازين قد اختلت عند المتعصبين، وقد أحسن المؤلف -بارك الله في جهده- بالاستشهاد بكلام فضيلة الشيخ العلامة ربيع بن هادي -سلمه الله- الذي ذكره في كتابه «التعصب الذميمة وآثاره»، ثم زاد الأمر وضوحاً بذكر نصيحة فضيلته إلى طلبة العلم بمصر، والتي مؤداها نصيحة للعلماء وطلبة العلم أن يكونوا في غاية التقوى والمراقبة لله -سبحانه وتعالى-، والقيام بدينه عز وجل، مع تحري العدل والإنصاف في قضايا الخلاف، ونبذ التعصب للأشخاص والأهواء.

وأما عن حكم أهل العلم على المتعصب الذي يتبين له الهدى، ثم يتركه تقليداً وتعصباً أو بغضاً ومعاداة لأصحابه لمخالفتهم لشيخه، فهذا أقل أحواله أن يكون فاسقاً^(١) كما ذكر ذلك ابن القيم في «الطرق الحكيمة».

وجاء في قول بعض أهل العلم أن البدعة تكون إما لتعصب أو لسفه، وأقول: إن التعصب عن علم أشد وقعاً من التعصب عن سفه وقلة عقل^(٢).

وكذلك أبان المصنف عن جواز الإنكار بشدة على المتعصب بالباطل، والإصرار على وصفه بصفته، واحتج لذلك بقول أسيد -رضي الله عنه- لمن تعصب لابن أبي المنافق: «كذبت إنك منافق تُجادل عن المنافقين»، فيما نقله عن القاضي عياض من طرح الشريب للعراقي (٥١/٨).

ثم عرج المصنف -بارك الله في جهده- إلى ذكر عدد من آثار السلف في ذم التعصب بالباطل والنهي عنه، نحو قول معاذ -رضي الله عنه-: «وأحذركم زيغة الحكيم^(٣) فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق». إلى آخر الأقوال والآثار الهامة التي نقلها، والتي في الالتزام بها الشفاء من داء التعصب.

(١) فسق دون فسق.

(٢) وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم، وقد بلغ من سفه المتعصبين لأشياخهم بغير حق أنهم يرفضون ما جاء في مذهب غير مذهبهم، ولو كان عليه الأدلة تعصباً لآراء شيخهم مع أنهم يقولون عن أهل العلم: وكلهم من رسول الله ملتصق، فانظر إلى هذا التناقض وفقك الله.

(٣) قال العظيم آبادي في «عون المعبود» (٢٣٧/١٢): «زيغة الحكيم: أي انحراف العالم عن الحق، والمعنى: أحذركم مما صدر من لسان العلماء من الزيغة والزلة وخلاف الحق، فلا تتبعوه».

وأخيراً أجاد المصنّف أبو عبد الأعلى -سدد الله خطاه- حصر الآثار الوخيمة للتعصب الذمّيم، والتي من أخطرها اتباع منهج الموازنات الفاسد المناقض للشرع والفطرة ثم العقل، كما بيّن ذلك سماحة الشيخ الإمام عبد العزيز بن باز، والعلامة المحدث الألباني -رحمهما الله-.

ومن مساوئ التعصب الذمّيم أيضاً: التلبس بمنهج التميع للقضايا فلا تظهر لها حقيقة، والتنقص من أهل الحق المخالفين للشيخ المتعصب له، وبخس فضلهم، والتلفظ بعبارات سيئة طعنًا فيهم بغير حق ممّا يأنف منه اللبيب الرشيد.

هذا؛ وقد أثرت أن أجعل هذه المقدمة ملخصاً لمواضيع الكتاب، وإبرازاً للعناصر الرئيسة فيه لتكون عوناً للقارئ على تلمس أبعاد هذه القضية الخطيرة التي ناقشها الكتاب، وسوف يلحظ القارئ أيضاً أنني قمت خلال هذه المقدمة باقتباس بعض تعبيرات المصنف، وشيئاً كثيراً من استشهداته، حيث إنني لمستها تعبيرات سديدة واستشهادات جيدة ثبني -إن شاء الله- عن دقة العبارة عند المصنف وعن تمكنه من استخراج الشواهد الصائبة من كلام أهل العلم، وهاتان الصفتان تجتمعان بحول الله في العبد الموفق، وأحسبه كذلك؛ ولا نزكيه على الله وهو -إن شاء الله- جاد مُجتهد في الترقّي في مدارج العلم النافع -نفع الله به وزاده علماً-.

وقد قدّمت هذه المقدمة لهذا الكتاب الطيب وأوجهها كنصيحة لكل مسلم ومسلمة.
وصل اللهم على محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه فقير عفو ربه

حسن عبد الوهاب البنا

المدرس بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية وعضو التوعية الإسلامية بها (سابقاً)

(١٦) رجب (١٤٢٥هـ)، (٣١) من أغسطس (٢٠٠٤) ميت عقبة من أعمال الجيزة

ثم أعدت قراءة الكتاب بعد الإضافات الجديدة وقمت بتقيق المقدمة مع شيء من الزيادة، وانتهيت منها في عصر الجمعة (٢٨) من شعبان (١٤٢٩هـ)، (٢٩) من أغسطس (٢٠٠٨م).



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة فضيلة الشيخ

هشام بن موسى العارف المقدسي الفلسطيني

حفظه الله

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

نقول إننا على منهج النبوة والسلف؛ لأنه منهج رباني، موفق أتباعه للسعادة، ومنهـاج النبوة والسلف منهـاج الحجة والبيان، منهـاج الفطرة السوية وفيه كل أسباب الأمان، فمن كان على منهـاج النبوة والسلف كان على الحق، وكان على الجادة في عبادة ربه، ومن ترك منهـاج النبوة والسلف بعد العلم والبيئة كان على باطل في اعتقاده، وضلال في عبادة ربه. لذا فإن معرفة الحق تحتاج إلى إخلاص لله وعلم على بصيرة وصبر وثبات.

قال الإمام الأوزاعي رحمه الله:

(١) «اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح؛ فإنه يسعك ما وسعهم».

والحق نقيض الباطل، وأصل الحق: المطابقة والموافقة، والله تعالى حث على التمسك بالحق والتواصي به في سورة العصر فقال:

(٢) ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ [العصر: ٣].

وكان الصحابة -رضوان الله عنهم- يوصي بعضهم بعضاً بالصبر على الحق وطاعة الله. لذلك:

(٣) «كان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ»، ثم يسلم أحدهما على الآخر». [الصحيحه (٢٦٤٨)]
قال ابن تيمية رحمه الله:

(٤) «ولا يمكن للعبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن به، ويتنعم به، ويغتذي به، وهو اليقين». [مجموع الفتاوى (١٢١/٢٨)]

ويحتاج الثبات على الحق للصبر، فإذا صبر الأمر بالحق صار إلى كمال الريح، لذا كان التواصي بالصبر عقب التواصي بالحق في سورة العصر، وليعلم السامع أن بعض هذه الأمة يبقى على الحق أبداً، صرح بذلك النبي ﷺ في أكثر من حديث صحيح.
إن التمسك بالحق في الناس أمر عزيز، كذلك الصبر من أجل الثبات على الحق أيضاً عزيز، وإن التكذيب بالحق خسران في الدنيا والآخرة، ويورث في الدنيا الفوضى، والاضطراب، واختلاط الأمور، لأنه منافٍ للفطرة، فالناس فطروا على محبة الحق وإرادته، كما قال ابن تيمية رحمه الله:

(٥) «والقلب خلق يحب الحق ويريده ويطلبه». [مجموع الفتاوى (٨٨/١٠)]
والوقوع بجريمة تكذيب الحق الذي مصدره التعصب المقيت تحريف للفطرة السليمة، وبالتالي الدخول بالعبيثة المرفوضة، لأن الكذب على الحق، أو التكذيب بالحق تحطيم للمجتمع، وتهيج للضلال، وتثوير للباطل، كما قال تعالى في سورة (ق):

(٦) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [ق: ٥].

يعني: لما تركوا الحق وعدلوا عنه، تعصباً لاعتقاداتهم الضالة، مرج عليهم أمرهم والتبس، وهذا عقاب من تفلت من اتباع الحق، أو صد عنه، فأصحاب هذا المسلك المشين لا يدرون ما يقولون وما يفعلون، قال ابن القيم رحمه الله:

(٧) «بل لا يقولون شيئاً إلا كان باطلاً، ولا يفعلون شيئاً إلا كان ضائعاً غير نافع لهم، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل إلى المقصود». [التبيان في أقسام القرآن (٧٥/١)]
 والتعصّب للعقائد، أو التعصّب للمذاهب، أو التعصّب للأحزاب، أو التعصّب للأشخاص
 نقبض الحق؛ لأن سبيل الذي على الحق خلاف سبيل المتعصّب؛ ذلك لأن الذي على
 الحق متبع على بصيرة، وسبيل المتعصّب اتباع الهوى، فالمتعصّب مقلّد أعمى لا يحسب
 للنتائج حساباً ولا يرصد لأفعاله ما سيقع فيه من الويلات والنقم، وشتان بين الذي في النور
 والذي في الظلام.

والمتعصّب حين يواجه الدعوة الصحيحة ويصر على ضلاله في التعصّب يتحمل إثم
 فعله في الدنيا، وسيلقى جزاء فعله عذاباً في الدنيا وعذاباً في الآخرة؛ لتعصّبه واستكباره عن
 الحق، وأول هذا العقاب هو رؤيته الحق باطلاً، والباطل حقاً، كما قال تعالى في سورة الأعراف:
 (٨) ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَكْذِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَغْيِرُ الْحَقَّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّآيَةً لَا يُؤْمِنُوهَا وَإِنْ
 يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا
 عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

إن موضوع التعصّب الذي أفرد له فضيلة الشيخ أبو عبد الأعلى خالد بن محمد بن
 عثمان المصري -أعلى الله تعالى مراتبه في الآخرة-، والذي خصّ بحثه في التعصّب
 للشيوخ فكان موضوعاً ذا أهمية؛ في وقت صار تقليد حدثاء الأسنان للأصاغر سنة في
 زمن الفتن، فإلى الله المشتكى مما عمّت به البلوى في بلادنا، فقد طار إلى هذا التعصّب
 المقيت الشباب -إلا من رحم ربي- بسبب ضعفهم العلمي أو بسبب ضعف صدق اتباعهم
 للحق، وقد يكون من الأسباب المهمة في تعصّب المغفلين لشيخوهم هو خطة المشيخة
 السيئة في تعليق من أراد الانتساب إلى شرع الله بشيوخهم دون تعليقهم بالحق، وهذه آفة
 خطيرة وهي فعل أهل البدع والضلالات وديدن الصوفية الطرقية الضالة، التي حوّلت
 تلاميذها إلى مريدين ضائعين لاهتين وراء مشايخهم بالتقليد الأعمى والتعصّب المقيت،
 وقد حدّر العلماء من العصبية على شتى ألوانها وأشكالها في كل وقت وزمن، وحدّروا

من شناعة التعصّب للشيوخ؛ لأنه خلاف الحق ونقيضه، ولم تكن تربية النبي ﷺ لأصحابه -رضوان الله عنهم- إلا تربية سوّية تلائم الفطرة، وتحبب في الحق، وتعنتي بالنفس أن تبقى زكية نظيفة من أدران التعلّق بالأشخاص، أو التعصّب لأي فرد كان.

لكن يبدو لي -في الوقت الحاضر- أن صناعة التعليق بالأشخاص لدى الشيوخ والدعاة لم تقف عند الصوفية الطرقية بكافة أشكالها وأطيافها بل امتد إلى جهات أخرى فتلمذت تلاميذها أن يصير الواحد منهم مريداً طائعاً أعمى، ومقلداً مفلساً من البصيرة، ترفع رايات الدين -بشعارات براقة- وتسعى إلى تعليق الشباب بشخصها من أجل السير بهم إلى دروب مظلمة من الأوهام والأباطيل والأمانى الفارغة لإشباع أهوائهم، وقد استغلوا هؤلاء الأحداث لاندفاعهم وحماستهم فأوردوهم الردى وقتلوهم بأفة التعصّب، وبالتالي فإن هؤلاء ضحايا التعصّب يتحولون في المجتمع إلى آفات خطيرة تعصف به وتضرب في ثناياه ضرباً يحملهم إلى شن هجوم عنيف على الحق وأهله، إذا خولف شيخهم أو انتقد؛ لأنهم يرون في النهاية أن الحق يمزق وثن تعصّبهم وضلالهم ويحول بينهم وبين آمالهم للحصول على ما يخططون له من خلال نظرته إلى من حولهم بمنظار التعصّب الذميمة الذي ربّاهم عليه شيخهم.

فأجاد فضيلة الشيخ أبو عبد الأعلى -حفظه الله- في عرض موضوع التعصّب للشيوخ ونبه على خطورة يقع فيها الشباب المعاصر، ونقل من أقوال العلماء، وبوّب للبحث ما يسهل للباحث أن يتعقب تحذيره من هذا اللون من التعصّب حتى يكون الشباب على بصيرة من هذا الداء العضال الذي يكاد يفتك بالأمة بسبب حماقة المنتسبين إلى المشيخة، أو المنتسبين إلى الاشتهار للعمل في حقل الدعوة -تزييفاً- الذين مكثوا الشباب من شخوصهم بدلاً من أن يمكنوهم من معرفة الحق ومحبهه والتمسك به وأن يكونوا على بصيرة من دينهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

(٩) «وليس للمعلمين أن يحزبوا الناس ويفعلوا ما يلقي بينهم العداوة والبغضاء، بل يكونون مثل الأخوة المتعاونين على البر والتقوى كما قال تعالى:

(١٠) ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

وليس لأحد منهم أن يأخذ على أحد عهداً بموافقته على كل ما يريده، وموالاته من يواليه، ومعاداة من يعاديه، بل من فعل هذا كان من جنس جنكيزخان وأمثاله الذين يجعلون من وافقهم صديقاً ولياً، ومن خالفهم عدواً بغيضاً، بل عليهم وعلى أتباعهم عهد الله ورسوله، بأن يطيعوا الله ورسوله، ويفعلوا ما أمر الله به ورسوله، ويحرموا ما حرم الله ورسوله، ويرعوا حقوق المعلمين كما أمر الله ورسوله، فإن كان أستاذ أحد مظلوماً نصره، وإن كان ظالماً لم يعاونه على الظلم بل يمنعه منه كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ، أنه قال:

(١١) «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» [صحيح الجامع (١٥٠٢)]

وقال:

(١٢) «وإذا وقع بين معلم ومعلم، أو تلميذ وتلميذ أو معلم وتلميذ خصومة ومشاجرة، لم يجز لأحد أن يعين أحدهما حتى يعلم الحق، فلا يعاونه بجهل ولا بهوى، بل ينظر في الأمر فإذا تبين له الحق أعان المحق منهما على المبطل سواء كان المحق من أصحابه أو أصحاب غيره، وسواء كان المبطل من أصحابه أو أصحاب غيره، فيكون المقصود عبادة الله وحده، وطاعة رسوله، واتباع الحق والقيام بالقسط». قال تعالى:

(١٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّا أَوْ نَعَرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا نَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

يقال: لوى يلوي لسانه فيخبر بالكذب والإعراض أن يكتم الحق، فإن الساكت عن الحق شيطان أخرس، ومن مال صاحبه سواء كان الحق له أو عليه فقد حكم بحكم الجاهلية وخرج عن حكم الله ورسوله، والواجب على جميعهم أن يكونوا يداً واحدة مع المحق على المبطل، فيكون المعظم عندهم من عظمه الله ورسوله، والمقدم عندهم من قدمه الله ورسوله، والمحبوب عندهم من أحبه الله ورسوله، والمهان عندهم من أهانه الله ورسوله، بحسب ما يرضي الله ورسوله لا بحسب الأهواء فإنه من يطع الله ورسوله فقد

رشد، ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه، فهذا هو الأصل الذي عليه الاعتماد وحينئذ فلا حاجة إلى تفرقهم وتشيعهم، قال تعالى:

(١٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال تعالى:

(١٥) ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. انتهى كلام ابن

تيمية رَحِمَهُ اللهُ، [مجموع الفتاوى (١٥/٢٨ - ١٧)]

ولا شك أن المتعصب يوم القيامة سيلقى الندم بسبب جرم التعصب، قال تعالى في سورة الفرقان:

(١٦) ﴿وَيَوْمَ يُعْزِزُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيِّنُنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سِيلًا﴾ (١٧) ﴿يَوْلَتْنِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا﴾ (١٨) ﴿لَقَدْ أَخْلَنَنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

ولا شك أن التفرق الذي تقع فيه الأمة وحذر منه المصطفى ﷺ ظلم سببه التعصب، وافترق التعصب بعيداً عن الحق إلى فرق شتى، فوقع البغض في الأمة ووقعت الفرقة فاستحقت مقت الله، فالعصبية الدينية المخالفة للكتاب والسنة ممقوتة، والعصبية القومية والبلدية على شتى أشكالها وألوانها ممقوتة، والعصبية المذهبية ممقوتة، والعصبية القبلية ممقوتة، والعصبية العشائرية ممقوتة؛ لأنها كلها دعوات جاهلية منتنة أنكرها النبي ﷺ، ولن تكتب النجاة إلا لمن لزم الحق وابتعد عن هوى التعصب.

ولا بد أن يكون لنا من الصحابة -رضوان الله عنهم- العبرة في التبرؤ من العصبية فقد روى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمر أنه لما بلغه خبر الذين نفوا القدر قال:

(١٧) «فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل منه حتى يؤمن بالقدر».

والنبي ﷺ أمر بقتل الخوارج لتعصبهم لضلالهم، وانتقاصهم الصحابة، فقد حملهم شدة تعصبهم إلى تأويل النصوص تأويلات فاسدة بعيدة كل البعد عن الهدى، بل يستبيحون بتأويلاتهم الضالة تكفير المسلمين ويستحلون دماءهم بالقتل والتفجير، وحمل العلماء على

أهل البدع والخرافات، وحملوا على علم الكلام، وحملوا على من تعصّب للفلاسفة، ولا شك أن المبتدعة على شتى أطرافهم لشدة تعصّبهم لا يفلحون - إلا من رحم ربي - بالتوبة مصداقاً لقول النبي ﷺ:

(١٨) «إن الله احتجز التوبة عن كل صاحب بدعة». [الصحيح (١٦٢٠)]

وفي رواية - صحيحة -:

(١٩) «إن الله حجب التوبة عن صاحب كل بدعة». [صحيح الترغيب والترهيب (٥٤)]

فصاحب البدعة منازع لله في الحكم، فحري به أن لا يوفق للتوبة؛ لأنه متعصّب لما هو خلاف السنة والحق، فليس من السهل عليه أن يتوب من بدعته، لأن المبتدع الذي يتخذ ديناً لم يشرعه الله ولا رسوله، يكون متعصّباً قد زُين له سوء عمله فرآه حسناً، كما قال الله تعالى في سورة فاطر:

(٢٠) ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا...﴾ [فاطر: ٨].

قال الشيخ العلامة ربيع المدخلي - حفظه الله -:

(٢١) «فالذي يلزمنا معشر الإخوة أن نفتش أنفسنا، فمن وجد في نفسه شيئاً من هذا المرض؛ فعليه أن يتدارك نفسه، ويقبل على العلاج الناجع، ويبحث دائماً على الحق؛ لينجو بنفسه من وهدة التعصّب الأعمى الذي قد يؤدي إلى الشرك بالله - تبارك وتعالى - أو يؤدي إلى الضلال الخطير». [التعصّب الذميمة وآثاره، (ص ٤٦)]

من المفاسد التي أنتجها بلاء التعصّب وترك لزوم الحق ما أشار إليه العلامة شيخنا ربيع المدخلي - حفظه الله - في «التعصّب الذميمة» (أذكر لك عناوينها):

- ١) مخالفة النصوص الثابتة من الكتاب والسنة.
- ٢) كثرة الأحاديث الضعيفة والموضوعة والاحتجاج بها.
- ٣) تقديم أقوال العلماء المتأخرين على أقوال الأئمة المتقدمين.
- ٤) الانحياز في مذهب واحد.
- ٥) خلو كثير من الكتب المذهبية من الأدلة الشرعية.

٦) شيوع التقليد والجمود.

٧) التشدد في بعض المسائل. [التعصبُ الذميمة وآثاره]

* وأضيف إليها:

١) التعلق بالكتب الفكرية القومية والسياسية.

٢) الانتصار للأصاغر وترك الأكابر.

٣) الحماسة والاندفاع والمسارعة للفتوى قبل التضلع بالعلم الشرعي.

٤) الكذب والمخادعة والابتداع.

٥) الخصومات من غير حجة علمية.

هذا، وإن من أسوأ ما خلفه بلاء التعصب بشكل عام محاربة شرع الله تعالى، وهناك فرق في أمة محمد ﷺ لتعصبهم لأقوال أئمتهم المخالفة لشرع الله هددوا أهل السنة ومحبيها - بسبب اتباعهم الحق - بالقتل، أو تتبعوهم حتى أخرجوهم من ديارهم، وما سبب ذلك إلا لتولد الدخن الذي افتعله داء التعصب.

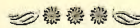
وفي ختام تقريري لكتاب فضيلة الشيخ أبي عبد الأعلى خالد بن محمد بن عثمان المصري - حفظه الله -، وثبتنا وإياه على الحق -، والذي سمّاه: «التعصب للشيوخ»، فإنني أشكره على هذا التأليف الماتع، وأسأل الله تعالى أن يمكنه دائماً وأبداً النصح للشباب المسلم أن يكونوا أتباعاً للحق الذي يُعرف من الكتاب العزيز والسنة الصحيحة وفق فهم السلف الصالح.

وكتبه

هشام بن فهمي بن موسى العارف

رئيس لجنة الدعوة السلفية بالمركز العلمي للدراسات المنهجية - رام الله - القدس

(١١/٨/١٤٢٩هـ) الموافق (١٣/٨/٢٠٠٨)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن خير الحديث كلام الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكلُّ محدثة بدعة، وكلُّ بدعة ضلالة.

وبعد:

فإن التعصُّب للشيخ -أي المعلم أو المتبوع- وتقديسه^(١) داءٌ عضالٌ دبَّ في أوصال الأمم السابقة ثم سرى في هذه الأمة، ومزق شمل أجيال بعد أجيال، وحاد بفئام من الناس عن طريق الجادة والصواب.

وترى هذا الداء الوبيل نابعا -في كثير من الأحيان- من عاطفة مشوبة بالهوى يحملها

(١) أي: تقديس آرائه وفهمه للدين، فضلا عن تقديس شخصه.

المتَّبِعون تجاه متبوعهم، وهذه العاطفة هي محبة هذا المتبوع محبة تقديس وإجلال تصل في أقصى درجات الغلو إلى اعتقاد ألوهية هذا المتبوع مثلما اعتقد النصارى في المسيح عليه السلام، وبدرجة أقل في الغلو إلى اعتقاد عصمة هذا المتبوع، وعدم قبول وقوع الخطأ منه.

وفي درجة مقارنة لسابقتها: يصير الشيخ المتبوع معظماً مقدساً، وإن لم يعتقدوا عصمته، لكن لا يقبلون أن يُنتقد أو أن يُخطأ بأي حال، حتى وإن وافقك البعض منهم على تخطئته، فإنهم يعتذرون له بشتى الأعذار الغير مقبولة^(١)، ولا يقبلون أن يُحذر من خطئه صيانة لمكانته، وخوفاً من غضبه^(٢)، وإبقاء لمودته، وهذا من رواسب تقديس الأحبار والرهبان. بل يتهمون من يبين خطأه أنه صاحب نية فاسدة، وأنه يريد هدمه، أو يريد التسلق على أكتافه، والشهرة على حساب عرضه.

ولا سيما لو وقع على هذا الشيخ ظلم، أو اضطهاد، تزيد عاطفة متبعية له، ويرفعونه إلى مرتبة عالية، قد تضاهي مرتبة الأنبياء، أو الأولياء، ويتغافلون عن أخطائه أو عن زيغه عن الحق المبين، ومن ثمَّ ينشرون آثاره -بما فيها من زيغ-، ولا يقبلون تحذير محذّر من هذا الزيغ، ويغمطون الناصحين لهم أيّما غمط.

وهذا الارتباط الوجداني العاطفي بالشيخ المعلم وضع بدوره في هذه الأمة الصوفية، ويظهر هذا في مقولة أبي حامد الغزالي في الإحياء (٦٥/٣): «فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة»^(٣)... فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طريقه لا محالة».

ووضع الصوفية ضوابط علاقة المريد بشيخه، والتي تجعل هذا الشيخ في مرتبة تصل إلى تفضيل كلامه على سُنّة النبي ﷺ، وقد تصل إلى مرتبة الشرك في الطاعة لله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿أَتَعْبُدُونَ أَجْبَارَهُمْ وَرُءُوسَهُمْ أَرْكَابًا وَنُؤِيبَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

فتحس أن هذا التعصب، وأن هذه الحزبية، كأنهما قد استمداً أصولهما من الوثنية

(١) وإن كانت مقبولة في نظرهم.

(٢) الذي ربما يؤدي إلى غضب الله عليهم.

(٣) وهذا لا بأس به إذا كان شيخه يلتزم بالكتاب والسنة بفقهِه سلف الأمة، على أن لا يقتدي بقول شيخه المخالف للدليل.

القديمة المتمثلة في تقديس الصالحين والزعماء ورفعهم إلى مرتبة القداسة الإلهية؛ ومن هذه الوثنية اليونانية والإغريقية والبوذية استمدت الصوفية أصولها.

حقاً إن تقديس الرجال داءً عضال قد فتك بالأمم السابقة ومزّقها كل ممزق، ثم سرى مفعوله في هذه الأمة قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل حتى قطعها شيعاً وأحزاباً متناحرة.

ونحن ما نزال نعاني من هذه الأحزاب المتناحرة والجماعات البدعية التي مزّقت الأمة وفرّقت الدعوة، إذ بنا نفاجأ بهذا الداء الويل الذي قد يصيب بعض المنتسبين ظاهراً إلى دعوة الحق - الدعوة السلفية -^(١).

وفي هذا الجزء سوف نحاول كشف اللثام عن هذا الداء، وبيان طرائق علاجه، لعلّ الله سبحانه يصلح الأحوال وتزول هذه الفتنة، أو تنحسر في أضيق الحدود. وقد بدأت في كتابة هذا البحث بعدما ابتليت بطائفة من هؤلاء المتعصّبين، وأوذيت منهم أشد الأذى، وعانيت بنفسى خطورة هذا الداء، وليس المخبر كالمعاین. ولقد اصطّلع بعض أهل العلم على تقسيم القائمين على دعوة الناس، وتعليمهم إلى ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: طبقة العلماء الكبار.

الطبقة الثانية: طبقة طلبة العلم.

الطبقة الثالثة: طبقة مَنْ هم ليسوا من طلبة العلم، إنما هم من العامة المحبين لأهل العلم وطلّبتهم، فتتلمسهم في مجالس العلم طالبين مجالسة القوم الذين لا يشقى بهم جليسهم، وفي الوقت نفسه يسعون مع ضعف حصيلتهم إلى تبليغ ما وصل إليهم من الهدى. وكما قال الشافعي رحمته الله في الرسالة (٤٤): «والناس في العلم طبقات».

وقال مسلم في مقدّمة صحيحه: «وفي مثل مجرى هؤلاء إذا وازنت بين الأقران كابن

(١) وسرعان ما يذوب هذا الانتساب الظاهري للسلفية في بوتقة هذا التعصّب، ويتحول هذا المتعصّب إلى حزبي جلد يناطح السلفيين - إلا من تداركه الله برحمته وقبّل النصح فترك هذا التعصّب المقيت -.

عون وأيوب السخيتاني مع عوف بن أبي جميلة وأشعث الحمراني وهما صاحبا الحسن وابن سيرين، كما أن ابن عون وأيوب صاحباهما إلا أن البون بينهما وبين هذين بعيد في كمال الفضل وصحة النقل وإن كان عوف وأشعث غير مدفوعين عن صدق وأمانة عند أهل العلم، ولكن الحال ما وصفنا من المنزلة عند أهل العلم، وإنما مثلنا هؤلاء في التسمية ليكون تمثيلهم سمة يصدر عن فهمها من غبي عليه طريق أهل العلم في ترتيب أهله فيه، فلا يقصر بالرجل العالي القدر عن درجته، ولا يرفع متضع القدر في العلم فوق منزلته، ويعطى كل ذي حق فيه حقه وينزل منزلته، وقد ذكر عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم. اهـ

ولقد تركزت غالب طبقة العلماء في السنوات القليلة في بلاد الحرمين: المملكة العربية السعودية - حرسها الله -^(١)، وبات كثير من البلدان الإسلامية يخلو من علماء كبار إلا القليل، وصار الوضع في هذه البلدان أن يلتفت أهل الطبقة الثالثة في هذه البلاد حول طالب علم متمكن ممن أجيز من قبل العلماء للدعوة والتعليم.

وإلى هذا الحد يعتبر الأمر مقبولا، لكن الذي حدث أن بعض أهل الطبقة الثالثة في بعض البلاد صارت عَصَبَة لهذا المعلم - الذين التفوا حوله - توالي فيه وتعادي من أجله، وتحمل نحوه عاطفة عمياء، وكأنها أعطته بيعة خفية بالسمع والطاعة والمناصرة في الصواب والخطأ.

فهو عندهم الشيخ المقدم الذي عن طريقه يفهمون كلام العلماء الكبار من السابقين واللاحقين، ولا يقبلون فهما إلا فهمه، ومن ثم إذا أطلقوا لفظ «الشيخ» في كلامهم كان المقصود به شيخهم.

وهذه مذهبية حديثة وحزبية مستترة، تحمل نذير خطر.

فإذا صدر من هذا الشيخ المتعصب له مخالفة ظاهرة للحق، لم تجد من هؤلاء المتعصبين إلا الخزي والخذلان للحق وأهله، والتحامى في الدفاع عن شيخهم بالباطل،

(١) وقال العلامة الألباني - رحمه الله -: «الآن في السعودية - في وجهة نظرنا - الدولة الوحيدة التي تنبئ في علم علمائها مبدأ العقيدة الإسلامية الصحيحة». (درس ٧٣٧ من سلسلة الهدى والنور).

وغض الطرف عن المخالفة، مع الجور والحيث... إلخ ما سوف يأتي بيانه -إن شاء الله- في هذا الكتاب.

وقال الشوكاني رحمه الله في «البدر الطالع» (٤٧٢/١) في ترجمة (علي بن قاسم حنش)^(١): «ومن محاسن كلامه الذي سمعته منه: الناس على طبقات ثلاث:

فالطبقة العالية: العلماء الأكابر وهم يعرفون الحق والباطل، وإن اختلفوا لم ينشأ عن اختلافهم الفتن، لعلمهم بما عند بعضهم بعضاً.

والطبقة السافلة: عامة على الفطرة لا ينفرون عن الحق وهم أتباع من يقتدون به إن كان محققاً كانوا مثله، وإن كان مبطلاً كانوا كذلك.

والطبقة المتوسطة: هي منشأ الشر وأصل الفتن الناشئة في الدين، وهم الذين لم يمعنوا في العلم حتى يرتقوا إلى رتبة الطبقة الأولى، ولا تركوه حتى يكونوا من أهل الطبقة السافلة.

فإنهم إذا رأوا أحداً من أهل الطبقة العليا يقول ما لا يعرفونه مما يخالف عقائدهم التي أوقعهم فيها القصور فَوَقُّوا إليه سهام التقرع ونسبوه إلى كل قول شنيع وغيره فطر أهل الطبقة السفلى عن قبول الحق بتمويهات باطلة، فعند ذلك تقوم الفتن الدينية على ساق، هذا معنى كلامه الذي سمعناه منه.

وقد صدق، فإن من تأمل ذلك وجده كذلك». اهـ

قلت: ومن هذه الطبقة المتوسطة يخرج أهل التعصّب والهوى، والذين هم على تقسيمنا السابق من أهل الطبقة الثالثة.

(١) قال الشوكاني: «وُلِدَ في شهر محرم سنة (١١٤٣)، ونشأ بوطنه ذيبين، ثم ارتحل إلى كوكبان وقرأ على علمائها، ثم وصل إلى صنعاء وأخذ عن أهلها، وتردد في الديار اليمنية، حتى عرف أكثرها أو كلها، واختبر بأهلها خاصتهم وعامتهم...».

ثم قال: «وله اتصال بأكابر الناس وأصاغرهم قد استوت لديه طبقاتهم، كما استوت لديه الشدة والرخاء، والإقبال والإدبار، والمحبوب والمكروه، قد رأى نفسه أميراً، كما رآها فقيراً، ورآها تارة في اليفاع، وتارة في أخفض البقاع...». إلى أن قال: «ثم مات -رحمه الله تعالى- في شهر محرم سنة (١٢١٩هـ)». اهـ

واعلم -فهمك الله- إن لقب «الشيخ» -كمرتبة علمية- لا يستحقه إلا من بلغ مرتبة في العلم أو السن أو الشرف، كما سئل الشيخ ابن عثيمين رحمته الله: هل يصح أن تطلق كلمة الشيخ لكل أحد من الناس، ولا سيما أن هذه الكلمة أصبحت متفشية، فأرجو توضيح ذلك؟

الجواب: «كلمة شيخ في اللغة العربية لا تكون إلا للكبير، إما كبير السن، أو كبير القدر بعلمه أو ماله أو ما أشبه ذلك، ولا تطلق على الصغير، لكن كما قلت: تفشت الآن حتى كاد يلقب بالشيخ من كان جاهلاً أو لم يعرف شيئاً، وهذا فيما أرى لا ينبغي؛ لأنك إذا أطلقت على هذا الشخص كلمة شيخ وهو جاهل لا يعرف اغتر الناس به، وظنوا أن عنده علماً، فرجعوا إليه في الاستفتاء وغير ذلك، وحصل بهذا ضرر عظيم، وكثير من الناس -نسأل الله لنا ولهم الهداية- لا يبالي إذا سئل أن يفتي ولو بغير علم، لأنه يرى إذا قال: لا أدري؛ كان ذلك نقصاً في حقه، والواقع أن الإنسان إذا قال فيما لا يعلم: لا أدري، كان ذلك كملاً في حقه، ولكن النفوس مجبولة على محبة الظهور إلا من عصم الله عز وجل، فالذي أرى: أنها لا تطلق كلمة شيخ إلا على من يستحقها، إما لكبره، أو لشرفه وسيادته في قومه، أو لعلمه، وهذا كما كان بعض الناس الآن يطلق كلمة إمام على عامة العلماء، حتى وإن كان هذا العالم من المقلدة يقول: هو إمام، وهذا أيضاً لا ينبغي، ينبغي ألا تطلق لفظ إمام إلا على من استحق أن يكون إماماً، وكان له أتباع^(١)، وكان معتبراً قوله بين المسلمين...»^(٢) اهـ.

لكن المتعصبين في كل زمان ومكان -في واقع أمرهم- يعتبرون معلّمهم ومربيهم هو: «الشيخ» عندهم -وإن كان صاحب بدعة-، أو أنه هو شيخهم اعتباراً للعرف السائد أحياناً بأن من تعلّم علماً -وإن كان دنيوياً- على يد شخص ما، قيل: إن هذا الشخص هو شيخه في هذا العلم، بغض النظر عن حال هذا الشيخ من ناحية موافقة السنة والمرتبة العلمية،

(١) متبعون لا مقلّدون.

(٢) لقاء الباب المفتوح [١١٧] مع فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين -رحمه الله تعالى- التفريغ منقول من موقع الشبكة الإسلامية بواسطة سحاب.

بل إن أصحاب الطرق الصوفية يقال عنهم «شيوخ» في عُرف أتباعهم، وهكذا، ومن الأمثال السائرة للمتصوفة: «كَلَّ شيخ وله طريقة».

ومهما كان فإن إطلاق لقب: «الشيوخ» على هؤلاء المتعصب لهم هو باعتبار حال أتباعهم، لا باعتبار حقيقة أمرهم، فهؤلاء الشيوخ قد يكونون من العلماء الكبار، وقد يكونون من طلبة العلم، وقد يكونون من أهل الأهواء؛ فنحن نخاطب هؤلاء الأتباع بما استقر في عُرفهم واصطلاحهم مراعاة لواقع أمرهم، لعلهم يقبلون النصح.

واعلم -رحمك الله- أن التعصب داء خبيث ينتشر عن طريق المصاحبة والمجالسة، فإذا رأيت الشاب في أول نشوئه يجالس المتعصبين من أهل الأهواء ويميل قلبه إليهم فايتس منه^(١)، والأمر كما قال عبد الله بن شوذب: من نعمة الله على الشاب إذا تنسك أن يوافي صاحب سنة يحمل عليه^(٢)، وقال أيوب: إن من سعادة الحدث والأعجمي أن يوفقهما الله لعالم من أهل السنة^(٣)، وقال عمرو بن قيس الملائي: إذا رأيت الشاب أول ما ينشأ مع أهل السنة والجماعة فارجه، وإذا رأيته مع أهل البدع فايتس منه، فإن الشاب على أول نشوئه^(٤).

ويجب أن يُعلم أن العلماء السلفيين الكبار، وطلبة العلم والدعاة السائرين على نهج السلف الملازمين غرز العلماء، إن تعصب لهم أحد وأقرهم على أخطائهم فهم برآء من إقرار هذا التعصب، ولا يرضون صنيع المتعصبين تجاههم -إن وُجد-، مثلما كان المسيح عليه السلام بريئاً من تعصب النصارى، ومثلما كان أمير المؤمنين علي -رضي الله عنه- بريئاً من تعصب الشيعة الروافض؛ لذلك فإن هؤلاء المتعصبين من الباغيين البراء الغنت، كما قال الإمام

(١) ولا مانع من مناصحته بين الحين والحين، على حسب ما تقتضي المصلحة.

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة (١/ ٢٠٤) (٤٣) قال: أبو بكر عبد الله بن سليمان بن الأشعث -وهو

ابن الإمام أبي داود: حافظ رحالة- قال: ثنا أبو عمير النحاس -ثقة فاضل-، قال: ثنا ضمرة -وهو

ابن ربيعة الفلسطيني: صدوق يهيم قليلاً-، عن ابن شوذب -وهو صدوق عابد-؛ فهذا إسناد حسن.

(٣) أخرجه اللاكائي في شرح أصول الاعتقاد (٣٠).

(٤) أخرجه ابن بطة في الإبانة (١/ ٢٠٥) (٤٤).

البخاري رحمه الله في الأدب المفرد (٣٢٢): حدثنا مُسَدَّد، ثنا بشر بن المفضل، ثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قالت: قال النبي ﷺ: «ألا أخبركم بخياركم؟» قالوا: بلى، قال: «الذين إذا رؤوا ذُكِرَ الله، أفلا أخبركم بشراركم؟» قالوا: بلى، قال: «المشاةون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون البراء العنت»^(١).

ومما لا ريب فيه أن التعصب للأئمة هو داء قديم جذوره، كما قال العلامة المحدث مقبل بن هادي رحمه الله في كتابه «إقامة البرهان على ضلال عبد الرحيم الطحان» (ص ١٠): «فأهل العلم يتوجعون من هذه التعصبات من زمنٍ قديم حتى قال نشوان الحميري متوجعاً من أهل عصره، ومن تقليدهم الهادي المقبور بصَّعدة:

إذا جادلت بالقرآن خصمي أجاب مُجادلاً بقول يحيى
فقلت كلام ربك عنه وحي أتجعل قول يحيى عنه وحيًا

فالتعصب منبوذ....» - إلى أن قال -: «ورب العزة يقول في كتابه الكريم: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ونحن لا نتكلم في الأئمة بل نتكلم في التعصب الأعمى» اهـ.

قلت: وقد صدق أبو نعيم رحمه الله حينما قال في الحلية (١١/٩): «قاتل الله التعصب ما أشنع إفساده».

ونذير الخطر على الدعوة السلفية الذي أشرت إليه آنفاً، هم هؤلاء الذين يعدون من طلبة العلم ممن لم يبلغوا مرتبة العلماء الكبار، ثم صار لهم أتباع وشوكة من الشباب والعامّة، فإذا بهم يغترون بهذه العُصبة التي التفت حولهم ويظنون أنهم قد أوتوا القوة على مناطق العلماء الكبار؛ فخالفوا العلماء الكبار بلا دليل ولا بُرهان، واستنفروا هذه العُصبة كي يتحاموا في حماية بيضتهم من سهام أهل الحق.

(١) وأخرجه أحمد في مسنده (٤٥٩/٦)، وإسحاق بن راهويه (١٨٠/٥)، وعبد بن حميد (١٥٨٠)، وابن أبي الدنيا في الصمت (٢٥٥)، والطبراني (١٦٧/٢٤) من طريق ابن خثيم به، وإسناده حسن.

وعلى الجانب الآخر؛ نجد طائفة الحدادية التي تسعى لإسقاط العلماء الكبار باسم التحذير من أهل البدع، ويلبسون على الأغمار المتعصبين لهم بأن غرضهم هو إنكار البدع، فشعار هؤلاء: كل من وقع في بدعة -كائنًا من كان- فهو مبتدع يجب التحذير منه وهجره، ولا تجوز مجالسته أو السلام عليه -عالمًا كان أو جاهلاً، مُخاصمًا كان أو ساكتًا- بغير مراعاة مصالح أو مفاسد في الهجر والتحذير، وقد صوّبوا سهام الغدر بادي الرأي في نحور الأئمة السابقين ممن تلبس بعضهم بشيء من الأشعرية نحو ابن حجر والنووي والقرطبي -رحمهم الله-، ثم إذ بهم ينتقلون إلى أئمة كبار ممن لهم قدم صدق في الانتصار للمنهج السلفي مثل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وفي النهاية يصلون إلى مرادهم الحقيقي وهو إسقاط العلماء السلفيين المعاصرين أمثال المشايخ: ابن باز، والألباني، وابن عثيمين، ومقبل بن هادي، وصالح الفوزان، وربيعة بن هادي، وأحمد النجمي، وعبد المحسن العباد، وغيرهم من أهل العلم -رحم الله الأموات منهم، وحفظ الأحياء-، وذلك حتى يتسع لهم المجال لنشر أهوائهم دون أن يجدوا أي معارضة من هؤلاء العلماء.

ومن أخطر صفات الحدادية -ومن شائبهم- أنهم مولعون بالخلاف وبالانتصار للنفس الباطل، ويصدق عليهم ما قاله الخطابي في كتابه «العزلة» (ص ٥٩):

«وقال بعضهم إن من الناس مَنْ يُولع بالخلاف أبدًا حتى أنه يرى أن أفضل الأمور أن لا يرافق أحدًا، ولا يجامعه على رأي ولا يواتيه على محبة، ومن كان هذا عادته، فإنه لا يبصر الحق ولا ينصره ولا يعتقده دينًا ومذهبًا، إنما يتعصب لرأيه وينتقم لنفسه ويسعى في مرضاتها حتى إنك لو رمت أن ترضيه، وتوخيت أن توافقه على الرأي الذي يدعوك إليه تعمّد لخلافك فيه، ولم يرض به حتى ينتقل إلى نقيض قوله الأول فإن عدت في ذلك إلى وفاقه عاد فيه إلى خلافك»^(١).

قال أبو سليمان: فمن كان بهذه الحال فعليك بمباعدته والنفار عن قربه، فإن رضاه غاية لا تدرك، ومدى شأوه لا يلحق.

(١) وهذا نتيجة لانفراده عن أهل العلم، وعدم مراجعته لهم، وصدق الرسول ﷺ في قوله: «إنما يأكل الذئب من القاصية».

قال أبو سليمان: أخبرنا ابن التعياني قال: أخبرنا الزجاج قال: كنا عند المبرد أبي العباس محمد فوقف عليه رجل، فقال: أسألك عن مسألة من النحو؟ قال: لا، فقال: أخطأت، فقال: يا هذا كيف أكون مخطئاً أو مصيباً، ولم أجبك عن المسألة بعد؟ فأقبل عليه أصحابه يعتقونه، فقال لهم: خلوا عنه، ولا تعرضوا له أنا أخبركم بقصته، هذا رجل يحب الخلاف، وقد خرج من بيته وقصدني على أن يخالفني في كل شيء أقوله، ويخطئني فيه، فسبق لسانه بما كان في ضميره. اهـ

قلت: وهذا وصف دقيق لحال الحداذية، فهذا حالهم بلا مواربة ولا التواء.

وهؤلاء الحداذية يدعون لأنفسهم أنهم على السلفية - شأنهم شأن كل الدعوات الضالة التي تخذع الناس باسم السلفية -، لكن هناك كواشف جليلة تكشف لك عن حقيقة منهجهم الغالي في التبديع؛ وممن ذكر هذه الكواشف وفند شبهاتهم الواهية: فضيلة الشيخ العلامة ربيع بن هادي - حفظه الله - في عدة مقالات علمية قوية^(١).

ثم نجد في وسط هذا الخضم من الأهواء هؤلاء المتعصبين - ممن ينتسبون بلسان مقالهم إلى المنهج السلفي - يدعون أن شيوخهم - من طلبة العلم أو الخطباء الوعّاظ - الذين خالفوا العلماء الكبار هم في مصاف هؤلاء العلماء، ويعتبرون تحذير العلماء من أخطائهم ومخالفاتهم هو من جنس صنيع الحداذية الذين قد أولعوا بالخلاف، وصار شغلهم الشاغل تصيد زلات العلماء الكبار ثم إسقاط أحكام التبديع الجذافية عليهم بلا تقوى ولا ورع، فإذا بهم يصيرون مع الحزبيين في خندق واحد يوجهون سهام النقد الجائر والطعن الفاجر على العلماء الكبار، وأصبحوا يسيرون على سنن الحزبيين في عدم قبول أي نقد صحيح من العلماء الكبار في شيوخهم كحال الذين لا يقبلون كلمة حق في سيد قطب، والبنا، والغزالي والقرضاوي، وغيرهم من شيوخ الحزبيين المقدّسين عند أتباعهم.

وطائفة المتعصبين وطائفة الحداذية كلاهما يكمل بعضه بعضاً في السعي الحثيث لتمزيق أبناء الدعوة السلفية؛ وتقسيمهم إلى فرق متناحرة؛ ولكن الله مانعهم وحافظ دعوته كما وعد سبحانه.

(١) نحو ردوده - حفظه الله - على رأس الحداذية: محمود الحداد المصري، ثم على تابعه عبد اللطيف باشميل، ثم أخيراً على فالح الحربي، وفوزي البحريني.

واعلم -رحمك الله- أن ما سطرته في هذا الجزء ما هو إلا نصيحة وذكرى ابتغاء الإصلاح: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، فليس هذا الذي سطرته حرباً على أشخاص بأعيانهم ولا انتصاراً لأشخاص بأعيانهم، إنما هي نصيحة للمتعصِّبين لعلمهم بثبوت الحق، وانتصاراً للمنهج السلفي وعلمائه وطلبته، فيحذر اللبيب أن يكون ممن قال الله فيهم: ﴿وَلَكِنْ لَا يُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وأنا أعلم أن البعض -هداني الله وإياهم لسبيل الإنصاف- قد لا يروق لهم بعض ما
سطرته في هذا الجزء لمخالفته لهوىّ عندهم، لكن عزائي فيهم هو ما نقله ابن قتيبة في
كتابه «السلطان» (١٩٠) (ص ١٠٤): «وكان يُقال: أخوك من صدّقك، وأتاك من جهة عقلك لا
من جهة هوائك».

وقال الخرائطي في «اعتلال القلوب» (٩٢): أنشدني سلامة بن عبادة قال أنشدني

نقطه يه:

إن المـــــرأة لا تريــــــــــــة
وكذلك نفــــــــسك لا تريــــــــة

ك خدوش وجهك مع صداها
ك عيوب نفسك مع هواها

وأنشد المُتَقَب العَبْدِي:

فَأَعْرِفْ مِنْكَ غُثِّي مِنْ سَمِينِي
عَدُوًّا، أَتَقِيكَ وَتَتَّقِنِي^(١)

ولا يعني عدم التقليد أن يصير الأمر فوضى بأن يخالف أهل الطبقتين الثانية والثالثة، ومن دونهما من العامة طبقة العلماء الراسخين بغير دليل واضح وحجة بينة وفقه سديد، فإليك أن تأتي المخالفة في النوازل العامة من حروب، ومعاهدات مع أهل الكفر المناوئين، ودفع صيال أهل أهواء على المنهج السلفي، وغيرها من الفتن والمدلهمات التي تحل

(١) انظر: ديوانه (ص ٤٢)، الأمالي الشجرية (٢/ ٣٤٤)، المقرب لابن عصفور (٢٥٤)، شرح رسالة أدب الكاتب لأبي القاسم الزجاجي (ص ٥٧).

بالأمة، ففي مثل هذه الحالات يجب التزام غرز العلماء الراسخين في العلم، ولا يجوز أبدًا مخالفتهم بدليل قاصر أو فهم كاسد أو مع عدم اطلاع كافٍ على أدلتهم التي أفتوا بها في هذه النازلة أو تلك، فإن الخروج عليهم في مثل هذه الحالات يُعد خروجًا على الجماعة وخرقًا للصف وإثارة للفتنة؛ والله المستعان.

«وإنما جمعت هذا المختصر المبارك -إن شاء الله تعالى- لمن صُنِّفَ لهم التصانيف، وعُنيَت بهدايتهم العلماء، وهم من جمع خمسة أوصاف معظمها: الإخلاص والفهم والإنصاف، ورابعها: وهو أقلها وجودًا في هذه الأعصار الحرص على معرفة الحق من أقوال المختلفين^(١)، وشدة الداعي إلى ذلك الحامل على الصبر والطلب كثيرًا، وبذل الجهد في النظر على الإنصاف، ومفارقة العوائد، وطلب الأوابد، فإن الحق في مثل هذه الأعصار قلما يعرفه إلا واحدًا بعد واحد، وإذا عظم المطلوب قلَّ المساعد، فإن البدع قد كثرت، وكثرت الدعاة إليها، والتعويل عليها، وطالب الحق اليوم شبيه بطلابه في أيام الفترة، وهم سلمان الفارسي، وزيد بن عمرو بن نفيل، وأضرابهما -رضي الله عنهما-، فإنهم قدوة الطالب للحق، وفيهم له أعظم أسوة، فإنهم لمَّا حرصوا على الحق، وبذلوا الجهد في طلبه بلغهم الله إليه، وأوقفهم عليه، وفازوا من بين العوالم الجمّة، فكم أدرك الحق طالبه في زمن الفترة، وكم عمي عنه المطلوب له في زمن النبوة فاعتبر بذلك، واقتد بأولئك فإن الحق ما زال مصونًا عزيزًا نفيسًا كريمًا، لا ينال مع الإضراب عن طلبه وعدم التشوف والتشوق إلى سببه، ولا يهجم على المبطلين المعرضين، ولا يفاجئ أشباه الأنعام الغافلين، ولو كان كذلك ما كان على وجه الأرض مبطل ولا جاهل، ولا بطال ولا غافل، وقد أخبر الله تعالى أن ذرء جهنم هم الغافلون، فإن لله وإنا إليه راجعون، ما أعظم المصاب بالغفلة، والمغتر بطول المهلة.

ومن أعجب العجائب: دعوى المقلّدين للمعارف، ودعوى المتعصّبين للإنصاف، وأمانة ذلك أنك تجد العوالم الكثيرة في لطائف المعارف المختلف فيها على رأي رجل

(١) أي: بعد تحريرها.

واحد من القدماء في الأمصار العديدة، والأعصار المديدة، فلو كانوا في ترك التقليد كالأوائل لاشتد اختلافهم في الدقائق، ولم يتفقوا على كثرتهم وطول أزمانهم، وتباعد بينهم، واختلاف فطنهم، كما قضت بذلك العوائد العقلية الدائمة، ولو كان الجامع لفرقتهم مع كثرتهم هو الوقوف على الحقائق في تلك الدقائق، لكانوا أكثر من مشايخهم الأقدمين علماً وتحقيقاً، وإنصافاً وتجويداً، لكن المعلوم خلاف ذلك، فإياك أن تسلك هذه المسالك، فإن نشأة الإنسان على ما عليه أهل شارع وبلده وجيرانه وأترابه صنيع^(١) أسقط الناس همة وأدناهم مرتبة، فلم يعجز عن ذلك صبيان النصارى واليهود، ولا ربات القدود واليهود، المستغرقات في تمهيد المهود.

وهذه هذه فأعطها حقها وانظر لنفسك وانج بها، وطالع قصة سلمان الفارسي وأضرابه، وانظر كيف كان صبرهم، واعرف قدر ما أنت طالب، فإنك طالب لأعلى المراتب...

ولا ينبغي أن يستوحش الظافر بالحق من كثرة المخالفين له، كما لا يستوحش الزاهد من كثرة الراغبين، ولا المتقي من كثرة العاصين، ولا الذاكر من كثرة الغافلين، بل ينبغي منه أن يستعظم المنة باختصاصه بذلك مع كثرة الجاهلين له، الغافلين عنه، وليوطن نفسه على ذلك، فقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن هذا الدين بدأ غربياً، وسيعود غربياً كما بدأ، فطوبى للغرباء». رواه مسلم في الصحيح من حديث أبي هريرة، ورواه الترمذي من حديث ابن مسعود، وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه ابن ماجه وعبد الله بن أحمد من حديث أنس، وروى البخاري نحوه بغير لفظه من حديث ابن عمر.

فنسأل الله أن يرحم غربتنا في الحق، ويهدي ضالنا، ولا يردنا من أبواب رجائه ودعائه وطلبه محرومين، إنه مجيب الداعين، وهادي المهتدين، وأرحم الراحمين^(٢).

(١) في العادات والتقاليد المخالفة للأصول.

(٢) ما بين علامتي التنصيص: من كتاب «إيثار الحق على الخلق، في رد الخلافات إلى المذهب الحق»، لأبي عبد الله محمد بن المرتضى اليماني المشهور بـ«ابن الوزير» (ص ٢٧-٣٠).

وينبغي أن يُعلم أن أئمة الجرح والتعديل من أهل السنة لا يفرحون بزلات المخالفين، ولا يسعون أبداً لإسقاط عالم أو طالب علم انتسب إلى المنهج السلفي ثم خالفه، فليس غرضهم من التحذير من زلات وأخطاء المخطئين هو التشهير أو التشفي أو إسقاط الغير، بل غرضهم النصح والإرشاد وحماية الحق وأهله من مكائد أهل الأهواء، فأهل السنة هم أعرف الناس بالحق وأرحم الناس بالخلق لو كانوا يعلمون، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِّدُ يَحْشَرُ الْمُطَلُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٧].

وصلّى الله على محمد وآله وسلم.

وكتبه

أبو عبد الأعلى

خالد بن محمد بن عثمان المصري

انتهاء في ليلة الثلاثاء (١٨) شعبان (١٤٢٩هـ)



حَدُّ التَّعَصُّبِ

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة (٣٣٦/٤) مادة (عصب): «العين والصاد والباء: أصل صحيح، يدل على ربط شيء بشيء مستطيلاً مستديراً، ثم يفرع ذلك فروعاً، وكله راجع إلى قياس واحد» اهـ

وقال ابن منظور في لسان العرب (مادة: عصب) (٢٣٠/٩): «العصب: الطي الشديد، وعَصَب الشيء يعصِّبه عَصَباً: طواه ولواه، وقيل: شدّه.

والعِصَاب والعِصَابَة: ما عُصِبَ به، وعَصَب رأسه وعَصَبه تعصيباً: شدّه، واسم ما شدَّ به: العِصَابَة، وتعَصَّب أي شدَّ العِصَابَة، العِصَابَة العِمَامَة، منه، والعِمَامَة يقال لها العِصَابَة... إلى أن قال: «والتعصُّب من العِصْبَة، والعِصْبَة أن يدعو الرجل إلى نصرَة عِصْبَتِه، والتألب معهم، على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين.

وقد تعصَّبوا عليهم إذا تجمعوا، فإذا تجمعوا على فريق آخر، قيل: تعصَّبوا. وفي الحديث: «العِصْبَةُ من يعين قومه على الظلم، العِصْبِي: هو الذي يغضب لعِصْبَتِه، ويحامي عنهم» اهـ

وقال ابن مكّي الصقلي في «تلقيح اللسان وتنقيح الجنان» (ص ٢٧٢): «ويقولون إذا أرادوا تعظيم عالم بالطب: قال فلان المتطبب، يتوهمون أنه أبلغ من طبيب. وليس كذلك؛ لأن «المتفعل» هو الذي يدخل نفسه في الشيء، ليضاف إليه ويصير من أهله، ألا ترى أنك تقول: ما فلان بشجاع، وإنما هو متشجع؟ ولا هو جليل وإنما هو متجلد^(١)؟ قال حاتم طي:

تحلم عن الأدّنين واستبق ودهم ولن تستطيع الحلم حتى تحلماً

(١) وعلى القياس نفسه: المتعصَّب: هو الذي يدخل نفسه في العِصْبَة؛ ليضاف إليهم ويصير منهم.

وقال آخر:

* وقيس عيلان ومن تقيسا *

يريد من أدخل نفسه معهم وليس منهم. اهـ

قلت: أي أن العصبية في حد ذاتها ممدوحة لا مذمومة، فمادة (عصب) تقوم على الاجتماع والقوة بشد الأزر، وذلك ممدوح إذا كان لنصرة الحق، وتأييد صاحبه، ولغوث المظلوم، وأما المتعصب الذي ينصر عصبته على الباطل، يُعدّ دخيلاً على العصبية أولى القوة ناصري الحق والمظلوم، وليس منهم.

قال مسعود بن عمر التفتازاني في شرح التلويح على التوضيح (٩١/٢): «التعصب هو عدم قبول الحق عند ظهور الدليل بناءً على ميل إلى جانب» اهـ.

قلت: وقد يكون الجانب الذي يميل إليه المتعصب: شيخه، أو حزبه، أو قبيلته، أو صديقه ونحوهم.

وقال ابن الأثير في النهاية (٢٤٦/٣): «العصبية والتعصب: المحاماة والمدافعة».

قلت: وهذا من لوازم التعصب، فإن من تعصب لشيخ أو حزب أو صديق دافع عنه وتحامى في الذب عنه ولو بالباطل.

وقال العلامة صالح آل الفوزان -حفظه الله-: «التعصب الممقوت للشيء هو: التمسك به، مع العلم ببطالته»^(١).

وقال ابن عابدين في «العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية» (٣٣٣/٢): «قال فخر الإسلام لما سئل عن التعصب، قال: الصلابة في المذهب واجبة والتعصب^(٢) لا يجوز؛ والصلابة أن يعمل بما هو مذهبه ويراها حقاً وصواباً والتعصب السفاهة، والجفاء في صاحب المذهب الآخر، وما يرجع إلى نقصه ولا يجوز ذلك» اهـ.

قلت: وهذا الكلام يحتمل معنيين:

(١) شرح كتاب مسائل الجاهلية: «المسألة الخامسة والخمسون»، وستأتي تمة كلام الشيخ الفوزان إن شاء الله.

(٢) التعصب الممقوت: أي بالباطل.

الأول: جواز التمذهب، ووجوب الصلابة على المذهب، لكن مع عدم تسفيه المذاهب الأخرى.

الثاني: الدعوة إلى العمل بالمذهب الذي يراه حقاً وصواباً بالأدلة مع وجوب الصلابة على هذا الحق الذي وصل إليه بالأدلة، لكن دون أن يحمل جفاء نحو من يخالفه، ودون أن ينتقص منه^(١).

والشاهد من كلامه أنه عرّف التعصّب بالسفاهة وهو تعريف له بإحدى لوازمه أيضاً كما صنع ابن الأثير، فبلا ريب من يتعصّب يغلب عليه السفه في تصرفاته مع من يخالف مذهبه أو شيخه وهذا ظاهر للعيان.

وقال الشافعي في الأم (٤٢٠/٨): «وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، والعصبية المحضة أن يبغض الرجل لأنه من بني فلان؛ فإذا أظهرها ودعا إليها وتألف عليها، فمردود -أي الشهادة-». اهـ

قلت: فليس من حدّ التعصّب أن يحب الرجل شيخه أو أستاذه، لكن من العصبية أن يبغض فلاناً؛ لأنه من تلاميذ شيخ آخر فحسب لا يبغضه لأنه مخالف للمنهج الحق.

(١) وهذا هو المتعین، إذا كان أمر الخلاف فيه سعة.

طاعة العلماء وسؤال أهل الذكر

والحدُّ الفاصل بين الاتباع والتقليد

قال الله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وأولو الأمر -على التفسير الراجح- هم العلماء والأمرء؛ فأمرنا ربنا عز وجل في هذه الآية بطاعة العلماء في المعروف، فهي طاعة مقيدة بموافقة الكتاب والسنة بفقه سلف الأمة ليست طاعة مطلقة، فإذا أمرنا العلماء بما ليس عليه دليل من كتاب أو سنة فلا يجوز اتباعهم على هذا.

وكذلك أمرنا الله سبحانه بسؤال العلماء فيما نحتاج إليه من أمور العقيدة والعبادات والمعاملات، وفيما ينزل بنا من نوازل خاصة وعامة، فقال سبحانه: ﴿فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وقال عز وجل: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَيطُونَهُمْ وَمِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

والأمر بطاعة العلماء في المعروف لا يقتضي الاتباع الأعمى لهم بلا فهم ولا معرفة دليل، فلا يجوز للمرء أن يتبع شخصاً -عالمًا كان أو غير عالم- اتباعاً مطلقاً إلا الرسول ﷺ، فهو المتبوع بحق وحده، وهذا معنى شهادة (أن محمداً رسول الله)، لأنه ﷺ ما ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾.

فالسؤال لأهل الذكر والتزام فتاويهم لا يقتضي تقليدهم في كل أقوالهم بلا معرفة الدليل، فإن التقليد منهى عنه مذموم، والحدُّ الفاصل بين الاتباع والتقليد قد بيّنه الإمام الشوكاني رحمه الله في كتابه «القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد» (ص ١٩) حيث قال: «...وإذا كان المأمور بسؤالهم هم أهل القرآن والسنة فالآية المذكورة^(١) حجة على

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

المقلدة، وليست بحجة لهم؛ لأن المراد أنهم يسألون أهل الذكر ليخبروهم به، فالجواب من المسؤولين أن يقولوا قال الله كذا فيعمل السائلون بذلك، وهذا هو غير ما يريده المقلد المستدل بالآية الكريمة، فإنه إنما استدل بها على جواز ما هو فيه من الأخذ بأقوال الرجال من دون سؤال عن الدليل، فإن هذا هو التقليد، ولهذا رسموه بأنه: قبول قول الغير من دون مطالبة بحجة، فحاصل التقليد أن المقلد لا يسأل عن كتاب الله ولا عن سنة رسول الله ﷺ بل يسأل عن مذهب إمامه فقط فإذا جاوز ذلك إلى السؤال عن الكتاب والسنة فليس بمقلد، وهذا يسلمه كل مقلد ولا ينكره. اهـ

وقال ابن القيم في «إعلام الموقعين» (١٣٧/٢ - ط دار الجيل) (ص ٣٧٤ ط طيبة): «قال أبو عبد الله بن خويز منداد البصري المالكي: التقليد معناه في الشرع الرجوع إلى قول لا حجة لقائلة عليه، وذلك ممنوع منه في الشريعة، والاتباع: ما ثبت عليه حجة.

وقال في موضع آخر من كتابه: «كل من اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قبوله بدليل يوجب ذلك فأنت مقلده، والتقليد في دين الله غير صحيح، وكل من أوجب الدليل عليك اتباع قوله فأنت متبعه، والاتباع في الدين مسوغ، والتقليد ممنوع». اهـ

قلت: ويتعلق بهذا الباب المسألة المشهورة التي تكررت في كثير من مصنفات أصول الفقه في باب الاجتهاد وهي: هل يلزم العامي أن يلزم مذهب إمام بعينه لا يخرج عن أقواله واجتهاداته؟

وقد أجاب عن هذا السؤال ابن الوزير في «الروض الباسم» (١/٣٤٥-٣٥٥)، (طبعة دار عالم الفوائد) حيث قال ردًا على من قال: «فالصحيح أن عليه التزام مذهب إمام معين»: «ذكره المنصور بالله، والشيخ الحسن بن محمد، والشيخ أحمد بن محمد، واحتج لهم

برجوه:

أحدها: بالإجماع، وهو أنه لا يعلم أحد من المقلدين يتردد بين مذاهب علماء الإسلام المتقدمين منهم والمتأخرين، ففي مسألة يقلد أبا بكر، وفي أخرى عمر، وفي ثالثة ابن عباس، وفي رابعة ابن مسعود، وهلم جرا، ولا من يكون مقلدًا لطاووس، وعطاء، والحسن، والشعبي، ولا ابن المسيب، ولغيرهم ممن كان وراءهم، يقلد في كل مسألة إمامًا،

ولا من يكون حنفياً في مسألة، شافعيّاً في أخرى، مالكيّاً حنبليّاً هادويّاً ناصريّاً، هذا ما وقع، ولا علم به، ولو وقع في زماننا لأنكره الناس.

أقول: ضعف كلام المعترض في هذا التفصيل يتبيّن بذكر أنظار:

النظر الأوّل: أنّ المعترض جاوز حدّ العادة في الغلوّ حتّى ادّعى الإجماع على ما المعلوم انعقاد الإجماع على نقيضه، وذلك أنّه ادّعى الإجماع على التزام مذهب إمام معيّن في زمن الصحابة والتابعين، واحتجّ على ذلك بأنه لم يعلم أنّ أحداً كان يقلّد أبا بكر في مسألة، وعمر في ثمانية، وابن عباس في ثالثة، وابن مسعود في رابعة، هكذا قال بغير حياء من أهل العلم، والمعلوم أنّ العامة ما كانت في زمن الصحابة متحرّبة أحزاباً متفرّقة في التقليد فرقاً بكريّة، وعمرية، ومسعوديّة، وعباسيّة، كما أشار إليه، وإلا فأخبرنا من الإمام في زمن الصحابة الذي لم تكن العامة تستفتي سواه ولا ترجع إلى غيره.

فإن قلت: إنك تلتزم هذا وتصرّ على أنّه لم يكن في زمن الصحابة إلا مفت واحد، فقد أنكرت الضرورة، ولم يكن لمناظرتك صورة، فقد نقلت الفتيا عن أكثر من مائة نفس من الصحابة، ذكرهم غير واحد من العلماء، منهم: الحافظ أبو محمد بن حزم^(١)، والشيخ أحمد بن محمد في كتاب «الشجرة»^(٢).

وتعيّنهم وكمية عددهم، وإن نقلت بالأحاد فكثرتهم في الجملة معلومة بالضرورة، وأمّا إن أقرّ بما هو معلوم من أنّ العامة لم يكونوا ملتزمين لمذهب صحابي واحد وأنّ الصحابة لم يكونوا مقتصرين على فتوى مفت واحد، فليت شعري أيّ البواطل تركب؟ هل القول بأنّ كلّ مفت من الصحابة كان له أتباع؟ فهذا يفضي في تشعب مذاهبهم إلى غاية الاتساع، فيكون العامة في زمنهم أكثر من مائة فرقة على عدد المفتين، أو ترتكب القول بالزام العامة لمذاهب جماعة مخصوصين، فهذا مثل دعوى الروافض للاختصاص بالعلم بالنص على اثني عشر إماماً منصوبين^(٣).

(١) قال محقق الروض: ذكرهم في (الإحكام): (٩٢/٥-٩٤).

(٢) قال محقق الروض: كتاب (الشجرة في الإجماعات) لأحمد بن محمد بن الحسن الرصاص، من أكابر علماء الزيدية ت (٦٥٦هـ). (مصادر الفكر). (ص ١٧٣-١٧٤)، والأعلام (١/٢١٩).

(٣) وهذه الدعوى من الرافضة دعوى باطلة مفتراة من وحي شياطينهم؛ لأن مصادر التلقي الصحيحة

والجواب عليهم الجميع: أن أهل العلم يشاركون لكم في معرفة الآثار، والبحث عن السّير والأخبار، ولم يعرفوا من هذا شيئاً، ولا عرفوا فيه علماً ولا ظناً، ولا يصح أن يوحى إليكم ذلك من دون التّاس، فما سبب الانفراد بهذا العلم والاختصاص؟ وبالجملّة: فالمعلوم ضرورة أن العامّي في زمن الصّحابة كان يفرع في الفتوى إلى من شاء منهم، من غير تكثير في ذلك، وهذا من الأمور المعلومة، وقد احتجّ بذلك ابن الحاجب في «مختصر المنتهى»^(١) على أن الالتزام لا يجب وادّعى القطع بوقوعه، وكذلك الشّيخ أبو الحسن احتجّ في «المعتمد»^(٢) بإجماع الصّحابة على عدم الالتزام، قال قطب الدّين في شرح كلام ابن الحاجب ما لفظه: احتجّ المصنّف بالإجماع على الجواز بوقوعه -أي: بوقوع المتنازع فيه في زمن الصّحابة وغيرهم- من غير إنكار من أحد ولو كان ذلك منكراً لأنكر، ولم ينقل عن أحد من الصّحابة والتّابعين الإنكار ولا الحجر على المستفتي في تقليد إمام واحد.

فإن قلت: فهذا الإجماع يقتضي أنّه لا يجب التّرجيح، وأنت قد ذكرت أنّه يجب. **قلت:** إنّما ذكرت أنّه يجب حين يختلف أهل الفتوى على العامّي فيزول ظنّه لصدق المفتي وصحة فتواه، وهذه الصّورة التي أوجبت فيها التّرجيح، لم يظهر وقوعها في زمنهم، فكيف الإجماع عليها؟! وإنّما كان العامّي في زمنهم يسأل أحدهم وهو لا يعلم أنّ الآخر يخالفه، فإذا سمع الفتوى ظنّ صحتها، وطابت نفسه بها، وكأنّما سمعها من رسول الله ﷺ، وهذا هو المعروف من أحوال العامّة وأكثرهم، فإنّهم لا يعلمون أنّ المفتي قد يفتي برأي منه يخالف فيه من هو أعرف منه، وأنّما يعتقد أكثرهم أنّ الفتوى إنّما هي بنصوص واضحة من صاحب الشّريعة، فلا يدخل في حكمهم من عرف مراتب الضّعف والقوّة في مأخذ أهل الفتوى إذا سمع الخلاف، وتعارضت عليه الأقوال، ووقع في حيرة الشكّ، وظلمة التعارض، فإنّه يجب على هذا الرّجوع إلى النّظر في الأمارات والمرجّحات حتّى

من كتاب وسنة وآثار الصحابة غير معتبرة عندهم.

(١) قال محقق الروض (٣/٣٦٧): مع «بيان المختصر» الأصفهاني.

(٢) (٢/٩٤٣-٩٤٦).

يلوح له ما تطيب به نفسه من رجحان ما هو عليه، وصحة ما يذهب إليه لقول رسول الله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»، ولما قدمنا من الأدلة في ذلك...^(١)

النظر الثاني: أن المعترض قال في احتجاجه ما لفظه: «إنه لم يعلم أحد من المقلدين يتردد بين مذاهب علماء الإسلام»، وهذا منه احتجاج بإجماع العامة، وليس يعتبر بهم في الإجماع مع المجتهدين فكيف بهم منفردين؟ وفي الحديث الصحيح المتفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «إن الله لا يقبض العلم ينتزعه انتزاعاً، وإنما يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهلاً فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»، فهذا الحديث يقتضي أن العامة قد يجتمعون على الضلال والإضلال، ولا يكون إجماعهم حجة يعصم من الضلال.

النظر الثالث: أننا لو سلمنا أن إجماعهم حجة لها دل على مذهبه؛ لأنه فعل لا قول، وفعل الأمة دليل على الجواز لا على الوجوب؛ لأنهم إنما عصموا عن الحرام لا عن المباح، فلا مانع من أن يكون فعلهم مباحاً، فلو قدرنا أنهم التزموا مذهباً لكان ذلك دليلاً على جواز ذلك لا على وجوبه، ونحن لا ننازعك في جواز ذلك وجواز خلافه، وإنما نازعناك في مسألة مخصوصة لم ينقل أن الأمة أجمعت فيها بعينها إجماعاً قولياً ولا فعلياً، فبان بهذه الأنظار أنه وهم ثلاثة أوهام:

أحدها: أن الأمة أجمعت على الالتزام، والإجماع إنما انعقد على عدم الالتزام.

وثانيها: أن إجماع العامة حجة.

(١) وثم شبهة تتعلق بالفرقة بين عوام الصحابة وغيرهم ذكرها أبو الحسن علي بن حسن بن صديق حسن خان في كتابه «القول السديد في أدلة الاجتهاد والتقليد» (ص ٣٦)، حيث قال: «وهاهنا مظنة سؤال تنفطن لها وتقول: فرق بين عوام الصحابة وغيرهم، فإنهم غير محتاجين إلى ما يحتاج إليه هؤلاء؛ لأن أولئك أهل اللسان العربي، والأذهان السيالة، والفطر القويمة، فنقول: لا نعني بعوام الصحابة من أحاط بالقرآن حفظاً واستكثر من حفظ السنة النبوية فإنه مجتهد؛ لأن جميع المعارف حاصلة له، وإنما نعني من لم يحفظ شيئاً من ذلك، أو حفظ مقداراً يسيراً، فإنه وإن فهم ما وصل إليه لا يقدر على الاجتهاد... إلخ».

وثالثها: أنَّ الإجماع الفعليّ دليل الوجوب، فلو أنّه احتجّ بتقرير العلماء للعامّة لكان أقرب له، وإن كان لا يسلم من وهمين، فوهمان خير من ثلاثة.

✽ وبعض الشرّ أهون من بعض^(١) ✽

النظر الرابع: ادّعى أنَّ التَّنَقُّلَ ما وقع في المذاهب البتّة، وأنَّ أحدًا من المقلّدين ما علم أنّه كان شافعيًّا في مسألة حنفياً في أخرى.

وهذا الكلام يدلّ على أحد أمرين: إمّا على شدّة تغفيله، وأنّه لا يدري ما يقول وإمّا على كثرة جرأته وقلة مبالاته، وذلك أنّه لا يعلم أنَّ أحدًا من المقلّدين ما عمل بغير مذهب إمامه قطّ إلا الله سبحانه وتعالى، لأنّ الإحاطة بأعمال المقلّدين متعلّدة مع انتشارهم في أقطار الإسلام شرقاً وغرباً وشاماً ويمناً، ومع وجود المتساهلين منهم وجود الفسّاق المصّرّحين.

وليت شعري ما يقول هذا المعترض؟! هل يقطع بأنَّ أحدًا من المقلّدين ما زنا ولا سرق، ولا أربأ ولا فسق؟ فهذا عناد عظيم، وبهتان مبین، أو يقرّ بذلك، فكيف قطع بأنّهم لا يفعلون -ولا أحد منهم- ما هو جائز عند كثير من علماء الإسلام؟ ومن أين علم عصمتهم عن هذا الذي لم يقل أحد من الأئمّة: إنّ فاعله مستحلاًّ له يفسق ولا يعصي؟ والمعلوم خلاف ما ذكره من كثير من العامة، بل من كثير من أهل التّمييز، بل قد قدّمنا كلام غير واحد من العلماء في وجوب ذلك على أهل التّمييز، ونصّ بعضهم على جوازه، منهم: المؤيّد والدّاعي من أئمّة الزيدية^(٢)، وعزّ الدّين بن عبد السّلام، والنّواوي، وابن الصّلاح من أئمّة الشّافعية، بل بيّنّا أنَّ كلام الإمام الشّافعيّ يقتضي ذلك كما تقدّم.

(١) قال محقق الروضة: شطر بيت لطرفة بن العبد البكري ديوانه (ص/ ١٨٠)، وهو:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشرّ أهون من بعض

(٢) الزيدية ينسبون إلى زيد بن علي -رحمه الله-، وهم فرقة ضالة فارقت أهل السنة في كثير من العقائد نحو اعتقادهم بأحقية علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- بالخلافة من أبي بكر وعمر وعثمان، وهم وإن كانوا أقلّ شراً من الروافض إلا أن أقوالهم لا يعتد بها في مسائل الخلاف والإجماع، ورحم الله ابن الوزير والشوكاني والصنعاني حيث عاشوا في هذه البيئة الزيدية فاضطروا أحياناً إلى نقل أقوالهم من باب إقامة الحجة عليهم من أقوال أئمتهم.

وأما قول المعترض: إنه لا يوجد أحد من المقلّدين من يكون هادويًا في مسألة، ناصريًا في مسألة، فأعجب من هذا كله! وهو غفلة كبيرة، أو جحد للضرورة، فإنّ العمل بمذهب الناصر في أنّ الطلاق البدعي لا يقع؛ ظاهر مشهور في نجد واليمن من بلاد الزيدية، والعمل به معلوم فيما بينهم من المفتين والمستفتين من غير التزام لمذهب الناصر، وإنكار هذا خلع لعروة المراعاة كعادات أهل العناد، وغلو لم يبلغه أحد من أهل اللجاج.

النظر الخامس: قال المعترض: ولو وقع هذا في زماننا لأنكره الناس، وهذا عجيب أيضًا! لأنه إما أن يريد أن هذه إجماعية، وهو الظاهر من كلامه، فهذا لا يصحّ لوجوه: أحدها: أنّه واقع ولم ينكره الناس كما قدّمته.

وثانيها: أنّ قوله: لو وقع لأنكره الناس؛ دعوى على الناس، بل دعوى لعلم الغيب بما يكون من الناس في المستقبل.

وثالثها: أنّا في علة من كيفية العلم بإجماع العلماء فكيف بإجماع الناس؟! ورابعها: أنّه قد حكم بالجهل على أهل زماننا، فمع ذلك كيف يحتج بإجماعهم، وليس يحتج إلا بإجماع العلماء؟! اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في مجموع الفتاوى (٢٠٣/٢٠-٢٠٤): «وكذلك المسائل الفروعية: من غالبية المتكلمة والمتفقهة من يوجب النظر والاجتهاد فيها على كل أحد حتى على العامة وهذا ضعيف؛ لأنه لو كان طلب علمها واجبًا على الأعيان، فإنما يجب مع القدرة، والقدرة على معرفتها من الأدلة المفصلة تتعذر أو تتعسر على أكثر العامة.

وبإزائهم من أتباع المذاهب من يوجب التقليد فيها على جميع من بعد الأئمة: علمائهم، وعوامهم، ومن هؤلاء من يوجب التقليد بعد عصر أبي حنيفة ومالك مطلقًا، ثم هل يجب على كل واحد اتباع شخص معين من الأئمة يقلده في عزائمه ورخصه؟ على وجهين، وهذان الوجهان ذكرهما أصحاب أحمد والشافعي، لكن هل يجب على العامي ذلك؟ والذي عليه جماهير الأمة أن الاجتهاد جائز في الجملة؛ والتقليد جائز في الجملة لا يوجبون الاجتهاد على كل أحد ويحرمون التقليد ولا يوجبون التقليد على كل أحد ويحرمون

الاجتهاد، وأن الاجتهاد جائز للقادر على الاجتهاد والتقليد جائز للعاجز عن الاجتهاد. فأما القادر على الاجتهاد فهل يجوز له التقليد؟ هذا فيه خلاف، والصحيح أنه يجوز حيث عجز عن الاجتهاد: إما لتكافؤ الأدلة، وإما لضيق الوقت عن الاجتهاد وإما لعدم ظهور دليل له، فإنه حيث عجز سقط عنه وجوب ما عجز عنه وانتقل إلى بدله وهو التقليد كما لو عجز عن الطهارة بالماء، وكذلك العامي إذا أمكنه الاجتهاد في بعض المسائل جاز له الاجتهاد، فإن الاجتهاد منصب يقبل التجزي والانقسام، فالعبرة بالقدرة والعجز وقد يكون الرجل قادراً في بعض عاجزاً في بعض لكن القدرة على الاجتهاد لا تكون إلا بحصول علوم تفيد معرفة المطلوب، فأما مسألة واحدة من فن فيبعد الاجتهاد فيها، والله سبحانه أعلم. اهـ.

قلت: وقد قسّم الشاطبي في الاعتصام (٤٤١/٣) المكلفين إلى ثلاثة أقسام: المجتهد، والمقلّد، والمتّبع.

وقال في بيان حال المقلّد: «أن يكون مقلّداً صرفاً خليّاً من العلم الحاكم جملة؛ فلا بد له من قائد يقوده، وحاكم يحكم عليه، وعالم يقتدى به...».

ثم قال في بيان حال المتّبع: «أن يكون غير بالغ مبلغ المجتهدين، لكنه يفهم الدليل وموقعه، ويصلح فهمه للترجيح بالمرجحات المعتمدة في تحقيق المناط ونحوه، فلا يخلو أن يعتبر ترجيحه ونظره أو لا».

قلت: وفي بيان حدّ المتّبع من عوام الصحابة والتابعين الذي يفارق حدّ المقلّد في المتأخرين، قال علي بن حسن القنوجي في «القول السديد» (ص ٣٥): «عوام الصحابة والتابعين لا يخرجون عن الاتصاف بأحد ثلاثة أشياء: إما التقليد، أو الاجتهاد، أو الوساطة: فالأول باطل لما بيّناه من أنهم لم يقبلوا القول، بل قبلوا الحجة، ولهذا لم ينسب أحد منهم إلى أحد من أولئك الأعلام كما تُنسب هؤلاء المقلّدة إلى أئمتهم، بل اكتفوا بالانتساب إلى مطلق الشريعة، ونعمت النسبة هذه، ولم يسمع عن أحد منهم أنه انتسب في مذهبه مثلاً إلى ابن عباس، فيقال: عباسي، كما يقال: شافعي مثلاً».

والثاني: باطل أيضاً لفقدانهم الأهلية التي لا بد منها فلم يبق إلا: الثالث: أعني الوساطة^(١).

(١) وكان قد قال في بيان حال الوساطة: «ولو تأملت -غفر الله لك- أحوال الصحابة والتابعين

قلت: ومن الشبهات التي أثارها الذين يوجبون التقليد على العامة ويمهدون للتعصب بهذا الإيجاب، ما يلي:

الشبهة الأولى: أن دعوة العامي إلى معرفة الدليل واتباعه يجعله في مرتبة المجتهدين، وقد صاغ هذه الشبهة ورد عليها ابن الوزير في «الروض الباسم»، فقال في تمة النقل السابق عنه:

«الوجه الثاني: أنه لا يتميز على هذا الوجه المجتهد من المقلد، فإنه إذا رجح في كل مسألة، وعمل بما يترجح له؛ فهذا شأن المجتهدين، وكونه قد قال به قائل شرط في حق المجتهدين أيضاً.

أقول: هذا الوجه أضعف مما قبله؛ والقول بالترجيح لا يؤدي إلى ما ذكره من عدم الفرق بين المجتهد والمقلد، فالفرق بينهما واضح، وهو أن المقلد ليس له أن يستقل بقول لم يسبق إليه، وإنما هو تبع لغيره، وقد رام المعترض أن يبطل هذا الفرق فركب الصعب الدلول، وخالف المعقول والمنقول، والتزم أنه لا يحل الاجتهاد لمجتهد حتى يسبقه غيره إلى اختياره، وهذا معلوم البطلان لوجوه:

أحدها: أنه يلزم بطلان اجتهاد خير الأمة من الصّدر الأوّل الذين ابتكروا الكلام في الحوادث، وسبقوا إلى الاجتهاد في المسائل.

وثانيها: أنه يلزم أن الحادثة إذا حدثت وليس فيها نصّ لمن تقدّم من العلماء لزم العمل فيها بغير اجتهاد ولا تقليد، لأنّ شرط كلّ واحد من الاجتهاد والتقليد موافقة نصّ

وتابعيهم لشفيت بذلك عليك، وبيان ذلك أن هذه الثلاث طبقات التي هي خير هذه الأمة المرحومة قد اشتملت على العالم الرباني والعامي، فكان صنع العالم فيها الاجتهاد، وصنع العامي السؤال عن الكتاب والسنة واستفسار الأئمة والعمل بما بلغ إليه، وليس هذا من التقليد في شيء، لما تقرر في الأصول أن التقليد قبول قول الغير دون حجة، وهؤلاء لم يقبلوا قول الغير، بل قبلوا حجته بواسطة روايته، وقبول الرواية ليس بتقليد، فهؤلاء الأعلام الذين نسبتهم إلى التضييق على الناس بسبب منعهم التقليد لم يطلبوا من العوام إلا التشبه بعوام الصحابة فمن بعدهم، واطراح التقليد المبتدع» اهـ.

مقدم، وقد عدم هذا الشرط فيلزم من ذلك سقوط التكليف في هذا الحكم والعمل بالإباحة، أو تكليف ما لا يطاق من موافقة مراد الله تعالى من غير اجتهاد ولا تقليد، وعلى هذا يكون ترك حفظ أقوال العلماء المتقدمين أولى؛ لبيطل التكليف، ويأمن الوقوع في المعصية فيما لم يصحوا عليه، وهذا شيء لم يسبق هذا المعترض إليه!!

الوجه الثالث: أن الأمة مجمعة قديماً وحديثاً على أنه لا يشترط في الاجتهاد ما ذكره، وإتما اشترط العلماء عدم مصادمة الإجماع القطعي، واختلفوا في الظني إذا لم يعارض بما هو أرجح منه، على ما هو مقرر في علم الأصول» اهـ

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمته الله في الأصل السادس من الأصول الستة: ردُّ الشبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسنة واتباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة، وهي أن القرآن والسنة لا يعرفهما إلا المجتهد المطلق، والمجتهد هو الموصوف بكذا وكذا أوصافاً لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر، فإن لم يكن الإنسان كذلك فليعرض عنهما فرضاً حتماً لا شك ولا إشكال فيه، ومن طلب الهدى منهما فهو إما متديق، وإما مجنون لأجل صعوبة فهمهما، فسبحان الله وبحمده كم بين الله سبحانه شرعاً وقدره، خلقاً وأمره في ردِّ هذه الشبهة الملعونة من وجوه شتى بلغت إلى حدِّ الضروريات العامة ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْفُسِهِمْ مَغْفِرَةً فَهُمْ إِلَى آلِدَقَانٍ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٢﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ وَسَاءَ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَنْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَظِيمَ فَلْيَشْرَهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿٥﴾ [يس: ٧-١١] اهـ

الشبهة الثانية: قالوا إن العامي لا يمكنه العمل بالدليل بمفرده دون الرجوع إلى المجتهد، حيث إن هذا الدليل الذي بلغ العامي يحتمل النسخ أو التخصيص أو التقييد أو التفصيل أو التعارض مع دليل آخر.. إلخ.

وقد أحسن ردُّ هذه الشبهة وتفنيدها العلامة صالح بن محمد بن نوح الشهير بقلايني في كتابه «إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار، وتحذيرهم عن الابتداع الشائع في القرى والأمصار من تقليد المذاهب مع الحمية والعصبية بين فقهاء

الأمصار» (ص ٦٣) حيث قال بعد أن رجح جواز العمل بالحديث للعامي دون الرجوع إلى مجتهد: «وذلك لما تقرر أن الصحابة -رضي الله عنهم- ما كانوا كلهم مجتهدين على اصطلاح العلماء فإن فيهم القروي والبدوي ومن سمع منه ﷺ حديثاً واحداً وصحبه مرة، ولا شك أن من سمع منهم حديثاً عن رسول الله ﷺ أو عن واحد من الصحابة -رضي الله عنهم- كان يعمل به حسب فهمه مجتهداً كان أو لا، ولم يعرف أن غير المجتهد منهم كلف بالرجوع إلى المجتهد فيما سمعه من الحديث لا في زمانه ﷺ، ولا بعده في زمان الصحابة -رضي الله عنهم-، وهذا تقرير منه ﷺ بجواز العمل بالحديث لغير المجتهد وإجماع من الصحابة عليه، ولولا ذلك لأمر الخلفاء غير المجتهد منهم سيما أهل البوادي أن لا يعملوا بما بلغهم من النبي ﷺ مشافهة أو بواسطة حتى يعرضوا على المجتهدين منهم، ولم يرد من هذا عين ولا أثر، وهذا هو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، ونحوه من الآيات حيث لم يقيد بأن ذلك على فهم الفقهاء، ومن هنا عرفت أنه لا يتوقف العمل بعد وصول الحديث الصحيح على معرفة عدم الناسخ أو عدم الإجماع على خلافه أو عدم المعارض بل ينبغي العمل به إلى أن يظهر شيء من الموانع، فينظر ذلك، ويكفي في العمل كون الأصل عدم هذه العوارض المانعة عن العمل^(١)...

ومعلوم أن من أهل البوادي والقرى البعيدة من كان يجيء عنده ﷺ مرة أو مرتين ويسمع شيئاً ثم يرجع إلى بلاده ويعمل به، والوقت كان وقت نسخ وتبديل، ولم يعرف أنه ﷺ أمر أحداً من هؤلاء بالمراجعة ليعرف الناسخ من المنسوخ، بل أنه ﷺ قرر من قال: لا أزيد على هذا، ولا أنقص على ما قال، ولم ينكر عليه بأنه يحتمل النسخ، بل دخل الجنة إن صدق، وكذلك ما أمر الصحابة أهل البوادي وغيرهم بالعرض على مجتهد ليميز له الناسخ من المنسوخ، فظهر أن المعتبر في النسخ ونحوه بلوغ الناسخ لا وجوده، ويدل على أن المعتبر البلوغ لا الوجود أن المكلف مأمور بالعمل على وفق المنسوخ ما لم يظهر عنده

(١) ولكن هذا العمل لا يعطي الحق لصاحبه أن يُفتي به، لكن يبلغ الحديث كما سمعه، ثم يحيل على العلماء، كما جاء في الحديث: «إنما شفاء العي السؤال».

الناسخ، فإذا ظهر لا يعيد ما عمل على وفق المنسوخ، بل صحّح ذلك حديث نسخ القبلة إلى الكعبة المشرفة، فإن خبره وصل إلى أطراف المدينة المنورة، كأهل قباء وغيرهم بعدما صلوا على وفق القبلة المنسوخة، فمنهم من وصله الخبر في أثناء الصلاة، ومنهم من وصله بعد أن صلى الصلاة، والنبي ﷺ قررهم على ذلك، ولم يأمر أحداً منهم بالإعادة، فلا عبرة لما قيل لا يجوز العمل قبل البحث عن المعارض والمخصص، وإن ادعى عليه الإجماع، فإنه لو سلم، فإجماع الصحابة وتقرير النبي ﷺ مقدّم على إجماع من بعدهم»^(١) اهـ.

قلت: ومِمّا يجلي معنى الكلام السابق بصورة أوضح، تتبع تاريخ ظهور الاختلاف بين المجتهدين، وكيف نشأ، وأسباب نشوئه؟

وممن سرد هذا التاريخ، وأجاب على الأسئلة المطروحة: شاه ولي الله أحمد عبد الرحيم الفاروقي الدهلوي في «الإنصاف في بيان سبب الاختلاف في الأحكام الفقهية»، فقال في أول كتابه:

«أعلم أن رسول الله ﷺ لم يكن الفقه في زمانه مدوناً، ولم يكن البحث يومئذ مثل بحث هؤلاء الفقهاء حيث يبينون بأقصى جهدهم الأركان والشروط والآداب، كل شيء ممتازاً عن الآخر بدليله... أما رسول الله ﷺ فكان يتوضأ فيرى الصحابة وضوءه فيأخذون به، من غير أن يبين: هذا ركن، وذلك أدب، فكان يصلي فيرون صلاته فيصلون كما رأوه يصلي، وحج فرمق الناس حجه ففعلوا كما فعل، وهذا كان غالب حاله ﷺ، ولم يبين أن فروض الوضوء ستة أو أربعة، ولم يفرض أنه يحتمل أن يتوضأ إنسان بغير موالاة حتى يحكم عليه بالصحة أو الفساد، إلا ما شاء الله، وقلّما كانوا يسألونه عن هذه الأشياء...

وكان ﷺ يستفتيه الناس في الوقائع فيفتيهم، وترفع إليه القضايا فيقضي فيها، ويرى الناس يفعلون معروفاً فيمدحه، أو منكراً فينكر عليه، وما كل ما أفتى به مستفتياً عنه، وقضى

(١) وهذا التقرير يستوي في حق المجتهد العامي، فكلاهما مطالب بالعمل بالنص حين بلوغه إياهما، فليس الأصل في أحقهما التوقف عن العمل خشية من وجود ناسخ أو مخصص أو مقيد، ولكن يفارق المجتهد العامي بأنه مطالب أيضاً بعد العمل بالنظر في الأدلة الأخرى حتى يطمئن من عدم وجود معارض.

به في قضية أو أنكره على فاعله كان في الاجتماعات، ولذلك كان الشيخان أبو بكر وعمر إذا لم يكن لهما علم في المسألة يسألان الناس عن حديث رسول الله ﷺ...

وبالجملة فهذه كانت عادته الكريمة ﷺ، فرأى كل صحابي ما يسره الله له من عباداته وفتاواه وأقضيته، فحفظها وعقلها، وعرف لكل شيء وجهًا من قبل حفوف القرائن به، فحمل بعضها على الإباحة، وبعضها على الاستحباب، وبعضها على النسخ لأمارات وقرائن كانت كافية عنده، ولم يكن العمدة عندهم إلا وجدان الاطمئنان والثلج، من غير التفات إلى طرق الاستدلال، كما ترى الأعراب يفهمون مقصود الكلام فيما بينهم وتثلج صدورهم بالتصريح والتلويع والإيماء من حيث لا يشعرون.

فانقضى عصره الكريم، وهم على ذلك، ثم إنهم تفرقوا في البلاد، وصار كل واحد مقتدى به في ناحية من النواحي، فكثرت الوقائع، ودارت المسائل، فاستفتوا فيها، فأجاب كل واحد حسب ما حفظه أو استنبطه.

وإن لم يجد فيما حفظه أو استنبطه ما يصلح للجواب اجتهد برأيه وعرف العلة التي أدار رسول الله ﷺ عليها الحكم في منصوصاته، فطرد الحكم حيثما وجدها، لا يألو جهدًا في موافقة غرضه عليه الصلاة والسلام؛ فعند ذلك وقع الاختلاف بينهم على ضروب...، فسرده هذه الضروب، ثم قال بعدها كما في (ص ٨): «وبالجملة فاختلفت مذاهب أصحاب النبي ﷺ، وأخذ عنهم التابعون كل واحد ما تيسر له، فحفظ ما سمع من حديث رسول الله ﷺ ومذاهب الصحابة وعقلها، وجمع المختلف على ما تيسر له، ورجح بعض الأقوال على بعض... فعند ذلك صار لكل عالم من علماء التابعين مذهب على حياله في بلد إمام: مثل سعيد بن المسيّب، وسالم بن عبد الله بن عمر في المدينة، وبعدهما الزهري، والقاضي يحيى بن سعيد، وربيعة بن عبد الرحمن فيها، وعطاء بن أبي رباح بمكة، وإبراهيم النخعي، والشعبي بالكوفة، والحسن البصري بالبصرة، وطاوس بن كيسان باليمن، ومكحول بالشام، فأظمأ الله أكبادًا إلى علومهم فرغبوا فيها، وأخذوا عنهم الحديث وفتاوى الصحابة وأقاويلهم، ومذاهب هؤلاء العلماء وتحقيقاتهم من عند أنفسهم، واستفتى منهم المستفتون، ودارت المسائل بينهم...».

ثم قال بعد ذلك في (ص ١٠): «واعلم أن الله أنشأ بعد عصر التابعين نشأً من حملة العلم، إنجازاً لما وعده ﷺ حيث قال: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله»، فأخذوا عن اجتماعه معه صفة الوضوء والغسل والصلاة والنكاح والبيوع وسائر ما يكثر وقوعه... ثم صاروا كبراء قوم، ووسد إليهم الأمر، فنسجوا على منوال شيوخهم...» ثم ذكر كيف أسس الأئمة الأربعة مذاهبهم، والذي به يعرف منشأ الاختلاف بينهم، وبعد ذلك أشار إلى عصر تدوين الأحاديث والآثار، إلى أن قال: «ثم أنشأ الله تعالى قرناً آخر، فرأوا أصحابهم قد كفوهم مؤنة جمع الأحاديث، وتمهيد الفقه على هذا الأصل، ففترغوا لفنون أخرى: كتمييز الحديث الصحيح المجمع عليه من كبراء أهل الحديث، كيزيد بن هارون ويحيى بن سعيد القطان وأحمد وإسحاق وأضرابهم، وكجمع أحاديث الفقه التي بنى عليها فقهاء الأمصار وعلماء البلدان مذاهبهم، وكالحكم على كل حديث بما يستحقه، وكالشاذاة والفائدة من الأحاديث التي لم يرووها، أو طرقها التي لم يخرج من جهتها الأوائل، ممّا فيه اتصال أو علو سند، أو رواية فقيه عن فقيه، أو حافظ عن حافظ، أو نحو ذلك من المطالب العلمية، وهؤلاء هم: البخاري ومسلم وأبو داود وعبد بن حميد والدارمي وابن ماجه وأبو يعلى، والترمذي، والنسائي، والدارقطني، والحاكم، والبيهقي، والخطيب، والديلمي، وابن عبد البر وأمثالهم...».

ثم قال في (ص ٢٨): «اعلم أن الناس كانوا في المائة الأولى والثانية غير مجمعين على التقليد لمذهب واحد بعينه... وبعد المائتين ظهر فيهم التمدّج للمجتهدين بأعيانهم، وقلّ من كان لا يعتمد على مذهب مجتهد بعينه، وكان هذا هو الواجب في ذلك الزمان...» إلى أن قال في (٣٨): «ثم بعد هذه القرون كان ناس آخرون ذهبوا يميناً وشمالاً، وحدث فيهم أمور، منها: الجدل والخلاف في علم الفقه...»^(١).

(١) وقال العلامة محمد إسماعيل السلفي - أمير جمعية أهل الحديث بباكستان سابقاً - في «حجية الحديث النبوي» (ص ١٥٦) تحت عنوان «فقه التقليد»: «وذلك أن الاستنباط من الأدلة التفصيلية قد ترك بعد القرن الرابع تقريباً، وقبلت متون الفقه الشائعة كما هي، ولم يتعرض في الشروح للأدلة، بل اكتفى بما نقل عن الأئمة المتقدمين، وأهمل طريق الاستدلال والاستنباط، واقتصر

وأخيراً قال كما في (ص ٤٢): «ثم خلف من بعدهم خلف اختصروا كلام القوم، فتأولوا الخلاف، وثبتوا على مختار أئمتهم...».

«ومنها أن أقبل أكثرهم على التعمقات في كل فن، فمنهم من زعم أنه يؤسس علم أسماء الرجال ومعرفة مراتب الجرح والتعديل، ثم خرج من ذلك إلى التاريخ قديمه وحديثه، ومنهم من تفحص عن نوادر الأخبار وغرائبها، وإن دخلت في حدّ الموضوع؛ ومنهم من أكثر القيل والقال في أصول الفقه، واستنبط كل لأصحابه قواعد جدلية، وأورد فاستقصى، وأجاب فتقصي، وعرف وقسم، فحرّر وطوّل الكلام تارة، وتارة أخرى اختصر، ومنهم من ذهب بفرض الصور المستبعدة التي من حقها أن لا يتعرض لها عاقل، وسحب العمومات والإيماءات من كلام المخرجين فمن دونهم مما لا يرتضي استماعه عالم ولا جاهل.

وفتنة هذا الجدل والخلاف والتعمق قريبة من الفتنة الأولى حين تشاجروا في الملك وانتصر كل رجل لصاحبه، فكما أعقبت تلك ملكاً عضوضاً ووقائع صماً عمياً، فكذلك أعقبت هذه جهلاً واختلاطاً وشكوكاً وهماً ما لها من أرجاء؛ فنشأت بعدهم قرون على التقليد الصرف لا يميزون الحق من الباطل ولا الجدل من الاستنباط، فالفقيه يومئذ هو الثرثار المتشدد الذي حفظ أقوال الفقهاء قويا وضعيفها من غير تمييز، وسردها بشقشقة شذقيه، والمحدث من عدّ الأحاديث صحيحها وسقيمها وهراءها كهراء الأسماء بقوة لحبيه، ولا أقول ذلك كلياً مطرداً، فإن لله طائفة من عباده لا يضرهم من خذلهم، وهم حجة

على الفروع التي استنبطها المتقدمون، ووضعت هذه الفروع موضع الشرع، وتقرر أن التعرض للأدلة الأصلية من الكتاب والسنة والإجماع والقياس من وظائف المجتهد فقط، وأغلق باب الاجتهاد بعد القرن الرابع من الهجرة...

والذين يسمون اليوم فقهاء لا يتعدون الفروع المذكورة، والجزئيات التي وردت في كتب الفقه مثل الكنز والقُدوري والهداية ومختصر الوقاية وشرح الوقاية وغيرها قبلت كما هي، ولم يسمح لأحد بالبحث عن صحتها وسقمها، وهذه هي الحرفية والظاهرية، فكما وقف ابن حزم وأصحابه من ظواهر الحديث، كذلك وقف هؤلاء الفقهاء المتأخرون من ظواهر هذه المتون وشروحها. اهـ

الله في أرضه وإن قلّوا، ولم يأت قرن بعد ذلك إلا وهو أكثر فتنة وأوفر تقليدًا وأشدّ انتزاعًا للأمانة من صدور الناس؛ حتى اطمأنوا بترك الخوض في أمر الدين، وبأن يقولوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وإلى الله المشتكى وهو المستعان، وبه الثقة وعليه التكلان. اهـ

والشبهة الثالثة: ما قاله الكوثري الجهمي العنيد في مقاله «اللامذهبية قنطرة اللادينية» (ص ١٦): «إن من تابع المجتهد في جميع آرائه فقد خرج من العهدة أصاب مجتهد أم أخطأ، وكذا المجتهدون الآخرون؛ لأن الحاكم إذا اجتهد وأصاب فله أجران، وإذا اجتهد وأخطأ فله أجر واحد». اهـ

قلت: هذا قلبٌ للحقائق؛ لأن الذي يتبع مجتهدًا على صوابه وخطئه دون أن يتبين الصواب من الخطأ كالبهيمة التي تنقاد دون أن تدري منتهاها، وهذا - كما قال ابن القيم في «إعلام الموقعين» (ص ٣٧١ ط طيبة) - «الذي ذمّه كل عالم على وجه الأرض وحرّمه، وذمّوا أهله وهو أصل بلاء المقلّدين وفتنتهم، فإنهم يقلّدون العالم فيما زلّ فيه وفيما لم يزَلْ فيه، وليس لهم تمييز بين ذلك، فيأخذون الدين بالخطأ - ولا بد - فيحلّون ما حرم الله ويحرّمون ما أحلّ الله ويشرعون ما لم يشرع، ولا بد لهم من ذلك إذ كانت العصمة منتفية عمّن قلّدوه، والخطأ واقع منه ولا بد». اهـ

وقال صالح بن أحمد في كتابه «تحكيم الناظر فيما جرى من الاختلاف بين أمة أبي القاسم عليه السلام» (ص ٩٦) مخاطبًا المقلّدين المتعصّبين: «فبذلك جعلتم المسلمين على أربعة أقسام، وجعلتم لكل قسم منهم إمامًا خاصًا يتبعونه كما تتبع الرسل صلوات الله عليهم، وقلتم: من عمل منهم خلاف ما في كتب المذهب إمام بطل عمله ولو وافق كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وآله، وأثر الصحابة - رضوان الله عليهم - أو أحد الأئمة الثلاثة أو غيرهم من أهل العلم والفتوى، فإن كانت المخالفة في الأعمال قلتم بطل عمله، وإن كانت في المطعم قلتم: طعم شيئًا محرّمًا مع أنه طعم شيئًا حلالًا وعمل عملاً جائزًا في غير مذهب إمامه، ومن عمل منهم وفق مذهب إمامه قلتم جاز عمله وطعم شيئًا حلالًا، وإن خالف الكتاب والسنة والأثر وبقيّة الأئمة الثلاثة.

وصنيعكم هذا لا يخلو من أحد الأمور الأربعة لا محالة ولا بد أن تقولوا بواحد منها اضطراراً، أما أن تقولوا بتعدد الآلهة -تعالى الله عن الشريك-، أو تقولوا الحق متعدد عند الله سبحانه وتعالى، أو تقولوا لم يسبق حكم من الله تعالى إنما الأحكام تتجدد حسب اختلاف الأئمة المجتهدين، وإلا فيستحيل إصابة الحق جميعهم في أمر واحد يختلف فيه الأربعة أو الثلاثة أو الاثنان، وهذا كله أن لم تقولوه بالسنتكم وتعتقدوه بقلوبكم لكن لسان حالكم وأفعالكم ناطق به جهاراً، ولا ريب أن الله واحد، ورسوله الذي أرسله إلى هذه الأمة واحد وهو خاتم الأنبياء -صلوات الله عليهم-، وشريعته التي جاء بها واحدة، والحق واحد كما ذكر عن الإمام مالك رحمه الله، قال أشهب: سمعت مالكا يقول: ما الحق إلا واحد، قولان مختلفان لا يكونان صواباً جميعاً، ما الحق والصواب إلا واحد، قال أشهب: وبه يقول الليث، قال أبو عمر: الاختلاف ليس بحجة عند أحد العلماء من فقهاء الأمة إلا من لا بصر له ولا معرفة عنده ولا حجة في قوله. اهـ

والشبهة الرابعة: ما قاله الكوثري الجهمي العنيد في مقاله «اللامذهبية قنطرة اللادينية» (ص ١٢، ١٣) من أن الدعوة إلى نبذ التمدب هي دعوة إلى الإتيان باجتهادات جديدة تقوم مقام اجتهادات أئمة المذاهب الأربعة التي أجمعت الأمة عليها، ودعوة إلى الانفضاض من حول أئمة الدين الذين حرسوا أصول الدين الإسلامي وفروعه من عهد التابعين إلى اليوم.

قلت: وهذا من سوء فهم الكوثري أو من سوء طويته، أياهما فاختر؛ حيث إن العلماء الذين دعوا إلى نبذ التقليد والعصبية للمذاهب -ومنهم الأئمة الأربعة- ما عنوا بهذا البتة نبذ اجتهادات العلماء السابقين، بل قالوا إن المجتهد الذي حصل أدوات الاجتهاد لا يلزمه أن ينحصر في مذهب إمام بعينه لا يخرج عن أقواله واجتهاداته ما دام عنده القدرة على الاستنباط من الأدلة، فعليه أن يرجح بالدليل لا بقول المذهب، مع استعانتة -بلا شك- باجتهادات من سبقه من المتقدمين لا أنه يتفرد بفهم جديد للأدلة لم يسبق إليه من الأئمة المتقدمين.

وأما العامي فحالُه كما بينا هو حال عوام الصحابة والتابعين، يسأل ثقات أهل العلم في زمانه عما استشكل عليه من أمر دينه، مع مطالبته العالم بالدليل على فتواه، فيكون متبعًا للدليل لا للقول المجرد للعالم.

والعامي في هذا يكون معظّمًا لكل علماء السنة، وليس له دخل فيما ذكره الكوثري، فهو لما يسأل العلماء ويتبع الدليل دون أن ينتمي لمذهب بعينه أو يتعصّب لعالم بعينه، فقد أدى الواجب الشرعي المناط به، ولا يحق لمسلم فضلًا عن عالم أن يؤاخذه أو يدعي عليه أنه بهذا يريد هدم المذاهب الفقهية المتبعة.

والعالم الذي يدعو العامي إلى هذا الاتباع لا يدعوه إلى الانفضاض من حول أئمة الدين الذين حرسوا أصوله، وليس في دعوته هذه أي نيل من مذاهب أهل الحق، وليس هو متمسكًا مندسًا بين علماء المسلمين كما قال الكوثري العنيد.

ومن النكات المهمة في تجلية حقيقة التمدّج ما قاله ابن القيم رحمه الله كما في «إعلام الموقعين» (ص ٩٣٠-٩٣١):

«بل لا يصح للعامي مذهب ولو تمذهب به، فالعامي لا مذهب له؛ لأن المذهب إنما يكون لمن له نوع نظر واستدلال ويكون بصيرًا بالمذاهب على حسبه، أو لمن قرأ كتابًا في فروع ذلك المذهب، وعرف فتاوى إمامه وأقواله، وأما من لم يتأهل لذلك البتّة، بل قال: أنا شافعي أو حنبلي أو غير ذلك، لم يصّر كذلك بمجرد القول، كما لو قال: أنا فقيه أونحوي أو كاتب، لم يصّر كذلك بمجرد قوله.

يوضحه: أن القائل: إنه شافعي أو مالكي أو حنفي يزعم أنه متّبع لذلك الإمام سالك طريقه، وهذا إنما يصح له إذا سلك سبيله في العلم والمعرفة والاستدلال، فأما مع جهله وبعده جدًّا عن سيرة الإمام وعلمه وطريقه، فكيف يصح له الانتساب إليه إلا بالدعوى المجردة والقول الفارغ من كل معنى؟ والعامي لا يتصور أن يصح له مذهب، ولو تصور ذلك لم يلزمه ولا لغيره، ولا يلزم أحدًا قط أن يتمذهب بمذهب رجل من الأمة بحيث يأخذ أقواله كلها ويدع أقوال غيره» اهـ.

قلت: وافترى نحو افتراء الكوثري: رمضان البوطي -الإخواني الصوفي الجلد- في كتابه «لا مذهبية» (ص ٧٥) حيث ادعى على السلفيين أنهم يحقدون على أئمة السلف، ثم قال في (ص ٧٨): «ثم تمضون في تسفيه اجتهادات الأئمة الأربعة، وتحذير عامة الناس من اتباعهم».

وقد رد افتراءاته الشيخ محمد عيد عباسي في كتابه «بدعة التعصب المذهبي»، وكان مِمَّا قاله في ردِّ هذا الافتراء (ص ٢٨٦): «وأما استدلاله على اتهامنا بالحقْد على الأئمة بأننا نخالف بعض اجتهاداتهم، فهذا استدلال باطل؛ لأنه إن صدق ظنه بأننا نحقد على الأئمة، لمجرد أننا لا نتمسك بقول شخص معين منهم، كما يفعل غيرنا، فنقول له: إنك وجمهور الناس الذين يعرضون عن تقليد كل المجتهدين سوى مقلِّدِهم، يرد عليكم ما أوردتموه علينا، أنكم لا تأخذون بأقوالهم وآرائهم لأنكم تحقدون عليهم، بينما لا يرد علينا مثله أبدًا لأننا نأخذ منهم جميعًا ما وافق الكتاب والسنة، بينما أنتم لا تأخذون عنهم إلا شخصًا واحدًا، وقد يكون من المتأخرين المقلِّدين الذين لا يكاد يعرف أحدهم».

ثم ما رأيكم إذا حكمنا عليكم -بناء على هذا المنطق المتهافت- بأنكم تتركون قول النبي ﷺ: «لأنكم تحقدون عليه؟» اهـ.

والشبهة السادسة: ما تكرر ذكره في كتب أصول الفقه وآداب المفتي والمستفتي، ومنها «أدب الفتوى» لابن الصلاح حيث قال (ص ١٤٧): «وليس له -أي للعامي- التمذهب بمذهب أحد من أئمة الصحابة وغيرهم من الأولين وإن كانوا أعلم وأعلى درجة ممن بعدهم؛ لأنهم لم يفرغوا لتدوين العلم وضبط أصوله وفروعه، وليس لأحد منهم مذهب محررٌ مقررٌ، وإنما قام بذلك من جاء بعدهم الأئمة الناخلين لمذاهب الصحابة والتابعين، القائمين بتمهيد أحكام الوقائع قبل وقوعها، الناهضين بإيضاح أصولها وفروعها، كمالك وأبي حنيفة وغيرهما»^(١) اهـ.

(١) وقد نقل الجويني الإجماع على هذا القول، كما في «إتحاف المهتدين بمناب أئمة الدين» للدمنهوري (ق ٤٢/أ).

وقال علوي أحمد السَّاف في «الفوائد المكية فيما يحتاجه طلبة الشافعية» (ص ٨٩): «اعلم أنه لا

قلت: هذا التأصيل يذكرني بقول الأجهوري الأشعري في «جوهر التوحيد» في العقيدة الأشعرية في بيان مذهب السلف والخلف في الصفات: «مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أحكم»^(١)، مع الفارق، فانتبه!!

وتناسى من أصل هذا الأصل أن العامي لا يعنيه تحرير وتدوين المذاهب الفقهية، حيث إنه لا قدرة له وحده على الاستفادة من هذه المذاهب المدونة المحررة، فصار الأمر بالنسبة إليه سيان، ولكن التصوير الصحيح لحال العامي أن يقال: إن العامي لا دراية له بدلائل المسائل من ناحية العام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، والناسخ والمنسوخ، ومخالفة الصحابي للنص من عدمها... إلخ؛ وهذا هو مضمون كلام ابن القيم السابق نقله، فالعامي يحتاج العالم الرباني الذي حرر الأدلة وأنزلها منزلها الصحيح، ليفتيه، وهذا الاحتياج لا يقتضي تقليد العامي لهذا العالم تقليدًا أعمى، بل هو يسأل هذا العالم ويسأل أيضًا غيره من العلماء الثقات على حسب ما يتيسر له، دون أن يقصد تتبع الرخص، ودون أن يتعصب لقول أحد على أحد دون دليل.

وقال أيضًا ابن القيم في ردّ هذه الشبهة كما في الإعلام (ص ٩٣١): «وهذه بدعة قبيحة حدثت في الأمة لم يقل بها أحد من أئمة الإسلام، وهم أعلى رتبة وأجل قدرًا وأعلم بالله ورسوله من أن يلزموا الناس بذلك، وأبعد منه قول من قال: يلزمه أن يتمذهب بمذهب عالم من العلماء، وأبعد منه قول من قال: يلزمه أن يتمذهب بأحد المذاهب الأربعة.

فيالله العجب ماتت مذاهب أصحاب رسول الله ﷺ ومذاهب التابعين وتابعيهم وسائر أئمة الإسلام وبطلت جملة إلا مذاهب أربعة أنفس فقط من بين سائر الأمة والفقهاء»^(٢)،

يد للمكلف غير المجتهد المطلق من التزام التقليد لمذهب معين من مذاهب الأئمة الأربعة في الفروع الاجتهادية»، وقال أيضًا: «فقد صرح جمع من أصحابنا بأنه لا يجوز تقليد غير الأئمة الأربعة».

(١) والصواب: أن مذهب السلف هو الأسلم والأحكم، وما سواه باطل بلا ريب ولا أدنى ميل.

(٢) سئل شيخ الإسلام كما في المجلد العشرين من الفتاوى الخاص بالتمذهب (ص ٥٨٣): «هل يسوغ تقليد هؤلاء الأئمة: كحماد بن أبي سليمان وابن المبارك وسفيان الثوري والأوزاعي، وقد

وهل قال ذلك أحد من الأئمة أو دعا إليه أودلت عليه لفظه واحدة من كلامه عليه، والذي أوجبه الله تعالى ورسوله على الصحابة والتابعين وتابعيهم هو الذي أوجبه على من بعدهم إلى يوم القيامة. اهـ

وقال ابن حزم في الأحكام (٣١٥/٦): «إذا كان الصحابة والتابعون -رضي الله عنهم- لا يستجيزون نسبة ما يعبدون به ربهم ولا مذهبهم إلى أبي بكر ولا إلى عمر ولا إلى عثمان ولا إلى علي، ولا ينتسبون إلى أحد دون رسول الله ﷺ، فكيف بهم لو شاهدوا ما نشاهده من المصائب الهادمة للإسلام على من امتحنه الله به من الانتماء إلى مذهب فلان وفلان، والإقبال على أقوال مالك وأبي حنيفة والشافعي، وترك أحكام القرآن وكلام النبي ﷺ ظهوراً، والحمد لله على تثبيته إيانا على دينه وسنته التي مضى عليها أهل الأعصار المحمودة قبل أن تحدث بدعة التقليد وتفشو وبالله نعتصم». اهـ

قلت: وسئل الشيخ حمد بن ناصر معمر: هل يلزم المبتدئين المتعلمين الترقى إلى معرفة الدليل الناص على كل مسألة؟

فأجاب: «عليه أن يتقي الله بحسب استطاعته، فيلزمه من ذلك ما يمكنه، ويسقط عنه ما يعجز عنه، ولا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا»، فلا يهجم على التقليد، ويخلد إلى أرضه

قال عنهم رجل -أعني هؤلاء الأئمة المذكورين- هؤلاء لا يلتفت إليهم، فصاحب هذا الكلام ما حكمه؟

فأجاب -رحمه الله-: «وأما الأئمة المذكورون فمن سادات أئمة الإسلام؛ فإن الثوري إمام أهل العراق وهو عند أكثرهم أجل من أقرانه كابن أبي ليلى والحسن بن صالح بن حي وأبي حنيفة وغيره وله مذهب باق إلى اليوم بأرض خراسان، والأوزاعي إمام أهل الشام وما زالوا على مذهبه إلى المائة الرابعة بل أهل المغرب كانوا على مذهبه قبل أن يدخل إليهم مذهب مالك وحماد بن أبي سليمان هو شيخ أبي حنيفة.

ومع هذا فهذا القول هو قول أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وغيرهما، ومذهبه باق إلى اليوم وهو مذهب داود بن علي وأصحابه، ومذهبهم باق إلى اليوم فلم يجمع الناس اليوم على خلاف هذا القول؛ بل القائلون به كثير في المشرق والمغرب ليس في الكتاب والسنة فرق في الأئمة المجتهدين بين شخص وشخص، فمالك والليث بن سعد والأوزاعي والثوري: هؤلاء أئمة في زمانهم وتقليد كل منهم كتقليد الآخر؛ لا يقول مسلم إنه يجوز تقليد هذا دون هذا. اهـ

مع قدرته على معرفة الدليل، لا سيما إذا كان قاضياً أو مفتياً، وله ملكة قوية يقوى بها على الاستدلال ومعرفة الراجح.

فإن الرجل النبيه الذي له فهم وفيه ذكاء، إذا سمع اختلاف العلماء وأدلتهم في الكتب التي يذكر فيها أقوال العلماء وأدلتهم كالمغني والشرح والتمهيد لابن عبد البر، ونحو هذه الكتب، يحصل عنده في الغالب ما يعرف به رجحان أحد القولين^(١) اهـ.

وقال الإمام عبد العزيز بن باز رحمته الله في «تنبيهات هامة على ما كتبه الشيخ محمد علي الصابوني في صفات الله عز وجل» (ص ٩، ١٠) في تعليقه على قول الصابوني عن تقليد الأئمة الأربعة: «إنه من أوجب الواجبات»: «لا شك أن هذا الإطلاق خطأ، إذ لا يجب تقليد أحد من الأئمة الأربعة ولا غيرهم، مهما كان علمه؛ لأن الحق في اتباع الكتاب والسنة، لا في تقليد أحد من الناس.

إنما قصارى الأمر أن يكون التقليد سائغاً عند الضرورة؛ لمن عرف بالعلم والفضل واستقامة العقيدة، كما فصل ذلك العلامة ابن القيم رحمته الله في كتابه إعلام الموقعين^{١٠} اهـ. والشبهة السابعة: أنه جاء في الحديث: «أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم»، قال المتعصبون: فهذا فيه الأمر بتقليد الصحابة والاقتداء بأي واحد منهم، ويقاس على هذا العلماء بعد الصحابة، فيجوز لنا الاقتداء بأحدهم وتقليده في كل أقواله واجتهاداته.

قلت: وهذه شبهة واهية جداً، فنقول أولاً لهؤلاء: أثبتوا العرش ثم انقشوا، فمن الذي صحح هذا الحديث المزعوم حتى نقول بدلالته بل نقيس عليه.

فهذا حديث موضوع مكذوب من كل طرفة، لا يثبت له إسناد كما بين هذا في بحث علمي رائق: أمير المؤمنين في علم الحديث لهذا الزمان: محمد ناصر الدين الألباني - رحمه الله - رحمة واسعة - كما في السلسلة الضعيفة (٥٨-٦٢).

وقال ابن حزم في الإحكام (٢٤٣/٦): «وأما الرواية أصحابي كالنجوم فرواية ساقطة»، ثم قال في بيان نكارة معنى الحديث: «فقد ظهر أن هذه الرواية لا تثبت أصلاً، بل لا شك

أنها مكذوبة؛ لأن الله تعالى يقول في صفة نبيه ﷺ: ﴿وَمَا يَطِقُ عَنِ الْمَوْتِ ۚ إِنَّهُ مُوَلِّاٌ وَهَىٰ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]، فإذا كان كلامه ﷺ في الشريعة حقاً كله، فهو من الله تعالى بلا شك، وما كان من الله تعالى فلا اختلاف فيه لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرْدَانَّ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقد نهى تعالى عن التفرق والاختلاف بقوله: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، فمن المحال أن يأمر رسول الله ﷺ باتباع كل قائل من الصحابة -رضي الله عنهم-، وفيهم من يحلل الشيء وغيره منهم يحرمه، ولو كان ذلك لكان بيع الخمر حلالاً اقتداءً بسمرة بن جندب، ولكان أكل البرد للصائم حلالاً اقتداءً بأبي طلحة، وحراماً اقتداءً بغيره منهم، ولكان ترك الغسل من الإكسال واجباً اقتداءً بعليٍّ وعثمان وطلحة وأبي أيوب وأبي بن كعب، وحراماً اقتداءً بعائشة وابن عمر، ولكان بيع الثمر قبل ظهور الطيب فيها حلالاً اقتداءً بعمر، حراماً اقتداءً بغيره منهم.

وكلُّ هذا مروي عندنا بالأسانيد الصحيحة تركناها خوف التطويل بها، وقد بينا آنفاً إخباره ﷺ أبا بكر بأنه أخطأ، وقد كان الصحابة يقولون بآرائهم في عصره ﷺ فيبلغه ذلك فيصوب المصيب، ويخطئ المخطئ، فذلك بعد موته ﷺ أفسى وأكثر. اهـ.

قلت: ولو صح الحديث فإن تأويله على ما قال ابن عبد البر، حيث قال رحمته الله في الاستذكار (٧/٤) بعد أن ذكر اختلاف ابن عباس والمسور بن مخرمة في غسل رأس المحرم: «وهذا يبين لك أن قوله ﷺ: أصحابي كالنجوم، هو على ما فسره المزني وغيره، وأن ذلك: في النقل؛ لأن جميعهم ثقات عدول فوجب قبول ما نقل كل واحد منهم، ولو كانوا كالنجوم في آرائهم واجتهادهم، إذا اختلفوا لقال ابن عباس للمسور: أنت نجم وأنا نجم، فلا عليك، وبأينا اقتدى المقتدي فقد اهتدى، ولم احتاج لطلب البينة والبرهان من السنة على صحة قوله». اهـ.

الشبهة الثامنة: قول من قال إن الله أمرنا بتقليد إبراهيم عليه السلام، وقد ساق هذه الشبهة وردَّ عليها أحسن ردٍّ: ابن حزم كما في الإحكام (٢٣٥/٦)، حيث قال: «واحتج بعضهم بقول

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

قال أبو محمد: وهذا من القحة ما هو؛ لأن الشيء الذي يأمر به الله ليس تقليداً، ولكنه برهان ضروري، والتقليد إنما هو اتباع من لم يأمرنا ﷺ باتباعه، وإنما التقليد الذي يخالفهم فيه أخذ قول رجل ممن دون النبي ﷺ لم يأمرنا ربنا باتباعه بلا دليل يصح قوله، لكن فلاناً قاله فقط فهذا هو الذي يبطل، ولكن من لا يتقي الله ﷻ ممن قد بهره الحق وعجز عن نصره الباطل، وأراد استدامة سوقه، ولا يبالي إلى ما أداه ذلك أوقع على اعتقاد الحق الذي قد ثبت برهانه اسم التقليد فسمى الانقياد لخبر الواحد تقليداً، وسمى الإجماع تقليداً وسمى اتباع النبي ﷺ فيما أمر باتباعه من ملة إبراهيم ﷺ تقليداً.

فإن أرادوا منا تصحيح هذه المعاني فهي صحاح لقيام النص بوجوبها، وإن أرادوا أن يطرقوا بذلك إلى تقليد مالك والشافعي وأبي حنيفة فذلك حرام وباطل^(١)، وليس في اتباع ملة إبراهيم ما يوجب اتباع مالك وأبي حنيفة والشافعي؛ لأنهم غير إبراهيم المأمور باتباعه، ولم نؤمر قط باتباع هؤلاء المذكورين وإنما هذا بمنزلة من سمى الخنزير كبشاً وسمى الكيش خنزيراً، فليس ذلك مما يحل الخنزير ويحرم الكيش، وكذلك إنما نحرم اتباع من دون النبي ﷺ بغير دليل ونوجب اتباع ما قام الدليل على وجوب اتباعه ولا نلتفت إلى من خرج الأسماء، فسمى الحق تقليداً وسمى الباطل اتباعاً، وقد بينا قبل وبعد أن الآفة العظيمة إنما دخلت على الناس وتمكن بهم أهل الشر والفسق والتخليط والسفسطة ولبسوا عليهم صيغهم فمن قبل اشتراك الأسماء واشتباكها على المعاني الواقعة تحتها، ولذلك دعونا في كتبنا إلى تمييز المعاني وتخصيصها بالأسماء المختلفة فإن وجدنا في اللغة اسماً مشتركاً حقيقاً المعاني التي تقع تحته وميزنا كل معنى منها بحدوده التي هي صفاته التي لا يشاركه فيها سائر المعاني؛ حتى يلوح البيان فيهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة. اهـ

(١) أي التقليد بدون حجة، أما إذا أخذ بقولهم المؤيد بالحجج والبراهين من الكتاب والسنة، اتباعاً لهذه الحجج لا أخذاً بقولهم المجرد، فهذا ليس تقليداً.

قلت: وبهذا يتبين لك أيها القارئ الكريم مناط داء التعصب الذي يدور بحثنا حول تشخيصه، وهو يتلخص فيما يلي:

أن يتعصب المرء لقول شيخه، ويقدسه بدون حجة صحيحة من الكتاب والسنة، وإنما لشبهة، أو لعاطفة يحملها تجاه شيخه، وهي بلا ريب عاطفة مشوبة بالهوى.

ومن ثمَّ يتبين لنا أيضًا تهافت الشبهة التي قد يثيرها البعض، وهي أنهم إذا رأوا من يتبع أقوال العلماء المدعمة بالأدلة الصريحة من الكتاب والسنة بفقه سلف الأمة، وينتصر للحق الذي يحمله هؤلاء العلماء ويذب عن بيضتهم صيال أهل الأهواء، قالوا: إن فلانًا متعصبٌ للعلماء ومقلدٌ لهم، وهذا بلا ريب تخليط وتلبيس يستنكف منه اللبيب الرشيد، فإن المنتصر للعلماء الذاب عن بيضتهم إنما هو يصنع ذلك دفاعًا عن المنهج الحق الذي يحملونه، وهو إن انتصر لأقوالهم فلا ينتصر لأقوال مجردة من الحجة إنما ينتصر لأدلة الكتاب والسنة التي تثبت هذه الأقوال، كما قال ابن القيم في الروح (ص ٣٥٦، ٣٥٧): «الفرق بين تجريد متابعة المعصوم وإهدار أقوال العلماء وإلغائها:

أن تجريد المتابعة: أن لا تقدم على ما جاء به قول أحد ولا رأيه كائنًا من كان، بل تنظر في صحة الحديث أولاً، فإذا صح لك نظرت في معناه ثانيًا، فإذا تبين لك لم تعدل عنه ولو خالفك من بين المشرق المغرب؛ ومعاذ الله أن تتفق الأمة على مخالفة ما جاء به نبيها، بل لا بد أن يكون في الأمة من قال به ولو لم تعلمه، فلا تجعل جهلك بالقائل به حجة على الله ورسوله، بل اذهب إلى النص ولا تضعف، واعلم أنه قد قال به قائل قطعًا ولكن لم يصل إليك.

هذا؛ مع حفظ مراتب العلماء وموالاتهم واعتقاد حرمتهم وأمانتهم واجتهادهم في حفظ الدين وضبطه، فهم دائرون بين الأجر والأجرين والمغفرة؛ ولكن لا يوجب هذا إهدار النصوص وتقديم قول الواحد منهم عليها، بشبهة انه أعلم بها منك فإن كان كذلك فمن ذهب إلى النص أعلم به منك؛ فهلاً وافقته إن كنت صادقاً! فمن عرض أقوال العلماء على النصوص ووزنها بها وخالف منها ما خالف النص، لم يهدر أقوالهم ولم يهضم جانبهم بل

تعدى بهم فإنهم كلهم أمروا بذلك، فمتبعهم حقاً من امتثل ما أوصوا به، لا من خالفهم بخلافهم في القول الذي جاء النص بخلافه، أسهل من مخالفتهم في القاعدة الكلية التي أمروا ودعوا إليها من تقديم النص على أقوالهم.

ومن هنا يتبين الفرق بين تقليد العالم في كل ما قال وبين الاستعانة بفهمه والاستضاء بنور علمه، فالأول يأخذ قوله من غير نظر فيه ولا طلب لدليله من الكتاب والسنة، بل يجعل ذلك كالحبل الذي يلقيه في عنقه يقلده به، ولذلك سمي تقليدًا، بخلاف ما استعان بفهمه واستضاء بنور علمه في الوصول إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه؛ فإنه يجعلهم بمنزلة الدليل إلى الدليل الأول فإذا وصل إليه استغنى بدلالته عن الاستدلال بغيره، فمن استدل بالنجم على القبلة فإنه إذا شاهدها لم يبق لاستدلاله بالنجم. اهـ

قلت: فالاتباع للعلماء إنما هو اتباع ما معهم من أدلة الكتاب والسنة ليس اتباعًا لنواهم وأشخاصهم.

وقد وجّه هذا السؤال لإمام السنة في زماننا: العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله:

السؤال: يقول بعض الناس «إن السلفيين ينهون الناس عن التقليد والتعصّب لرجل بعينه، وهم بأنفسهم قد وقعوا في تقليد الشيخ الألباني، فتجد أنهم يتبنون كل ما يتبناه الشيخ الألباني من آراء فقهية، ولا يخرجون عن أقواله وآرائه إلا نادرًا، وكأنهم وضعوا كل علماء الأمة على جنب، وأخذوا فقط عن الشيخ الألباني، وإذا ما خالف أحد الشيخ الألباني في بعض المسائل أو أخطأ رأيًا من آرائه، اعتبروه خارجًا عن المنهج السلفي، أو على الأقل طعن في الدعوة السلفية، أو يتهمونه بأنه لا يحب الشيخ أو يحترمه، إلى غير ذلك من الاتهامات... وفي الحديث أيضًا لا يأخذون ولا يعتبرون إلا بأقواله تصحيحًا وتضعيفًا، فإذا قال صحيح، قالوا: صحيح، وإذا قال: ضعيف، قالوا: ضعيف، وإذا تراجع عن حكم أصدره على حديث تراجعوا.

فما هي نصيحتكم لطلبة العلم المتسبين إليكم، إن كان بعضهم يتصف بهذا الوصف، لا

سيما وأن هذه المواقف من بعض المنتسبين لكم قد أدى إلى خلق بعض الخصومات والمشاحنات، وأدى ذلك في بعض الأحيان إلى التحامل عليكم شخصياً من قبل المشايخ وطلاب العلم بسبب تصرفات ومواقف بعض المنتسبين إليكم؟

فأجاب الشيخ رحمه الله قائلاً:

جواباً عن هذا السؤال، في اعتقادي لا يمكن إلا بعد أن نفهم من هؤلاء النقاد أو المعترضين؟ ما هو السبيل؟ أفهم أنا من السؤال أن السبيل ألا يتعصبوا للشيخ الألباني لا فيما يتعلق بالحديث، ولا فيما يتعلق بالفقه، وهذا الذي نحن ندعوا الناس إليه، لكن في تداعي هذا السؤال ما فيه ردٌ عليهم، ولعلّ هذا من إنصافهم -إلا أن تكون رمية من غير رام- حيث جاء في السؤال إلا نادراً، فلماذا يخالفونه نادراً؟ الجواب هنا.. يخالفونه نادراً، وهذا موجود، وإن كان هذا النادر يعني تارة يكون صواباً، وتارة يكون خطأ، لكن هذا النادر هو ردٌ لصميم هذا السؤال، فما دام أن فيه هناك من الذين ينتسبون إلى الدعوة السلفية من يخالف الألباني تارة في التصحيح والتضعيف، وتارة في بعض الأحكام الفقهية، فمعنى ذلك أنهم لم يقعوا في التقليد، فكيف التوفيق بين هذا وبين هذا، أنا أعتقد أن كلاً من الفريقين مُتجنن على الآخر وغير معتدل في منهجه ومشربه، أنا أشعر بأن الناقلين يريدون من كل من يتبنى المنهج السلفي ألا يقبل رأي الألباني في التصحيح أو التضعيف؛ لأن هذا تقليد، وكذلك يقال في الأحكام الفقهية، وهذا بلا شك يعني غلو في العلم لا يقول به عالم، وعندنا في عمان من يدعى مثل هذا الكلام، فقلنا له: هل تُكَلِّف كل إنسان من هؤلاء المسلمين حتى من كان منهم من العوام .. أن يكون هدفه أن يخالف الشيخ الألباني في التصحيح والتضعيف، وفي الأحكام الشرعية؟

ولماذا؟ أليس من واجبهم كما قال تعالى: ﴿ فَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

[الأنبياء: ٧]؟

طبعاً لا يسعه إلا أن يقول: هذا هو الجواب، فإذا كان يتيسر له سؤال الألباني، ولا يتيسر له سؤال الألباني آخر، فماذا ينقم على هؤلاء أنهم يُسرّ لهم من يستفيدون من علمه

قاتبعوه وقلّدوه؛ لأنهم لا يستطيعون إلا هذا التقليد، لكن الخطأ أن يدع الإنسان رأيه الذي وصل إليه بعلمه... لأن الشيخ لا يقول بهذا الرأي، هذا ما أظن يجد هؤلاء الناقدون مثلاً يضربونه لإثبات دعواهم، ولذلك فأنا أقول إن الخلاف الذي أشير إليه في السؤال، هو والله أعلم ناشئ من سوء الفهم، وليس لكون كل سلفي يتعصّب للألباني، ولو كان يعلم أن الألباني أخطأ، نحن على العكس من ذلك، كل يوم تقريباً تجيء إلينا اعتراضات من إخواننا فيما يتعلق بالحديث، وأحياناً في بعض الأحكام، وأحياناً كتابةً، وأحياناً هاتفياً، وأحياناً يتيسر لنا الرد عليهم، وتخطئتهم وبيان وجه الخطأ، وأحياناً نقرهم على صوابهم، ونعلن ذلك في بعض ما يتيسر لنا من كتابات، فالأمر كما هو معروف عن الإمام مالك: ما منا من أحد إلا يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر.

لكن السائل -مع دعواه-: ماذا يجب على العامة أن يفعلوه؟ هل يجب عليهم أن يجتهدوا الجواب؟ فيما أعتقد عن هذا الناقد وأمثاله: لا يجب؛ لأنهم لا يستطيعون .

ننزل مرتبة ثانية، وهى التى نحن ندعو الناس إليها، كلهم لا يستطيعون الاجتهاد، فعليهم الاتباع، أى: أن يعرفوا دليل المسألة التى يقول بها فلان، لكن هذا الاتباع أيضاً ليس يتيسر لكل عامة الناس؛ لأنه يحتاج إلى شئ من الوعى والثقافة والفهم، وبخاصة فيما يتعلق بعلم الحديث بالتصحيح والتضعيف، ولا مجال هنا إلا للتقليد، فماذا يسميه الإمام الصنعاني في رسالته في الاجتهاد والتقليد.. «إرشاد النقّاد»؟ يسميه اتباعاً، ولا يسميه تقليداً.

أما النوع الثانى من العلم وهو الأحكام، فإذا استطاع فرد من أفراد العوام أن يستوعب وجهة نظر المتبني للمسألة فيها ونعمت، وإلا فلا يسعه إلا التقليد.

بعض المغالين فى هذا يقولون إن التقليد حرام، ومن يقول هذا الكلام لا يمكنه إلا أن يكون مقلداً؛ ولذلك القضية تحتاج إلى شئ من الاعتدال... لا شك نحن لا نرضى أن يقلد من هو أعلم منا وأتقى منا تقليداً أعمى فضلاً عن أن نرضى على أن نُقلّد نحن، ونحن دونهم بمراحل فى كل تلك الأوصاف التى ذكرنا، ولكن هذا لا يعنى أن نفتتح باب الاجتهاد وباب الاتباع لكل ناعقٍ، لكل جاهلٍ، فيركب رأسه ويصحّح ويضعّف، وقد تغلب عليه

شهوة مخالفة الألباني -مخالفة رأيه-؛ لأن الألباني ليس بمعصوم، هذا صحيح، لكن كونه غير معصوم لا في الحديث ولا في الفقه، لا يسول لمن لم يكن من أهل العلم أن يجتهد في التصحيح و التضعيف، أو التحريم والتحليل، وغيرهما من الأحكام الشرعية، فإذا المسألة تحتاج إلى اعتدال، مَنْ كان يستطيع أن يكون تابعاً عارفاً أدلة الشيخ الألباني أو غيره، فترجح عنده ما عليه الألباني فلا يُعاب عليه، ولا يسمى مُقلِّداً للألباني، وإن كان لا يستطيع هذا، ليس مكلفاً إلا بالتقليد، ثم هو مُخَيَّر كل التخيير أن يقلد من تطمئن له نفسه وينشرح له صدره، ولا نستطيع نحن أن نكلف كل إنسان بأن يقلد أى إنسان، وإنما يقلد من تيسر له الاتصال به وسؤاله أو..أو..إلى آخره.

وأنا أشعر بشئ ربما لا يشعر به الآخرون، أنا مثلاً أسأل من منبع العلم السلفي -فيما نظن إن شاء الله- وهي بلاد السعودية، فنسأل هناك من مختلف البلاد وليس فقط من الشباب، بل وحتى من النساء، ماذا نقول لهؤلاء السائلين من النوعين، عندهم شيوخ بلا شك، ويأمنونهم أن يسألوهم، ولا شك أنهم يسألونهم، لكن يجدون مسئولا آخر يظنون بحق أو بخطأ أنه على شيء من العلم، فيتصلون مع بُعد المسافة يأخذون رأيه، ثم بعد ذلك هم مأمورون بأن يأخذوا بالرأى الذى انشرح صدرهم له أو اطمأنت نفوسهم له.

فنحن إذن إن وجد شخصٌ يتعصبُ لنا تعصباً أعمى خلاف هذا البيان الذى ذكرناه، نحن الآن -وندعوا إليه من قديم الزمان- لسنا مسئولين عن أخطائه، كما أن الأئمة الأربعة أنفسهم ليسوا مسئولين عن تعصب أتباعهم لهم؛ لأنهم قد قالوا: خذوا من حيث أخذنا، وهذا الكلام كما قلنا آنفاً، إنما هو موجه لمن يستطيع أن يأخذ من حيث أخذوا، أما العامة فلا بد لهم من التقليد شأوا أم أبوا؛ لأن هذا من باب ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، هذا ما عندي من جواب على ذاك السؤال.

قلت: ومن قبل قالوها لمن سار على منهج إمام السنة أحمد بن حنبل رحمته الله في الانتصار لاعتقاد أهل السنة، أو في الأخذ ببعض أقواله المؤيدة بالدليل في مسائل الفقه، فقالوا: أنتم تتعصبون للمذهب الحنبلي!!

ثم قالوا: بل وتتعصبون لشيخ الإسلام ابن تيمية ولتلميذه ابن قيم الجوزية -رحمهما الله تعالى- !!

ثم قالوا: بل وتتعصبون أيضاً للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمته الله، فأنتم وهابية!!

وأخيراً قالوا: بل أنتم تتعصبون للألباني، فأنتم ألبانيون؟
ومن بعد قالوا: بل أنتم تتعصبون لمقبل بن هادي الوادعي، فأنتم وادعيون!!
وتتعصبون لربيع بن هادي المدخلي، فأنتم مداخلة، أو ربيعون!!... إلخ.
هو هو الانتهاء نفسه، لكل من سار على نهج أئمة السنة من السابقين أو اللاحقين
قاصداً اتباع السنة لا قاصداً اتباع الرجال لأشخاصهم، أو التعصب لأقوالهم بغير برهان.
والرد هو ما قرره العلامة الألباني رحمته الله في الإجابة السابقة.

وكم فارق دقيق بين العلماء المجتهدين وأهل الأهواء المتعصبين بينه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله في كتابه «القواعد النورانية» (٢/٣٤٢): «وسبب الفرق بين أهل العلم وأهل الأهواء -مع وجود الاختلاف في قول كل منهما- أن العالم قد فعل ما أمر به من حسن القصد والاجتهاد، وهو مأمور في الظاهر باعتقاد ما قام عنده دليله، وإن لم يكن مطابقاً، لكن اعتقاداً ليس بيقيني، كما يؤمر الحاكم بتصديق الشاهدين ذوي العدل -وإن كانا في الباطن قد أخطأ أو كذبا-...»، إلى إن قال: «إذا اعتقد العالم اعتقادين متناقضين في قضية أو قضيتين، مع قصده للحق واتباعه لما أمر باتباعه من الكتاب والحكمة: عذر بما لا يعلمه، وهو الخطأ المرفوع عنا بخلاف أصحاب الأهواء؛ فإنهم ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، ويجزمون بما يقولونه بالظن والهوى جزماً لا يقبل النقيض مع عدم العلم بجزمه؛ فيعتقدون ما لم يؤمروا باعتقاده -لا باطناً ولا ظاهراً- ويقصدون ما لم يؤمروا بقصده، ويجتهدون اجتهداً لم يؤمروا به؛ فلم يصدر عنهم من الاجتهاد والقصد ما يقتضي مغفرة ما لم يعلموه؛ فكانوا ظالمين شبيهاً بالمغضوب عليهم، أو جاهلين شبيهاً بالضالين.
فالمجتهد الاجتهاد العلمي المحض ليس له غرض سوى الحق، وقد سلك طريقه،
وأما متبع الهوى المحض فهو يعلم الحق ويعاند عنه». اهـ.

قلت: وعليه فإن الإنكار مُنصب على من يتبين له الدليل الصحيح الصريح من الكتاب والسنة ثم يرده أو يتأوله تأويلاً غير سائغ لمخالفته لقول شيخه.

والبعض قد يعرض متعمداً عن معرفة أدلة العلماء الذين خالفوا شيخه حتى لا يقيم على نفسه الحجة، ويكتفي باتباع قول شيخه، وهذا القول قد أتى عليه شيخه بأدلة -في نظره- لكنها مرجوحة وقد تكون ضعيفة جداً لكن كما قيل في المثل السائر: «الغريق يتعلق بقشة»، وإنما ينبغي هذا المتعصب أن يقنع نفسه ويقنع المخدوعين أمثاله أنهم متبعون لشيخهم بالدليل، وبهذا يتصور أنه قد خرج عن ربة التقليد الذي هو اتباع قول الغير بغير حجة، ونسي أن الله سبحانه يعلم السر وأخفى، وأنه مطلع على ما في قلبه من أنه معرض عن معرفة الدليل الصحيح مُصرّاً على التعصب لشيخه وإن أتى له بأضعف الأدلة وأوهاها، وهذا من دقيق مكر إبليس بهؤلاء المتعصبين -عافانا الله من هذا الداء الخفي-.

والأمر كما قال أبو سعيد الدارمي كما في «الرد على الجهمية» (ص ١٢٩): «إن الذي يريد الشذوذ عن الحق يتبع الشاذ من قول العلماء ويتعلق بزالاتهم، والذي يؤم الحق في نفسه، يتبع المشهور من قول جماعتهم وينقلب مع جمهورهم؛ فهما آيتان بيتان يستدل بهما على اتباع الرجل وعلى ابتداعه».

وقال ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين (ص ٥٩): «أما المتعصبون فإنهم عكسوا القضية، ونظروا في السنة فما وافق أقوالهم منها قبلوه، وما خالفها تحيلوا في رده أو ردّ دلالتة، وإذا جاء نظير ذلك أو أضعف منه سنداً ودلالة وكان يوافق قولهم قبلوه، ولم يستجيزوا رده، واعترضوا به على منازعيهم، وأشاحوا وقرروا الاحتجاج بذلك السند ودلالته، فإذا جاء ذلك السند بعينه أو أقوى منه، ودلالته كدلالة ذلك أو أقوى منه في خلاف قولهم، دفعوه ولم يقبلوه».

وقال أبو شامة المقدسي رحمه الله في «مختصر المؤمل في الرد إلى الأمر الأول» (ص ٦٥-٦٥ ط غراس): «فعدم المجتهدون وغلب المقلدون وكثر التعصب... وحجروا على رب العالمين مثل اليهود أن لا يبعث بعد أئمتهم ولياً مجتهداً؛ حتى آل بهم التعصب أن أحدهم

إذا أورد عليه شيء من الكتاب والسنة الثابتة على خلافه، يجتهد في دفعه بكل سبيل من التأويل البعيدة، نُصرة لمذهبه ولقوله» اهـ.

وقال الشوكاني في «لبدر الطالع» (٢٩٣/١) في ترجمة صديق بن علي المزجاجي الزبيدي الحنفي: «وفي بعض المواقف بمحضر جماعة وقعت بيني وبينه مراجعة في مسائل وأكثرت الاعتراض على مسائل من فقه الحنفية وأوردت الدليل وما زال يتطلب المحامل لما تقوله الحنفية، فلما خلوت به قلت له اصدقني: هل ما تبديه من المراجعة تعتقده اعتقادًا جازمًا؛ فإن مثلك في علمك بالسنة لا يظن به أنه يؤثر مذهبه الذي هو محض الرأي في بعض المسائل على ما يعلمه صحيحًا ثابتًا عن رسول الله ﷺ، فقال: لا أعتقد صحة ما يخالف الدليل، وإن قال به من قال، ولا أدين الله بما يقوله أبو حنيفة وأصحابه إذا خالف الحديث الصحيح، ولكن المرء يدافع عن مذهبه في الظاهر» اهـ.

قلت: وقول القائل «لا تكن شافعيًا، ولا تكن حنبليًا... إلخ»، سلاح ذو حدين: حد يهدم التعصب لعالم من العلماء بعينه، وهذا هو المعنى المحمود، وحد يستخدم في إسقاط العلماء وعدم الاعتداد بأقوالهم الموافقة للحق مع التحلل من اتباعهم فيما يخالف هوى القائل لهذه العبارة، وهذا هو المعنى المذموم.

وصدق ابن القيم رحمه الله حين قال نقلًا عن بعض أهل العلم كما في إعلام الموقعين

(ص ٦١):

العلم قال الله قال رسوله	قال الصحابة ليس خُلف فيه
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة	بين النصوص وبين رأي سفيه
كلًا ولا نصب الخلاف جهالة	بين الرسول وبين رأي فقيه
كلًا ولا ردّ النصوص تعمُّدًا	حذرًا من التجسيم والتشبيه
حاشا النصوص من الذي رميت به	من فرقة التعطيل والتمويه

فاعلم -رحمك الله- أن ديننا مبني على السماع والنقل ليس مبنياً على الآراء والعقل،

كما يُوَّب ابن حبان في صحيحه (٢٦٣/١)، فقال: «ذكر الأخبار عن سماع المسلمين السُّنن خلف عن سلف»، ثم قال برقم (٦٢): «أخبرنا الحسن بن سفيان قال: حدثنا عبد الله بن جعفر البرمكي، قال: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن شيبان، عن الأعمش، عن عبد الله بن عبد الله، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «تسمعون ويسمع منكم، ويسمع ممن يسمع منكم»، ثم قال: عبد الله بن عبد الله الرازي ثقة كوفي^(١).

وبوَّب عليه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٨/٢): «باب وصف النبي ﷺ أن سنته ستنقل وتقبل».

ثم بوَّب قائلًا: «باب ثبوت السُّنن بحضِّ النبي ﷺ على نقلها عنه»، ثم ذكر بإسناده عن النبي ﷺ أنه قال: «نُضِرَّ الله امرءًا سمع منا حديثًا فبلغه كما سمعه، فربَّ مبلغ أوعى من سامع»، وهو حديث متواتر جاء بألفاظ متعددة، وقد جمع طرقة وألفاظه في دراسة متينة: العلامة المحدث عبد المحسن بن حمد العباد - حفظه الله -، ومن هذه الألفاظ كما في (ص ١٢) من الدراسة المشار إليها: «نُضِرَّ الله عبدًا - وفي لفظ: وجه عبد - سمع منا شيئًا فبلغه كما سمعه».

وفي رواية: «سمع منا كلمة فبلغه كما سمعه».

(١) وأخرجه أحمد في مسنده (٣٢١/١)، وأبو داود (٣٦٥٩)، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (١-١-٨)، والحاكم في المستدرک (١٧٤/١)، وفي معرفة علوم الحديث (ص ٢٦)، والبيهقي في الكبرى (١٢٥٠/١٠)، وفي شعب الإيمان (١٧٤٠)، والحرث في مسنده (زوائد الهيثمي) (٥٢)، والخطيب في شرف أصحاب الحديث (٦٥)، وأبو نعيم في الحلية (٨/١٢٠)، والرامهرمزي في المحدث الفاصل (ص ٢٠٧)، والقاضي عياض في الإلماع (ص ١٠)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٤٣/١) (١٢٤/٢)، وابن خير الأشيبلي في «فهرسة ما رواه عن شيوخه» (ص ١٠-ص ١٢) من طرق عن الأعمش به.

وقال العلائي في جامع التحصيل (ص ٥٢): «والحديث حسن، وقد صحَّحه الحاكم في المستدرک، وفي كلام إسحاق بن راهويه الإمام ما يقتضي تصحيحه أيضًا».

وله شاهد من حديث ثابت بن قيس، في إسناده انقطاع وجهالة: أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٦٦٨)، وفي الكبير (٧١/٢)، والخطيب في شرف أصحاب الحديث (٦٤)، والرامهرمزي في المحدث الفاصل (ص ٢٠٦).

والحديث صحَّحه العلامة الألباني في الصحيحة (١٧٨٤) (٣٨٩/٤).

في أخرى: «سمع منا حديثاً فحفظه فأداه إلى من هو أحفظ منه».

وفي أخرى: «سمع مقالتي فبلغها».

وفي أخرى: «سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها».

وفي أخرى: «سمع مقالتي فحملها إلى غيره».

وفي أخرى: «سمع مقالتي فحفظها، ثم ذهب بها إلى من لم يسمعها».

وفي أخرى: «سمع مقالتي فعمد بها يحدث بها أخاه».

وفي أخرى: «سمع قولي ثم لم يزد فيه».

وفي أخرى: «سمع كلمة أو كلمتين أو ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً أو ستاً أو سبعاً أو ثمانية ثم علمهن».

وهذا المعنى بيّنه سعيد بن جبير في قوله: «قد أحسن من انتهى إلى ما قد سمع»، كما

في صحيح مسلم (٢٢٠).

وإن كان علماء اللغة قد بنوا علوم اللغة على السماع، فكيف بعلوم شريعة رب

العالمين؟!!

فقد قال أبو علي القالي إسماعيل بن القاسم (م ٣٥٦ هـ) في «المقصود والممدود»

(ص ١٥ - ط الخانجي): «وأشياء لا يعلم أنها مقصورة حتى يعلم أن العرب قد تكلمت بها،

فإذا علم ذلك علم أنها ياء أو واو وقعتا بعد حرف مفتوح فأبدلتا ألفاً، ولا يجوز لك أن

تقول: قصير ذا لكذا، كما لا يجوز لك أن تقول سمي فرس لكذا، ولا جمل لكذا، فكذاك

قفلاً، ورجا البئر، وأشباه ذلك، لا يفرق بينهما وبين سماء إلا بسماع، كما لا يفرق بين قدم

وقدال إلا بالسماع» اهـ.

منشأ التعصب

هو اتباع الهوى والعاطفة

قال ابن أبي العز الحنفي في كتابه «الاتباع» (ص ٢٥، ٢٤): «وليس في الطبع السليم ما يقتضي التعصب لهذا العالم دون هذا العالم، وإنما يأتي ذلك غالباً من هوى النفس فيكون حينئذ قد جبل على خلق ذميم، ولو ادعى أنه جبل على اتباع الحق وقول هذا الإمام المعين هو الحق لكانت المقدمة الأولى مُسلمة، والثانية محل النزاع فإن كل مولود يولد على الفطرة قال الله تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، ففي الفطر مركز معرفة حسن اتباع الحق لا أن اتباع هذا العالم متعين دون هذا العالم إلا أن يُدعى أن هذا العالم معصوم عن الخطأ في اجتهاده دون غيره ولا يدعي هذا عاقل فإنه يكون قد أنزله منزلة الرسول صلوات الله عليه وسلامه، فإن الغضب والتعصب لواحد معين من الأئمة وصف مذموم من جنس فعل الرفضة وهو من أفعال الجاهلية» اهـ.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله في الجواب الصحيح (١٨٧/٣): «فعلوا هؤلاء في المسيح وقالوا: إنه الله وابن الله وأمثال ذلك وصار من يطلب أن يقول فيه قول العدل مثل كثير من علمائهم وعبّادهم يجمعون له مَجْمَعاً، ويلعنونه فيه على وجه التعصب واتباع الهوى والغلو فيمن يعظمونه كما يجري مثل ذلك لأهل الأهواء كالغلاة في بعض المشايخ وبعض أهل البيت وبعض العلماء وبعض الملوك وبعض القبائل وبعض المذاهب وبعض الطرائق، فإنما كان مصدر ضلالهم أهواء نفوسهم» اهـ.

قلت: فهكذا يصور شيخ الإسلام أهل الأهواء الغلاة في شيخهم بأنهم شابهوا في غلوهم: النصارى، وأن من رام أن يقول قول العدل المبني على الدليل الصحيح في شيخهم يلعنونه على وجه التعصب واتباع الهوى والغلو فيمن يعظمونه.

وقال الأمير الصنعاني في «إيقاظ الفكرة لمراجعة الفطرة» (ص ٤٨): «فمن عقل وأنصف فليُنظر إلى جميع بني آدم في القديم والحديث في الملل الكفرية ثم المذاهب الإسلامية بعد إخراجهم للأنبياء - صلى الله عليه وسلم - ومن سار سيرتهم من السابقين والتابعين، - وقليل ما هم بالنظر إلى الخليقة - فإنه يجد الناس تبعاً لما ألفوه من اتباع الآباء بمجرد تقليد وهوى ومحبة للجمود على دين الآباء». اهـ.

قلت: والأمر كما قال الصنعاني رحمته الله، فإن كل منصف لو نظر في حال الحزبيين المتعصبين يجد أن كل متعصب متحزب مقلد جامد على رأي شيخه، إنما نبع تعصبه من هوى ومحبة للجمود على قول شيخه.

وقد ينشأ التعصب أيضاً عن الحسد للمتعصب ضده كما قال ابن رجب في ترجمة الحافظ عبد الغني المقدسي في ذيل طبقات الحنابلة (٢٠/٢) نقلاً عن ضياء الدين المقدسي: **قال:** وكان الحافظ يقرأ الحديث بدمشق، ويجتمع الخلق عليه، ويكي الناس، ويتنفعون بمجالسه كثيراً، فوقع الحسد عند المخالفين بدمشق، وشرعوا يعملون وقتاً يجتمعون في الجامع، ويقرأ عليهم الحديث، ويجتمعون الناس من غير اختيارهم، فهذا ينأى، وهذا قلبه غير حاضر، فلم تشتت قلوبهم بذلك، فشرعوا في المكيدة بأن أمروا الإمام الناصح أبا الفرج عبد الرحمن بن نجم بن الحنبلي الواعظ بأن يجلس يعظ في الجامع تحت قبة النسر بعد الجمعة وقت جلوس الحافظ، فلما بلغني ذلك قلت لبعض أصحابنا: هذه مكيدة والله، ما ذلك لحبهم الناصح وإنما يريدون أن يعملوا شيئاً.

فأول ذلك: أن الحافظ والناصر أرادا أن يختلفا للوقت، ثم اتفقا على أن يجلس الناصح بعد صلاة الجمعة، ثم يجلس الحافظ بعد العصر، فلما كان بعض الأيام، والناصر قد فرغ من مجلسه، وكان قد ذكر الإمام أحمد رحمته الله في مجلسه، فدسوا إليه رجلاً ناقص العقل من بيت ابن عساكر فقال للناصر كلاماً معناه: إنك تقول الكذب على المنبر فضرب ذلك الرجل وهرب، فأتبع، فخبى في الكلاسة، فتمت لهم المكيدة بهذه الواقعة، فمشوا إلى والي، وقالوا له: هؤلاء الحنابلة ما قصدهم إلا الفتنة، واعتقادهم يخالف اعتقادنا، ثم إنهم

جمعوا كبراءهم، ومضوا إلى القلعة إلى الوالي، وقالوا: نشتهي أن يحضر الحافظ عبد الغني، وكان مشايخنا قد سمعوا بذلك، فأنحدروا إلى دمشق - خالي الإمام موفق الدين؛ وأخي الإمام أبي العباس أحمد البخاري، وجماعة الفقهاء، وقالوا: نحن نناظرهم، وقالوا للحافظ: اقعد أنت لا تجيء، فإنك حاد ونحن نكفيك، فاتفق أنهم أرسلوا إلى الحافظ من القلعة وحده فأخذه، ولم يعلم أصحابنا بذلك، فنظروه، وكان أجهلهم يغري به فاحتدّ وكانوا قد كتبوا شيئاً من اعتقاداتهم وكتبوا خطوطهم فيه، وقالوا له: اكتب خطك، فلم يفعل، قالوا للوالي: الفقهاء كلهم قد اتفقوا على شيء وهو يخالفهم، وكان الوالي لا يفهم شيئاً فاستأذنه في رفع منبره، فأرسلوا الأسرى فرفعوا ما في جامع دمشق من منبر وخزانة ودرازين، وقالوا: نريد أن لا نجعل في الجامع إلا صلاة أصحاب الشافعي، وكسروا منبر الحافظ، ومنعوه من الجلوس، ومنعوا أصحابنا من الصلاة في مقامهم في الجامع، ففاتهم صلاة الظهر، ثم إن الناصح بن الحنبلي جمع السوق وغيرهم، وقال: إن لم يخلونا نصلي باختيارهم صلينا بغير اختيارهم، فبلغ ذلك القاضي - وهو كان صاحب الفتنة - فأذن لهم بالصلاة وخاف أن يصلي بغير إذنه، وكان الحنفية قد حموا مقصورتهم بالجند.

ثم إن الحافظ ضاق صدره، ومضى إلى بعلبك، فأقام بها مدة يقرأ الحديث». اهـ

باب سمات المتعصبين

السمة الأولى

عدم الانقياد للحق إذا جاءه عن غيره

وضابط هذا الكاشف بينه الهشيمي في الزواجر (١/١١٨، ١١٩) بقوله:

«.. لأن المتكبر -ومنه المتجادلون في مسائل الدين بالهوى والتعصب- تأبى نفسه من قبول ما سمعه من غيره وإن اتضح سبيله، بل يدعو كبره إلى المبالغة في تزييفه وإظهار إبطاله، فهو على حد قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ لَهُمْ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ إِلْهَآهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٦]. وقال ابن مسعود: «كفى بالرجل إثماً إذا قيل له اتق الله أن يقول: عليك بنفسك» اهـ.

وقال عبد العزيز البخاري الحنفي في كشف الأسرار شرح أصول البزدوي (٣/٢٣٩): «والتعصب -تفعل- من العصبية وهي الخصلة المنسوبة إلى العُصبة وهي التقوية والنصرة، ورأيت في بعض الحواشي أن المتعصب من تكون عقيدته مانعة من قبول الحق عند ظهور الدليل» اهـ.

قلت: فالمتعصب تمنعه عقيدته الفاسدة من قبول الحق ولو ظهر الدليل إذا كان الحق مخالفاً لما استقر عنده ويدعوه تعصبه إلى المبالغة في تزييف هذا الحق وإظهار إبطاله، وهذا بلا ريب من الكبر كما عرّفه النبي ﷺ في الحديث الصحيح قائلًا: «الكبر بطر الحق وغمط الناس».

السمة الثانية

عدم قبول الحق والتحمس له إلا إذا قال به شيخه

وهذا كاشف جلي لحال هؤلاء المتعصبين الجدد، فإذا اجتمع عدد كبير من العلماء الكبار -ممن هم أعظم من شيخهم علماً وفضلاً- على قول مبني على الحجج والأدلة، وخالف شيخهم هذا القول، رأيتهم يضربون بقول هؤلاء العلماء الحائط بلا حجة ولا برهان، ويقولون: لا يلزمنا تقليد العلماء، ولا يلزم أن يكون الحق دائماً مع الكثرة، أو مع الكبراء، وهم المقلدون المتعصبون لو كانوا يعلمون.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في «مسائل الجاهلية»: «المسألة الثامنة والعشرون» أنهم -أي أهل الجاهلية- لا يقبلون من الحق إلا الذي مع طائفتهم كقوله: ﴿قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١].

وقال الشيخ صالح آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح مسائل الجاهلية» (ص ١١٣): «هؤلاء -أي اليهود والنصارى- شاركهم طوائف من هذه الأمة كثيرة، فتجد أن عوام أهل المذاهب الفقهية مثلاً يقولون لا نؤمن إلا بما جاء في مذهبنا، وهذا كثر في هذه الأمة خاصة في العصور المتأخرة، فتجد أن السائل إذا سأل مفتياً يقول أفنتي على مذهب الشافعي، أفنتي على مذهب الإمام أحمد، أفنتي على مذهب الإمام أبي حنيفة، لم؟ قال: لأنني على هذا المذهب.

وهذا تجدونه كثيراً في فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية حيث يأتيه من يسأله، فيقول أفنتنا على مذهب الشافعي، أفنتنا على مذهب كذا، ثم قال:

«أهل البدع كذلك تجد أن الخارجي مثلاً، الإباضي مثلاً إذا سألته، يقول لك: أنا لا

أؤمن إلا بما عليه مشايخنا، طيب أو لو كانوا على باطل، أهل البدع والخرافات لا بد أن أسأل علماءنا، طيب إذا سألت علماءك شوف الدليل معهم هل معهم حجة أقوى من حجة الآخر أم لا؟ لا بد أن تتحرى الحق^(١).

فأصبحت هذه الظاهرة موجودة في المسلمين في أوسع الأبواب، أن كل أهل مذهب إما مذهب فقهي أو عقدي يقولون نؤمن بما عند طائفتنا ولا يتحرون الحق لا يبحثون عنه، فكانوا من جنس أولئك الذين لم يتحروا الحق الذي جاء به النبي ﷺ، وإنما قنعوا بما عندهم» اهـ.

قلت: وتجد هؤلاء المتعصبين يتلونون على أصناف:

فمنهم من يصرح صراحة أنه لم يقتنع بحجج العلماء الكبار؛ لأن شيخه قال إنهم قد أخطؤوا في الاستدلال، أو اعتمدوا على نقولات غير صحيحة نُقلت إليهم من أناس مجهولين.

فإذا بينت له أن شيخه لم يأتِ بدليل صحيح على هذا الادعاء على العلماء، وأن هذا الادعاء يعد من الانتقاص للعلماء، غضب منك وقال: لن تكون أنت أفهم من شيخنا لحجج العلماء، فإن شيخنا درس المسألة وهو أدري بما يقول.

فإذا باعته بقولك: إن العلماء كذلك درسوا المسألة، وهم أخبر بها من الشيخ وقد خطؤوا الشيخ في ادعائه عليهم فليس قوله بأولى من قولهم^(٢).

(١) بالرجوع إلى أهل العلم أصحاب العقيدة والمنهج بفقهاء سلف الأمة، فإذا صلحت العقيدة صلح المنهج تبعاً.

(٢) قال ابن القيم في «إعلام الموقعين» (ص ٣٨٣ - ط طيبة): «وكذلك يقولون: صاحبنا هو الذي ثبت على ما مضى عليه السلف، واقتفى مناهجهم وسلك سبيلهم، قيل لهم: فمن سواه من الأئمة هل شارك صاحبكم في ذلك أو انفرد صاحبكم بالاتباع وحرمة من عداه؟ فلا بد من واحد من الأمرين، فإن قالوا بالثاني فهم أضل سبيلاً من الأنعام، وإن قالوا بالأول فيقال: كيف وفقتم لقبول قول صاحبكم كله، ورد قول من هو مثله أو أعلم منه كله، فلا يرد لهذا قول، ولا يقبل لهذا قول؛ حتى كان الصواب وقف على صاحبكم، والخطأ وقف على من خالفه، ولهذا أنتم موكلون بنصرتة في كل ما قاله، وبالرد على من خالفه في كل ما قاله، وهذه حال الفرقة الأخرى معكم» اهـ.

كان ردُّ فعله إما تلعثماً في الجواب فيه جهالات، وإما أن يرفع عقيرته على العلماء، ويتنقص منهم ويتفانى في تبجيل شيخه وتمجيد علمه حتى قد يقول أحدهم: إن شيخنا لو بصَّق علينا لأغرقتنا علماً، فكيف تتجرأ على تخطئة شيخنا؟!^(١).

(١) وهذا من الإطراء المنهي عنه، ويذكرنا هذا بقول من قال:

فلعنّة ربنا عداد رمل على من رد قول أبي حنيفة

وقول الآخر من المالكية: «لولا مالك كان الدين هالك».

وقال الأديب الكاتب أبو الفتح البستي - وكان ولعاً بالجناس -، كما في فتح المغيث للسخاوي (١/٣٢٢) :-

إن الذين بجهلهم لم يقتدوا بمحمد بن كرام غير كرام

الفقه فقه أبي حنيفة وحده والدين دين محمد بن كرام

والأمر يختلف فيمن انتسب إلى إمام بعينه من أئمة السنة انتساباً إلى عقيدته السلفية لا تعصباً لشخصه أو لمذهبه ورأيه وإن خالف السنة، حيث إن هذا الإمام صار علماً على السنة، فمن أحبه كان السني السلفي، ومن أبغضه كان المبتدع المخالف، ومن هذا الباب انتساب البعض إلى الإمام أحمد بن حنبل - إمام السنة - لثباته في المحنة ونصرته اعتقاد السلف، وهذا معنى قول شيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي كما في ترجمته في السير (١٨/٥٠٦-٥٠٧):

أنا حنبلي ما حييت وإن أمت فوصيتي للناس أن يتحنبلوا

وقال الذهبي: «وقد قال في قصيدته النونية التي أولها:

نزل المشيب بلمتي فأراني نقصان دهر طالما أرهاني

أنا حنبلي ما حييت وإن أمت فوصيتي ذاكم إلى الإخوان

إذ دينه ديني وديني دينه ما كنت إمعة له دينان

قلت: فليس هذا تعصباً لرأي أحمد في مقابل السنة، إنما معناه أنه على اعتقاد أحمد - الذي هو اعتقاد السلف الصالح -، المنابذ لعقائد الفرق المخالفة، الذين يغمزون السني السلفي بأنه حنبلي. وفي زماننا والذي قبله صار أهل البدع يغمزون السني السلفي بأنه وهابي أو ألباني أو جامي أو مدخلي.

ومن هنا نفهم قول الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - كما في الدرر السنية (١/٥٧): «فنحن - ولله الحمد - متبعون لا مبتدعون، على مذهب الإمام أحمد بن حنبل».

قلت: فالإمام - رحمه الله - يعني أنه متابع لأحمد فيما كان عليه من السنة، لا أنه يتعصب لأقواله بلا دليل، وهذا ما وضّحه ابنه عبد الله - رحمه الله - في جوابه على رسالة الصنعاني، حيث قال: «فقد تلخص من كلامهم - أي كلام العلماء - أن المذهب في الاصطلاح: ما اجتهد فيه إمام بدليل، أو قول جمهور، أو ما ترجح عنده ونحو ذلك؛ وأن المذهب لا يكون إلا في مسائل الخلاف التي

فلما تذكره أن العلماء هم الذين حكموا بخطئه لم يزدك إلا مرء، فانفض يدك منه واعلم أنه من غلاة المتعصبين.

ولذلك صدق أيوب السخيتاني رحمه الله حينما قال: «إذا أردت أن تعرف خطأ معلّمك فجالس غيره»^(١).

وقد لمست تطبيق مقولة أيوب هذه في موقف محمد بن الحسن الشيباني من أبي حنيفة، لما ناظره الشافعي فيما رواه ابن حاتم في آداب الشافعي (ص ١٥٩) فيما قرئ عليه: وأنا أسمع ثنا محمد بن عبد الله بن الحكم قال: سمعت الشافعي يقول: «قال لي محمد بن الحسن: أيهما أعلم: صاحبنا أو صاحبكم؟ - يعني مالكا وأبا حنيفة -.

قلت: على الإنصاف؟ قال: نعم.

قلت: فأنشدك بالله، من أعلم بالقرآن: صاحبنا أو صاحبكم؟ قال: صاحبكم - يعني مالكا -.

قلت: فمن أعلم بالسنة: صاحبنا أو صاحبكم؟ قال: اللهم صاحبكم.

قلت: فأنشدك بالله، من أعلم بأقوال أصحاب رسول الله ﷺ والمتقدمين: صاحبنا أو صاحبكم؟ قال: صاحبكم.

قال الشافعي: قلت: فلم يبق إلا القياس؛ والقياس: لا يكون إلا على هذه الأشياء، فمن لم يعرف الأصول: فعلى أي شيء يقيس؟! اهـ

وتجد أن شبهة هذا المتعصب التي بها رد أقوال العلماء ادعاؤه أن شيخه قد استوعب

ليس فيها نص صريح ولا إجماع.

فأين هذا من توهمكم أن قولنا: مذهبا مذهب الإمام أحمد، أنا نقلده فيما رأى وقال، وإن خالف الكتاب والسنة والإجماع، فنعوذ بالله من ذلك»، كما في الدرر السنية (١٩/٤).

وسأيتي كلام الإمام عبد العزيز بن باز - رحمه الله - يرد فيه على الشبهة نفسها.

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/٣) من طريق ابن مهدي، وأبو الوليد الباجي في «التعديل

والتجريح» (٣٨٧/١) من طريق سليمان بن حرب، كلاهما عن حماد بن زيد عن أيوب.

وقال الدارمي في سننه (٤٣) أخبرنا سعيد بن عامر قال كان سلام يذكر عن أيوب قال: وذكره.

أقوال هؤلاء العلماء ودرسها فهو أعلم بها منه، ومن ثم يرى أنه أولى بالاتباع، وما أروع ما قاله المزني في الردّ على أمثال هذا المقلّد المتعصّب حيث قال رحمه الله:

«يقال لمن حكم بالتقليد: هل لك حجة فيما حكمت به؟ فإن قال: نعم، أبطل التقليد؛ لأن الحجة أوجبت ذلك عنده لا التقليد، وإن قال: حكمت فيه بغير حجة قيل له: فلم أرقت الدماء وأبحت الفروج و أتلفت الأموال، وقد حرم الله ذلك إلا بحجة؟ قال رحمه الله: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ [يونس: ٦٨]، أي من حجة بهذا؟ قال: فإن قال: أنا أعلم أيّ قد أصبت، وإن لم أعرف الحجة لأنّي قلّدت كبيراً من العلماء، و هو لا يقول إلا بحجة خفيت عليّ، قيل له: إذا جاز لك تقليد معلّمك؛ لأنه لا يقول إلا بحجة خفيت عليك وجب عليك أن تقلّد معلّم معلّمك؛ لأنه لا يقول إلا بحجة خفيت على معلّمك، فإن قال: نعم، ترك تقليد معلّمه إلى تقليد معلّم معلّمه، وكذلك من هو أعلى حتى ينتهي الأمر إلى أصحاب رسول الله ﷺ، وإن أبى ذلك نقض قوله، و قيل له: كيف تجوّز تقليد من هو أصغر و أقلّ علماً، ولا تجوّز تقليد من هو أكبر و أكثر علماً؟ وهذا يتناقض؛ فإن قال: لأنّ معلّمي - وإن كان أصغر - فقد جمع علم من هو فوقه إلى علمه فهو أبصر بما أخذ وأعلم بما ترك، قيل له: وكذلك من تعلّم من معلّمك فقد جمع علم معلّمك، وعلم من فوقه إلى علمه، فيلزمك تقليده وترك تقليد معلّمك، ومن جهة أخرى أنت أولى أن تقلّد نفسك من معلّمك؛ لأنك جمعت علم معلّمك وعلم من فوقه إلى علمك، [ومقتضى هذا] ^(١) جعل الأصغر ومن يحدث من صغار العلماء أولى بالتقليد من أصحاب رسول الله ﷺ، وكذلك صاحب عنده يلزمه تقليد التابع، والتابع من دونه في قياس قوله، والأعلى أدنى أبداً، وكفى بقول يؤول إلى هذا قبّحاً وفساداً» ^(٢). اهـ

(١) كذا في الحسام الماحق، وفي الجامع - ط المنيرية -: «فإن أعاد قوله»، وفي ط ابن الجوزي: «فإن فاد قوله».

(٢) نقله كلّ من: ابن عبد البر في جامع بيان العلم (ط المنيرية ١١٦/٢ - ١١٧)، (ط ابن الجوزي ٩٩٢/٢ - ٩٩٣)، وتقي الدين الهلالي في كتابه «الحسام الماحق على كل مشرك ومناقق» (ص ٢٤).

وقال ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١١٧/٢، ١١٨) (ط- المنيرية^(١)): «يقال لمن قال بالتقليد: لِمَ قلت به وخالفت السلف في ذلك، فإنهم لم يقلّدوا؟ فإن قال: قلّدت؛ لأن كتاب الله جل وعز لا علم لي بتأويله وسنة رسوله لم أحصها، والذي قلّدت قد علم ذلك، فقلّدت من هو أعلم مني، قيل له: أمّا العلماء إذا اجتمعوا على شيء من تأويل الكتاب أو حكاية سنة عن رسول الله ﷺ أو اجتمع رأيهم على شيء فهو الحق لا شك فيه، ولكن قد اختلفوا فيما قلّدت فيه بعضهم دون بعض فما حجتك في تقليد بعض دون بعض وكلهم عالم، ولعلّ الذي رغبت عن قوله أعلم من الذي ذهبت إلى مذهبه، فإن قال: قلّدت؛ لأنني علمت أنه صواب، قيل له: علمت ذلك بدليل من كتاب أو سنة أو إجماع، [فإن قال: نعم]^(٢)، فقد أبطل التقليد وطولب بما ادعاه من الدليل، وإن قال: قلّدت؛ [لأنه أعلم مني]^(٣)، قيل له: فقلّد كل من هو أعلم منك، فإنك تجد من ذلك خلقاً كثيراً، ولا [تخص]^(٤) من قلّدت إذ علتك فيه أنه أعلم منك، [وتجدهم في أكثر ما ينزل بهم من السؤال مختلفين، فلم قلّدت أحدهم؟]^(٥)، فإن قال قلّدت؛ لأنه أعلم الناس، قيل له: فهو إذن أعلم من الصحابة، وكفى بقول مثل هذا قبحاً، وإن قال: إنما [أقلّد]^(٦) بعض الصحابة، قيل له: فما حجتك في ترك من لم تقلّد منهم، ولعل من تركت قوله منهم أعلم وأفضل ممن أخذت بقوله، على أن القول لا يصح لأفضل قائله، وإنما يصح بدلالة الدليل عليه» اهـ.

قلت: وبعضهم من فرط تعصّبه لا يحسن فهم قول شيخه الذي يتعصّب له، ولا يعرف ما هو دليله الذي استدل به، وإنما هو يتعصّب لهذا القول لكون شيخه قال به فقط، ولا يحفظ دليلاً إلا تعداد فضائل شيخه التي جعلته يقبل أقواله بلا دليل، كما قال ابن عبد

(١) (٢/٩٩٤-٩٩٥) ط ابن الجوزي.

(٢) سقطت من الطبعة المنيرية.

(٣) في المنيرية: [لأنني أعلم منه].

(٤) في ابن الجوزي: [يحصي].

(٥) سقطت من الطبعة المنيرية.

(٦) في ابن الجوزي: [قلّدت].

البر في جامع بيان العلم (١٧١/٢)^(١): «ولتقصيرهم -أي لتقصير المالكية- عن علم أصول مذهبهم صار أحدهم إذا لقي مخالفاً ممن يقول بقول أبي حنيفة أو الشافعي أو داود بن علي أو غيرهم من الفقهاء، وخالفه في أصل قوله، بقي متحيراً ولم يكن عنده أكثر من حكاية قول صاحبه، هكذا قال فلان وهكذا رويناه، ولجأ إلى أن يذكر فضل مالك ومنزلته، فإن عارضه الآخر فذكر فضائل إمامه أيضاً صار في المثل كما قال الأول:

شكونا إليه خراب العراق فعابوا علينا شحوم البقر
فكانوا كما قيل فيما مضى أريها السهى وتريني القمر

وفي مثل ذلك يقول منذر بن سعيد رحمته الله:

عَذِّبْني من قوم يقولون كُلِّما طلبت دليلاً هكذا قال مالك
فإن عدت قالوا هكذا قال أشهب وقد كان لا تخفى عليه المسالك
فإن زدت قالوا قال سحنون مثله ومن لم يقل ما قاله فهو آفك
فإن قلت: قال الله، ضجُّوا وأكثروا وقالوا جميعاً أنت قرن مماحك
وإن قلت: قد قال الرسول فقولهم أنت مالكا في ترك ذاك المسالك^(٢)

وأجازوا النظر في اختلاف أهل مصر وغيرهم من أهل المغرب فيما خالفوا فيه مالكا من غير أن يعرفوا وجه قول مالك، ولا وجه قول مخالفه منهم، ولم يبيحوا النظر في كتب من خالف مالكا إلى دليل يبينه، ووجه يقيمه، لقوله وقول مالك جهلاً منهم وقلة نصح وخوفاً من أن يطلع الطالب على ما هم فيه من النقص والتقصير فيزهد فيهم، وهم مع ما وصفنا يعيرون من خالفهم ويغتابونه ويتجاوزون القصد في ذمّه، ليوهموا السامع أنهم على حق، وأنهم أولى باسم العلم، وهم ﴿كَرَاهِيَةَ يَحْسَبُهُ الظَّالِمَانُ مَاءً حَلَّةً إِذَا جَاءَهُمْ، لَوِ يَجِدُهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩] اهـ.

(١) سقطت من الطبعة المنيرية.

(٢) في ابن الجوزي: [أنت مالكا في ترك ذلك المالك].

قلت: وصنف آخر من هؤلاء يتصور المسألة تصوُّراً عاطفياً عجيباً، حيث يُخَيَّلُ إليه أن هناك من أحدث وقعة بين العلماء وشيخه، وكان الأمر مجرد خلافات شخصية، وضغائن نفسية، متناسياً أصل المسألة وهو أن الخلاف بين شيخه والعلماء خلافٌ في مسائل علمية منهجية - لا مسائل شخصية -.

ويبني هذا الصنف على هذا التصور العاطفي: عواطف أخرى جائرة، فإذا علموا أن أحد طلاب العلم من عشيرتهم قد وافق العلماء الذين خالفهم الشيخ، رشقوه بسهام جائرة من الاتهامات الباطلة حيث إنه خرج عن طاعة شيخهم:

فسهمَ يحمل اتهاماً له بأنه قد أججَ نار الخلاف بين العلماء والشيخ، رغم أنهم يعلمون أن الخلاف حادث بين شيخهم والعلماء بسبب مخالفة شيخهم للحق الظاهر، وليس ثمَّ أي تدخل لصاحبهم هذا في شأن هذا الخلاف، ولكنهم بسبب تغلُّب العاطفة الجائرة عليهم أحبوا أن يعلِّقوا خطأ شيخهم على طرف آخر فاختلقوا خديعة وهمية مفادها أن العلماء تكلموا في شيخهم بسبب قيام أخيهم المفترى عليه بإحداث وقعة بين العلماء وشيخهم، وكان العلماء أصحاب عصبية جاهلية يبنون أحكامهم على مواقف شخصية وتوترات عصبية.

وسهم يحمل اتهاماً له بأنه يريد أن يسقط شيخهم، ليحتل مكانه، وأنه ما سافر إلى العلماء وأظهر موافقتهم إلا لحمل العلماء على تبديع شيخهم؛ فصوَّروا الأمر كأنه صراع على مُلك أو رئاسة.

وسهم ثالث يحمل اتهاماً له بأنه لم يرد غيبة الشيخ في حضرة العلماء، وكان العلماء يفتابون هذا الشيخ في عرضه الشخصي لا في منهجه^(١).

وسهم رابع بأنه مريض بداء حب الظهور.

وسهم، وسهم... من جعبة التعصُّب العاطفي.

(١) قال الشيخ حسن - حفظه الله -: «والعلماء يسرون في حكمهم على الأشخاص على قواعد الجرح والتعديل التي أرساها علماء الحديث لتتم المباشرة والمفاصلة بين أهل السنة السلفيين وأهل الأهواء».

وكل هذه السهام الجائرة والتصورات الخاطئة ما هي إلا عواطف مشوبة بالأهواء نبتت من فقر شديد في الحصيلة التربوية من الأصول السلفية عند هذا الصنف.

فإذا رمت نصحاً لهذا الصنف المتعصب صموا آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً، وكأنهم يقولون بلسان حالهم: ﴿قَالُوا يَسْعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا وَمَا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرْنَكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ﴾ [هود: ٩١].

فهم كانوا يأملون من صاحبهم أن يكون مُدافعاً عن شيخهم في غيبته ولو بالباطل، ولو بالمدارة المتكلفة التي تصل إلى حد المداينة وإلا اعتبروه من الخوارج الذين خرجوا على شيخهم ولم يحفظوا غيبته ولم يراعوا هيئته.

ورغم علمهم بأن صاحبهم إنما خالف شيخهم لأدلة الكتاب والسنة التي صدع بها ثلة من كبار العلماء الربانيين: فهم يعادونه ويسفهون منه، فصارت حال هذا النَّاصِح كحال ابن بطة والشاطبي، حيث قال الشاطبي في الاعتصام (٢١/١، ٢٢) وهو يصف حاله مع المخالفين له: «فكنت على حالة تشبه حالة الإمام الشهير عبد الرحمن بن بطة الحافظ مع أهل زمانه إذ حكى عن نفسه فقال: عجبت من حالي في سفري وحضري مع الأقربين مني والأبعدين والعارفين والمنكرين؛ فإني وجدت بمكة وخراسان وغيرهما من الأماكن أكثر من لقيت بها - موافقاً أو مخالفاً - دعاني إلى متابعتي على ما يقوله وتصديق قوله والشهادة له، فإن كنت صدقته فيما يقول وأجزت له ذلك كما يفعله أهل هذا الزمان؛ سماني موافقاً، وإن وقفت في حرف من قوله وفي شيء من فعله؛ سماني مخالفاً، وإن ذكرت في واحد منهما أن الكتاب والسنة بخلاف ذلك وارد؛ سماني خارجياً، وإن قرئ عليّ حديث في التوحيد؛ سماني مشبهاً، وإن كان في الرؤية؛ سماني سالمياً، وإن كان في الإيمان؛ سماني مرجئاً، وإن كان في الأعمال؛ سماني قدرياً، وإن كان في المعرفة؛ سماني كرامياً، وإن كان في فضائل أبي بكر وعمر؛ سماني ناصبياً، وإن كان في فضائل أهل البيت؛ سماني رافضياً، وإن سئلت عن تفسير آية أو حديث فلم أجب فيهما إلا بهما؛ سماني ظاهرياً، وإن أجبت بغيرهما؛ سماني باطنياً، وإن أجبت بتأويل؛ سماني أشعرياً، وإن جحدتهما؛ سماني معتزلياً، وإن

كان في السنن مثل القراءة؛ سماني شفعوني، وإن كان في القنوت؛ سماني حنفيًا، وإن كان في القرآن؛ سماني حنبليًا، وإن ذكرت رجحان ما ذهب كل واحد إليه من الأخبار - إذ ليس في الحكم والحديث محاباة -؛ قالوا: طعن في تركيتهم.

ثم أعجب من ذلك أنهم يسمونني فيما يقرؤون علي من أحاديث رسول الله ﷺ بما يشتهون من هذه الأسامي، ومهما وافقت بعضهم عاداني غيره وإن داهنت جماعتهم أسخطت الله تبارك وتعالى، ولن يغنوا عني من الله شيئًا، وأنا متمسك بالكتاب والسنة، وأستغفر الله الذي لا إله إلا هو وهو الغفور الرحيم.

هذا تمام الحكاية، فكانه ﷺ تكلم على لسان الجميع، فقلما تجد عالمًا مشهورًا أو فاضلاً مذكورًا إلا وقد نُبذَ بهذه الأمور أو ببعضها؛ لأن الهوى قد يدخل المخالف، بل سبب الخروج عن السنة: الجهل بها والهوى المتبع الغالب على أهل الخلاف، فإذا كان كذلك حمل على صاحب السنة إنه غير صاحبها، ورجع بالتشنيع عليه والتقبيح لقوله وفعله حتى ينسب هذه المناسبات.

وقد نقل عن سيد العباد بعد الصحابة: أويس القرني -رحمهم الله- أنه قال: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يدعًا للمؤمن صديقًا، نأمرهم بالمعروف فيشتمون أعراضنا، ويجدون على ذلك أعوانًا من الفاسقين حتى والله لقد رموني بالعظائم، وإيم الله لا أدع أن أقوم فيهم بحقه».

فمن هذا الباب يرجع الإسلام غريبًا كما بدأ؛ لأن المؤلف فيه على وصفه الأول قليل، فصار المخالف هو الكثير، فاندurst رسوم السنة حين مدت البدع أعناقها، فأشكل مرماها على الجمهور. اهـ

وقال أيضًا في (٥٠٦/٢): «رأي بعض المقلدة لمذهب إمام يزعمون أن إمامهم هو الشريعة، بحيث يأنفون أن يُنسب إلى أحد من العلماء فضيلة دون إمامهم؛ حتى إذا جاءهم أحدٌ ممن بلغ درجة الاجتهاد وتكلم في المسائل باجتهاده ولم يرتبط إلى إمامهم؛ رموه بالنكير، وفوقوا إليه سهام النقد، وعدّوه من الخارجين عن الجادة، والمفارقين للجماعة من غير استدلال منهم بدليل، بل بمجرد الاعتياد العامي.

ولقد لقي الإمام بقي بن مخلد حين دخل الأندلس آتياً من المشرق من هذا الصنف الأمرين؛ حتى أصاروه مهجور الفناء، مهتضم الجانب؛ لأنه جاءهم من العلم بما لا يدي لهم به، إذ لقي بالمشرق الإمام أحمد بن حنبل، وأخذ عنه مصنفه وتفقه عليه، ولقي أيضاً غيره، حتى صنف «المسند المصنف» الذي لم يصنف في الإسلام مثله، وكان هؤلاء المقلدة قد صمموا على مذهب مالك، بحيث أنكروا ما عداه، وهذا هو تحكيم الرجال على الحق، والغلو في محبة المذهب»، إلخ ما قال رحمته الله ^(١).

قلت: سبحانه الله ما أشبه الليلة بالبارحة فإن هذه الصورة تتكرر اليوم مع أهل الحق في أغلب بلاد الإسلام، ولقد ذاق أهل الحق الأمرين من هذا الصنف؛ فوجد هؤلاء المتعصبة قد صمموا على أقوال شيخهم، بحيث أنكروا ما عداها، حتى إذا جاءهم صاحب الحق الذي يتكلم بالدليل والحجة ولم يرتبط إلى شيخهم؛ رموه بالنكير، وفوقوا إليه سهام النقد، وعدّوه من الخارجين عن العجادة، والمفارقين للجماعة من غير استدلال منهم بدليل، بل بمجرد الاعتياد العامي فأرادوا أن يجعلوا صاحب الحق مهتضم الجانب، مهجور الفناء؛ لأنه من العلم لما لا يدي لهم به.

ولو كانوا أهل اتباع لقبوا الحق الذي جاء به صاحبهم، وإن كان في نظرهم جاهلاً أو خائناً أو مغرضاً أو... إلخ، كما قال الأمير عبد القادر الجزائري في كتابه «ذكرى العاقل وتنبيه الغافل» (ص ٣١-ط. مكتبة الخانجي) ^(٢): «علموا أنه يلزم العاقل أن ينظر في القول ولا ينظر إلى قائله، فإن كان القول حقاً قبله سواء كان قائله معروفاً بالحق أو الباطل ^(٣)، فإن الذهب يستخرج من التراب، والنرجس من البصل، والترياق من الحيات، ويجتنى الورد من الشوك، فالعاقل يعرف الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالرجال، والكلمة من الحكمة ضالة

(١) قال الشيخ حسن -حفظه الله-: «ومن أسباب الجمود على المذهب: قصر مصدر التلقي على أشياخ المذهب دون مراجعة غيرهم من أهل العلم من أهل السنة والجماعة، وذلك مبلغهم من العلم».

(٢) ونقله عنه القاسمي في قواعد التحديث (٣٦٠، ٣٦١).

(٣) وأخذه من أهل الحق هو المتعين.

العاقل يأخذها من عند كل من وجدها عنده سواء كان حقيراً أو جليلاً، وأقل درجات العالم أن يتميز عن العامي بأمور منها أنه لا يعاف العسل إذا وجده في محجمة الحجام ويعرف أن الدم قدر لا لكونه في المحجمة، ولكنه قدر في ذاته فإذا عدت هذه الصفة في العسل فكونه في ظرف الدم المستقدر لا يكسبه تلك الصفة ولا يوجب نفرة عنه، وهذا وهم باطل غلب على أكثر الناس، فمهما نسب كلام إلى قائل حسن اعتقادهم فيه قبلوه وإن كان القول باطلاً، وإن نسب القول إلى من ساء فيه اعتقادهم ردوه وإن كان حقاً، ودائماً يعرفون الحق بالرجال ولا يعرفون الرجال بالحق وهذا غاية الجهل والخسران، فالمحتاج إلى الترياق إذا هربت نفسه منه حيث علم أنه مستخرج من حية جاهل فيلزم تنبيهه على أن نفرتة جهل محض وهو سبب حرمانه من الفائدة التي هي مطلوبة فإن العالم هو الذي يسهل عليه إدراك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال وبين الحق والباطل في الاعتقادات وبين الجميل والقيح في الأفعال لا بأن يكون ملتبساً عليه الحق بالباطل والكذب بالصدق والجميل بالقيح ويصير يتبع غيره ويقلده فيما يعتقد وفيما يقول، فإن هذه ما هي إلا صفات الجهال.

* والمتبعون من الناس على قسمين:

قسم عالم مسعد لنفسه ومسعد لغيره، وهو الذي عرف الحق بالدليل لا بالتقليد، ودعا الناس إلى معرفة الحق بالدليل لا بأن يقلدوه.

وقسم مهلك لنفسه ومهلك لغيره، وهو: الذي قلّد آباءه وأجداده فيما يعتقدون ويستحسنون وترك النظر بعقله ودعا الناس لتقليده، والأعمى لا يصح أن يقود العميان.

وإذا كان تقليد الرجال مذموماً غير مرضى في الاعتقادات فتقليد الكتب أولى وأحرى بالذم، وإن بهيمة تقاد أفضل من مقلد ينقاد، وإن أقوال العلماء والمتدينين متضادة متخالفة في الأكثر واختيار واحد منها واتباعه بلا دليل باطل؛ لأنه ترجيح بلا مرجح فيكون معارضاً بمثله. اهـ.

قلت: وعلى الجانب الآخر يُمجّدون واحداً من حدثاء الأسنان -ممن لم يخبر العلم وأهله- لمجرد تصنعه -المبني على جهل وتعصّب- بأنه دافع عن شيخهم، وحفظ غيبته، وحاول

تهدئة الأمر بينه وبين العلماء على حد زعمه وفهمه السقيم؛ فيصير ذاك الحدث عندهم هو المخلص الأمين السلفي الأصيل، وحقيقة الأمر أنه ما صنع ذلك إلا لليلة التي ذكرها الأمير الصنعاني رحمه الله وهي «مُحافظة على البقاء في الزمرة والانغماس مع أهل مذهبه في خيرهم وشرهم خشية من ذلك العار الذي استتته الكفار من ذم المخالف»^(١).

وقد صدق أيضاً على هؤلاء ما قاله الشوكاني في فتح القدير (١/٥٢٦) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨]: «وفي هذه الآية باعتبار عموم لفظها -الذي هو المعتبر دون خصوص السبب- دليل على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله بما يفيد التنقص والاستهزاء للأدلة الشرعية كما يقع كثيراً من أسراء التقليد الذين استبدلوا آراء الرجال بالكتاب والسنة، ولم يبق في أيديهم سوى قال إمام مذهبنا كذا، وقال فلان من أتباعه بكذا، وإذا سمعوا من يستدل على تلك المسألة بآية قرآنية أو بحديث نبوي سخروا منه، ولم يرفعوا إلى ما قاله رأساً، وظنوا أنه قد جاء بأمر فطيع وخطب شنيع، وخالف مذهب إمامهم الذي نزلوه منزلة مُعلّم الشرائع، بل بالغوا في ذلك حتى جعلوا رأيه القائل واجتهاده الذي هو عن منهج الحق مائل مقدماً على الله وعلى كتابه وعلى رسوله، فإن لله وإنا إليه راجعون، ما صنعت هذه المذاهب بأهلها؟! اهـ

قلت: ومن السمات البارزة لهؤلاء المتعصبين طفق أفئدتهم بالحق الدفين على صاحبهم -المخالف لشيخهم- إذا أظهره الله ووفقه سبحانه إلى التصنيف والدعوة، حسدوه وغمطوا حقه وبغوا عليه، وقالوا متسائلين: أتى له هذا؟ ومتى تعلم؟ ومتى أُلّف هذه المصنّفات؟ وفي مثل هذا يقول ابن حزم كما في «رسالة في فضل الأندلس»^(٢): «وأما جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر: أزهّد الناس في عالم أهلهم... ولا سيما أندلسنا؛ فإنها خُصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم، الماهر منهم، واستقلالهم كثير ما يأتي به،

(١) الذي يخرج عن الزمرة، أو العصابة؛ وذلك لحرصهم على أن يستمر باطلهم ويتشتر.

(٢) «إيقاظ الفكرة» (ص ٥٠).

(٣) رسائل ابن حزم (٢/١٧٨)، بواسطة قسم الدراسة لكتاب «الإعراب عن الحيرة والالتباس الموجودين في مذاهب أهل الرأي والقياس» (١/١٩٨).

وامتهجانهم حسناته، وتتبعهم سقطاته وعثراته، وأكثر ذلك مدة حياته، بأضعاف ما في سائر البلاد، إن أجاد قالوا: سارق مغير، ومنتحل مدع.

وإن توسط قالوا: غثُّ بارد، وضعيف ساقط.

وإن باكر الحيازة لقصب السبق، قالوا: متى كان هذا؟ ومتى تعلّم؟ وفي أي زمان

قرأ؟... إلخ. اهـ

قلت: وصدق أبو العباس الرياشي حينما قال كما في الآداب الشرعية (٤٧/١):

وإذا بليت بجاهل متجاهل يجد المحال من الأمور صوابا

أولئك منّي السكوت وربما كان السكوت عن الجواب صوابا

وقال أبو محمد هبة الله بن علي بن عرام كما في «خريدة القصر وجريدة العصر»

للعقاد الأصفهاني (قسم شعراء مصر/ ١٨٧/٢):

وذي عيوب بغى عيبي فأعوزه فظل يحسدني للعلم والأدب

نزّهت نفسي عنه غير مكترث بفعله فأتى بالزور والكذب

«وهذا شأن النفوس الجاهلة الظالمة، إذا كان عندها شيء من علم قد تميزت به عمّن هو

أجهل منها، وحصل لها به نوع رياسة ومال، فإذا جاءها من هو أعلم منها بحيث تمحى رسوم

علومها ومعارفها في علمه ومعرفته، عارضته بما عندها من العلم، وطعنت فيه بأنواع

المطاعن، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ۝ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ

بغير سلطانٍ أَنَّهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝﴾

[غافر: ٣٤، ٣٥] (١).

وفي وسط هذه العواطف، يُغَيِّب أصل المسألة الذي كان يجب على هؤلاء المتعصّيين

أن يتبينوه إن كانوا بالفعل يُحبون شيخهم حبًّا شرعيًّا صحيحًا، فكان عليهم أن يرجعوا

لحجج العلماء الكبار فإن ظهر لهم صوابها تقدموا بالنصح لشيخهم أن يراجع الحق.

وقد حكى أبو حيّان التّوحيدى عن أبي سعيد السّيرافى أنّه قال: «كان أبو بكر ضعيفاً في التّصريف، والتّحو خاصّة وفي كتاب الجمهرة خللٌ كثير.

قال التّوحيدى: قلنا له: فلو فصّلتَ بالبيان عن هذا الخلل، وفتحتَ لنا باباً من العلم، فقال: نحن إلى ستر زلات العلماء أحوجُّ منا إلى كشفها... فلمّا نهضنا من مجلسه قال بعض أصحابنا: قد كان ينبغي أن نقول له: حراسة العلم أولى من حراسة العالم، وفي السّكوت عن أبي بكر إجلال، ولكن خيانة للعلم»^(١). اهـ

قلت: لكنهم بلا شعور قد تزيوا بزي الشيعة والمتصوفة، حيث إنهم في قرارة أنفسهم يربّون بشيخهم أن يصدر منه ما يخالف المنهج الحقّ مما استدعى تخطئة العلماء له أو تبديعهم إياه، ويقولون بلسان حالهم -وأحياناً بلسان مقالهم-: إن العلماء ضخّموا الأمر بلا مقتضى وأثاروا زوبعة على شيخنا بلا داعي، فشيخنا هو العالم الرباني العارف، لا يقصد هذه المخالفة أبداً، إنما هو يقصد كذا وكذا...

وتّمّ صنف ثالث لم يستكف أن يعترف بخطأ شيخه، لكن انتابته صدمة المفاجأة وبقي متحيراً ساعات وأياماً سائلاً نفسه: كيف يقع شيخي في هذه المخالفة أو في هذه البدعة، وهو الذي علّمني منهج أهل السنة؟

ويكبر عليه أن يتحول شيخه -إن كان من أهل السنة- من صحبة أهل السنة إلى صحبة أهل الأهواء!!

لكن أحياناً يكون شيخه في حقيقة أمره صاحب بدعة، لكنه على حدّ فهم أتباعه من المغرر بهم والسّدّج: هو من أهل السنة الأصلاء، وأشدهم تعصباً يعتبره إمام إئمة السنة وشيخ المشايخ، ومن ثمّ لمّا يفضح العلماء الربانيون حقيقة أمر هذا الشيخ المتخفي، يكبر الأمر على أتباعه، وتحدث عندهم هزات نفسية.

وصدق العلامة المقبلية رحمته الله حينما قال في «إيثار الحق الشامخ على الآباء والمشايخ»

(١) انظر مجلة جامعة أم القرى (العدد ٢٠) مقال: «خللُ الأصول في مُعْجَمِ الجَمْهَرَةِ» كتبه: د. عبد الرزّاق بن فرّاج الصّاعديّ الأستاذ المشارك بقسم اللّغويّات - كلية اللّغة العربيّة الجامعة الإسلامية بالمدينة.

(٣٨٨): «وأما إنك تشرب قلبك حب قوم وكرهه آخرين، ثم تأخذ بقية عمرك في تثبيت ذلك البناء، وهو على شفا جرف هار، وتغر نفسك إنك أردت الله بذلك، وأنت تعلم خلاف ذلك إن أنصفت، فهذه إنما هي حمية الجاهلية الأولى إلا أنها غلبت على الناس» اهـ.

وإذا كان الشيخ بالفعل سنياً سلفياً في سابق أمره، ثم زاع قلبه^(١) فإن الأمر يكون أشد، وتعتصر قلوب المتعصّبين له حزناً، فيبيتوا في صراع حائر مع هذه العواطف المشوبة بالأهواء، وتتردد أنفاسهم في صدورهم مسترجعين ذكريات قديمة تحوي انتصارات شيخهم في صولات سابقة له مع أهل البدع، فيرجعون القهقري باحثين عن مخرج من هذا الضيق، فيلجأ بعضهم إلى بعض، وهم على حال واحدة، فلما استمئسوا خلصوا نجياً، قال كبيرهم: ألم تعلموا أن شيخكم قد بُيِّت له أمر ليل، فما لكم لا تناصرون؟!!

وبينما هم في أهوائهم سادرون يُسخر الله لهم من يطرق أهواءهم بمطارق الحق، فيقول لهم: ما هذه الأهواء التي أنتم لها عاكفون؟ قالوا: لقد شبننا على شيخنا صدأً بالحق، وعن طريقه عرفنا العلماء، ولولاه ما اهتدينا!!

فعندها قام صاحبهم بتفتيت شبهاتهم لعلمهم يرجعون، فكان رد فعلهم صرخة متعصّب، فكأنهم صرخوا في وجه صاحبهم -الذين هضموا جانبهم- قائلين: مَنْ فعل هذا بشيخنا إنه لمن الظالمين! فتصبر الطارق ناصحاً: بل هو صنيع الشيخ وليس للعلماء يدٌ في صنيعه، بل هم له ناصحون وعلى مخالفته للحق صابرون!! فرجعوا إلى أنفسهم قائلين: لقد كنا للعلماء ظالمين ولصاحبنا عادين!! ثم نُكِّسوا على رؤوسهم: لقد علمت أن العلماء هم المخطئون في حكمهم بسبب الأخبار الكاذبة التي وصلتهم عن شيخنا، وبسبب سعيك للوقية....!!

وهكذا تموج العواطف بأهل التعصّب في تيه من الأهواء قد اجذب من ثمار الجذور الأصلية التي غرسها سلفنا الصالح، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

(١) قال الشيخ حسن -حفظه الله-: فلندع ربنا ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾

وفتنة هؤلاء أن الحق -الذين هم جحدوا به واستيقنته أنفسهم- لم يأتهم من طريق شيخهم، إنما جاءهم من طريق صاحبهم المهتمضم الجانب المهجور الفناء، فكانت حجة هؤلاء هي حجة أهل التعصب في الأزمان السالفة، أتدري ما هي حجة أهل التعصب؟

[الجواب: تكاد تكون حجة لكل الأمم وهي عمدة كل متعصب عاجز ظالم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ٢٤﴾ [المؤمنون: ٢٣، ٢٤].

هذه حجتهم ... لم يأتهم مثل ما جاء به نوح عليه الصلاة والسلام من طريق آبائهم ولو جاءهم من طريق آبائهم لقبولوه ولكنه جاء من طريق آخر، وذلك هو التعصب^(١).

وأيضاً هذه هي حجة هؤلاء، وإن أخفاها بعضهم في قرارة نفسه: أن هذا الحق الذي صدع به العلماء لم يأتهم عن طريق شيخهم ولو جاءهم عن طريق شيخهم لقبولوه، ولكنه جاء من طريق أخرى وذلك هو التعصب.

«ولولا أن قول الحق فريضة، والتعصب للإنسان هوى، لأعرضت عن ذكر هذا لكن يجب قبول الحق إن ساء أو سر، والله المستعان»^(٢).

ومن توخى الحق فما ظلم، ومن توخى الصدق لم يلم.

وإلى هذه الأصناف المتلونة أسوق نصيحة عزيزة من الشيخ السلفي صديق حسن خان القنوجي رحمته الله حيث قال رحمته الله في «أبجد العلوم» (١/٣٦٢): «وأهم ما يحصل لك أن تكون منصفاً غير متعصب في شيء من هذه الشريعة فلا تمحق بركتها بالتعصب لعالم من علماء الإسلام بأن تجعل رأيه واجتهاده حجة عليك وعلى سائر العباد، فإنه وإن فضلك بنوع من العلم وفاق عليك بمدرك من الفهم فهو لم يخرج بذلك عن كونه محكوماً عليه مُتَعَبِّداً بما أنت متعبد به، بل الواجب عليك أن تعترف له بالسبق وعلو الدرجة اللائقة به في

(١) ما بين المعكوفين منقول من كتاب العلامة ربيع بن هادي -حفظه الله-: «التعصب الذميمة وآثاره» (ص ١٦).

(٢) «العقود الدرية» لابن عبد الهادي (ص ٣٢٨).

العلم مُعتقداً أن ذلك هو الذي لا يجب عليك غيره ولا يلزمك سواه، وليس لك أن تعتقد أن صوابه صواب لك أو خطأه خطأ عليك، بل عليك بالاجتهاد والجهد حتى تبلغ إلى ما بلغ إليه من أخذ الأحكام الشرعية من ذلك المعدن الذي لا معدن سواه والموطن الذي هو أول الفكر وآخر العمل، فإذا وطّنت نفسك على الإنصاف وعدم التعصّب لمذهب من المذاهب ولا لعالم من العلماء فقد فزت بأعظم فوائد العلم وربحت بأنفس فرائده...» اهـ.

قلت: واعلم -رحمك الله- أن الحكم الذي يتفق عليه العلماء الكبراء لا يبعد عن الصواب في الغالب، خاصة إذا كان هذا الحكم يتعلق بنفي التكفير عن مسلم فاسق، أو بتبديع صاحب هوى جار وصال على أصول المنهج السلفي وعلى العلماء، أو يتعلق بغيرها من المسائل العظام التي تنغلّق عن الحكم فيها الأفهام فلا يفتي فيها إلا عالم هُمام. وروي في الحديث: «البركة مع أكابرهم»^(١).

وقال ابن أبي شيبة في مصنّفه (٢٣٤/٥) حدثنا محمد بن بشر قال: حدثنا زكريا بن أبي

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٥٥٩)، والطبراني في الأوسط (٨٩٩١)، والقضاعي في مسند الشهاب (٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٦٣/٧)، وابن عدي في الكامل (٢٥٩/٥)، وأبو نعيم في الحلية (١٧٢/٨)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٦٥/١١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٧٩/٤٦)، والرافعي في التذوين (١٠٩/٤) من طريق الوليد بن مسلم قال: حدثنا ابن المبارك بدرب الروم عن خالد الحذاء، عن عكرمة، عن ابن عباس مرفوعاً.

وأخرجه الحاكم في المستدرک (١٣١/١) من طريق وارث بن عبيد الله عن ابن المبارك به. وأخرجه ابن عدي في الكامل (٧٧/٢) من طريق بقية عن ابن المبارك به، ثم قال: «وهذا لا يروى موصولاً إلا عن ابن المبارك روى عنه نعيم بن حماد، والوليد بن مسلم، وبقية هذا والأصل فيه مرسل»، وقال في (٢٩٥/٥): «وهذا رواه عن ابن المبارك جماعة فأستدوه والأصل فيه مرسل». قال أبو حاتم البستي: «لم يحدث ابن المبارك هذا الحديث بخراسان إنما حدث به بدرب الروم فسمع منه أهل الشام وليس هذا الحديث في كتب ابن المبارك مرفوعاً».

وقال الخطيب: «هكذا رواه عيسى عن الوليد متصلاً، وخالفه هشام بن عمار فرواه عن الوليد بن مسلم وقال فيه عن عكرمة عن النبي ﷺ لم يذكر فيه ابن عباس».

وقال ابن أبي حاتم في العلل (٣١٣/٢): «سمعت أبي وذكر حديثاً رواه الوليد، عن ابن المبارك بأرض الروم عن خالد الحذاء، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «البركة مع أكابرهم»، قال أبي: حدثنا نعيم بن حماد، عن ابن المبارك، عن خالد الحذاء، عن عكرمة، عن النبي ﷺ: «كان يستاك فأمر أن يكبر -يعتني يدفع السواك إلى أكبرهم-».

زائدة قال حدثني علي بن الأقرم أن أبا جحيفة كان يقول: «جالسوا الكبراء وخالطوا الحكماء وسائلوا العلماء».

وأخرجه في (١٤٤/٧) قال ثنا حميد بن عبد الرحمن عن زكريا به^(١).

وقال أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري (م ٣٨٢هـ) في كتابه «المصون في الأدب» كما في (ص ١٤٢-١٤٣): «أخبرنا أبو بكر بن دريد قال: أخبرنا الرياشي عن العُتبي قال: قال زياد: «إني رأيت خلافاً ثلاثاً نبذت إليكم فيهن النصيحة، رأيت إعظام ذوي الشرف، وإجلال ذوي العلم، وتوقير ذوي الأسنان، والله لا أوتى بوضع لم يعرف لشريف شرفه إلا عاقبته له، ولا يأتيني كهل بحدث لم يعرف له فضل سنه على حدائته إلا عاقبته له، ولا يأتيني عالم عاقل بجاهل لم يعرف له فضل علمه على جهله إلا عاقبته له، فإنما الناس بعلمائهم، وأعلامهم، وذوي أسنانهم. ثم تمثل قائلاً:

تهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت
فإن تولت فبالأشرار تنقاد^(٢)
لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة لهم إذا جهالهم سادوا^(٣)

(١) وأخرجه الطبراني في الكبير (١٣٣/٢٢)، والبيهقي في المدخل إلى السنن (٢/٢٠) من طريق زكريا به، وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات من رواة الجماعة.

وأبو جحيفة هو وهب بن عبد الله السوائي: صحابي مشهور بكنيته، يقال له وهب الخير. وقد روي مرفوعاً، ولا يصح: أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/١٢٥)، والبيهقي (٢/٢١)، وفي إسناده عبد الملك بن حسين أبو مالك النخعي، متروك.

(٢) قال الشيخ عبد السلام هارون -محقق المصون-: «اللائفه الأودي في ديوانه (١٠) من الطرائف الأدبية والعقد (١/٩: ٥/٣٠٨)، والقال (٢/٢٢٥)، ونهاية الأرب (٣/٦٤)، ورواية الديوان:

تلفى الأمور بأهل الرشد ما صلحت
فإن تولوا فبالأشرار تنقاد

(٣) قال الخطابي في غريب الحديث (٢/٥٣١): «أخبرني بعض أصحابنا عن أبي عمر قال: أصل المفاوضة المساواة قالوا: منها شركة المفاوضة، وذلك لأن كل واحد من الشريكين يساوي صاحبه فيما يستفيده ولا ينفرد بشيء منه دون صاحبه قال. ومنه قول الشاعر: لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم.. ولا سراة إذا جهالهم سادوا، أي لا تصلح أمورهم وهم أكفاء متساوون في الدرجة ليس لهم رئيس يقودهم فيصدروا عن أمره وينتهوا إلى رأيه». اهـ

وإن أردت إنصاف نفسك هل هي من النفوس المتعصبة أم هي من النفوس المتبعة المطمئنة؟

ففتش في قلبك: هل لما طرق أذنك الغمز واللمز والطعن الخفي - وأحياناً الجلي - في عدد من العلماء الكبراء، توقد غضبك مثلما توقد لما بلغك التحذير من خطأ لشيخك؟ أَدعِ الإجابة لك، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤]، هداك الله وأرشدك.

وإني مُشفق على أهل هذه الأصناف التي ذكرت ممن سيطرت عليهم العواطف الجامحة تجاه شيخهم فخرجت بهم عن طور الاتباع والأدب، وما أشبه حال هؤلاء بحال من تربي في كنف أب صالح سنوات، ثم لما شبَّ الولد وشاخ الأب، إذ الأب يقترب بعض المخالفات الشرعية التي لم تكن مُتوقعة من مثله، فتكون صدمة على هذا الشاب حيث يصعب على قلبه -الذي شبَّ على حب أبيه وعلى اتخاذه قدوة- أن يتقبلها، ولا يقبل من مخلوق كائناً من كان أن يرمي أباه بأنه قد خالف الشرع، ولو رام أحد الكبراء أن ينصح لهذا الأب لهاجت الأحزان في قلب الفتى الشاب، لكن هذه الأحزان إن كانت نابعة من الولاء الفطري المدعم بالعقيدة السليمة الخالي من التعصُّب لهذا الأب، فإنها لا تتعارض مع اعترافه بخطأ أبيه، ولشكر هذا الكبير الناصح ولشاركه في النصح إن أمكن.

أما إن كانت هذه الأحزان نابعة من التعصُّب العرقي لهذا الأب فإنه سوف يسعى بكل الطرائق لإزالة التهمة عن أبيه ولو اضطر إلى الاحتيال والتأويل الفاسد، وسيقذف أسنة رماحه على كل من يروم تقديم النصح لأبيه، حيث إنه يرى أن هذا النصح يستلزم تثبيت التهمة على أبيه.

فكن على تدبر من هذا المثال يتضح لك المقال، والأمر كما قال الله عز شأنه: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْمُتَوَلَّينَ﴾ [النساء: ٤٣].

السمة الثالثة

ضعف حصيلتهم العلمية

إن جُلَّ المتعصبين -إن لم يكونوا كلهم- على ضحالة في العلم النافع وفقر شديد في الدراية بأصول المنهج السلفي، فلا يعرفون ضوابط للخلاف ولا آداب الطلاب مع شيخهم، ولا قواعد علم الجرح والتعديل، ومن ثمَّ ذهبوا يخططون خبط عشواء، وقد تحدثت مع أحد هؤلاء المتعصبين فإذا به يقول لي: أنا ليس عندي دراية بهذه المسائل، أنا مُجرد مُقلِّد، فقلت: ورغم تصريحه بأنه مقلِّد، فقد نصَّب نفسه مع أقرانه المتعصبين: حماة للإسلام والسنة -حسبما يزعمون- في بلدهم، وهم في واقع الأمر يحمون شيخهم من أي كلمة حق تُقال في نقده، وصيَّروا أنفسهم حُكَّامًا على طلبة العلم والعلماء، وهم لا يحسنون التقليد فضلاً عن الاتباع، فأثاروا الفتن وأجَّجوا نار الأحقاد بين الشباب، وتحولوا إلى حزب فوضوي لا همَّ له إلا الانتصار لشيخه.

وصدق أبو الحسن بن الفضل المقدسي حينما قال في هذه الآيات الرائقة:

تصدر للتدريس كلُّ مهوَّس	بليد تسمَّى بالفقيه المدرس
فحقُّ لأهل العلم أن يتمثلوا	ببيت قديم شاع في كلِّ مجلس
لقد هزلت حتى بدا من هزلها	كلاها وحتى سامها كلُّ مُفلس

وآخر يعترف صراحة قائلاً عن نفسه وعن أقرانه المتعصبين: نحن فعلاً متعصبون للشيخ، وقد يكون هذا بسبب حبنا الشديد له.

ولمثل هؤلاء يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى»

(٢٠٣، ٢٠٢/٢٦):

«ومن تربى على مذهب قد تعودوا واعتقدوا فيه، وهو لا يحسن الأدلة الشرعية

وتنازع العلماء، لا يفرق بين ما جاء عن الرسول وتلقته الأمة بالقبول بحيث يجب الإيمان به وبين ما قاله بعض العلماء، ويتعسر أو يتعذر إقامة الحجة عليه، ومن كان لا يفرق بين هذا وهذا لم يحسن أن يتكلم في العلم بكلام العلماء، وإنما هو من المقلدة الناقلين لأقوال غيرهم مثل المحدث عن غيره، والشاهد على غيره لا يكون حاكمًا، والناقل المجرد يكون حاكمًا لا مفتيًا» اهـ.

قلت: وقد تجد طائفة من هؤلاء المتعصبين الجدد، قد كانت لهم سوابق حزبية بدعية قد تابوا منها، ولمَّا يلبثوا عامًا أو عامين أو ثلاثة في مجالس السلفيين، ثم تدق الباب فتنة جديدة، فإذ بهم يفوح منهم الدخن الحزبي ويحنون لماضيهم فينفثوا سموهم الحزبية القديمة في الشباب السلفي الغض الطري ذي العود الأخضر الذي لم يقو بعد، فيفتنوه عن السبيل القويم، وقد ظنوا أنهم بما يفعلون حامين لجناح المنهج السلفي، وهكذا قد خرجوا من عصبية جاهلية إلى عصبية أخرى أضيق منها لكنها مغلفة بغلاف زائف ظاهره السلفية وباطنه الحزبية والعصبية المقيتة.

وإذا أردت أن تضع ذاك المتعصب الجاهل عند حده فلا تجد مناصًا من مواجهته بجهله حتى يرعوي، ولنا فيمن سبق أسوة في هذا، وإليك هاتان الواقعتان:

الواقعة الأولى: قال الخطيب في أول أثر في «الكفاية في علوم الرواية»: أخبرنا أبو بكر محمد بن عمر بن جعفر الخرقى أنا أحمد بن جعفر بن محمد بن سلم الختلي قال حدثنا أبو العباس أحمد بن علي الأبار^(١) قال: رأيت بالأهواز رجلاً حفَّ شاربته، وأظنه قد اشترى كتبًا وتعبًا للفتيا، فذكروا أصحاب الحديث فقال: ليسوا بشيء وليس يسوون شيئًا، فقلت له: أنت لا تحسن تصلي! قال: أنا، قلت: نعم، قلت: إيش تحفظ عن رسول الله ﷺ إذا افتتحت الصلاة ورفعت يديك؟ فسكت، فقلت: وإيش تحفظ عن رسول الله ﷺ، إذا وضعت يديك على ركبتيك؟ فسكت، قلت: إيش تحفظ عن رسول الله ﷺ، إذا سجدت؟

(١) إسناده حسن، وأحمد بن علي الأبار، ترجمه الخطيب في تاريخ بغداد (٤/٣٠٦-٣٠٧)، وقال: «كان ثقة حافظًا متقنًا حسن المذهب».

فسكت، قلت: مالك لا تكلم؟ ألم أقل لك إنك لا تحسن تصلي، أنت إنما قيل لك: تصلي الغداة ركعتين والظهر أربعاً، فالزم ذا خيز لك من أن تذكر أصحاب الحديث، فلست بشيء ولا تحسن شيئاً.

قلت: وكذا المتعصب الذي يطعن في أهل الحق المحذرين من شيخه، فيقول: ليسوا بشيء، وليس يسوون شيئاً، فهنا عليك أن تجابه بما قاله الأبار، فقل له: أنت لا تحسن تصلي... إلخ، ثم باغته قائلاً: ما أدلتك العلمية على طعنك في فلان وعلان من أهل العلم وطلبته، فهنا ينكشف لك الأمر أكثر، حيث إنك تجده فارغاً من الحجة، وإنما يعتذر عن طعنه في أهل الحق بقوله: «لقد طعنوا في شيخنا وفضحوا أخطاءه على الملاء»، وهذا عذر أقبح من ذنب.

وكذا الحدادي الطاعن في أئمة الحديث والسنة بالطعن نفسه الذي قاله ذاك الرجل: فلان وفلان من أهل الحديث ليسوا بشيء وليس يسوون شيئاً، فعليك أيضاً أن تواجهه بجهله، وأنه لم يبلغ مدّاً واحد فقط من هؤلاء الأئمة ولا نصيفه.

وصدق ابن قيم الجوزية رحمته الله لما قال في نونيته:

هَذَا وَإِنِّي بَعْدُ مُمْتَحَنٌ بِأَرْ	بَعَاةٍ وَكُلُّهُمْ دَوُو أَضْغَانٍ
فَظٌ غَلِيظٌ جَاهِلٌ مُتَمَعِّلٌ	صَحْمُ الْعِمَامَةِ وَاسِعُ الْأَرْدَانِ
مُتَفَيِّهٌ مُتَضَلِّعٌ بِالْجَهْلِ ذُو	صَلَعٍ وَذُو جَلَحٍ مِنَ الْعِرْفَانِ
مُزَجِّجِي الْبِضَاعَةِ فِي الْعُلُومِ وَإِنَّهُ	زَاجٍ مِنَ الْإِيمَامِ وَالْهَذْيَانِ
يَشْكُو إِلَى اللَّهِ الْحَقُوقَ تَظَلُّمًا	مَنْ جَهْلُهُ كَشِكَايَةِ الْأَبْدَانِ
مَنْ جَاهِلٍ مُتَطَبِّبٍ يُفْتِي الْوَرَى	وَيُحِيلُ ذَاكَ عَلَى قَضَا الرَّحْمَنِ
عَجَّتْ فُرُوجُ الْخَلْقِ ثُمَّ دِمَاؤُهُمْ	وَحُقُوفُهُمْ مِنْهُ إِلَى الدِّيَانِ
مَا عِنْدَهُ عِلْمٌ سِوَى التَّكْفِيرِ وَالتَّ	بُذَيْعِ وَالتَّضْلِيلِ وَالْبُهْتَانِ

الواقعة الثانية: قال ابن رجب في «الذيل على طبقات الحنابلة» (٢/٢٣) نقلاً عن الضياء

المقدسي في ترجمته للحافظ عبد الغني المقدسي: «ولقد عقد مرة مجلس لشيخ الإسلام أبي العباس بن تيمية، فتكلم فيه بعض أكابر المخالفين، وكان خطيب الجامع، فقال الشيخ شرف الدين عبد الله أخو الشيخ -عبد الغني-: كلامنا مع أهل السنة، أما أنت: فأنا أكتب لك أحاديث من الصحيحين، وأحاديث من الموضوعات- وأظنه قال: وكلاماً من سيرة عنتر- فلا تميز بينهما- أو كما قال-، فسكت الرجل...» اهـ

قلت: وما أحسن ما رواه البيهقي عن الشافعي كما في «مناقب الشافعي» (١٥١/١)^(١)، حيث قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الرحمن بن أبي الحسن قال: سمعت محمد بن علي الحافظ^(٢) يقول: سمعت أبا بكر بن زياد^(٣) يقول: سمعت الربيع بن سليمان يقول: سمعت الشافعي يقول: العلم جهل عند أهل الجهل، كما أن الجهل جهل عند أهل العلم، ثم أنشأ يقول:

ومنزلة الفقيه من السفية كمنزلة السفية من الفقه
فهذا زاهدٌ في قُربِ هذا وهذا فيه أزهد منه فيه

(١) ورواه أيضاً بالإسناد نفسه في المدخل (٦٢٠)، وهو إسناد صحيح.

(٢) هو القفال الشاشي الكبير، كما في السير (٢٨٣/١٦).

(٣) هو عبد الله بن محمد بن زياد النيسابوري، إمام الشافعية في عصره بالعراق، وانظر: تاريخ بغداد (١٢٠/١٥)، والسير للذهبي (٦٥/١٥).

السمة الرابعة للمتعصبين

أوتوا الجدل بالباطل مع الفجور واللد

في الخصومة مع مخالفينهم

فهم يصدق عليهم قول النبي ﷺ: «ما ضلَّ قوم بعد هدى إلا أوتوا الجدل»، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨] ^(١).

قال المناوي في شرح هذا الحديث كما في فيض القدير (٤٥٣/٥): «أي ما ضلَّ قوم مهديون كائنين على حال من الأحوال إلا أوتوا الجدل يعني من ترك سبيل الهدى وركب سنن الضلالة، والمراد لم يمش حاله إلا بالجدل أي الخصومة بالباطل، وقال القاضي: المراد التعصب لترويج المذاهب الكاسدة والعقائد الزائفة لا المناظرة لإظهار الحق واستكشاف الحال واستعلام ما ليس معلوماً عنده أو تعليم غيره ما عنده...» اهـ.

قلت: ولا ريب أن المتعصب المخاصم لأهل الحق لهو داخل في الحديث، بل له نصيب من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٤٨)، وأحمد (٢٥٢، ٢٥٦)، والحاكم (٤٨٦/٢)، والطبراني في الكبير (٢٧٧/٨)، والرويانى (١١٨٧)، وابن أبي عاصم في السنة (١٠١)، واللاكاى في شرح أصول الاعتقاد (١٧٧)، وأبو إسماعيل الهروي في «الأربعين في دلائل التوحيد» (٣٩)، وابن جرير في تفسيره (٨٨/٢٥)، وابن أبي الدنيا في الصمت (١٣٥، ١٣٦)، وابن عدي في الكامل (٣٠٥/٤)، والعقيلي في الضعفاء (٢٨٦/١) من طريق الحجاج بن دينار، عن أبي غالب، عن أبي أمامة به.

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، إنما نعرفه من حديث حجاج بن دينار، وحجاج ثقة مقارب الحديث وأبو غالب اسمه حزور. وحسنه العلامة الألبانى في صحيح الجامع (٥٦٣٣).

وقال ابن رجب رحمه الله في جامع العلوم والحكم (ص ٤٣٢): «إذا كان الرجل ذا قدرة عند الخصومة - سواء كانت خصومته في الدين أو في الدنيا - على أن ينتصر للباطل، ويُخَيَّل للسامع أنه حق، ويوهن الحق، ويخرجه في صورة الباطل، كان ذلك من أقبح المحرمات، وأخبث خصال النفاق» اهـ.

وقال الصنعاني في سبل السلام (١٩٦/٤): «وحقيقة المراء: طعنك في كلام غيرك؛ لإظهار خلل فيه لغير غرض سوى تحقير قائله، وإظهار مزيته عليه» اهـ.

قلت: ومن المراء طعنك في كلام غيرك لإظهار خلل فيه لغير غرض سوى الانتصار لمن تتعصب له.

وقال الشيخ عبد السلام بن برجس في «عوائق الطلب» (ص ٦٣): «فالحذر الحذر من التعصب للأقوال والقائلين، وهو أن يجعل القصد من المناظرة والمباحثة نصر القول الذي قاله، أو قاله من يعظمه، فإن التعصب مُذهب للإخلاص، مُزِيل لبهجة العلم، مُعمٍ للحقائق، فاتح باب الحقد والخصام الضار، كما أن الإنصاف هو زينة العلم، وعنوان الإخلاص والنصح والفلاح» اهـ.

وأما عن معنى الجدل، فقد قال الخطيب في الفقيه والمتفقه (٥٥١/١): «وأما الجدل فهو تردد الكلام بين الخصمين، إذا قصد كل واحد منهما إحكام قوله، ليدفع به قول صاحبه، وهو مأخوذ من الإحكام، يقال: درعُ مجدولة، إذا كانت محكمة التسيج، وحبل مجدول: إذا كان محكم القتل، والجدالة وجه الأرض إذا كان صلبًا، ولا يصح الجدل إلا من اثنين، ويصح النظر من واحد، والجدل كله سؤال وجواب، فالسؤال هو الاستخبار، والجواب هو الإخبار» اهـ.

وقال ابن الأثير في النهاية (ص ١٤٢ ط ابن الجوزي): «الجدل: مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة: المناظرة والمخاصمة».

وقال النووي في «تهذيب الأسماء» (٤٥/٣): «وقد ذكر الخطيب في كتابه كتاب الفقيه والمتفقه جميع ما جاء في الجدل... ويبين ذلك أحسن بيان، وكذلك ذكره غيره وقد صار الجدل علمًا مستقلًا، وصنفت فيه كتب لا تحصى».

قلت: وصدق النووي رحمه الله، ومن ثم سوف أحاول فيما يلي -إن شاء الله تعالى- اقتناص أهم الفوائد التي ذكرها الخطيب في هذا الباب.

قال الخطيب في الفقيه والمتفقه (٥٥٦/١): «فتضمن الكتاب: ذمّ الجدل والأمر به، فعلمنا يقيناً أن الذي ذمّه غير الذي أمر به، وأن من الجدل ما هو محمود مأمور به، ومنه مذموم منهي عنه».

* ثم شرع يبين أن الجدل المذموم على وجهين:

أحدهما: الجدل بغير علم، ويدل على ذمّه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كُتُبٌ مَّقَامَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٢٥]، وقال سبحانه: ﴿هَكَانُمْ هُنَا لَوْلَا فَخَجْتُمُ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: ٦٦].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨].

الثاني: الجدل بالشَّعْب والتمويه؛ نُصرة للباطل بعد ظهور الحق وبيانه، كما قال تعالى: ﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥]، ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَانُوا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٦].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ فَخُصِمُوا دَاخِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦]^(١).

ويدخل في القسم الثاني الجدل لمجرد المجادلة والمعادلة والمخاصمة والمرء، كما قال الله سبحانه: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْثَةَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧) ﴿وَقَالُوا أَلَهْتُمَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٧، ٥٨].

(١) وجعل شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- القسم الثاني هذا على قسمين:

[١] الجدل نصرة للباطل.

[٢] الجدل بعد ظهور الحق، كما في «درء تعارض العقل والنقل» (٧/ ١٧٠)، ومجموع الفتاوى (٣٠٩/٣).

- ويضاف إلى هذين القسمين:

قسم ثالث: وقد أشار إليه الشيخ إبراهيم الرحيلي -حفظه الله- في كتابه «موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء البدع» (٦٠٥/٢)، وهو الجدال لإظهار العلم وقوة الحجة والفتنة والذكاء: مراعاة للناس وطلبًا للدنيا.

وقسم رابع: وهو الجدال بالمتشابه.

وعلى هذه الأقسام الأربعة تنزل الأحاديث والآثار التالية في ذم الجدال.

أولاً: ذكر الأحاديث الدالة على النهي عن الجدال المذموم:

قال البخاري في صحيحه: كتاب المظالم تحت باب قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾: حدثنا أبو عاصم عن ابن جريج، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة -رضي الله عنها- عن النبي ﷺ قال: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»^(١).

وقال أيضًا في الكتاب نفسه: باب: إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله قال: حدثني إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير أن زينب بنت أم سلمة أخبرته أن أمها أم سلمة -رضي الله عنها- زوج النبي ﷺ أخبرتها عن رسول الله ﷺ أنه سمع خصومة بباب حجرته فخرج إليهم فقال: «إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبغض من بعض، فأحسب أنه صدق، فأقضي له بذلك فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو فليتركها»^(٢).

وقال أبو داود في سننه (٣٥٩٧): حدثنا أحمد بن يونس، ثنا زهير، ثنا عمار بن غزوة، عن يحيى بن راشد قال: جلسنا لعبد الله بن عمر فخرج إلينا فجلس، فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله، ومن خاصم في باطل وهو يعلمه لم يزل في سخط الله حتى ينزع عنه، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال»^(٣).

(١) وأخرجه مسلم (٢٦٦٨).

(٢) وأخرجه مسلم (١٧١٣).

(٣) وأخرجه أحمد في مسنده (٧٠/٢)، والحاكم في المستدرک (٣٢/٢)، والبيهقي في الكبرى (٨٢/٦) ==

قلت: والمتعصبون هم أشد الناس خصومة لجدالهم على باطلهم الذي يتعصبون له، وقد عاينت هذا بنفسى مراراً.

وقال عبد الرزاق في تفسيره (١١٦/١): حدثنا معمر عن أيوب، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة، أن النبي ﷺ قرأها -أي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ [آل عمران: ٧]، فقال: «إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فاحذروهم»^(١).

قلت: ولأجل هذا جرى أئمة السنة على تخصيص باب ثابت في كتب الاعتقاد يروون فيه الأحاديث والآثار التي تحذر من الجدل مع أهل البدع وتحذر من مخاصمتهم ومماراتهم، فقال اللاكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (١٩١/١)، ط المكتبة الإسلامية: «سياق ما روي عن النبي ﷺ في النهي عن مناظرة أهل البدع، وجدالهم، والمكالمة معهم، والاستماع إلى أقوالهم المحدثه، وآرائهم الخبيثة».

(٣٣٢ / ٨)، وفي الشعب (٦٧٣٥، ٧٦٧٣) من طريق زهير به.

قلت: زهير هو ابن معاوية بن حُذَيْج، ثقة ثبت روى له الجماعة، آخر حُذَيْج بن معاوية، والرُّحَيْل ابن معاوية. وعمارة ثقة، روى له البخاري استشهاداً في الصحيح، وروى له في الأدب المفرد، وروى له مسلم والأربعة.

وقال الحاكم: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في الصحيحة (١/ قسم ب/ ٧٩٨): «هو كما قالوا، ورجاله ثقات رجال مسلم، غير يحيى بن راشد، وهو ثقة كما في التقريب»، وزاد في الإرواء (٣٤٩ / ٧): «وقد توبع من ثقات آخرين».

(١) وأخرجه ابن جرير في تفسيره (١٧٨ / ٣)، وابن حبان في صحيحه (٧٦)، وابن ماجه (٤٧)، وأحمد في مسنده (٤٨ / ٦)، والآجري في الشريعة (ص ٢٦)، وابن بطة في الإبانة (٢ / ٦٠٢ - ٦٠٥)، وابن مندة في التوحيد (١ / ٢٧٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦ / ٥٤٦) من طريق أيوب به، وهذا إسناد صحيح.

وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (٤٩٢)، والطبراني في الأوسط (٣٣٤٤، ٤٩٥٥) من طرق أخرى عن ابن أبي مليكة به.

والحديث أصله في الصحيحين بلفظ: «أولئك الذين سمي الله فاحذروهم».

وفي رواية ابن بطة: قال أيوب: «ولا أعلم أحداً من أهل الأهواء يجادل إلا بالمشابه».

وقال الآجري في الشريعة (١٨٥/١)، ط قرطبة: «باب: ذم الجدل والخصومات في الدين».

وقال ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٤٢٩/٢): «باب: التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان»، ثم عقد باباً في (٤٨٣/٢) بعنوان: «باب: ذم المراء والخصومات في الدين، والتحذير من أهل الجدل والكلام».

وقال أبو إسماعيل الهروي في «ذم الكلام وأهله» (٥/٢): «باب ذم الجدل والتغليظ فيه وذكر شؤمه»، ثم أردفه باب: «فضل ترك المراء، وإن كان المماري محققاً»، ثم بباب: «تغليظ المصطفى ﷺ في الجدل في القرآن وتحذيره أهله».

وكما قال الآجري في الشريعة في الباب المشار إليه (١٩٥/١): «فإن قال قائل: فإن كان رجل قد علمه الله تعالى علماً، فجاءه رجل يسأله عن مسألة في الدين؛ ينازعه فيها ويخاصمه، ترى له أن يناظره؛ حتى تثبت عليه الحجة، ويرد عليه قوله؟

قيل له: هذا الذي نهينا عنه؛ وهو الذي حذرناه من تقدم من أئمة المسلمين.

فإن قال قائل: فماذا نصنع؟

قيل له: إن كان الذي يسألك مسألتة: مسألة مسترشد إلى طريق الحق لا مناظرة، فأرشدته بالطف ما يكون من البيان بالعلم من الكتاب والسنة، وقول الصحابة، وقول أئمة المسلمين - رضي الله عنهم - وإن كان يريد مناظرتك ومجادلتك، فهذا الذي كره العلماء، فلا تناظره، واحذره على دينك، كما قال من تقدم من أئمة المسلمين إن كنت لهم متبعا.

فإن قال قائل: فندعهم يتكلمون بالباطل، ونسكت عنهم؟

قيل له: سكوتك عنهم وهجرتك لما تكلموا به أشد عليهم من مناظرتك لهم كذا قال من تقدم من السلف الصالح من علماء المسلمين.

حدثنا أبو بكر بن عبد الحميد قال: حدثنا زهير بن محمد قال: أنا منصور عن سفيان قال: حدثنا حماد بن زيد عن أيوب^(١) أنه قال: «لست برأى عليهم أشد من السكوت» اهـ.

قلت: ومن ثمّ تضافرت الآثار السلفية على التحذير من المراء والخصومات والمناظرات مع أهل البدع، بل على التحذير من مجرد مجالسة أهل الأهواء، أو الاستماع إليهم؛ لأن المجالسة والاستماع هما باب الشيطان إلى المراء والخصومة، ثم التردّي في هوة البدع والأهواء -سلمنا الله وإياكم-.

فأسوق باقية من هذه الآثار: عظة للمتعصّبين وتثبيتاً للمتقين وتعليماً للمُغرّ بهم من الشباب المُستدرج من قِبَل المتعصّبين عن طريق هذه الخصومات والمغالبات المذمومة:

قال سعيد بن منصور في سننه (٧٢٣): نا هُشيم، نا العوام -أي: ابن حوشب- عن أبي إياس -أي: قُرة بن معاوية- قال: «الخصومات في الدين تُحبط الأعمال»^(١).

وقال الدارمي في سننه (٣٩٧): أخبرنا سعيد بن عامر، عن أسماء بن عبيد قال: دخل رجلان من أصحاب الأهواء على ابن سيرين فقالا: يا أبا بكر نحدثك بحديث؟ قال: لا، قالوا: فنقرأ عليك آية من كتاب الله، قال: لا لتقومان عني أو لأقومن، قال: فخرجاً، فقال بعض القوم: يا أبا بكر وما كان عليك أن يقرأ عليك آية من كتاب الله تعالى؟ قال: إني خشيت أن يقرأ علي آية فيحرفانها فيقر ذلك في قلبي^(٢).

وقال الدارمي في سننه -أيضاً- (٣٩٨): أخبرنا سعيد عن سلام بن أبي مطيع أن رجلاً من أهل الأهواء قال لأيوب: يا أبا بكر، أسألك عن كلمة؟ قال: -فولّي وهو يشير بأصبعه-: ولا نصف كلمة، وأشار لنا سعيد بخنصره اليمنى^(٣).

وقال الآجري في الشريعة (١٢٥) حدثنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبد الحميد الواسطي قال: ثنا محمد بن المثنى قال: حدثنا حماد بن مسعدة قال: كان عمران القصير يقول: «إياكم والمنازعة والخصومة، وإياكم وهؤلاء الذين يقولون: رأيت رأيت»^(٤).

(١) أثر صحيح: وأخرجه الآجري في الشريعة (ص ٥٦)، واللاکائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٢٢١).
 (٢) أثر صحيح: وأخرجه الفريابي في القدر (٣٧٣)، واللاکائي في أصول الاعتقاد (٢٤٢)، وابن وضاح في البدع والنهي عنها (ص ٦)، والآجري في الشريعة (ص ٥٧)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٩/٢١٨).
 (٣) أثر صحيح: وأخرجه البغوي في حديث ابن الجعد (١٢٣٧)، والفريابي في القدر (٣٧٤)، واللاکائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٢٩١)، والآجري في الشريعة (ص ٥٧)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٩/٣)، والسهمي في تاريخ جرجان (١/٣٩٤).

(٤) أثر صحيح: وأخرجه ابن بطة في الإبانة (٦٣٧)، وعمران القصير هو ابن مسلم المِنقَرِي، ثقة من

وقال أيضًا برقم (١٣٠) حدثنا ابن عبد الحميد قال: حدثنا زهير قال: أخبرنا أبو خالد قال: حدثنا سفيان عن عمرو -يعني ابن قيس- قال: قلت للحكم: ما اضطر الناس إلى الأهواء؟ قال: الخصومات^(١).

وقال الفريابي في القدر (٣٨٠): حدثنا محمد بن داود، حدثني محمد بن عيسى، حدثني محمد، عن هشام قال: جاء رجل إلى الحسن فقال: يا أبا سعيد تعالَ حتى أخاصمك في الدين، فقال الحسن: أما أنا فقد أبصرت ديني فإن كنت أضللت دينك فالتمسه.

ثم قال في (٣٨٢): حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا الفضل، عن حماد بن زيد، عن محمد بن واسع قال: رأيت صفوان بن محرز المازني، وإلى جنبه قوم يتجادلون^(٢) فقام ونفض ثيابه وقال: إنما أنتم حرب^(٣).

وفي (٣٨٣): حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا حماد بن زيد، عن محمد بن واسع، عن مسلم بن يسار أنه كان يقول: إياكم والمراء فإنها ساعة جهل العالم، وبها يتغي الشيطان زلته^(٤).

وفي (٣٨٥): حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا حماد بن زيد، عن يحيى بن سعيد -وهو الأنصاري- قال: إن عمر بن عبد العزيز قال: من جعل دينه غرضًا للخصومات أكثر التنقل -وفي رواية: أكثر الشك، أو أكثر التحول-^(٥).

وقال الآجري في الشريعة (ص ٥٦): حدثنا الفريابي، قال: حدثني إبراهيم بن المنذر الحزامي، حدثنا معن بن عيسى قال: انصرف مالك بن أنس يومًا من المسجد، وهو مُتَكَيِّئ

أتباع التابعين روى له الجماعة إلا ابن ماجه.

(١) أثر صحيح: وأخرجه اللاكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٢١٨).

(٢) وفي رواية الآجري: «وشبهة قريب منه يتجادلون».

(٣) أثر صحيح: وأخرجه الآجري في الشريعة (ص ٥٨).

(٤) أثر صحيح: وأخرجه الآجري في الشريعة (ص ٥٦).

(٥) أثر صحيح: وأخرجه الآجري في الشريعة (ص ٥٦) عن الفريابي به، وأخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (٦٧٠، ١٦١)، واللاكائي (٢١٦) من طريق حماد به، وأخرجه الفريابي من طريق أخرى (٣٨٤)، ومن طريق ثالثة: الدارمي (٣٠٤).

على يدي، فلقحه رجل يقال له أبو الحُورية - كان يُتهم بالإرجاء - فقال: يا عبد الله، اسمع مني شيئاً! أكلّمك به وأحاجُك، وأخبرك برأيي قال: فإن غلبتني؟ قال: إن غلبتك اتبعني، قال: فإن جاء رجل آخر، فكلمنا فغلبنا؟ قال: نتبعه، فقال: مالك بِرَحْمَةِ اللَّهِ: يا عبد الله: بعث الله ﷺ محمداً بدين واحد، وأراك تنتقل من دين إلى دين، قال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل ^(١).

وقال ابن بطة في الإبانة (٦٧٢) (٥٣٨/٢) حدثنا أبو القاسم حفص بن عمر قال: حدثنا أبو حاتم قال: حدثنا أحمد بن سنان قال: جاء أبو بكر الأصم إلى عبد الرحمن بن مهدي فقال: جئت حتى أناظرك في الدين، فقال: إن شككت في شيء من أمر دينك، فقف حتى أخرج إلى الصلاة، وإلا فاذهب إلى عملك، فمضى ولم يثبت.

وأخرج الخطيب في الفقيه والمتفقه (٦٠٣) بإسناده عن عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: نا إسحاق بن عيسى الطباع قال: رأيت رجلاً من أهل المغرب جاء مالكا فقال: إن الأهواء كثرت قبلنا، فجعلت على نفسي، إن أنا رأيتك، أن آخذ بما تأمرني، فوصف له مالك شرائع الإسلام: الزكاة والصلاة والصوم والحج، ثم قال: «خذ بهذا، ولا تخاصم أحداً في شيء».

وقال ابن أبي حاتم في تفسيره (١١٦٨/٤) في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضْنَا عَنْهُمْ الْغَدَاةَ وَالْبَعْضَاءَ﴾ [المائدة: ١٤]، حدثنا أحمد بن سنان، ثنا يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب، عن إبراهيم التيمي: قوله: ﴿الْغَدَاةَ وَالْبَعْضَاءَ﴾، قال: الخصومات والجدال في الدين ^(٢).

وقال ابن أبي حاتم في «آداب الشافعي» (ص ١٨٤) أنا الربيع بن سليمان المرادي قال: «رأيت الشافعي، وهو نازل من الدرجة، وقوم في المجلس يتكلمون بشيء من الكلام، فصاح فقال: إما أن تجاورونا بخير، وإما أن تقوموا عنا».

(١) إسناده صحيح.

والمعنى: أي أكثر التنقل من باطل إلى باطل، أو من حق إلى باطل، أما الانتقال من الباطل إلى الحق، فهذا هو المطلوب لكن مع الثبات على هذا الحق وعدم التحول عنه مرة أخرى.

(٢) إسناده صحيح: وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (٧٢٣)، وابن جرير في تفسيره (١٥٨/٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢٢٣/٤)، وابن بطة في الإبانة (٥٠١-٥٠٠/٢).

وقال الدارمي (٣٠٢): أخبرنا سعيد بن عامر، عن إسماعيل بن إبراهيم، عن يونس قال: «كتب لي ميمون بن مهران: إياك والخصومة والجدال في الدين، ولا تجادلن عالماً ولا جاهلاً، أما العالم؛ فإنه يخزن عنك علمه، ولا يبالي ما صنعت، وأما الجاهل؛ فإنه يخشن بصدرك ولا يطيعك»^(١).

وقال عبد الله بن أحمد في «العلل ومعرفة الرجال» (٣٦): حدثني أبي قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا مسعر، عن الحكم قال: قال أبو عيسى: لا تمارين صديقك ولا تمازحه، قال أبي: يعني عبد الرحمن بن أبي ليلى أبو عيسى.

وقال الدارمي أيضاً (٣٩١): أخبرنا سليمان بن حرب عن حماد بن زيد عن أيوب قال: قال أبو قلابة: لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم؛ فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون^(٢).

وقال ابن أبي الدنيا في الصمت (١٥٤): حدثنا علي بن الحسين العامري، حدثنا أبو النضر هاشم بن القاسم، عن الأشجعي، حدثنا الربيع بن الملاح قال: سمعت أبا جعفر يقول: إياكم والخصومة؛ فإنها تمحق الدين.

وحدثني من سمعه يقول: وتورث الشنآن وتذهب الاجتهاد^(٣).

(١) إسناده صحيح: وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٨٢/٤) من طريق ابن أبي عدي عن يونس به، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٦٤/٦١) من طريق ابن علية به، وزاد فيه: «أما أنت فعليك بكتاب الله، فإن الناس قد يهيموا عنه، قال يونس: بمعنى نسوه، واختاروا عليه الأحاديث: أحاديث الرجال».

(٢) إسناده صحيح: وأخرجه ابن سعد في الطبقات (١٨٤/٧) بالإسناد نفسه، وأخرجه الفريابي في القدر (٣٧١)، وأبو نعيم في الحلية (٢٨٧/٢)، والبيهقي في الشعب (٦٠/٧)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (الإيمان/٢/٤٣٥/٣٦٣)، والفسوي في «السنة» كما في «نصوص مقتبسة منه» في المعرفة والتاريخ (٤٩١/٣)، ومن طريقه اللاكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٢٤٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٩٩/٢٨) من طريق سليمان به، وأخرجه ابن وضاح في «البدع والنهي عنها» (١٢٦)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٣٦٩)، واللاكائي (٢٤٤)، والفريابي في القدر (٣٦٦)، وعنه الآجري في الشريعة (١٢٠) (١٨٨/١) من طرق أخرى عن حماد بن زيد به، وأخرجه البيهقي في الاعتقاد (ص ٣١٩ - ط دار الفضيلة)، وابن بطة (٣٦٤)، وابن عساكر (٣٠٥/٢٨) من طريق أيوب به.

(٣) وأخرجه الخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق (٨٢/٢).

وقال ابن أبي الدنيا في الورع (٥٣): حدثني أبي وأحمد بن منيع قالا: حدثنا مروان بن شجاع عن عبد الكريم الجزري قال: ما خاصم ورع قط، يعني في الدين^(١).

وقال يعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (٨٠٣/٢): حدثنا محمد بن عبد الله بن عمار، حدثنا حفص بن غياث قال: سمعت سفيان الثوري يقول: ما تأتون أحداً أحفظ من حجاج بن أرطاة، قال حفص: وسمعت حجاجاً يقول: ما خاصمت أحداً قط، ولا جلست إلى قوم يختصمون^(٢).

وقال ابن سعد في الطبقات (٢٥١/٦ ط صادر) (٣٧٠-٣٧١/٨ ط الخانجي): أخبرنا محمد بن عبد الله الأنصاري قال حدثنا صالح بن مسلم^(٣) قال: كنت مع الشعبي ويدي في يده -أو يده في يدي- فانتهينا إلى المسجد فإذا حماد^(٤) في المسجد، وحوله أصحابه ولهم ضوضاء وأصوات، قال: فقال: والله لقد بغض إليّ هؤلاء هذا المسجد حتى تركوه أبغض إلي من كناسة داري، معاشر الصعافقة^(٥)، فانصاع راجعاً ورجعنا.

وأخرجه البيهقي في المدخل (٢١٥) بإسناد صحيح عن المبارك بن سعيد الثوري ثنا صالح بن مسلم قال: لقيت الشعبي فقال: لقد بغض إليّ هؤلاء المسجد حتى لهو أبغض إلي من الكناسة، فقلت: مم يا أبا عمرو؟ قال: هؤلاء الرائيون أصحاب الرأي لما أعتهم أحاديث رسول الله ﷺ أن يحفظوها يجادلون^(٦).

(١) إسناده حسن: وأخرجه ابن أبي الدنيا أيضاً في الصمت (١٥٥)، البيهقي في شعب الإيمان (٣٥٤/٦)، وابن بطة في الإبانة (٦٣٤).

(٢) إسناده حسن: وأخرجه ابن عدي في الكامل (٢٢٤/٢)، والخطيب في تاريخ بغداد (٢٣٢/٨).

(٣) هو صالح بن صالح بن مسلم بن حي، وثقه أحمد كما في الجرح والتعديل (٤٠٦/٤)، وهو والد الحسن وعلي، وكانا يريان رأي الخوارج، قال ابن عينة: كان خيراً من ابنه.

(٤) هو ابن أبي سليمان، وكان يرى الإرجاء.

(٥) قال ابن الأثير في النهاية (٣١/٣): «هم الذين يدخلون السوق بلا رأس مال، فإذا اشترى التاجر شيئاً دخل معه فيه، واحدهم صعق، وقيل: صعقوك وصعقني، أراد أن هؤلاء لا علم عندهم، فهم بمنزلة التجار الذين ليس لهم رأس مال»، وانظر الغريب المصنف لأبي عبيد (٤٤٣/٤)، ومعجم البلدان (٤٠٧/٣).

(٦) وأخرجه ابن عبد البر في الجامع (١٤٦/٢).

وأخرجه البيهقي أيضاً من طريق أخرى برقم (٢٢٨) من طريق يحيى بن سعيد القطان عن صالح عنه بزيادة في أوله: «إنما هلكتم حين تركتم الآثار، وأخذتم في المقاييس». وأخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه (٥٠٠) من طريق محمد بن كناسة عن صالح، وفيه: «هؤلاء الرأيتون: رأيت! رأيت!».

وقال ابن سعد أيضاً: أخبرنا قبيصة بن عقبة قال: حدثنا سفيان، عن عبد الله بن أبي السفر، عن الشعبي قال: لقد أتى علي زمان، وما من مجلس أحب إلي أن أجلس فيه من هذا المسجد، فلكناسة اليوم أجلس عليها أحب إلي من أن أجلس في هذا المسجد، قال: وكان يقول إذا مر عليهم: ما يقول هؤلاء الصعافقة أو قال بنو أستها - شك قبيصة -؟ ما قالوا لك برأيهم قبل عليه، وما حدثوك عن أصحاب محمد ﷺ فخذ به^(١).

وقال ابن جرير في تفسيره (١٨/٢٥): حدثني محمد بن عمرو قال: ثنا أبو عاصم قال: ثنا عيسى والحارث قال: ثنا الحسن قال: ثنا ورقاء جميعاً عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥]، قال: لا خصومة^(٢).

ثم قال: حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قول الله عز وجل: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾: لا خصومة بيننا وبينكم، وقرأ: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]^(٣).

بل نقل ثابت بن العجلان إجماع السلف الصالح على ترك مجادلة ومجالسة أهل الأهواء، كما أخرج هذا الفسوي في «السنة» (نصوص مقتبسة منه، المعرفة والتاريخ (٣/٤٩١)، (٤٩٢): حدثنا عمرو بن عثمان قال حدثنا بقية قال حدثنا ثابت بن العجلان قال: أدركت أنس ابن مالك، وابن المسيب، والحسن البصري، وسعيد بن جبيرة، والشعبي، وإبراهيم النخعي، وعطاء بن أبي رباح، وطاوس، ومجاهد، وعبد الله بن أبي مليكة، والزهري، ومكحول،

(١) وأخرجه الدوري في المعرفة والتاريخ (٢/٥٩٢)، ووقع فيه: «المعانقة» بدلاً من «الصعافقة».
(٢) إسناده صحيح: وأخرجه ابن بطة في الإبانة (٦٤٨)، وأبو نعيم في الحلية (٣/٢٩٨)، وعلقه البخاري في الصحيح بصيغة الجزم في كتاب التفسير، باب: تفسير سورة الشورى.
(٣) إسناده صحيح.

والقاسم أبا عبد الرحمن، وعطاء الخراساني، وثابت البناني، والحكم بن عتيبة، وأيوب السختياني، وحماة ومحمد بن سيرين، وأبا عامر -وكان قد أدرك أبا بكر الصديق- ويزيد الرقاشي وسليمان بن موسى: كلهم يأمروني بالجماعة، وينهوني عن أصحاب الأهواء.

وقال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص ٩٣): «وقال ابن وهب عن مالك: أدركت هذه البلدة، وإنهم ليكرهون الإكثار الذي فيه الناس اليوم -يريد المسائل-».

وقال أيضا سمعت مالكا: وهو يعيب كثرة الكلام وكثرة الفتيا، ثم قال: يتكلم كأنه جمل مغتلم، يقول: هو كذا هو كذا يهدر في كلامه، وقال: سمعت مالكا يكره الجواب في كثرة المسائل، وقال: قال الله عز وجل: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، فلم يأت في ذلك جواب، فكان مالك يكره المجادلة عن السنن، وقال أيضا الهيثم بن جميل: قلت لمالك: يا أبا عبد الله الرجل يكون عالما بالسنن يجادل عنها، قال: لا، ولكن يخبر بالسنة، فإن قبلت منه، وإلا سكت.

قال إسحق بن عيسى: كان مالك يقول: «المراء والجدال في العلم يذهب بنور العلم من قلب الرجل».

وقال أيضا: «وقال الأوزاعي: إن الله إذا أراد أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط، فلقد رأيتهم أقل الناس علما».

وذكر الإمام أحمد في أصول السنة (٥)، أن من أصول السنة: «ترك الخصومات، والجلوس مع أصحاب الأهواء، وترك المراء والجدال والخصومات في الدين».

وقال صالح بن أحمد في مسائله لأبيه (٥٨٨): كتب رجل إلى أبي يسأله عن مناظرة أهل الكلام والجلوس معهم، فأملئ علي جوابه:

«أحسن الله عاقبتك، ودفع عنك كل مكروه ومحذور، الذي كنا نسمع وأدركنا عليه من أدركنا من أهل العلم: أنهم كانوا يكرهون الكلام والخوض مع أهل الزيغ، وإنما الأمر في التسليم والانتهاة إلى ما في كتاب الله عز وجل، لا يعد ذلك، ولم يزل الناس يكرهون كل مُحدث: من وضع كتاب أو جلوس مع مبتدع، ليورد عليه بعض ما يلبس عليه في دينه، فالسلامة

إن شاء الله في ترك مجالستهم والخوض معهم في بدعتهم وضلالتهم، فليترك الله رجله وليصر إلى ما يعود عليه نفعه غذاً من عمل صالح يقدمه لنفسه، ولا يكون ممن يحدث أمراً، فإذا هو خرج منه أراد الحججة له، فيحمل نفسه على المحك فيه، وطلب الحججة لما خرج منه بحق أو بباطل، ليزين به بدعته وما أحدث، وأشد من ذلك أن يكون وضعه في كتاب، فأخذ عنه، فهو يزين ذلك بالحق والباطل، وإن وضح له الحق في غيره.

نسأل الله التوفيق لنا ولك ولجميع المسلمين، والسلام عليك. اهـ
وقال الآجري رحمه الله في الشريعة (١٩٧/١) بعد أن ساق بأسانيده بعض الآثار السابقة: «فمن اقتدى بهؤلاء الأئمة سلم له دينه إن شاء الله تعالى».

واعلم -رحمك الله- أن المرء يقسي القلوب، كما قال ابن حبان رحمه الله في روضة العقلاء (ص ٧٩): «المرء أخو الشنآن، كما أن المناقشة أخت العداوة، والمرء قليل نفعه كثير شره» اهـ.

وقال الفريابي في القدر (٣٧٩): حدثنا محمد بن داود، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا مهدي بن ميمون قال: سمعت محمداً -وماراه رجل في شيء- فقال له محمد -وهو ابن سيرين-: «إني قد أعلم ما تريد، وأنا أعلم بالمرء منك، ولكن لا أماريك»^(١).

وقال ابن بطة في «الإبانة» (٦٢٩) (٥٢٤/٢): حدثنا أبو القاسم حفص بن عمر قال: حدثنا أبو حاتم قال: حدثنا عمر بن كثير بن دينار الحمصي قال: حدثنا عقبة بن علقمة والوليد بن مسلم عن الأوزاعي قال: سمعت بلال بن سعد يقول: إذا رأيت الرجل ممارياً معجباً برأيه فقد تمت خسارته.

وقال ابن الجعد كما في مسنده للبغوي (١٤٣): أخبرنا شعبة قال: قال الحكم سمعت ابن أبي ليلى يقول: «لا أماري صاحبي، فإما أن أكذبه، وإما أن أغضبه».

(١) أثر صحيح: وأخرجه ابن بطة في الإبانة (٦٢٣) من طريق مسلم به، وبرقم (٦٢٢) من طريق عبد الله بن أسماء عن مهدي به، بلفظ: «إني أعلم بما تريد أي لو أردت أن أماريك كنت عالماً بأبواب المرء».

وأخرجه هناد في «الزهد» (١١٥٧) عن ابن المبارك، عن شعبة، بزيادة في أوله: «لا تماري أخاك فإنه لا يأتي بخير»^(١).

وقال هناد في «الزهد» (١١٥٥): حدثنا عيسى بن يونس، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير قال: قال سليمان بن داود لابنه: «يا بني إياك والمراء، فإنه ليست فيه منفعة، وهو يهيج بين الإخوان العداوة»^(٢).

وقال ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٢٨): وحدثني علي بن الحسين، عن زيد بن الحباب، عن صالح بن موسى، عن أبيه قال: سمع الربيع بن خثيم رجلاً يلاحى رجلاً، فقال: مه لا تلفظ إلا بخير، ولا تقل لأخيك إلا ما تحب أن تسمعه من غيرك، فإن العبد مستول عن لفظه، محصي عليه ذلك كله ﴿أَخَصَّهُ اللَّهُ وَسَوَّاهُ﴾ [المجادلة: ٦].

ثم قال برقم (١٢٩): حدثني علي بن الحسين، عن إبراهيم بن مهدي، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عمرو بن مهاجر قال: سمعت عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- قال: «إذا سمعت المراء فأقصر»^(٣).

وقال أيضاً برقم (١٤٦): حدثنا إبراهيم بن سعيد، حدثنا موسى بن أيوب، حدثنا عتاب بن بشير، عن علي بن بزيمة قال: قيل لميمون بن مهران: مالك لا يفارقك أخ لك عن قلبي؟ قال: إني لا أشاريه، ولا أماريه^(٤).

وقال ابن أبي حاتم في «الزهد» (١١٩): حدثني علي بن معبد بن شداد قال: حدثنا أبو المليح، عن ميمون بن مهران قال: دع المراء لقلّة خيره.

(١) إسناده صحيح: وأخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (١٢٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٠١/٣٦).

(٢) إسناده صحيح: وأخرجه البيهقي في الشعب (٣٤١/٦)، وأبو نعيم في الحلية (٧٠/٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٨٦/٢٢).

(٣) وأخرجه ابن بطة في الإبانة (٦٤٤، ٦٥١) من طريقين عن إسماعيل به.

(٤) وأخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الغيبة» (٧) -بالإسناد نفسه-، والدولابي في الكنى (٧٣٣)، والدينوري في «الجواهر» (٢٥٩٩)، وأبو نعيم في الحلية (٨٢/٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٦١/٦١) من طرق عن عتاب به.

وقال البيهقي في «المدخل» (٢٣٩): أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثني أبو زرعة الرازي، حدثني أحمد بن محمد الصابوني قال: سمعت الربيع بن سليمان يقول: سمعت الشافعي -رضي الله عنه- يقول: المرء في العلم يقسي القلب ويورث الضغائن^(١).

وقال ابن بطة في «الإبانة» (٦٥٦) حدثنا أبو محمد قال: حدثنا أبو يعلى قال: حدثنا الأصمعي قال: حدثنا سفيان قال: قيل لعبد الله بن الحسن: مالك لا تماري إذا جلست؟ قال: ما تصنع بأمر إن بالغت فيه أثمت، وإن قصّرت فيه خصمت^(٢).

وقال في (٦٥٧): حدثنا أبو محمد السكري قال: حدثنا أبو يعلى المنقري قال: سمعت

(١) إسناده حسن: وأخرجه أيضًا في مناقب الشافعي (٢/ ١٥٠-١٥١)، وفي الاعتقاد (ص ٣٢٠-ط دار الفضيلة).

شيخ البيهقي ثقة، وقد أكثر عنه، وأبو زرعة الإمام المعروف، والصابوني، ترجمه الذهبي في السير (٥٤١/١٥)، فقال: «الشيخ الكبير مسند وقته: أبو الفوارس أحمد بن محمد بن الحسين بن السندي المصري الصابوني، قال: ولدت في أول سنة خمس وأربعين ومئتين.

سمع يونس بن عبد الأعلى، والربيع بن سليمان، وأبا إبراهيم المزني، وبحر بن نصر الخولاني، وإبراهيم بن مرزوق، وفهد بن سليمان وجماعة.

حدث عنه: الخطيب، ومحمد بن أحمد التميمي، وأحمد بن محمد بن الحاج الإشيلي، وعبد الرحمن بن عمر النحاس، ومحمد بن نظيف الفراء وآخرون.

يقع حديثه عاليًا في الثقبات والخلعيات، وعندى جزء من حديثه... توفي في شوال سنة تسع وأربعين وثلاث مئة بمصر عن مئة وخمسة أعوام، وهو صدوق في نفسه وليس بحجة، وقد أدخل عليه حديث باطل فرواه، ثم ذكر الذهبي إسناده إلى أبي بكر رضي الله عنه قال سمعت النبي ﷺ يقول: «النظر إلى وجه علي عبادة»، ثم قال: «فهذا أدخل على أبي الفوارس».

وترجمه ابن العماد في «شذرات الذهب» (٢/ ٣٨٠)، فقال: «الثقة المعمر، مسند ديار مصر». وقد أخطأ أبو العينين -محقق الاعتقاد للبيهقي- ط دار الفضيلة-، في تعيين الصابوني هذا، فقد اختلط عليه، المترجم في تاريخ بغداد (٥/ ٨٦)، فقال الخطيب: «أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن حمدان بن عبدان بن هلال أبو بكر الأنماطي، ويعرف بابن الصابوني، حدث عن محمد ابن عبد الله بن سليمان الحضرمي الكوفي، روى عنه أبو الفتح بن مسرور البلخي، وذكر أنه سمع منه ببغداد، وقال: كان مولده ببغداد سنة ثمان وسبعين ومائتين، وكان من الثقات الحفاظ المجودين».

قلت: فالناظر في كلا الترجمتين يدرك رجحان الأول؛ بل لقد جاء تعيينه في نسخة المناقب، وبالله التوفيق.

(٢) وأخرجه ابن بطة في «الإبانة» (٦٥٥) بإسناده إلى الأصمعي قال: ثنا سفيان قال: قال عبدالله بن الحسن: ... وذكره بنحوه.

الأصمعي قال: سمعت أعرابياً يقول: من لاحا الرجال وماراهم قلت مروءته وهانت كرامته، ومن أكثر من شيء عرف به.

وقال أبو علي القالي البغدادي في «الأمالي في لغة العرب» (٢٥٨/١): «حدثنا أبو بكر قال أخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال: قلت لأعرابي: ما تقول في المراء، قال: ما عسى أن أقول في شيء يفسد الصداقة القديمة ويحل العقدة الوثيقة، أقل ما فيه أن يكون دُربة على المغالبة، والمغالبة من أمتن أسباب الفتنة».

وقال أبو منصور الثعالبي في «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب» (٦٩٧): «قال الشاعر:

لنا صاحب مولع بالخلاف كثير المراء قليل الصواب
أشد لجأجأ من الخنفساء وأزهى إذا ما مشى من غراب
قلت: وهذا وصف دقيق للمماري.

وأخرج اللاكائي في شرح أصول الاعتقاد (٣١٠) بإسناده عن ابن شبرمة أنه قال:
إذا قلت جدوا في العبادة واصبروا أصروا وقالوا: لا، الخصومة أفضل
خلافًا لأصحاب النبي وبدعةً وهم لسبيل الحق أعمى وأجهل
وجاء في محاضرات الأدباء لأبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني (١٠٢/١) في ذم المراء في المناظرة: «وقيل: الناس رجلان: عالم فلا تماره، وجاهل فلا تجاره، وقال زيد بن جندب:

ما كان أغنى رجلاً أضل سعيهم عن الجدال وأغناهم عن الشغب
وقيل: «إذا تشاجرت الخصوم طاشت الحلوم، ونسيت العلوم، وقيل: من ترك المراء فهم وعلم».

قلت: وهذا حق، فمن يتابع حال المتعصبين عند المراء يلمس ذهاب حلومهم، وضياح الحجج العلمية من أقوالهم، نسأل الله السلامة.

وهذا الإمام أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللاكائي (م ٤١٨) رحمه الله يظهر في تقديمه لمصنفه «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» خطورة المماراة مع أهل الزيغ والخصومة، وأنه السبب إلى غزو أهل الأهواء ديار الإسلام، وبهذه المماراة والمخاصمة افتحموا حصون أهل السنة، وانتشرت الأهواء، فقال اللاكائي رحمه الله كما في (٨١/١)، ط المكتبة الإسلامية) بعد أن ذكر فضل القرون الأولى، وأن الكلمة لم تزل مُجتمعة، حتى ظهر القول بالقدر، فتصدى له ابن عمر، وغيره من الصحابة، ثم قال: «ثم انطمرت هذه المقالة، وانحجر من أظهرها في جحره، وصار من اعتقدها جليس منزله، وخبأ نفسه في السرداب كالميت في قبره خوفاً من القتل والصلب، والنكال والسلب من طلب الأئمة لهم؛ لإقامة حدود الله فيهم...

وحث العلماء على طلبهم، وأمروا المسلمين بمجانبتهم، ونهوه عن مكالمتهم، والاستماع إليهم، والاختلاط بهم؛ لسلامة أديانهم». ثم قال: «وكانت حياتهم -أي: حياة أهل البدع والخصومات في الدين- كوفاة، وأحياؤهم عند الناس كالأموات، المسلمون منهم في راحة، وأديانهم في سلامة، وقلوبهم ساكنة، وجوارحهم هادية، وهذا حين كان الإسلام في نضارة، وأمور المسلمين في زيادة».

ثم ذكر مضي القرون وتغير الأحوال، ثم قال: «وظهر قوم أجلاف زعموا أنهم لمن قبلهم أخلاف، وادعوا أنهم أكبر منهم في المحصول وفي حقائق المعقول، وأهدى إلى التحقيق، وأحسن نظراً منهم في التدقيق، وأن المتقدمين تفادوا من النظر لعجزهم، ورغبوا عن مكالمتهم؛ لقلّة فهمهم، وأن نصرة مذهبهم في الجدل معهم؛ حتى أبدلو من الطيب خبيثاً، ومن القديم حديثاً، وعدلوا عما كان عليه رسول الله ﷺ، وبعثه الله عليه، وأوجب عليه دعوة الخلق إليه، وامتنع على عباده إتمام نعمته عليهم بالهداية إلى سبيله، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَرْزَلْ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيُعْظَمَ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١] فوعظ الله عز وجل عباده بكتابيه، وحثهم على اتباع سنة رسوله، وقال في آية أخرى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] لا بالجدال والخصومة، فرغبوا عنهما، وعولوا على

غيرهما، وسلكوا بأنفسهم مسلك المضلين وخاضوا مع الخائضين، ودخلوا في ميدان المتحيرين، وابتدعوا من الأدلة ما هو خلاف الكتاب والسنة رغبةً للغلبة وقهر المخالفين للمقالة، ثم اتخذوها ديناً واعتقاداً بعدما كانت دلائل الخصومات والمعارضات وضلُّوا من لا يعتقد ذلك من المسلمين، وتسموا «بالسنة والجماعة»، ومن خالفهم وسموه بالجهل والغباوة فأجابهم إلى ذلك من لم يكن له قدم في معرفة السنة، ولم يسع في طلبها لما يلحقه فيها من المشقة، وطلب لنفسه الدعة والراحة، واقتصر على اسمه دون رسمه لاستعجال الرياسة، ومحبة اشتهاه الذكر عند العامة، والتلقب بإمامة أهل السنة، وجعل دأبه الاستخفاف بنقلة الأخبار، وتزهيد الناس أن يتدينوا بالآثار لجهله بطرقها، وصعوبة المرام بمعرفة معانيها، وقصور فهمه عن مواقع الشريعة منها، ورسوم التدين بها حتى عَفَّت رسوم الشرائع الشريفة، ومعاني الإسلام القديمة، وفتحت دواوين الأمثال والشبه، وطويت دلائل الكتاب والسنة، وانقرض من كان يتدين بحججها للأخذ بالثقة، والتمسك بهما للضنة ويصون سمعه عن هذه البدع المحدثثة، وصار كل من أراد صاحب مقالة وجد على ذلك الأصحاب والأتباع، وتوهم أنه ذاق حلاوة السنة والجماعة بنفاق بدعته.

وكلا أنه كما ظنه أو خطر بباله، إذ أهل السنة لا يرغبون عن طرائقهم من الاتباع، ولو نشروا بالمناشير، ولا يستوحشون لمخالفة أحد بزخرف قول من غرور أو بضرب أمثال زور.

فما جنى على المسلمين جناية أعظم من مناظرة المبتدعة، ولم يكن لهم قهر ولا ذل أعظم مما تركهم السلف على تلك الجملة يموتون من الغيظ كمدًا، ودرذًا، ولا يجدون إلى إظهار بدعتهم سبيلًا؛ حتى جاء المغرورون ففتحوا لهم إليها طريقًا، وصاروا لهم إلى هلاك الإسلام دليلاً؛ حتى كثرت بينهم المشاجرة، وظهرت دعوتهم بالمناظرة، وطرقت أسماع من لم يكن عرفها من الخاصة والعامة؛ حتى تقابلت الشبه في الحجج، وبلغوا من التدقيق في اللُّجج، فصاروا أقرانًا وأخذانًا، وعلى المداهنة خلانًا وإخوانًا، بعد أن كانوا في الله أعداء وأضدادًا، وفي الهجرة في الله أعوانًا، يكفرونهم في وجوههم عيانًا، ويلعنونهم جهارًا، وشتان ما بين المنزلتين، وهيئات ما بين المقامين.

ونسأل الله أن يحفظنا من الفتنة في ديننا، وأن يُمسكنا بالإسلام والسنة ويعصمنا

بهما بفضله ورحمته. اهـ.

قلت: واعلم -رحمك الله- أن الطريق الجدلي في إثبات العقائد والمناهج القائم على الآراء والمراء دون الدليل والبرهان هو سبيل أهل التعصّب والهوى في كل زمان، وهذا بخلاف الطريقة البرهانية^(١) التي كانت عليها رسالات الرسل أجمعين القائمة على النصوص والأدلة المتلقاة من الوحي.

واعلم أيضاً من أعظم الحيل الجدلية التي يستخدمها المتعصّبون الجدليون في التليس والتدليس: استخدام الألفاظ المجملة، وهذا ما قرره بجلاء ابن القيم في الصواعق المرسلّة (٣/٩٢٥-٩٢٨ ط العاصمة) حيث قال:

«إن هؤلاء المعارضين للكتاب والسنة بعقلياتهم التي هي في الحقيقة جهليات، إنما يبنون أمرهم في ذلك على أقوال مشتبّهة محتملة تحتمل معاني متعددة، ويكون ما فيها من الاشتباه في المعنى، والإجمال في اللفظ: يوجب تناولها بحق وباطل، فبما فيها من الحق يقبل -من لم يحط علماً- ما فيها من الباطل لأجل الاشتباه والالتباس، ثم يعارضون بما فيها من الباطل نصوص الأنبياء، وهذا منشأ ضلال من ضلّ من الأمم قبلنا، وهو منشأ البدع كلها...» ثم قال: «فأصل ضلال بني آدم من الألفاظ المجملة والمعاني المشتبّهة، ولا سيما إذا صادفت أذهاناً مخبّطة، فكيف إذا انضاف إلى ذلك هوى وتعصّب؟» اهـ.

[ومن وسائل الحزبيين المتعصّبين في الإضرار بأهل الحق: «زرع الجدل في أوساط المسلمين، بألفاظ مجملة: فأشد الناس جدلاً وفراعاً هم الحزبيون الذين يشغلون أصحابهم بعلم لا ينفع.

فعلى سبيل المثال لا الحصر، ابتدعوا علماً سموه: (الإعجاز العلمي)، وبذلوا له الملايين من أموال المسلمين، وأنشؤوا له المعاهد، وأوجدوا له المدرسين، فقال قائلهم: من الإعجاز العلمي أن فرعون مات بالغرق، فأتوا بمختبر طبي، فاختبروا تلك الجثة، فأثبتوا موت فرعون بالغرق.

(١) أي: الطريقة التي تأتي بالبرهان والدليل من الكتاب والسنة بفقّه سلف الأمة.

أو لم يتبين لهم الحق إلا بذلك المختبر؟! وفي القرآن عدة آيات أن الله أغرق فرعون، فتأتون له بهذه الشواهد والمتابعات.

انظروا -رحمكم الله- إلى عدم القناعة بالحق، والتشكيك فيه عن طريق هذا الإعجاز العلمي، والأدهى والأمر أنهم يعلمون الناس أن هذا هو التوحيد، فهذا زرع الجدل بين أوساط الناس^(١)، فلا تجد من يسمع بهذا إلا وهو يقول: رأيت هذا صحيح، أم ليس بصحيح؟ ويشغلون الناس بهذا الضياع، فالجدل من وظائف هؤلاء الفرغ.

ومن هذا أيضًا إثارته لمسائل ما خاضها أحمد، ولا مالك، ولا الأوزاعي، ولا السفينان، ولا الحمادان، ولا البخاري ولا مسلم، ولا غيرهم من أئمة السنة، ومن هذه المسائل التي أضاعت أوقات الشباب هدرًا: تارك جنس العمل مسلم أو كافر؟ هذا السؤال محدث، لم يكن في كتاب ولا سنة، وأيضًا هذه ألفاظ مجملة، من علم كفره بالدليل يقال: كافر، أما هذه الإجماليات فمحدثة، وقد تُستغل ممن لم يفتن للتفصيل في ذلك.

ومن هذه المسائل الجدلية العقيمة، التي يطرحونها في أوساط السلفيين لشغلهم وتضييع أوقاتهم، قول بعضهم: هل العمل شرط في صحة الإيمان، أم في كمال الإيمان؟ والذي عليه أهل السنة ما بؤب عليه البخاري: أن الأعمال داخلية في معنى الإيمان، ومن أدلة ذلك، قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «إن الإيمان بضع وستون شعبة، أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»، وحديث: «حب الأنصار من الإيمان، وبغضهم من النفاق».

فإن شئت أعرضت عن ذلك، وهو أولى، وإن أردت أن تفصّل فتقول: من العمل ما تركه كفر، ومن العمل ما تركه ليس بكفر، وإنما هو نقص في كمال الإيمان، من العمل ما حصوله شرط صحة، وهو التوحيد «لا إله إلا الله»: «قولوا لا إله إلا الله فتلحقوا»، ويدخل الإنسان في الإسلام بلا إله إلا الله بالإخلاص، وأما رد السلام، إكرام الضيف، حسن الجوار، التعاون على البر والتقوى، هذا شرط كمال في الإيمان، وليس شرط صحة.

(١) وهذه طريقة الفلاسفة وأهل الكلام، الذين عدلوا عن الشريعة الإلهية إلى الوسوس العقلية.

وكم شغلوا الناس بنظرية داروين، وأن الإنسان كان أصله قردًا، والله عز وجل يقول:

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [الكهف: ٥١].

وكم شغلوا الناس ببعض نظريات الكفار: أن الشمس ثابتة، والأرض تدور، والله

عز وجل يقول: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [يس: ٣٨]، ويقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [فاطر: ٤١].

والأولى البعد عن الجدل الفارغ، وطالب العلم بحاجة أن يقبل على ما ينفعه كما قال

النبي ﷺ: «أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن»^(١) اهـ.

قلت: وهذه المسائل الجدلية التي طرحت في أوساط السلفيين في السنوات الأخيرة

هي ربيبة علوم الكلام ليست وليدة المنهج السلفي، وقد أفصح عن هذا كما سبق الإمام

اللاكائي، وتأمل أيضًا ما قاله ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص ٩٤)؛ لتدرك صحة

هذا الأمر، حيث قال ابن رجب: «وأما فقهاء أهل الحديث العاملون به، فإن معظم همهم

البحث عن معاني كتاب الله وما يفسره من السنن الصحيحة وكلام الصحابة والتابعين لهم

بإحسان، وعن سنة رسول الله ﷺ ومعرفة صحيحها وسقيمها، ثم التفقه فيها وفهمها

والوقوف على معانيها، ثم معرفة كلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان في أنواع العلوم من:

التفسير والحديث ومسائل الحلال والحرام وأصول السنة والزهد والرقائق وغير ذلك، وهذا

هو طريق الإمام أحمد ومن وافقه من علماء الحديث الربانيين، وفي معرفة هذا شغل شاغل

عن التشاغل بما أحدث من الرأي ما لا ينتفع به، ولا يقع، وإنما يورث التجادل فيه كثرة

الخصومات والجدال وكثرة القيل والقال، وكان الإمام أحمد كثيرًا إذا سئل عن شيء من

المسائل المحدثثة المتولدات التي لا تقع، يقول: دعونا من هذه المسائل المحدثثة.

وما أحسن ما قاله يونس بن سليمان السقطي: نظرت في الأمر فإذا هو الحديث والرأي،

فوجدت في الحديث: ذكر الرب عز وجل وربوبيته وإجلاله وعظمته، وذكر العرش، وصفة

(١) ما بين المعكوفتين: بتصرف واختصار من كتاب «أضرار الحزبية على الأمة الإسلامية»، للشيخ

الحجوري، (ص ٤٠).

الجنة والنار، وذكر النبيين والمرسلين، والحلال والحرام، والحث على صلة الأرحام، وجماع الخير فيه.

ونظرت في الرأي فإذا فيه: المكر والغدر والحيل وقطيعة الأرحام، وجماع الشر فيه. اهـ.

وقال ابن بطة في «الإبانة» (٥٣١/٢): «فاعلم يا أخي أني لم أر الجدل والمناقضة والخلاف والمماحلة والأهواء المختلفة والآراء المخترعة من شرائع النبلاء، ولا من أخلاق العقلاء، ولا من مذاهب أهل المروءة، ولا مما حكي لنا عن صالح هذه الأمة، ولا من سير السلف، ولا من شيمة المرضيين من الخلف، وإنما هو لهو يتعلم، ودراية يتفكه بها، ولذة يستراح إليها، ومهارشة العقول، وتدريب اللسان بمحق الأديان، وضراوة على التغالب، واستمتاع بظهور حجة المخاصم، وقصد إلى قهر المناظر، والمغالطة في القياس، وبهت في المقالة، وتكذيب الآثار، وتسفيه الأحلام الأبرار، ومكابرة لنص التنزيل، وتهاون بما قاله الرسول، ونقض لعقدة الإجماع، وتشيت الألفة، وتفريق لأهل الملة، وشكوك تدخل على الأمة، وضرواة السلاطة، وتوغير للقلوب، وتوليد للشحناء في النفوس، عصمنا الله وإياكم من ذلك وأعاذنا من مجالسة أهله. اهـ.

وقال قوام السنة إسماعيل التيمي الأصبهاني في «الحجة في بيان المحجة» (١١١/١): «قال علماء السلف: ما وجدنا أحدًا من المتكلمين في ماضي الأزمان إلى يومنا هذا رجع إلى قول خصمه، ولا انتقل عن مذهبه إلى مذهب مناظره، فدلّ أنهم اشتغلوا بما تركه خير من الاشتغال به، وقد ذمّ السلف الجدل في الدين، ورووا في ذلك أحاديث، وهم لا يذمون ما هو الصواب. اهـ.

قلت: فهذه الدرر المتناثرة من كلام السلف الصالح تظهر اتفاقهم على ترك مجادلة ومخاصمة ومماراة ومناظرة أهل البدع والأهواء. لكن هذا الاتفاق وقع على الجانب المذموم من المجادلة والذي تقدم ذكر أنواعه، لكن ثمّ جانب حسن في المجادلة دلت الأدلة على مشروعيته.

وقد بين أهل العلم الأمثلة الصالحة للجدال بالتي هي أحسن، والتي لا تدخل في الجدل المذموم، وممن بين هذا بأحسن بيان: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله في مقدمة كتابه: «تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل» ^(١) (٥-٣/١) حيث قال رحمته الله:

«أما بعد، فإن الله سبحانه عليم ما عليه بنو آدم من كثرة الاختلاف والافتراق، وتباين العقول والأخلاق، حيث خلقوا من طبائع ذات تنافر، وابتلوا بتشعب الأفكار والخواطر، فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين ومبينين للإنسان فيما اختلفوا فيه، وأمرهم بالاعتصام به حذرًا من الافتراق في الدين، وحضهم عند التنازع على الرد إليه وإلى رسوله المبين، وعذرهم بعد ذلك فيما يتنازعون فيه من دقائق الفروع العملية، لخفاء مدركها وخفة مسلكها وعدم إفضاؤها إلى بليّة، وحضهم على المناظرة والمشاورة، لاستخراج الصواب في الدنيا والآخرة، حيث يقول لمن رضي دينهم: ﴿وَأَمَرَهُمْ شُرُوكُيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، كما أمرهم بالمجادلة والمقاتلة، لمن عدل عن السبيل العادلة، حيث يقول أمرًا ونهيًا لنبيه والمؤمنين، لبيان ما يرضاه منه ومنهم: ﴿وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، ﴿وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

فكان أئمة الإسلام ممثلين لأمر المليك العلّام، يجادلون أهل الأهواء المضلة؛ حتى يردوهم إلى سواء الملة، كمجادلة ابن عباس -رضي الله عنهما- للخوارج المارقين؛ حتى رجع كثير منهم إلى ما خرج عنه من الدين، وكمناظرة كثير من السلف الأولين لصنوف المبتدعة الماضين؛ حتى يردوهم إلى سواء الملة، كمجادلة ابن عباس -رضي الله عنهم- للخوارج المارقين؛ حتى رجع كثير منهم إلى ما خرج عنه من الدين، وكمناظرة كثير من السلف الأولين لصنوف المبتدعة الماضين، ومن في قلبه ريب يخالف اليقين؛ حتى هدى الله من شاء من البشر، وعَلَنَ الحق وظهر، ودرس ما أحدثه المبتدعون واندثر. وكانوا يتناظرون في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، بالأدلة المرضية، والحجج القوية؛ حتى كان قلّ مجلس يجتمعون فيه إلا ظهر الصواب، ورجع راجعون إليه، لاستدلال

(١) وهو ردّ على كتاب «الفصول في الجدل» لبرهان الدين النّسفي.

المستدل بالصحيح من الدلائل، وعلم المنازع أن الرجوع إلى الحق خير من التماذي في الباطل، كمجادلة الصديق لمن نازعه في قتال مانعي الزكاة حتى رجعوا إليه، ومناظرتهم في جمع المصحف حتى اجتمعوا عليه، وتناظرهم في حد الشارب وجاحد التحريم حتى هدوا إلى الصراط المستقيم.

وهذا وأمثاله يجعل عن العدو والإحصاء، فإنه أكثر من نجوم السماء.

ثم قال بعد ذلك (٥/١): «ثم إن بعض طلبة العلوم -من أبناء فارس والروم- صاورا مؤلّعين بنوع من جدل الموهين: استحدثه طائفة من المشرقيين، وألحقوه بأصول الفقه في الدين، راغوا فيه مراوغة الثعالب، وحادوا فيه عن المسلك اللّاحب، وزخرفوه بعبارات موجودة في كلام العلماء قد نطقوا بها، غير أنهم وضعوها في غير مواضعها المستحقة لها، وألّفوا الأدلة تأليفاً غير مستقيم، وعدلوا عن التركيب الناتج إلى العقيم، غير أنهم بإطالة العبارة، وإبعاد الإشارة، واستعمال الألفاظ المشتركة والمجازية في المقدمات، ووضع الظنّيات موضع القطعيّات، والاستدلال بالأدلة العامة حيث ليس لها دلالة، على وجه يستلزم الجمع بين النقيضين مع الإحالة والإطالة، وذلك من فعل غلط أو مغالط للمجادل، وقد نهى النبي ﷺ عن أغلوطات المسائل: نفّق ذلك على الأغنام الطماطم، وراج رواج البهرج على الغرّ العادم، واغتر به بعض الأعمار الأعاجم، حتى ظنوا أنه من العلم بمنزلة الملزوم من اللازم، ولم يعلموا أنه والعلم المقرّب متعانداً متنافيان، كما أنه والجهل المركّب متصاحبان متآخيان»^(١) اهـ.

قلت: وذهب ابن عبد البر إلى أن المذموم الجدل في المسائل الاعتقادية دون الفقهية، فقال في «جامع بيان العلم» (٩٢/٢): «ونهى السلف -رحمهم الله- عن الجدل في

(١) وإلى نحو هذا أشار أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة -رحمه الله- (م ٢١٣ هـ) في مقدّمة كتابه «أدب الكاتب» (ص ٣-٤) مستنكراً على الفلاسفة والمناطق، وسمى علمهم هذياناً، وحقّ له ذلك، ولكن هذا الاستنكار لم يعجب أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الرّجّاجي (م ٣٤٠ هـ) في «تفسير رسالة أدب الكاتب» (ص ١٠٩-١٠٩ ط معهد المخطوطات العربية)، وفي كلامه شيء من الصواب إلا في دفاعه عن الفلاسفة.

الله -جل ثناؤه- في صفاته وأسمائه؛ وأما الفقه فأجمعوا على الجدل فيه والتناظر؛ لأنه علم يحتاج فيه إلى رد الفروع على الأصول للحاجة إلى ذلك، وليس الاعتقادات كذلك». وقال في (٩٨/٢): «وتناظر قوم وتجادلوا في الفقه ونهوا عن الجدل في الاعتقاد؛ لأنه يؤول إلى الانسلاخ من الدين».

وقال العلامة أحمد النجمي رحمته الله في «إرشاد الساري شرح السنة للبرهاري» (ص ٢٦٩، ٢٧٠):

«قوله -أي: البرهاري-: (وإذا سألك الرجل منهم عن مسألة في هذا الباب وهو مسترشد فكلّمه، وأرشدته فإذا جاءك يناظرُك فاحذره، فإنّ في المناظرة المراء والجدال، والمغالبة، والخصومة والغضب، وقد نُهيّت عن جميع هذا وهو يزيل عن طريق الحق، ولم يبلغنا عن أحدٍ من فقهاءنا، وعلمائنا أنّه جادل أو ناظر أو خاصم)، وأقول قول المؤلف ههنا فيه تحذير من الجدل والخصام، والمناظرة، والمغالبة، وقد يقال إنّ فيه تفصيلاً:

(١) إن كان الإنسان يغلب على ظنّه أنّه سيغلب في المناظرة لحفظه للنصوص التي تدين خصمه، فالظاهر أنّه يجوز له ذلك، وكذلك فعل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله لقد ناظر كثيراً من فئات البدع، والآراء الضالة فغلبهم وجادلهم، وخاصمهم، فبهزمهم^(١).

(١) وهذا ما قرره الآجري -رحمه الله- في الشريعة (١٩٧/١) بعد أن بيّن ذمّ السلف للخصومات والمناظرات مع أهل البدع: «فإن اضطررني في الأمر وقتاً من الأوقات إلى مناظرتهم، وإثبات الحجة عليهم ألا أناظرهم؟

قيل له: الاضطرار إنما يكون مع إمام له مذهب سوء؛ فيمتحن الناس ويدعوهم إلى مذهبه، كفعل من مضى في وقت أحمد بن حنبل: ثلاثة خلفاء امتحنوا الناس، ودعوهم إلى مذهبهم السوء؛ فلم يجد العلماء بُدّاً من الذبّ عن الدين، وأرادوا بذلك معرفة العامة الحق من الباطل؛ فانظروهم ضرورة لا اختياراً، فأثبت الحق مع أحمد بن حنبل، ومن كان على طريقته، وأذل الله تعالى المعترلة وفضحهم، وعرفت العامة أن الحق ما كان عليه أحمد وأتباعه إلى يوم القيامة». اهـ قلت: وتشرع أيضاً المناظرة إذا غلب على ظنك رجوع من تناظره إلى الحق، كما أخرج ابن بطّة في الإبانة (٦٤٩) بإسناد صحيح عن ابن عون قال: سمعت محمد بن سيرين ينهى عن الجدل إلا رجلاً إن كلمته يرجع.

ويضاف قيد مهم إلى هذا يظهر من صنيع الشافعي -رحمه الله-، وهو أنه إذا خرجت المناظرة من طور قرع الحجة بالحجة استبانة للحق إلى طور المخاصمة المبنية على الكلام والجدل المذموم،

(٢) أمّا إذا كان الإنسان يجد من نفسه الضعف عند استحضار الأدلة، والضعف في شخصيته؛ فإنّ استحضار الأدلة قد يكون في بعض المواضع يحتاج إلى شخصية تعزّزه، فإنّه في هذه الحالة ينبغي له أن يترك المناظرة هذا هو الأولى في نظري أخذًا بما قرأناه عن ترجمة الإمام ابن تيمية رحمته الله، وما أثر عن عليّ بن أبي طالب في إرساله لابن عباس -رضي الله عنهما- لمناظرة الحرورية.

أمّا ما رواه عن الحسن أنّه قال: «الحكيم لا يماري، ولا يداري، حكمته ينشرها إن قبلت حمد الله، وإن ردّت حمد الله»، فهذا لا بأس به على وجه مما قلناه، ليستعمل الإنسان البيان وليجتنب المناظرة، والمغالبة، ولينشر الحق من طريق الدروس، والبيان الذي يستطيع عليه ولا يترك المجال لأهل البدع، فإنّ في عمله هذا مدافعة عن الدين الإسلامي، وعن السنة بقدر ما يستطيع، وهذا والتوفيق من الله.

إنّ الداعية إلى الدين الحق بحاجة إلى كثرة الدعاء، واللجوء إلى الله عزّ وجلّ أن يعينه، ويثبتّه، ويوفقه. اهـ.

أقول: وهذا التفصيل الذي ذكره العلامة النجمي هو المتعين، وإلا لتلاعب أهل الأهواء بعقول العامة إذا لم يوقف لهم بالمرصاد من قبل الراسخين من علماء السنة. ولكن يجب أن ينتبه إلى دقة القيود المذكورة، ففي الغالب لا يقوى على سرعة استحضار الأدلة ومنع الخصم من المراوغة إلا الراسخ في علمه، ويصعب أن يتحقق هذا الشرط في الشباب المبتدئين في طلب العلم، لذا ننصح الشباب أن لا يدخلوا أنفسهم في صراعات مع المخالفين تضر ولا تنفع، ولكن عليهم إن أرادوا النصح لهم أن يمدوهم بكتب ودروس العلماء التي تبين لهم الحق، وتدفع عنهم الشبهات، وقد يقول قائل: إن المخالفين أحيانًا يكون عندهم شبهات لم يرد عليها العلماء، ولذا فنحن نناظرهم من أجل

فإنه ينهي عن المناظرة، كما قال ابن أبي حاتم في آداب الشافعي (ص ١٨٥): ثنا الربيع بن سليمان قال: حضرت الشافعي: وكلمه رجل في المسجد الجامع، فطالت مناظرته إياه فخرج الرجل إلى شيء من الكلام، فقال له: دع هذا؛ فإن هذا من الكلام.

أن نرد على هذه الشبهات، والجواب: إن الذي يفتش في شبهات المخالفين يجد أن أغلبها تدور حول نقاط محدّدة - وإن اختلفت الأساليب - ممّا قد بيّنه العلماء، ومَن يبتغ الحق ويطلع على ردود العلماء السلفيين - حقّاً - تكفه - إن شاء الله - وأمّا المصّر على باطله تعصّباً لشيخه فإنه لا تنفعه ردود العلماء فضلاً عن أن ينتفع بمنظرتك له، ولو جئته بألف دليل على بطلان ما هو عليه ما استجاب لك إلا أن يشاء الله.

ولينبته المناظر أيضاً إلى نكتة هامة ألا وهي: مراعاة حال الحاضرين، فإن قُدر وجود عامة في المجلس، فالمتعين ترك المناظرة إذا كانت تتعلق بأمور تنغلق عن فهمها أذهان العامة وتكون فتنة لبعضهم، وهذا الأدب بيّنه البخاري رحمه الله في كتاب العلم من الصحيح حيث بوّب قائلاً: «باب من خصص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا».

وقال علي: حدّثوا الناس بما يعرفون، أتحيون أن يكذب الله ورسوله؟ حدّثنا عبيد الله ابن موسى عن معروف بن خربوذ عن أبي الطفيل عن علي بذلك.

حدّثنا إسحاق بن إبراهيم قال: حدّثنا معاذ بن هشام قال: حدّثني أبي، عن قتادة قال: حدّثنا أنس بن مالك، أن النبي صلى الله عليه وآله، ومعاذ رديفه على الرحل قال: «يا معاذ بن جبل»، قال: لبيك يا رسول الله، وسعديك، قال: «يا معاذ»، قال: لبيك يا رسول الله، وسعديك ثلاثاً، قال: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار»، قال: يا رسول الله، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: «إذن يتكلّوا»، وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً.

وقال أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي في «رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية» (٢٠٥/١) في ترجمة (بهلول بن راشد الحَجْرِي الرعيني): «وقال بعض أصحابه: كنت يوماً عنده ومعه رجل عليه لباس حسن وهيئة، فقال له البهلول: أحب أن تذكر لي ما تحثّج به القدريّة، فسكت الرجل حتى تفرق الناس، ثم قال له: يا أبا عمرو، إنك سألتني عمّا تحثّج به القدريّة، وهو كلام تصحبه الشياطين، لأنه سلاح من سلاحهم، فتزيهه في قلوب العامة، وفي مجلسك من لا يفهم ما أتكلّم به من ذلك، فلا آمن أن يحلو بقلبه

منه شيء، فيقول: سمعت هذا الكلام في مجلس البهلول، فقال له: والله لأقبلن رأسك، أحييتني أحياءك الله».

وقد أجاد الخطيب رحمه الله في بيان أدب الجدل والمناظرة في كتابه «الفقيه والمتفقه» (٤٧/٢-٦٠)، وذكر الأدلة على هذه الآداب، وحاصل ما قاله في هذه الآداب يتلخص فيما يلي:

(١) ينبغي للمجادل أن يُقدِّم تقوى الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، فإذا قدَّم التقوى نال معية الله في مناظرته، وأيد على خصمه، ولقن الحجة عليه.

(٢) ويخلص النية في جداله، بأن يبتغي وجه الله تعالى؛ لحديث: «إنما الأعمال بالنياب، وإنما لامرئ ما نوى»، فمن كانت نيته إظهار الحق ولو على لسان خصمه، فهو ونيته، ومن كانت نيته المخاصمة والمغالبة، ولو بنصر الباطل حمية لنفسه أو لمن يتعصب له، فهو ونيته.

(٣) وليكن قصده في نظره إيضاح الحق وتثبيته دون المغالبة لخصمه.

(٤) ويبنى أمره على النصيحة لدين الله، وللذي يجادله لأنه أخوه في الدين، كما قال ابن أبي حاتم في آداب الشافعي (ص ٩٣): سمعت الزعفراني وأبا الوليد: قال أحدهما: سمعت محمد بن إدريس الشافعي -وهو يحلف ويقول-: وما ناظرت أحداً إلا على النصيحة.

(٥) وليرغب إلى الله في توفيقه لطلب الحق، فإنه تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ويستشعر في مجلسه الوقار، ويستعمل الهدى، وحسن السم، وطول الصمت إلا عند الحاجة إلى الكلام، لقول النبي ﷺ: «إن الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة»^(١).

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٧٦)، وأحمد (٢٩٦/١)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٩١)، والطبراني في الكبير (١٠٦/١٢)، وابن عدي في الكامل (٤٨/٦) من حديث ابن عباس، وفي إسناده: قابوس بن أبي ظبيان، وهو صدوق فيه لين، فإسناده لا بأس به.

(٦) وإن بدرت من خصمه كلمة كرهها، أغضى عليها، ولم يجازه بمثلها، فإن الله تعالى يقول: ﴿أَدْفَعْ بِلَايِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَنُّهُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

(٧) وينبغي أن لا يتكلم بحضرة من يشهد لخصمه بالزور، أو عند من إذا وضحت لديه الحجة دفعها، ولم يتمكن من إقامتها، فإنه لا يقدر على نصرته الحق إلا مع الإنصاف، وترك التعنت والإجحاف.

(٨) ويكون كلامه سيرًا جامعاً بليغاً، فإن التحفظ من الزلل مع الإقلال دون الإكثار، وفي الإكثار أيضاً ما يخفي الفائدة، ويضيع المقصود، ويورث الحاضرين الملل.

(٩) ولا يرفع صوته في كلامه عالياً، فيشق حلقه ويحمي صدره ويقطعه، وذلك من دواعي الغضب.

(١٠) ولا يخفي صوته إخفاء لا يسمعه الحاضرون، فلا يفيد شيئاً، بل يكون مقتصدًا بين ذلك.

(١١) ويجب عليه الإصلاح من منطقته، وتجنب اللحن في كلامه والإفصاح عن بيانه، فإن ذلك عون له في مناظرته، ألا ترى إلى استعانة موسى بأخيه هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَام حيث يقول: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ [الفصل: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي﴾ (٧) يَقْفَهُوا قَوْلِي ﴿ [طه: ٢٧، ٢٨].

(١٢) وينبغي له أن يواظب على مطالعة كتبه عند وحدته، ورياضة نفسه في خلوته، بذكر السؤال والجواب، وحكاية الخطأ والصواب، لئلا ينحصر في مجالس النظر إذا رمقته أبصار من حضر، ولا يستصغر مناظره، ويحتقره إن كان صغير السن أو القدر، فإنه قد يؤتى من قبل هذا، كما أخرج الخطيب (٦٨٣) بإسناده عن الربيع قال: قلت للشافعي: من أقدر

وله شاهد من حديث عبد الله بن سرجس، أخرجه الترمذي (٢٠١٠)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (٦٧٥)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وفي إسناده: عبد الله بن عمران، قال فيه أبو حاتم: شيخ، وفي التقريب: مقبول، فهذا شاهد جيد به يحسن الحديث. قد حسنه العلامة الألباني في صحيح الجامع (١٩٩٣).

الناس على المناظرة؟ قال: «مَنْ عَوَّدَ لسانه الركض في ميدان الألفاظ ولم يتلعثم إذا رمقته العيون بالألحاظ ولا يكون رخيًّا البال؛ قصير الهمة، فإن مدارك العلم صعبة لا تنال إلا بالجد، ولا يستحققر خصمه لصغره، فيسامحه في نظره، بل يكون على نهج واحد في الاستيفاء والاستقصاء، لأن ترك التحرز والاستظهار يؤدي إلى الضعف والانقطاع»، وأخرج الخطيب بإسناده عن أبي الفتح البستي أنه أنشد قائلاً:

لا يستخفنَّ الفتيَّ بعدوّه أبداً وإن كان العدو ضئيلاً
إن القذى يؤذي العيون قليله ولربما جرح البعوض الفيلاً

(١٣) وينبغي أن لا يكون معجباً بكلامه، مفتوناً بجداله، فإن الإعجاب ضد الصواب، ومنه تقع العصبية وهو رأس كل بلية، كما قال أبو خيثمة في «العلم» (١٥) ثنا عبد الرحمن بن مهدي، ثنا سفيان، عن الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق قال: «يحسب الرجل من العلم أن يخشى الله عز وجل، وبحسب الرجل من الجهل أن يعجب بعلمه»^(١).

(١٤) وإذا وقع له شيء في أول كلام الخصم، فلا يعجل بالحكم به، فربما كان في آخره ما يبين أن الغرض بخلاف الواقع له فينبغي أن يثبت إلى أن ينقضي الكلام، وبهذا أدب الله تعالى نبيه ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

(١٥) ويكون نطقه بعلم، وإنصاته بحلم، ولا يعجل إلى جواب، ولا يهجم على سؤال، ويحفظ لسانه من إطلاقه بما لا يعلمه، ومن مناظرته بما لا يفهمه، فإنه ربما أخرجه ذلك إلى الخجل والانقطاع، فكان فيه نقصه وسقوط منزلته عند مَنْ كان ينظر إليه بعين العلم والفضل، ويحزره بالمعرفة والعقل، والعرب تقول: «عَيَّ صامت خيرٌ من غبي ناطق».

قلت: وينبغي التنبيه إلى أنه لم يأت نهي عن حسن البيان، والجدال بالتي هي أحسن من أجل الوصول إلى الحق، إنما نُهيينا عن المراء والتزيد والتكلف والتهاتر والتشاغب والمغالبة

(١) وأخرجه أيضاً برقم (٤٦)، والدارمي في سنته (٣١٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٤٩/٧)، والآجري في «أخلاق العلماء» (ص ٧٠)، والخطيب (٦٨٦) من طريق الأعمش به، وإسناده صحيح.

والمماتنة تعصبًا وتحزبًا، فأما مجرد البيان فكيف يُنهى عنه، وقد نزل القرآن بلسان عربي مبين، وقد أمر الله سبحانه بالبيان، ومدح أهله، بل وقد فصل سبحانه لنا الآيات لتستبين سبيلُ المجرمين.

وقد قال رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحراً»: قال ضياء الدين بن الأثير في كتابه «الوشى المرقوم في حل المنظوم» (ص ١٩٢) في حلّ معاني الحديث السابق: «وهو فصل يتضمن وصف كلام بالحسن، إذا أبرز وجوه كلمه قطعت أيديها بنات الأفكار، وقام عذرُ المُعرم بها وفي مثلها تقوم الأعذار، فهو يصور أشكالها كما يشاء في أحسن تقويم، وكلُّ منها يقال فيه بقول النسوة: لو شئت لاتخذت عليه أجرًا...» اهـ.

وقال الحافظ في الفتح (٢٠٢/٩): «والبيان نوعان: الأول ما يبين به المراد، والثاني: تحسين اللفظ حتى يستميل قلوب السامعين، والثاني: هو الذي يشبه بالسحر، والمذموم منه ما يقصد به الباطل، وشبهه بالسحر؛ لأن السحر صرف الشيء عن حقيقته»، وقال في (٢٣٧/١٠): «وقد حمل بعضهم الحديث على المدح والحث على تحسين الكلام، وتحبير الألفاظ...»

وحمله بعضهم على الذم لمن تصنع في الكلام وتكلف لتحسينه، وصرف الشيء عن ظاهره، فشبهه بالسحر الذي هو تخيل لغير حقيقة، وإلى هذا أشار مالك حيث أدخل هذا الحديث في الموطأ في باب ما يكره من الكلام بغير ذكر الله. اهـ.

وقال النووي في شرحه على مسلم (١٥٩/٦): «قال أبو عبيد: هو من الفهم وذكاء القلب، قال القاضي: فيه تأويلان: أحدهما: أنه ذم؛ لأنه إمالة القلوب وصرفها بمقاطع الكلام إليه حتى يكسب من الإثم به كما يكسب بالسحر، وأدخله مالك في الموطأ في باب: ما يكره من الكلام، وهو مذهبه في تأويل الحديث.

والثاني: أنه مدح؛ لأن الله تعالى امتنَّ على عباده بتعليمهم البيان وشبهه بالسحر لميل القلوب إليه وأصل السحر الصرف، فالبيان يصرف القلوب ويميلها إلى ما تدعو إليه، هذا كلام القاضي، وهذا التأويل الثاني هو الصحيح المختار. اهـ.

السمة الخامسة

يرفعون عقيرتهم بلا حياء على كل من

يمس شيخهم بكلمة حق

فإذا قال قائل عن شيخهم: إنه أخطأ في كذا وكذا، والدليل كذا وكذا، ثم سرد أقوال أهل العلم المبينة لما قال؛ إذ بهم تحديق أعينهم بهذا القائل بغضاً ونفوراً مما قال. وفي حوار بين أحد طلبة العلم وأحد هؤلاء المتعصبين، قال: لكن الشيخ أخطأ في هذه المسألة، فرد عليه المتعصب قائلاً: تأدب مع الشيخ، لا تقل أخطأ، ولكن قل: جانب الصواب.

فلما أُخبرت بهذا الحوار تعجبت من هذا التفريق، وقلت: الظاهر أن هذا المتعصب يريد التأدب مع شيخه، وهذا في حد ذاته أمر طيب لا يُستنكر، لكن المستنكر أن يأنف هذا الشاب من قبول عبارة: «أخطأ شيخك»، واعتباره إيها منافية للأدب مع الشيخ، أو أنها تحط من قدره عند السامع.

والمتتبع لكتب الجرح والتعديل يجد عشرات الأفاضل من أهل العلم من الرواة وغيرهم قد قيل عنهم: إنهم أخطؤوا في كذا وكذا، ولم يعد أحدٌ هذا انتقاصاً لأقدار هؤلاء العلماء إلا أن يقال عن فلان: إنه فاحش الخطأ أو يخطئ كثيراً، فهذا بلا ريب قدح شديد في هذا العالم أو الراوي يُسْقِط الاحتجاج به، لكن مجرد قولك عن فلان من أهل العلم إنه أخطأ في كذا، لا يعد هذا قدحاً فيه أو سوء أدب معه.

بل هذا ابن أبي حاتم يروي عن أبيه وأبي زرعة كتاباً كاملاً بعنوان «بيان خطأ البخاري في تاريخه»، والبخاري بلا شك أعلى كعباً ورتبة من ابن أبي حاتم، فلم نسمع أحداً من أهل العلم قد أنكر عليه هذه التسمية لكتابه، أو اعتبرها انتقاصاً من ابن أبي حاتم لقدر البخاري.

وَيَحْسَنُ بِنَا أَنْ نَنْقُلَ كَلَامًا هَامًا فِي هَذَا الشَّانِ لِلْعَلَامَةِ الْمُعَلِّمِي الْيَمَانِي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مُقَدِّمَةِ تَحْقِيقِهِ عَلَى كِتَابِ خَطَا الْبَخَارِيِّ فِي تَارِيخِهِ حَيْثُ قَالَ: «مَنْ النَّاسُ مِنْ عَرَفَ طَرَفًا مِنْ عِلْمِ الرِّوَايَةِ وَلَمْ يَحْقُقْهُ فَسَمِعَ أَنْ كَثُرَ خَطَا الرَّاوِي تَخَدَّشَ فِي ثِقَتِهِ، فَإِذَا رَأَى هُنَا نِسْبَةَ الْخَطَا إِلَى الْبَخَارِيِّ أَوْ أَبِي زُرْعَةَ تَوَهَّمُ أَنَّ هَذَا الْخَطَا مِنْ جِنْسِ ذَلِكَ، وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَعْرِفُ الْحَقِيقَةَ وَلَكِنَّهُ يَتَجَاهَلُهَا لَهْوَى لَهُ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ غَالِبَ الْخَطَا الَّذِي تَتَجَهَّ نِسْبَتُهُ إِلَى الْبَخَارِيِّ نَفْسُهُ أَوْ إِلَى أَبِي زُرْعَةَ، إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْخَطَا الْاجْتِهَادِيِّ الَّذِي يُوَقَّعُ فِيهِ اشْتِبَاهُ الْحَالِ وَخُفَاءُ الدَّلِيلِ، وَمَا قَدْ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مِمَّا يَسُوغُ أَنْ يَعُدَّ خَطَاً فِي الرِّوَايَةِ؛ فَهُوَ أَمْرٌ هَيِّنٌ لَا يَسْلَمُ مِنْ مِثْلِهِ أَحَدٌ مِنَ الْأَثَمَةِ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَلَيْسَ بِالْخَطَا الْخَادِشُ فِي الثِّقَةِ». اهـ

وهذا الإمام البيهقي يؤلف كتاباً يسميه «بيان خطأ من أخطأ على الشافعي».

وهذا الأمير الحافظ أبو نصر بن ماکولا رَحِمَهُ اللَّهُ يَتَّبِعُ أَوْهَامَ اثْنَيْنِ مِنْ كِبَارِ الْحِفَاطِ السَّابِقِينَ لَهُ، وَهُمَا: أَبُو الْحَسَنِ الدَّارِقُطْنِي، وَعَبْدُ الْغَنِيِّ بْنُ سَعِيدٍ -رَحِمَهُمَا اللَّهُ-، فَقَالَ كَمَا فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ «تَهْذِيبُ مُسْتَمَرِّ الْأَوْهَامِ عَلَى ذَوِي الْمَعْرِفَةِ وَأُولِي الْأَفْهَامِ» (ص ٥٩): «وَجُمِعَتْ فِي هَذَا الْكِتَابِ أَغْلَاطُ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ عَمْرِو وَعَبْدِ الْغَنِيِّ بْنِ سَعِيدٍ، مِمَّا ذَكَرَهُ الْخَطِيبُ، وَمِمَّا لَمْ يَذْكُرْهُ لَتَكُونَ أَغْلَاطُهُمَا فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَمَا غَلَطَهُمَا فِيهِ -وَهُوَ الْغَالِطُ- وَأَغْلَاطُ الْخَطِيبِ فِي الْمُؤْتَنَفِ». اهـ

قلت: ها هو ابن ماکولا يكرر لفظ «الغلط» في حق ثلاثة من كبار العلماء ممن سبقوه في العلم، ولا نعلم عالماً أبداً اتهم ابن ماکولا بأنه لم يتأدب مع هؤلاء العلماء، أو أنه مريض بداء حب الظهور؛ لأنه تتبع أغلاط هؤلاء العلماء وجمعها في كتاب، أو أن غرضه من هذا هو إسقاط هؤلاء العلماء والتشهير بهم، فلا يقول هذا إلا جاهل أو متعصب، ولكن الغرض من بيان هذه الأغلاط هو ما ذكره ابن ماکولا في قوله: «وخشيت أن تبقى هذه الأوهام في كتبهم فيظن من يراها أنها الصحيح ويتبع أمرهم فيها؛ فيضل من حيث طلب الهداية، ويزل من جهة ما أراد الاستنبات». اهـ

ثم قيّد الله سبحانه من يتبع أيضاً أوهام ابن ماکولا في كتابه «الإكمال»، حتى يدرك

المنتبه أن تتبع ابن مأكولا لأوهام غيره لا يعني سلامته من الوهم، فألف الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الغني الحنبلي المشهور بابن نقطة كتابه «تكملة الإكمال»، وقال كما في مقدمته (٩٠/١): «فاعلم -وفقك الله للخيرات- إني نظرت في كتاب الأمير أبي نصر علي بن هبة الله بن علي بن جعفر الحافظ المعروف بابن مأكولا الذي جمع فيه كتب الحفاظ المتقدمين... فوجدته قد بيّض فيه تراجم، واستشهد رحمته الله قبل أن يلحقها، وموضع قد ذكر فيها قوماً، وترك آخرين يلزمه ذكرهم، ولم يبيّض لهم، وتراجم قد نقلها ثقة بمن تقدمه من غير كشف، والصواب بخلافها، وأخرى كان الوهم من قبله فيها... إلخ» اهـ.

وهذا الحافظ ألف كتابه «تبصير المنتبه بتحرير المشتبه» استدراكاً لبعض أخطاء الذهبي في كتابه «المشتبه»، حيث قال الحافظ في مقدمة التبصير (١/١): «أما بعد فإنني لما علّقت كتاب المشتبه الذي لخصه الحافظ الشهير أبو عبد الله الذهبي رحمته الله وجدت فيه إعوازاً من ثلاثة أوجه:

أحدها - وهو أهمها -: تحقيق ضبطه؛ لأنه أحال في ذلك على ضبط القلم، فما شفى من ألم.

ثانيها: إجحافه في الاختصار، بحيث إنه يعتمد إلى الاسمين المشتبهين إذا كثرا فيقول في كلٍّ منهما: فلان وفلان وغيرهم - وهذا لا يروي العلة ولا يشفي العلة، بل يبقى اللبس على المستفيد كما هو، وكان ينبغي أن يستوعب أقلهما.

وثالثها: - وفيه ما لا يرد عليه إلا أن ذلك من تنمة الفائدة - ما فاته من التراجم المستقلة التي لم يتضمنها كتابه مع كونها في أصل ابن مأكولا، وذيل ابن نقطة اللذين لخصهما، وزاد على ذيل أبي العلاء الفرضي وغيره ما استدرك عليهما» اهـ.

قلت: فهل يتهم الحافظ بسوء الأدب لما قال عن الذهبي: «فما شفى من ألم»، «إجحافه في الاختصار».

أم يتهم بحب الظهور على حساب الذهبي، لما استدرك عليه قائلاً: «وهذا لا يروي العلة ولا يشفي العلة».

وكذا ابن ناصر الدين الدمشقي أَلَف كتابه «الإعلام بما وقع في مشتبهِه الذهبي من الأوهام» تصحيحاً أيضاً لبعض أوهام الذهبي في المشتبه حيث قال ابن ناصر الدين في مقدمة الإعلام (ص ٩٥) منتقداً الكتاب: «وقع فيه بعض أوهام وغلط، ونقص لا بد من إصلاحه وإبهام لا يستغني عن إيضاحه». اهـ

قلت: وهذا الحافظ ابن القطان الفاسي يؤلف كتاباً ضخماً يتتبع فيه أغلاط الحافظ أبي محمد بن عبد الحق الأشبيلي وهو «بيان الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام». ثم يأتي الإمام الذهبي رحمته الله فيؤلف «رداً على ابن القطان في كتابه بيان الوهم والإيهام»^(١)، ويقول في مُقدِّمته: «لقد أسرف في المُحَاققة والتعنُّت للحافظ أبي محمد، وبالع في ذلك، وأصاب في كثير من ذلك ولم يُصب في أماكن، وغلط فيها...». اهـ

وهذا أيضاً أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي المعروف بابن القيسراني، قد أَلَف كتابه «الأنساب المتفقه» بسبب وهم صدر من أبي عبد الله الحاكم الحافظ كما قال في مُقدِّمته (ص ٣): «وكنْتُ في تحريري هذا مُقدِّماً مرة ومُؤخراً أخرى حتى دخلت نيسابور فرأيت في بعض تخاريج الحاكم أبي عبد الله الحافظ رحمته الله حديثاً لإسماعيل بن عيَّاش عن مُطعم بن المقدم الصنعاني؛ فقال عقيبه تفرَّد به الشاميون عن اليمانيين، واعتقد أن مُطعمًا هذا من صنعاء اليمن؛ وإنما هو من صنعاء قرية بباب دمشق نزلها جماعة من الصحابة، وخرج منها غير واحد من المحدثين...». اهـ

وقال سراج الدين بن الملقن في مُقدِّمته على البدر المنير (٢٩٣/١):

«وأنبه مع ذلك على ما أظهره الله على يدي مما وقع للمتقدمين والمتأخرين من وهم أو غلط أو اعتراض أو استدراك؛ قاصداً بذلك النصيحة للمسلمين حاشا الظهور أو التقيص -معاذ الله من ذلك-، فهل الفضل إلا للمتقدم؟ وغالب ذلك إنما يقع من التقليد، ونحن براء منه بحمد الله ومنه». اهـ

وقال العسكري في شرح التصحيف والتحريف (ص ٦): «وبدأت بما دُمَّ به التصحيف

(١) وقد قمت -بفضل الله- من توثيق نصّه على نسخته الخطية الوحيدة، ونشرته دار الفاروق الحديثة.

والمصحّفون، وذكرت بعده ما روي مما وهم فيه علماؤنا، رحمة الله عليهم، وحكي من أوهامهم غير قاصد في شيء من ذلك إلى الغض من أحد منهم، ولا الطعن عليهم، وحاش لله من ذلك، بل مؤدياً لما رويته، ومؤثراً للصدق فيه. اهـ

وقال العلامة ربيع بن هادي -نصره الله- في كتابه «رد كل المنكرات والأهواء والأخطاء منهج شرعي في كل الرسائل وسار عليه السلف الصالح الأجلاء» (ص ١١):
«ولم يقف أئمة السنة عند نقد واستنكار ضلالات أهل الضلال، بل تجاوزوا ذلك إلى نقد العلماء وعلى رأسهم كبار علماء السنة والحديث في أخطائهم.

فقد انتقد الإمام الليث بن سعد الإمام مالكا في مسائل مشهورة، بل انتقد الإمام الشافعي شيخه الإمام مالكا في مسائل كثيرة، وانتقد أحمد إسحاق والشافعي وغيرهما، بل انتقد أبو حاتم وأبو زرعة الإمام البخاري في كتابه «التاريخ» في عشرات الأسماء.
وانتقد الدارقطني: الإمامين البخاري ومسلما في حوالي مئتي حديث، وانتقد البيهقي: الطحاوي في كثير من المسائل.

وكما انتقد أبو الحسين بن القطان الفاسي في كتابه «بيان الوهم والإيهام» الذي يبلغ خمس مجلدات: الإمام عبد الحق الإشبيلي في كتابه «الأحكام».
كما انتقد أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الدمشقي في كتابه «عجالة الإملاء المتيسرة» في خمس مجلدات، انتقد فيها الحافظ المنذري في كتابه «الترغيب والترهيب»، وهذه أمور لا تحصى.

وهذا المنهج هو الذي عليه أئمة الدين سلفاً وخلفاء. اهـ
ثم نقل -حفظه الله- كلاماً هاماً عن الحافظ ابن رجب رحمته الله في كتابه «الفرق بين النصيحة والتعيير» في تقرير هذا الأمر -فقال كما في (ص ١٥، ١٦)-:
«وأما بيان خطأ من أخطأ من العلماء قبله، إذا تأدب في الخطاب، وأحسن الرد والجواب؛ فلا حرج عليه، ولا لوم يتوجه إليه، وإن صدر منه من الاغترار^(١) بمقالته فلا حرج عليه.

وقد كان بعض السلف إذا بلغه قول ينكره على قائله يقول: «كذب فلان». ومن هذا قول النبي ﷺ: «كذب أبو السنابل»، لَمَّا بلغه أنه أفتى: أن المتوفى عنها زوجها إذا كانت حاملاً لا تحل بوضع الحمل، حتى تأتي عليها أربعة أشهر وعشرًا. وقد بالغ الأئمة الورعون في إنكار مقالات ضعيفة لبعض العلماء، وردّها بأبلغ الرد، كما كان الإمام أحمد ينكر على أبي ثور وغيره مقالات ضعيفة تفردوا بها، ويبالغ في ردّها عليهم. هذا كله حكم الظاهر.

أما في باطن الأمر؛ فإن كان مقصوده في ذلك مجرد تبين الحق، ولثلا يغتر الناس بمقالات من أخطأ في مقالاته؛ فلا ريب أنه مثاب على قصده، ودخل بفعله هذا بهذه النية في النصح لله، ورسوله، وأئمة المسلمين، وعامتهم. وسواء كان الذي يَن الخطأ صغيراً أم كبيراً، فله أسوة بمن ردّ من العلماء مقالات «ابن عباس» التي يشذّبها^(١) وأنكرت عليه من العلماء، مثل: المتعة، والصرف، والعمرتين، وغير ذلك. ثم ذكّر:

أن العلماء ردوا مقالات لمثل: «سعيد بن المسيب»، و«الحسن»، و«عطاء»، و«طاووس»، وعلى غيرهم، ممن أجمع المسلمون على هدايتهم، ودرايتهم، ومحبتهم، والثناء عليهم. ولم يعد أحد منهم مخالفة^(٢) في هذه المسائل طعناً في هؤلاء الأئمة، ولا عيباً لهم. وقد امتلأت كتب أئمة المسلمين من السلف والخلف بتبيين هذه المقالات وما أشبهها، مثل: «كتب الشافعي»، و«إسحاق»، و«أبي عبيد»، و«أبي ثور»، ومن بعدهم من أئمة الفقه والحديث، وهذا كله في حق العلماء المقتدى بهم في الدين.

فأما أهل البدع والضلالة، ومن تشبّه بالعلماء وليس منهم^(٣)، فيجوز بيان جهلهم، وإظهار عيوبهم، تحذيراً من الاقتداء بهم.

(١) كذا

(٢) كذا

(٣) قال العلامة ربيع بن هادي في الحاشية: «ونحن والله الحمد لا نتقد في كتاباتنا كلها إلا هذه الأنواع».

وليس كلامنا الآن في هذا القبيل، والله أعلم. اهـ

وقال ابن خليل في «القدح المعلى في إكمال المحلى» (ص ٣٤٣)^(١): «وأما تخطئة من خطأ من السلف الصالح - رضي الله عنهم -، فليست التخطئة نيلاً منهم، ولا يعدها نيلاً منهم إلا جاهل أحمق، وذلك أنه قد علمنا قطعاً أن كل أحد يخطئ ويصيب إلا أنبياء الله تعالى صلوات الله عليهم أجمعين، وإذا قال قائل عمن أخطأ في شيء - وهو ممن يجوز عليه الخطأ - قد أخطأ فهو إخبار بحق وصدق، ولو قال غير ذلك لكان كاذباً». اهـ

قلت: ولو أراد الباحث أن يستقصي هذا الأمر لألف فيه مؤلفاً مفرداً، ولكن يكفيني ما ضربته من أمثلة جليّة.

والواجب على من ينسب الخطأ إلى أحد من أهل العلم، أن يكون هو نفسه من أهل العلم وطلبته، وأن يكون قد بنى نقده على دليل صحيح، أو أن يكون ناقلاً عن أهل العلم بشرط أن يضبط النقل، أما إن كان ليس من أهل العلم الفاهمين للأدلة أولم يكن ناقلاً عن أهل العلم - ضابطاً لما ينقل - بل كان ممن يحكم بهوى نفسه، فلا يقبل منه قوله: «أخطأ الشيخ»، ولا حتى قوله: «جانب الصواب».

فإذا كان قائل عبارة: «أخطأ الشيخ فلان»، قد بنى حكمه على دليل صحيح، ونقل معتبر عن أهل العلم فلا ينبغي أن ينكر عليه أو يقال أنه لم يتأدب مع الشيخ، بل إن المنكر هو المخطئ، ويفوح من إنكاره الغلو في هذا الشيخ والتعصب له بالباطل.

والذي يؤكد أن إنكاره نابع من تعصبه لشيخه فقط، أنه قد عرض أمامه نسبة الخطأ لبعض الأئمة الكبار فلا تجد منه إنكاراً لهذا، فإذا قيل له: أخطأ مالك، أو الشافعي، أو أحمد، أو ابن تيمية، أو الشوكاني، أو الصنعاني، أو الألباني، أو ابن باز، أو ابن عثيمين، أو أمان الجامي، أو ربيع بن هادي، تجده لا يستنكف من هذا، ومن المفترض أنه - حسب ادعائه - معظّم لهؤلاء العلماء، فلم رضي أن يقال في حضرته عنهم أنهم أخطؤوا، ولم يقل في حقهم المقولة نفسها التي قالها في حق شيخه الذي يتعصب له؟!

(١) بواسطة قسم الدراسة لكتاب «الإعراب عن الحيرة والالتباس الموجودين في مذاهب أهل الرأي والقياس» لابن حزم (١/١٩٨).

وهذا كما قال أبو شامة المقدسي في «المؤمل في الرد إلى الأمر الأول» (ص ١٧٣ - ط غراس): «ومن العجب أن كثيراً منهم إذا ورد على مذهبهم أثر عن بعض أكابر الصحابة، يقول مبادراً بلا حياء ولا حشمة: «مذهب الشافعي الجديد أن قول الصحابي ليس بحجة»، ويرد قول أبي بكر وعمر، ولا يرد قول أبي إسحاق والغزالي.

ومع هذا يرون مصنفات أبي إسحاق وغيره مشحونة بتخطئة المذني وغيره من الأكابر فيما خالفوا فيه المذهب فلا تراهم ينكرون شيئاً من هذا.

فإن اتفق أنهم سمعوا أحداً يقول: أخطأ الشيخ أبو إسحاق في كذا بدليل كذا، وكذا، انزعجوا غضبوا ويرون أنه ارتكب كبيراً من الإثم؛ فإن كان الأمر كما ذكروا فالأمر الذي ارتكبه أبو إسحاق أعظم!! فما بالهم لا ينكرون ذلك، ولا يغضبون منه، لولا قلة معرفتهم وكثرة جهلهم بمراتب السلف؟! اهـ.

قلت: لكن ينبغي الانتباه إلى فارق هام، وهو أن قولك للشيخ السلفي الذي يكبرك سناً وعلماً في حضرته: أخطأت في كذا، ينافي الأدب، كما قال ابن جماعة رحمته الله في تذكرة السامع (ص ١١٢): «ولا يقول لما رآه الشيخ وكان خطأ: هذا خطأ، ولا هذا ليس برأي، بل يحسن خطابه في الرد إلى الصواب، كقوله: يظهر أن المصلحة في كذا ولا يقول: الرأي عندي كذا وشبه ذلك». اهـ.

وقال الشيخ عبد السلام بن برجس رحمته الله في «عوائق الطلب» (ص ٦١): «وإذا أخطأ المعلم في شيء فلينبهه برفق ولطف بحسب المقام، ولا يقول له: أخطأت، أو ليس الأمر كما تقول، بل يأتي بعبارة لطيفة يدرك بها المعلم خطأه من دون أن يتشوش قلبه، فإن هذا من الحقوق اللازمة، وهو أدعى إلى الوصول إلى الصواب، فإن الرد الذي يصحبه سوء الأدب وإزعاج القلب، يمنع من تصور الصواب ومن قصده». اهـ.

السمة السادسة

تمنيهم إثبات موافقة شيخهم الصواب ولو

بتخطئة أكابر العلماء بغير حق

وهذه السمة بادية عليهم، وتظهر أحياناً على فئات ألسنتهم ما تكنه صدورهم من تمنيهم أن يكون شيخهم هو المصيب، ولو كان السبيل إلى هذا أن يكون الخطأ والزلل هو نصيب صفوة من العلماء الكبراء، فعلى سبيل المثال لو وقع أحد المخالفين لشيخهم في ذلة فانتقدها العلماء عليه تجد الفرحة قد ملأت قلوبهم تشفيًا.

وهذا داءٌ خفي وهو أحد أعراض التعصب، وقد كشف اللثام عن هذا الداء الخفي: العلامة ربيع بن هادي -حفظه الله- في كتابه «التعصب الذميم» (ص ٤٥) بقوله: «فيجب على كل مسلم أن يفتش نفسه فقد يميل إنسان إلى صاحب الحق لهوى، فقبل أن يتبين له الحق يتمنى أن يكون فلان هو المنتصر بالحجة أو غيرها فتميل نفسه لأنه فلان، ولو كان على الحق لا يجوز أن يوجد هذا الميل، فيقول: إذا وجد هذا الميل ولو مع صاحب الحق يكون من حكم الجاهلية، وهذا أمر لا يخطر بالبال عند كثير من الناس.

فيجب على المسلم أن يراقب الله في القضايا المختلف فيها، وأن يكون قصده فقط معرفة الحق سواء مع هذا أو مع ذلك.

ومن هنا يقول الشافعي: «إذا دخلت في مناظرة لا أبالي إذا كان الحق مع صاحبي أو معي»، فلا يبالي ولا يتمنى أن يكون الحق معه بل يتمنى أن يكون مع صاحبه وأن تكون النصرة له، هذا هو الخلق العالي وهذا هو الدين المستقيم.

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من هذه النوعيات المنصفة الباحثة عن الحق، البعيدة عن الهوى وعن أساليب الجاهلية.

فالذي يلزمنا معشر الإخوة أن نفتش أنفسنا فمَن وجد في نفسه شيئاً من هذا المرض؛

فعلية أن يتدارك نفسه ويقبل على العلاج الناجع ويبحث دائماً على الحق لينجو بنفسه من وهدة التعصب الأعمى الذي قد يؤدي إلى الشرك بالله - تبارك وتعالى - أو يؤدي إلى الضلال الخطير» اهـ.

وقال أيضاً - حفظه الله ونصر به الحق - في كتابه «أهل الحديث هم الطائفة المنصورة»: «وإنني أوجه نصيحة مخصصة للشباب المسلم:

١. أن يكون من أول مزاياه: حب الحق والإلحاح في البحث عنه ونصرته.

٢. يهدأ ويستريح من العيش في دوامة العواطف العمياء والتعصب المقيت لهذا الشخص أو ذاك؛ فإن هذا الأسلوب يدخله في عداد من قال الله فيهم: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] اهـ.

قلت: ولما سئل أبو بكر بن عيَّاش: مَنْ السُّنِّي؟ قال: الذي إذا ذكرت الأهواء، لم يتعصب - وفي لفظ: لم يغضب - لشيء منها^(١).

(١) أخرجه اللاكاثي في شرح أصول الاعتقاد (٥٣).

السمة السابعة

معارضة السنة بأقوال الشيخ

فإذا قلت للمتعبص: إن السنة في هذا الأمر كذا؛ باغتك قائلاً؛ ولكن الشيخ قال كذا؛ وكلما ذكرت له حكم مسألة قال لك: الشيخ قال فيها كذا وكذا؛ فهو لا يحفظ إلا قول شيخه، وغالبًا يحفظه عاريًا عن دليله من الكتاب والسنة.

فتكرار عبارة «قال الشيخ:...» عند إثارة أي خلاف، دون الاعتناء بذكر الدليل كاشف جلي لك أيها المسترشد عن حال المتعصبين!!

ويصل الغلو والجهل ببعضهم أن يقول بلسان حاله: قال مشايخنا الأجلاء الذين لا يعتد بخلاف من سواهم، ولا يرجع في ذلك لمن عداهم، كما نقل هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله عن الإخنائي الضال أنه قال: «إنه نقل الجواز عن الأئمة المرجوع إليهم في علوم الدين والفتوى المشتهرين بالزهادة والتقوى الذين لا يعتد بخلاف من سواهم، ولا يرجع في ذلك لمن عداهم».

فرد عليه شيخ الإسلام كما في «الإخنائية» (ص ٤٤١) قائلاً: «كلام باطل صدر عن متكلم بلا علم توغل في الجهل، فليس في الأمة من هو بهذه الصفة، بل هذه من خصائص الرسول، فهو الذي لا يعتد بخلاف من سواه، وكل من سوى الرسول يؤخذ من قوله ويترك، كما نقل ذلك عن مالك قال: كل أحد يؤخذ من قوله ويترك، إلا كلام صاحب هذا القبر».

ولو قيل مثل هذا في الأئمة المجتهدين كالأربعة كان منكراً من القول وزوراً.

فلو قال قائل: الأئمة الأربعة لا يعتد بخلاف من سواهم، فإذا خالفهم الثوري والأوزاعي والليث بن سعد وإسحاق بن راهويه وأبو ثور وأبو عبيد ونحوهم، أو خالفهم سعيد بن المسيب والحسن البصري وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح، أو خالفهم ابن عمر أو ابن

عباس أو أبو هريرة وعائشة ونحوهم لم يعتد بخلافهم، لكان هذا منكراً من القول وزوراً، فكيف يقال في بعض المتأخرين من أصحاب الشافعي وأحمد -وهم قد خالفوا شيوخهم- إن هؤلاء لا يعتد بخلاف من سواهم ولا يرجع في ذلك لمن عداهم^١.

وتدبر القصة التالية التي وردت في مجلة الهدي النبوي التي كانت تصدرها جماعة أنصار السنة في عهد الشيخ محمد حامد الفقي (عدد ذي القعدة ١٣٧١) تحت عنوان «يؤثرون شيوخهم على رسول الله» لأبي الوفاء محمد درويش^(١) لتدرك خطورة التعصّب للشيخ، وأنها قد تصل بالمرء إلى محادة رسول الله ﷺ -سلمنا الله من كل سوء-.

قال أبو الوفاء: «قال الراوي، والعهدة عليه والتبعة على عاتقيه:

عالم ديني سلفي كبير يتولى منصباً دينياً رفيعاً في بعض بلاد الصعيد، زار أسرة كريمة يلتبس عندها العون على مشروع خيري عام، جزيل النفع، جم الثمرات.

ولهذه الأسرة الكريمة في دارها مسجد تقام فيه الصلوات، وتنعقد الجماعات، وحان وقت الصلاة، فأذن المؤذن لها، ولكنه تعدى حدود الأذان المشروع، وأضاف إليه ما لم يأذن به الشارع الحكيم، وسمعه العالم الديني السلفي الكبير، فدعاه إلى الحق من أمر الأذان بالحكمة، والموعظة الحسنة، واحترم المؤذن العالم الكبير فسكت، أو علم أنه لا يعزّه في الخطاب، فأغضى على القذى مغلوباً على أمره.

وكانت هذه الدعوة على أعين الناس وأسماعهم، وفي جمهرة كبيرة منهم، كان من الممكن جداً أن ينتفعوا بها، وأن يفيدوا منها، وأن تتجلى لهم حقيقة محاولة محترفو الإتجار بالدين أن يخفوا أمرها على الناس زمناً طويلاً، وكان من الممكن أن يكون قول العالم الكبير فصلاً في قضية طال جدل الناس فيها، واختلافهم في شأنها، ولكن عدو البشر كان حاضراً وهو متحفز متوثب، لا تسنح أدنى فرصة يستطيع أن يشير فيها فتنة، أو يفسد عقيدة، أو يخذل حقاً، أو ينصر باطلاً، أو يغري بشرّاً، أو يصرف عن خير، أو يفرق جماعة،

(١) وأبو الوفاء كانت عنده نزعة اعتزالية في رد وتأويل الأحاديث الصحيحة التي تخبر عن بعض الغيبيات نحو أحاديث المسيح الدجال والمهدي، فليحذر من هذا من يقرأ له.

أو يشتت شملًا إلا انتهزها...»، ثم قال: «وما هي إلا أن وقع اختياره على شاب معمم مُلتحج، في وجهه صباحة وفي أنفه ملاححة وفي جبينه قسامة وفي أساريره وسامة، قد استدارت لحيته حول وجهه كأنما خطب بقلم، وحلك سوادها كأنما دسّمت بحمم، وسرعان ما أدار في قلبه مفتاح الشر، فتدفقت موجاته، وتدفقت وثباته، وأسرعت ذبذباته، فانتفض وارتعش وثار وانتفش، وصاح في وجه العالم الكبير: ألا يُصَلَّى على النبي؟!!!

قال العالم الكبير في تَوْدَة ورزانة: يا ولدي، لست أمنعه الصلاة على النبي ﷺ، فإن النبي ﷺ يدعو كل من سمع المؤذن أن يقول مثل ما يقول، ثم يصلي عليه، والمؤذن يُسمع نفسه فعليه أن يصلي على النبي، والصلاة على النبي دعاء، ولقد علّمنا ربُّ العزة سبحانه أدب الدعاء، فقال تعالى شأنه: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقد فسّر الاعتداء برفع الصوت بالدعاء، وهي من الذكر، وقد علّمنا الشارع الحكيم أدب الذكر، فقال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

فليصل على النبي في نفسه متضرعًا، وليذكر ربّه في نفسه خائفًا، لا معلنًا، ولا عابثًا، ولا مغنيًا، ولا إثم عليه، وخلاه ذم...»، إلى أن قال: «واقنعت كلمات العالم الكبير جمهرة الحاضرين، فتهلّلت أساريرهم، وافترت ثغورهم عن ابتسامات الرضا والقبول.

وانصرف العالم الكبير راشدًا بعد أن أدى أمانته وبلغ رسالته، وأرضى الحق، وأقر عين السنة، وأثلج صدر اليقين، وجدّع أنف البدعة، وحثا في وجوه المبتدعين.

أما الشاب المعمم الملتحي ذو الوجه الصبيح والأنف المليح واللحية المستديرة السوداء والعمة الملتاثرة البيضاء، فقد خرج مغضبًا يكاد يتميز من الغيظ، وله شهيق وزفير، وهمهمة وتمتمة ونكير، وذهب إلى صديق له، رجاء أن يسري عنه أو يرفه عليه، فنفض له جملة حاله وأفضى إليه بشكواه، وبثه بلواه، وكان صديقه منصفًا ينتصر للحق، ويؤثره على

الباطل، فلامه في رفق، وقال: أترد على كبير العلماء في هذا البلد؟

ولكن الشاب المعمم الملتحي ذا اللحية السوداء والعمة البيضاء، انتفخت أوداجه،

وانقلبت حماليقه، وأخذ منه الغضب كلَّ مأخذ، وقال: إليك عني، فوالله لو جاءني رسول الله وطلب إلي أن أتحول عن رأيي ما تحولت، وكيف أتحول عمّا يقول شيخنا وأستاذنا وقدوتنا وملاذنا؟؟

قال الصديق -وقد ملكته الدهشة-: رويدك يا صاح، لا يستخفّنك الشيطان فيخرجك عن إيمانك، ولا يستحوذن عليك الغضب، فيفسد عليك دينك، ولا يملكن عليك التعصّب أمرك، فيصرفك عن الحق، وكيف تمكن للشيطان أن يركب منك هذا المركب؟ وكيف تؤثر رأي الشيخ على شرعة رسول الله؟ ألم تعلم أن الله أقسم لنبيه ﷺ أن قومه لا يؤمنون حتى يحكموه فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضى، ويسلموا تسليماً؟ وما تحكيم الرسول بعد أن لحق بالرفيق الأعلى إلا تحكيم سنته، وقد حكمت سنته بغير ما علّمك شيخك، فلا تكونن من الممترين، ولا يصدّنك التعصّب لرأي شيخك عن متابعة الرسول فتكون من الهالكين.

ولكن الشاب المعمم الملتحي كبر عليه أن ينصح له صديقه بطاعة الرسول ومعصية الشيخ، فذهب مغاضباً وهو يقول: لكم دينكم ولي دين.

قال الراوي: ما كنت أحسب أن الناس يفتنون بشيوخهم هذه الفتنة، حتى يبلغ بهم الشر أن يقسموا بالله جهد أيمانهم، أنهم لا يستجيبون لرسول الله إذا دعاهم إلى غير ما دعاهم الشيخ، وأن يغضبوا على الصديق إذا قام لله شهيداً بالقسط. اهـ

السمة الثامنة

عدم قبولهم الجرح والتعديل إلا من

شيخهم أو من زكاه شيخهم

فالمجروح عندهم من جرحه شيخهم، وإن كان هذا الجرح مجملًا مردودًا بتعديل موثق عن عدد من كبار العلماء؛ فهم لا يرفعون رأسًا لكلام هؤلاء العلماء الكبار. ويقولون: شيخنا أعلم بحال فلان من هؤلاء العلماء، والجرح مُقَدَّم على التعديل، هكذا قالوا متناسين -أو جاهلين- أن القاعدة الصحيحة هي: أن الجرح المفسَّر مقدم على التعديل.

ثم إذا فتشت وجدت أن هذا الجرح مبنياً على أخبار واهية وأحقاد مدفونة، خال من أي تحقيق علمي، فلما عدم هذا الشيخ المتعصب له أي أخطاء اعتقادية أو منهجية في كتب وأعمال هذا الذي أراد جرحه إذ به يفتش في حياته الخاصة باحثًا عن أي ثغرة يسقط بها عدالته.

وصدق أبو عمر بن عبد البر حينما قال كما في «التمهيد» (١٧١/٧) -الترتيب ط دار الفاروق: «جماعة الفقهاء وأئمة الحديث الذين لهم بصر بالفقه والنظر هذا قولهم: أنه لا يقبل من ابن معين ولا من غيره فيمن اشتهر بالعلم وعرف به وصحت عدالته وفهمه جرح، إلا أن يتبين الوجه الذي يجرحه به على حسب ما يجوز من تجريح العدل المميز العدالة في الشهادات، وهذا الذي لا يصح أن يعتقد غيره، ولا يحل أن يلتفت إلى ما خالفه». اهـ.

قلت: فإن كان لا يقبل من مثل ابن معين جرحًا إلا مسببًا، فكيف بمن دونه من أهل زماننا؟!

وأما تعديل العلماء الكبار لهذا الشخص كان مبنياً على سبرهم لحاله من خلال

مجالسته وتبينهم لمنهجه، ومن خلال اطلاعهم على أعماله العلمية التي تظهر صدقه من كذبه، وتبين حقيقة منهجه؛ ورغم هذا تجد هؤلاء المتعصبين يلقون كلام العلماء الكبار في تعديل هذا الشخص خلف ظهورهم؛ ويكتفون بكلمة شيخهم، ويشنعون بها في كل مكان بطيش وجهالة؛ فهم قد جعلوا شيخهم كأمر الحزب الذي يدخل من يشاء في حزبه، ويخرج من يشاء؛ بلا بينة، وهذا بلا ريب من الغلو؛ وهو كاشف ظاهر لتمكن هذا الداء العضال من هؤلاء؛ والأمر كما قال الشاعر:

وإذا الأكابر عظمتك فلا تُبال
بمطاعن الأوزاع والأخفاف

السمة التاسعة

يكذبون بما لم يحيطوا بعلمه

كما قال الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس: ٣٩].

فإذا قلت: العلماء حذروا من الخطأ الفلاني للشيخ، قالوا: لا نصدق هذا، وهذا كذب، أو إذا قلت: الشيخ قال كذا مما يخالف الكتاب والسنة، قالوا: الشيخ لم يقل هذا!! وحتى لو قال هذا فهو لم يقصد هذا المعنى الباطل!!
والشاهد أن السليم من داء التعصب لا يكون هذا رد فعله في مثل هذا الموقف، ولكن الموقف الصحيح أن يسأل المتكلم: ما دليلك على ما ذكرت؟
فإن وجد الدليل في غير جانب شيخه، فعليه أن يقدم تعظيم الدليل والذب عنه على تعظيم شيخه.

السمة العاشرة

الطعن في نية الناصح لهم

وهذه السمة هي إحدى سماتهم البارزة، وهي أنهم يرمون من رام نصحهم بأنه إنما يريد من نصحه أن يصدّهم عن اتباع شيخهم، ومن ثمّ قالوا عن نصيحته: إنها إفكٌ مُفترى، وهم بهذا الصنيع قد استنوا بسنة سيئة سنّها الذين كفروا مع رسولنا ﷺ، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نُنَزِّلُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا يَتَذَكَّرُ آلَ هَازِلٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهِمْ آلُ هَازِلٍ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [سج: ٤٣، ٤٤].

قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: «أي هذا قصده حين يأمرهم بالإخلاص لله لتركوا عوائد آبائكم الذين تعظمونهم وتمشون خلفهم».

قلت: كذا يقول المتعصبون حين تأمرهم بالإخلاص لله لتركوا عوائد آبائهم وشيوخهم الذين يعظمونهم ويمشون خلفهم بلا هدى.

ثم قال رحمه الله: «فردوا الحق بقوة الضالين، ولم يوردوا برهاناً ولا شبهة؛ فأى شبهة إذا أمرت الرسل بعض الضالين باتباع الحق فادعوا أن إخوانهم الذين على طريقتهم لم يزلوا عليه، وهذه السفاهة وردّ الحق بأقوال الضالين إذا تأملت كل حق رد فإذا هذا مآله لا يرد إلا بأقوال الضالين من المشركين والدهريين والفلاسفة والصابئين والملحدين في دين الله المارقين، فهم أسوة كل من ردّ الحق إلى يوم القيامة». اهـ

قلت: وهذا حال المتعصبين يردون الحق -المدعم بالأدلة الظاهرة- بقوة الضالين، دون أن يوردوا برهاناً على صنيعهم ولا حتى شبهة معتبرة، إنما أتوا بأقوال وأفعال مبنية على السفاهة منها قولهم: إن إخواننا الذين على طريقتنا لم يزلوا على ما نحن عليه؛ فكان أسوتهم في رد الحق: أهل الباطل.

ثم قال ﷺ: «ولما احتجوا بفعل آبائهم وجعلوها دافعة لما جاءت به الرسل طعنوا بعد هذا بالحق ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ ؛ أي: كذب افتراه هذا الرجل الذي جاء به ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبا: ٤٣]؛ أي: سحر ظاهر لكل أحد تكذيباً بالحق وترويحاً على السفهاء».

قلت: ولما احتج المتعصبون بأقوال وأفعال آبائهم وشيوخهم، وجعلوها دافعة لما جاء به أهل الحق، طعنوا بعد هذا في الحق، وقالوا ما هذا إلا كذب افتراه هذا الرجل الذي جاء به، وقالوا إن هذا إلا مكر مكره هذا الرجل ليصدنا عن شيخنا، كل هذا تشويشاً على الحق لتروج أفعالهم على السفهاء.

وهم بهذا الصنيع يسيرون على مذهب من ذكرهم الله في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا بِالْعَمَنِ تَعِ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٣].

السمة الحادية عشرة

المبالغة في تعظيم شيخهم بعبارات الإجلال

دون غيره من أهل العلم

وكانهم قالوا: إن شيخنا هو عالم الزمان الأوحد، وهو شيخ المشايخ، وإمام الأئمة، بل هو شيخ إسلام هذا الزمان وحجة الإسلام.

وقد بَوَّبَ البيهقي في المدخل إلى السنن (١٦/٢) باب: [ما يكره لأهل العلم وغيرهم من التكبر والتجبر وإلزام الناس مخاطبتهم بما يخاطب به الجبارة والسكوت إليه والسرور به، أعاذنا الله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا^(١)].

وقد دلت الأدلة على النهي عن الإطراء والغلو في المشايخ والأئمة، وإليك بعضها:
أولاً: قال البخاري في صحيحه: كتاب أحاديث الأنبياء، باب: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرِيَمَ﴾، رقم (٣٤٤٥):

حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان قال: سمعت الزهري يقول: أخبرني عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس، سمع عمر -رضي الله عنه- يقول على المنبر: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا عبد الله ورسوله».

(١) ولهذا أمثلة، منها: قول الروافض عن علي -رضي الله عنه-: «إمام المتقين»، ويقولون عن أئمتهم الإثنى عشر: «الأئمة المعصومون»، ويلزمون الجهال المتعصين من أتباعهم بهذه العقيدة الكفرية. ومنها: قول الأحناف عن أبي حنيفة -رحمه الله-: «الإمام الأعظم». وكلها أقوال باطلة، فإن إمام المتقين، والإمام الأعظم المعصوم هو رسول الله ﷺ. ومنها: قولهم عن بعضهم مشايخ المتصوفة: «خاتمة المحققين، وشمس الدنيا وعافيتها، وسيد العارفين، وصاحب الكرامات، وبحر البحور في العلم، الذي لم تجد الأزمان مثله... إلخ». وهذا غلو شنيع لا يقبله أصحاب الفطر السليمة.

ثانيًا: قال أحمد في مسنده (١٥٣/٣) ثنا حسن بن موسى، ثنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك: أن رجلاً قال: يا محمد يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا، فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس عليكم بتقواكم، ولا يستهوينكم^(١) الشيطان أنا محمد بن عبد الله: عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل». وأخرجه عبد بن حميد (١٣٣٧) بالإسناد نفسه والمتن^(٢).

ثالثًا: قال ابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (١٥٣/٣): حدثنا عبد الله بن محمد بن أسماء نا مهدي بن ميمون نا غيلان بن جرير عن مطرف عن أبيه قال: قدمت على رسول الله ﷺ في رهط من بني عامر فسلمت عليه فقلت: أنت والدنا، وأنت سيدنا، وأنت أفضلنا علينا فضلاً وأطولنا علينا طولاً، وأنت الجفنة الغراء^(٣)، قال ﷺ: «قولوا بقولكم لا يستهوينكم الشيطان». وأخرجه أحمد في مسنده (٢٥/٤)، وفيه: «أنت ولينا...»^(٤).

(١) وفي رواية: «لا يستجربنكم».

(٢) وأخرجه أيضاً أحمد في مسنده (٢٤٩، ٢٤١/٣)، وعبد بن حميد (١٣٠٩)، والنسائي في الكبرى (٧١، ٧٠/٦)، وابن حبان في صحيحه (٦٢٤٠)، واللاكثي في شرح أصول الاعتقاد (٢٦٧٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٢٦/٤)، وفي المدخل إلى السنن (٨٧/٢)، وابن أبي شيبة في مسنده كما في «إتحاف الخيرة المهرة» (٧٧/٧) (١/٦٤٢٣)، وأبو نعيم في الحلية (٢٥٢/٦) من طرق عن حماد بن سلمة به، وإسناده صحيح على شرط مسلم، وروي أيضاً من طريق مؤمل عن حماد عن حميد عن أنس، أخرجه أحمد (٢٤١/٣).

(٣) قال القاضي عياض في مشارق الأنوار: «وأنت الجفنة الغراء أي أنت الكريم المطعام، والعرب تقول لمثله جفنة؛ لوضعه لها وإطعامه فيها، ومعنى الغراء: البياض من لباب البر أو الشحم، ومثله قولهم الثريد الأعقر»، وقال في (١٣١/٢): «وأنت الجفنة الغراء أي البياض من الشحم أو بياض البر كما قالوا الثريد الأعقر أي الأبيض».

وقال ابن الأثير في النهاية (مادة ج ف ن): «وأنت الجفنة الغراء كانت العرب تدعو السيد المطعام جفنة؛ لأنه يضعها ويطعم الناس فيها فسمي باسمها، والغراء: البياض أي أنها مملوءة بالشحم والدهن».

(٤) وأخرجه أيضاً بهذا اللفظ: ابن أبي الدنيا في الصمت (٧٣)، وابن شبة في أخبار المدينة (٢٨٢/١)، والبيهقي في المدخل إلى السنن (٨٧/٢)، والسمعاني في أدب الإملاء والاستملاء (ص ٩٨)، والضياء في المختارة (٤٦٧/٩) من طريق مهدي عن غيلان به.

ومن هنا يتبين لنا خطأ مقولة ابن جماعة في «تذكرة السامع والمتكلم» (٨٧) في أدب الطالب مع الشيخ: «أن ينظره بعين الإجلال، ويعتقد فيه درجة الكمال».

قلت: يجب أن نفرق بين احترام الطالب لشيخه وتوقيره له، وبين اعتقاد الطالب العصمة والكمال في شيخه، فالأول واجب حث عليه الشرع، والثاني من الغلو المحرم بل قد يكون شركاً أكبر نحو اعتقاد غلاة المتصوفة والروافض في أئمتهم.

وللأسف قد ابتلي أصحاب كتب التراجم من المتأخرين بشيء من هذا الغلو في الإطراء، خصوصاً إذا كانوا متأثرين بنزعة صوفية، واضرب مثلاً واحداً من مئات الأمثلة وقفت عليه حين مطالعتي لأحد كتب هؤلاء المتأخرين، وهو كتاب «التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية» لمحمد بن أبي السرور الصديقي البكري حيث قال في (ص ١٣٨): «وفيه -أي في عام (١٠٢٨هـ)- توفي الشاب السعيد الموفق الحميد الذكي الرشيد، المشتغل بالعلوم العقلية والنقلية، والمتحقق بتحصيل فرائض العقائد السنية، جامع أشتات الفضائل العربية، صاحب الفرائد المفيدة، بدر أفلاك العصابة الصديقية، غصن رياض السلالة التيممية، ذو النسب الطاهر، والجمال الباهر، والكمال الزاهر، روح جثمان كل جثمان، عين إنسان كل إنسان، خلاصة العلماء الكرام، ذخيرة الأجلاء العظام، بهجة القلب والباطن، قرة العين والناظر، المفتت بفراقه الأكباد، مولانا وسيدنا المرحوم المغفور له مولانا أحمد أفندي بن مولانا وسيدنا شيخ الإسلام، علامة الأنام، مفيد الطالبين، ذخيرة المحققين، حسن أفندي التميمي، وسبط عارف الأوان، ونُخبة الزمان، قطب الوجود، وفلك السعود، ومن لا يحتاج إلى الإطناب في مدحه هنا استغناء بشهرته عن شرحه مولانا الشيخ محمد البكري الصديقي -رضي الله عنه-» اهـ.

قلت: وهذا من أشنع الغلو في إطراء الشيخ وتلقيبه، والذي لو قيل في أحد الرسل عليهم الصلاة والسلام لكان غلوّاً شنيعاً، فكيف بمن دونهم مِمَّنْ قد يكون من رؤوس أهل البدع والأهواء.

السمة الثانية عشرة

ادعاء الإجماع الوهمي على الإشاعات

إن الناظر في كثير من الفرى التي أشاعها المتعصبون على العلماء السلفيين قديمًا وحديثًا، يجد أنها قد بُنيت على أخبار واهية ونقولات مبتورة وأفهام مغلوطة.

ويجد أن بعض الخائضين في عرض هذا العالم أو طالب العلم -ممن قد تأثروا بهذه الإشاعات- اتخذوا موقف الهجر والتحذير منه بناء على هذه الإشاعات، فإذا عاتبتهم على هذا الموقف، قالوا: إن فلانًا وعلانًا يتناقلون هذا الكلام؛ فهو إجماع.

فإذا بحثت عن أصل هذا الإجماع المدعى وجدت أن أفراد ما بين مجاهيل أو مجروحين؛ فهم ليسوا من أهل العلم المثبتين، وليسوا ممن زكاهم العلماء للخوض في مسائل منهجية تتعلق بالجرح لأحد أهل العلم، وأحيانًا يكون مصدر هذه الإشاعة فردًا واحدًا ليس بثقة تنبثق منه الفرية وتنتشر في الآفاق؛ فيظن الغرُّ عندما يسمع تناقل الناس لهذه الفرية أنها مُجمَعٌ عليها، وهذا من سوء الفهم، فمتى كان إجماع الجاهل حجة؟!!

وتأمل هذا الأثر التالي: أخرج الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٣٨٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٧٢/٢٧) من طريق أبي العباس أحمد بن يحيى -وهو المعروف بثعلب- قال: حدثني محمد بن عبيد بن ميمون حدثني عبد الله بن إسحاق الجعفري قال: كان عبد الله بن الحسن يكثر الجلوس إلى ربيعة، قال: فتذاكروا يومًا السُّنن، فقال رجل -كان في المجلس-: ليس العمل على هذا!! فقال عبد الله: أرأيت إن كثر الجاهل؛ حتى يكونوا هم الحكام، أفهم الحجة على السنة؟! قال ربيعة: أشهد أن هذا كلام أبناء الأنبياء.

قلت: وأحيانًا قد يكون هذا الناقل معروفًا في مجتمعه بأنه ليس كذابًا، فإذا ادَّعى أمرًا وأخذ يؤكده بالأيمان وبإظهار الحرص على المصلحة العامة، سرعان ما يؤثر خبره المفترى

في السامعين فتتناقله الألسنة دون وعي وتثبت ثم يصير عند هؤلاء أمراً مُجمِعاً عليه لا يقبل النقاش والتفاوض؛ ويتناسى هؤلاء أن هذا الناقل قد يكون مجروحاً بأمر آخر غير الكذب مثل الغفلة أو سوء الفهم أو ضعف العلم أو اتباع الهوى أو حب الظهور؛ وأحياناً تكون الأخيرة هي المحركة لهذا الصنف حيث يجد نشوة في أن يكون هو المصدر الوحيد لخبر يترتب على نشره أن يوصف بأوصاف التبجيل والإعزاز، ويصير عند هؤلاء القوم هو الجهد الذي كشف المخبوء على حد فهمهم المغلوط.

وقد يحدث كلُّ هذا والطرف المفترى عليه لا يعلم شيئاً عمّا يُدبر له، بل قد يكون على اتصال ببعض هؤلاء، وهو يُحسن الظن بهم فإذا بهم يظهرون له الود الكاذب، وهم في الظلام يطعنونه في ظهره دون أن يراهم، وهذا من المكر السيئ الذي لا يحقُّ إلا بأهله، والله هو حسبنا ونعم الوكيل.

وصدق أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي لما أنشد قائلاً^(١):

سألت الناس عن خلٍّ وفيّ فقالوا ما إلى هذا سبيل
تمسك إن ظفرت بوذٍّ حرٍّ فإن الحرَّ في الدنيا قليل

وهذه فقرات من مُحاضرة ماتعة في هذا الشأن لسماحة الشيخ عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- بعنوان «المنهج الصحيح في التعامل مع الشائعات والفتن»: حث قال -حفظه الله-: «الشائعات إذن لا محل لها بين مُجتمع المسلمين الصادق^(٢)، دين الإسلام جاءنا بالعدل في أقوالنا كما أرشدنا إلى العدل في أفعالنا، فأرشدنا إلى العدل في أقوالنا، وحقيقة العدل في القول ألا نجور فيما نقول ولا نظلم فيما نقول، وإنما نتحدث عن حقٍّ واقع قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الانعام: ١٥٢]. اعدلوا في الأقوال، كما مطلوب منكم العدل في الأفعال فاعدلوا في أقوالكم كما تعدلوا في أفعالكم لتكونوا مؤمنين حقاً، فالشائعات في

(١) أخرجه أبو عبد الله محمد بن سعيد بن الدُّبَيْثِي في «ذيل تاريخ مدينة السلام» (١/١٥٩)، وأبو طاهر السَّلَفِي في «معجم السفر» (٣٣٨، ١١٦٥، ١٣١٩) من طرق عن الشيرازي.

(٢) إنما محلها بين أهل الأهواء أتباع كلِّ ناعق.

الغالب لا عدل فيها، هي شائعة وأخبار مستقاة من غير مصادرها متلقاة من غير ثقاتها هدفها الضرر العام وليس هدفها المصلحة.

وقال حفظه الله: «إن نبينا ﷺ حذّرنا من أن نشيع الأقوال بدون تروٍّ فقال: «بأس مطية القوم زعم»، وقال: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»، فمن حدث بكل ما سمع فإنه لا يخلو من كذب وإن لم يكن هو في نفسه كاذباً؛ لكن القول الذي نقله كذبٌ فينسب الكذب إليه من لا يدري عن حقيقة الأمر» اهـ.

قلت: فهذا ما تيسر جمعة من سمات المتعصبين، وثمّ سمات أخرى قد تكون متداخلة مع هذه السمات أو تكون من آثارها وتوابعها، فاكتفيت بذكر ما تيسر من السمات الرئيسة.

تعصّب الشيخ لنفسه

فيما سبق تكلمنا عن تعصّب التلاميذ لشيخوهم، وفي هذا الباب نتكلم عن تعصّب الشيخ لنفسه.

وقد يستعجب البعض من هذا العنوان، ولكنه للأسف حقيقة واقعة لمسناها في الواقع.

وإن تعجب فعجب قيام محمود الحداد المصري -شيخ الطائفة الحدادية الغالية- بتحقيق أمالي حديثه للحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي رحمته الله بعنوان: «الإتحاف بحديث فضل الإنصاف»، في حديث عمّار بن ياسر -رضي الله عنه-: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: الإنفاق من الإقتار، وإنصاف الناس من نفسك، وبذل السلام للعالم».

والحداد يعد من غلاة الشيوخ الذين يتعصّبون لأنفسهم، فهو لا يرضى لأتباعه بديلاً عن نفسه، بل يعتبر نفسه العالم الأوحّد الذي يؤخذ عنه العلم، ومن ثمّ لم يدع عالماً من علماء السنة إلا وقدح فيه بغير حق، وأسقطه، ووسمه بالبدعة ظلماً وعدواناً دون بينة.

والحداد مبتلى بأدواء عسيرة تمكنت من نفسه ومن نفوس أتباعه، وهي: العجب، وحب الظهور، والغرور، واحتقار الغير -خصوصاً السلفيين حقّاً-، والرجم بالغيب، والكذب، والتدليس، والغلو الشديد، والتشديد على النفس، والمراء... إلخ، وهذه أدواء غلاة المتعصّبين.

وقد ناقض محمود الحداد صنائعه، وخالف حقيقة دعوته، بل أقام الحجة على نفسه بقوله في تعليقه الذي سماه: «الإشراف على الإتحاف» (ص ٥٣) تحت عنوان: «خصلة الإنصاف من النفس»: «إليه يشير قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا كُفُؤًا قَوْمِينَ يَلْفَسُ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، فإن المرء إذا أنصف نفسه من نفسه لم يقع في ظلم النفس، لأنه لا توبة لمن لم يعلم ذنبه كما قال رحمته الله فيما رواه الضياء وغيره: «أن الله احتجّر

التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته»، فالمبتدع لا يعرف بدعته بل يظنها طاعة فلا يتوب منها بل يجتهد فيها، فإذا علم ذنبه فأَنصَفَ ندم عليه وتاب منه، فإن فعل ذلك لم يقع في آفات النفس من الغرور والعجب كما قال ﷺ، وهو في صحيح الألباني (٦٥٨): «لو لم تكونوا تَذنبون خشيت عليكم أكثر من ذلك: العجب»، وإذا أَنصَفَ الناس من نفسه فلن يلجئهم إلى قاض أو يعوزهم إلى مخاصمة، فذلك هو الذي سلم المسلمون من لسانه ويده وآمنه المؤمنون، وذلك هو الإسلام والإيمان كما قال رسول الله ﷺ. اهـ

قلت: ويا ليتة نصح نفسه، ونصح أذنا به هذا الكلام، حيث إنهم بلغوا في العجب مداه، ولم ينصفوا الناس من أنفسهم، بل بغوا على خير الناس بعد الأنبياء والصحابة - وهم العلماء الربانيين - أيمابغي، ورفعوا رايات الحرب عليهم، فكانوا بحق من غلاة المتعصبين.

○ صور تعصب الشيخ لنفسه:

وإليك بعض صور تعصب الشيخ لنفسه مما قد عاينته من تصرف بعض الدعاة والمعلمين:

أولاً: عدم رضا الشيخ بوجود من ينشر الدعوة والتعليم في بلده أو في قريته غيره:

فإذا رام أحد أهل العلم أو أحد طلبة العلم من السلفيين المشاركة الدعوية أو التعليمية للشيخ المتعصب لنفسه إذ به ينفر ويعترض قائلاً: «أنت تريد أن تسحب البساط من تحت قدمي... وتريد أن تأخذ طلابي مني^(١)»، فكان هذا الشيخ حوّل الأمر من مشاركة دعوية إلى صراع دنيوي على منصب فان.

ومن ثمّ فإن هذا الشيخ المتعصب لنفسه يبخس طلبته النابهين، فإذا أظهر أحد طلابه نبوغاً، فسرعان ما يسعى لتثييطه وإخماده بدلاً من أن ينميه ويوجهه التوجيه السديد الذي ينفع به المسلمين، خشية من أن ينافسه على سلطانه العلمي، فإذا تصدر هذا الطالب السلفي عقيدة ومنهجاً للتدريس أو التصنيف بعد أن حصل قدرًا من العلم يؤهله لهذا الأمر

(١) قال الشيخ حسن -حفظه الله-: «وهذا فيه الكفاية للتعريف بحقيقة أمر هذا الشيخ، وهي حرصه على المنصب وحب الظهور، مع غمط طلابه وإطفاء جذوتهم إذا راموا طلب العلم النافع، وبثّه بين الناس، كما بين المصنّف -وفقه الله-». اهـ

محاولاً سدّ ثغرة في هذه الغربة الشديدة للعلم الصحيح القائم على منهج السلف الصالح، إذ بك تجد هذا الشيخ يطلب من تلميذه أن يتوقف عن التدريس أو عن التصنيف، دون مبرر واضح، وقد يدّعي أن هذا من مصلحته؛ فإذا سأل التلميذ عن سبب هذا المنع أجيب: إنك لست أهلاً للتصدر الآن فلتكتب ولتضع في درجك، وهذا دون أن يقوم هذا الشيخ باختبار هذا الطالب ليؤكد دعواه في كونه ليس أهلاً لهذا الشأن، بل قد يعتبر مجرد السؤال من إساءة الأدب، فهو يرى أن الواجب على الطالب أن يسمع ويطيع دون سؤال، وهذا الأسلوب في التعامل مع الطلبة هو من سبيل الصوفية والحزبية والشيعية الإمامية ليس من سبيل السلف الصالح، كما اشتهر عن المتصوفة قولهم: من اعترض انطرد.

نعم، إذا لمس الشيخ من الطالب انحرافاً عن أصول المنهج السلفي، وميلاً لأهل البدع والأهواء؛ فعليه أن يرشده للصواب بالأدلة، حتى يريه على حسن الاتباع لا على التقليد المذموم، فإذا وجد منه عدم قبول الحق مع إساءة الأدب، فالمتعين عليه أن يسعى لتأديبه، وأن يصبر عليه، فإن آيس منه فله أن يشهد الطلاب الآخرين على انحرافه، وقيم عليه الحجة أمامهم؛ حتى يقنعهم بخلافاته معه في أصول المنهج، فيكونون بذلك عوناً للشيخ على تأديبه وزجره.

أما أن يكون الطالب على جادة السلف، وظهر منه الحرص على طلب العلم النافع، وإنما قد تصدر أحياناً منه أخطاء قد لا يخلو منها أحياناً العالم الكبير فضلاً عن الطالب المبتدئ؛ فالواجب على هذا المعلم أن ينبيهه إلى هذا الأخطاء، ويشجذ من همته لمزيد من الاجتهاد في تحصيل العلم ونشره لا أن يثبطه ويزدري جهده ويسمّه بأوصاف لا يوصف بها إلا الجاهل أو أهل الأهواء، والله عز وجل يقول: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الشعراء: ١٨٣].

فهذا الشيخ المتعصب لنفسه يريد أن تظل له الصدارة، ويعتبر إن تصدر أحد الطلاب للتدريس بين يديه وعلى عينه في منطقته يزعزع هذه الصدارة، ومن ثمّ يعتبر هذا التصدر من هذا الطالب نوعاً من أنواع المنازعة لسلطانه؛ وعلى الجانب الآخر لا يقبل هذا الشيخ أن يُنازع من قبل شيخ آخر في بلدته، فلا يسمح أبداً لأحد غيره من أهل العلم أن يلقي درساً في قريته، ولا في قرية قريبة من قريته.

وهذا الشيخ المتعصب لنفسه قد خالف بسلوكه هذا هدي السلف الصالح، حيث كانوا لا يتسارعون إلى منصب الدعوة والفتوى، بل ودَّ أحدهم لو جاء في بلده من يكفيه هذا الفرض الكفائي حتى يرفع عن كاهله هذه الأمانة الثقيلة، كما قال ابن الجوزي في «تعظيم الفتيا» (ص ٧٢): «وقد كان علماء السلف -رضي الله عنهم- مع أنهم قد جمعوا العلوم المشروطة في الفتيا، يمتنعون تورعاً». اهـ

* وإليك باقة من الآثار السلفية في هذا الباب:

قال ابن المبارك في الزهد (٥٨): أخبرنا سفيان عن عطاء بن السائب عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: «أدركت عشرين ومائة من أصحاب النبي ﷺ -أراه قال:-، فما كان منهم محدث إلا ودَّ أن أخاه كفاه الحديث، ولا مفتٍ إلا ودَّ أن أخاه كفاه الفتيا»^(١).
وأخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ (٨١٧/٢) قال: حدثنا أبو بكر الحميدي قال ثنا سفيان به بلفظ: «أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يسأل أحدهم المسألة فيردها هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول»^(٢).
- وتابع السفيانين:

حماد بن زيد عند ابن سعد في الطبقات (١١٠/٦)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (٨١٨/٢)، ولفظه: «أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب النبي ﷺ كلهم من الأنصار إذا سئل أحدهم عن الشيء أحب أن يكفيه صاحبه».
وشعبة عند ابن سعد في الطبقات (١١٠/٦).

-
- (١) وأخرجه من طريق ابن المبارك: ابن عبد البر في الجامع، وتابع ابن المبارك على هذا اللفظ جمع من الثقات عن سفيان الثوري عن عطاء به، وإليك تخرج مروياتهم:
- ١- أبو نعيم الفضل بن دُكَيْن، أخرجه الدارمي في المقدمة (١٣٥)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (٨١٧/٢)، الخطيب في الفقيه والمتفقه (٢٤/٢) (٦٤١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٨٦/٣٦).
٢- محمد بن عبد الله الأسدي مقروناً بأبي نعيم: أخرجه ابن سعد في الطبقات (١١٠/٦).
٣- نصر بن مزاحم: أخرجه ابن حبان في الثقات (٢١٥/٩).
٤- قبيصة: أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه (٢٤/٢) (٦٤١).
(٢) وأخرجه من طريق الفسوي: الخطيب في الفقيه والمتفقه (٢٣/٢) (٦٤٠).

وقال الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٨١٧/٢): حدثنا أبو بكر الحميدي قال ثنا سفيان قال:

حدثنا عطاء بن السائب: «أدركت أقواماً إن كان أحدهم لئسأل عن الشيء فيتكلم، وإنه ليرعد»^(١).

وقال الدارمي في «المقدمة» (١٣٦): حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار، ثنا أبو بكر،

عن داود قال: سألت الشعبي: كيف كنتم تصنعون إذا سئلتكم؟ قال: على الخير وقعت، كان إذا سئل الرجل قال لصاحبه: أفتمهم فلا يزال حتى يرجع إلى الأول.

وقال الآجري في «أخلاق العلماء» (٨٨) أخبرنا جعفر -هو ابن محمد الصندلي-

أخبرنا محمد بن المثنى سمعت بشر بن الحارث يقول: سمعت المعافى بن عمران يذكر عن سفيان قال: «أدركت الفقهاء، وهم يكرهون أن يجيبوا في المسائل والفتيا، ولا يفتوا؛ حتى لا يجدوا بداً من أن يفتوا».

وقال المعافى: سألت سفيان، فقال: «أدركت الناس ممن أدركت من العلماء والفقهاء،

وهم يترادون المسائل، يكرهون أن يجيبوا فيها، فإذا أعفوا عنها، كان ذلك أحب إليهم»^(٢).

وأخرج الخطيب في «الفيح والمتفق» (٦٥٠) بإسناد صحيح عن أبي بكر الأثرم قال:

سمعت أبا عبد الله يقول: «من عرّض نفسه للفتيا فقد عرّضها لأمر عظيم، إلا أنه قد تجيء الضرورة، قال الحسن: إن تركناهم وكلناهم إلى عيٍّ شديد، فإنما تكلم القوم على هذا، كان قوم يرون أنهم أكثر من غيرهم فتكلموا»، قيل لأبي عبد الله: فأيا أفضل الكلام أو الإمساك؟ قال: الإمساك أحب إليّ لا شك، قيل له: فإذا كانت الضرورة؟ فجعل يقول: الضرورة الضرورة!! وقال: الإمساك أسلم له.

قال الخطيب: «الإمساك أقرب إلى السلامة، لكن ما يجوّزه المجتهد إذا نصح وبذل

مجهوده في طلب الحق من الفضل وعظيم الثواب والأجر أولى ما رغب فيه الراغبون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون» اهـ.

(١) إسناده صحيح: وأخرجه الخطيب في الفقيه والمتفق (١٠٨٥)، ومن طريقه ابن الجوزي في «تعظيم الفتيا» (١٦).

(٢) وأخرجه من طريق الآجري: الخطيب في الفقيه والمتفق (٦٤٩)، ومن طريقه ابن الجوزي في «تعظيم الفتيا» (١٣).

وقال ابن أبي حاتم في «آداب الشافعي» (ص ٢٠٥): ثنا أبي حدثنا يونس بن عبد الأعلى قال: سمعت الشافعي يقول: «ما أدركت أحداً - جمع الله فيه من أداة الفتيا؛ ما جمع سفيان بن عيينة - أوقف عن الفتيا منه».

ثم قال: ثنا أبي، ثنا حرملة بن يحيى أبو حفص التجيبي قال: سمعت الشافعي يقول: «ما رأيت أحداً - من الناس فيه من آلة العلم ما في سفيان بن عيينة - وما رأيت أحداً أكف عن الفتيا منه»^(١).

وأخرج الخطيب في «الفيح والمفتقه» (١٠٧٩) بإسناد صحيح عن إسحاق بن راهويه قال: قال ابن عيينة: «أعلم الناس بالفتوى أسكتهم فيها، وأجهل الناس بالفتوى أنطقهم فيها». قال الخطيب: «وقل من حرص على الفتوى، وسابق إليها، وثابر عليها إلا قلّ توفيقه، واضطرب في أمره؛ وإذا كان كارهاً لذلك غير مختار له، ما وجد مندوحة عنه، وقدر أن يحيل بالأمر فيه على غيره، كانت المعونة له من الله أكثر، والصلاح في فتواه وجوابه أغلب، وقد قال النبي ﷺ لجابر بن سمرة - ثم ذكر إسناده إلى الرسول ﷺ -: «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها».

قلت: وهذا من دقيق فقه الخطيب رحمه الله، فالذي يطلب الإمارة في الفتيا طلباً للرئاسة مثل الذي يطلب الإمارة في الدنيا طلباً للرئاسة، وهذا قياس تام صحيح الأركان. ثم قال الخطيب: «إن قال قائل: فقد قال علي بن أبي طالب: «سلوني قبل أن تفقدوني»^(٢)، قيل له: الخبر عنه بذلك معروف».

(١) إسناده صحيح: وأخرجه أيضاً في مقدمة الجرح والتعديل (ص ٣٢-٣٣) في ترجمة ابن عيينة، وأخرجه الحاكم في معرفة علوم الحديث (ص ٦٥)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١٠٧٨)، وابن الجوزي في «تعظيم الفتيا» (١٤) من طريق محمد بن إسحاق بن خزيمة قال: سمعت يونس بن عبد الأعلى به.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن جرير في تفسيره (٢٢١/١٣)، والحاكم في المستدرک (٢/٣٨٣-٥٠٦)، من طريق بسام الصيرفي قال ثنا أبو الطفيل عامر بن وائلة ذكر أن علياً قام على المنبر فقال: سلوني قبل أن لا تسألوني، ولن تسألوا بعدي مثلي، فقام ابن الكواء فقال: من الذين بدلوا نعمة الله كفراً

ثم قال الخطيب: «وإنما كان يقول هذا القول وقد انتهى الأمر إليه، وتعيّنت الفتوى عليه، وانقرضت الفقهاء من الصحابة سواه، وحصل في جمع أكثرهم عامة، ولولا ذاك ما بُليَ بما بُلي به، ألا ترى أنه لم يقل هذا في عهد أبي بكر، ولا في عهد عمر؛ لأنه قد كان في ذلك الوقت جماعة يكفون أمر الفتوى.

ثم من أين بعد عليّ مثله؛ حتى يقول هذا القول؟» اهـ.

ثانياً: اغترار الشيخ بكثرة الحاضرين لمجالسه، بل اشتراخه كثرة العدد لعقد المجالس:

وهذه سمة بارزة عند المتعصّبين والمتعصّب لهم من أهل الأهواء الحزبيين: التفاخر بكثرة أعدادهم، والتنقص من العلماء الربانيين بسبب قلة الحضور عندهم، ومخادعة الهمج الرعاع بهذه الكثرة^(١).

والأعجب أنك تجد هذا الشيخ المتعصّب لنفسه إذا دُعيَ لإلقاء درس في مكان ما، فوجد الحضور قليلاً اشمأزت نفسه، واحمرت أنفه، وعاتب الداعي له قائلاً: لماذا لم تقم بالدعاية اللازمة حتى يكثر الحضور^(٢)!!؟

==

وأحلوا قومهم دار البوار؟ قال: منافقو قريش؛ وهذا إسناد جيد. وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢٤١/٣) عن معمر عن وهب بن عبد الله عن أبي الطفيل قال: شهدت عليّاً وهو يخطب، وهو يقول: سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلا حدثكم به، وسلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم بليل نزلت أم بنهار، أم في سهل، أم في جبل.

وأخرجه الخطيب من طريقه، وهذا إسناد صحيح. وقال ابن أبي شيبه في مصنفه (٣١٢/٥) حدثنا ابن عيينة عن يحيى بن سعيد قال: لم يكن أحد من أصحاب النبي ﷺ يقول سلوني إلا علي بن أبي طالب. وأخرجه الخطيب من طريق عثمان بن أبي شيبه، عن ابن عيينة، عن يحيى بن سعيد قال: -أراه عن سعيد بن المسيّب- قال:.. وذكره.

(١) قال الشيخ حسن -حفظه الله-: «فرئى الجماهير تهرع إلى القصّاص والوعاظ الذين يبنون خطبهم على القصص الواهية، وعلى المنهج المخلط الذي ليس فيه مفاصلة ومباينة بين الحق والباطل، والتوحيد والشرك، والسنة والبدعة، والفرقة الناجية والأحزاب المبتدعة؛ فيفرح الهمج الرعاع بهذا التخليط ويروّجون له، ثم يزهدون في مجالس العلماء الربانيين، ويسمونها بالجمود والتعقيد، وبالتالي يقل الحضور في هذه المجالس، والله المستعان».

(٢) قال الشيخ حسن -حفظه الله-: «ويذكرني هذا بطلب أحد كبار الدعاة من أصحاب المنهج المتأرجح

وهذا السلوك بلا شك مخالف لهدى السلف الصالح الذين كانوا يخشون على أنفسهم من كثرة الاتباع، وتأمل هذا الأثر:

قال ابن المبارك (٥٤) أخبرنا حيوة بن شريح قال: سمعت عقبة بن مسلم يقول: الحديث مع الرجل والرجلين والثلاثة والأربعة، فإذا عظمت الحلقة فأنصت أو انشز^(١). وانظر إلى عظيم فقه ابن عيينة، حيث قال ابن أبي حاتم في «آداب الشافعي» (ص ٢٠٦): ثنا الربيع بن سليمان قال: قال الشافعي: «قل لسفيان بن عيينة: إن قومًا يأتونك من أقطار الأرض، تغضب عليهم يوشك أن يذهبوا ويتركوك؟ قال: هم حمقى -إذن- مثلك: أن يتركوا ما ينفعهم؛ لسوء خلقي».

فلم يأبه ابن عيينة بغضب هؤلاء الأتباع عليه، لأنه ليس جماعاً بل رباناً مريباً.

ثالثاً: احتقار الشيخ لطلبته، واستصغاره لهم، واستكباره عن قبول الحق منهم:

وهذه الصورة من أبرز كواشف تعصب الشيخ لنفسه وتعظيمه لها، وقد أجاد الهيثمي في الزواجر (١١٩/١) في كشف حال هذه الصورة حيث قال: «ومن ثم جعل ﷺ من علامة الكبر بطر الحق أي رده، وغمط الناس: أي احتقارهم وازدراؤهم؛ ثم الحامل على التكبر هو اعتقاد كمال تميزه على الغير بعلم أو عمل أو نسب أو مال أو جمال أو جاه أو قوة أو كثرة أتباع، فالتكبر أسرع إلى العلماء الذين لم يمنحوا نور التوفيق منه إلى غيرهم؛ لأن الواحد منهم يرى غيره بالنسبة إليه كالبهيمة فيقصر في حقوقه التي طلبها الشارع منه كالسلام والعبادة والبشر، ويطلب منه أن لا يخل بشيء من حقوقه لمحبته الترفع عليه، وفاعل ذلك أجهل الجاهلين؛ لأنه جهل مقدار نفسه وربه، وخطر الخاتمة، وعكس الموضوع، إذ من شأن العلم أن يوجب مزيد الخوف والتواضع لعظم حجة الله عليه بالعلم وتقصيره في شكر نعمته، لكن سبب ذلك أن علمه إما يرجع إلى الدنيا، أو لأنه لم يخلص النية فيه فخاض فيه

من الداعين له إحضار جهاز رفع نبرة الصوت الذي يُسمى بـ(الساوند Sound)، وجعل هذا شرطاً لحضوره، وهذا حتى يكون صوته ذا تأثير قوي يخطف به قلوب السامعين ليصرفهم إلى باطله».

(١) أي: قم وارتفع عن المجلس.

على غير وجهه فأتج له تلك القبائح، وكذلك العلماء الذين ظهرت عليهم سيما الصالحين يسرع إليهم الكبر، لكن الناس يترددون إليهم بقضاء مآربهم والمبالغة في إكرامهم فيرون حينئذ أنهم أرفع وأحق بأن يكون الناس دونهم لعدم وصولهم إلى صور أعمالهم، وما دروا أن ذلك ربما يكون سبباً لسلبهم. اهـ

ولله در الإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة رحمته الله لما انتبه لهذا الداء الخطير الذي قد يُصاب به العالم أو المعلم قال في كتاب التوحيد (ص ١٤٠) الطبعة السلفية بتحقيق الأعظمي: «وقد أعلمت ما لا أحصي من مرة إني لا أستحل أن أموه على طلاب العلم بالاحتجاج بالخبر الواهي، وإني خائف من خالقي جل وعلا إذا مؤهت على طلاب العلم بالاحتجاج بالأخبار الواهيّة، وإن كانت الأخبار حجة لمذهبي». اهـ

وتأمل عظيم تواضع الشافعي رحمته الله فيما أخرجه ابن أبي حاتم في «آداب الشافعي» (ص ٩١) حيث قال: أخبرنا الربيع قال: سمعت الشافعي -ودخلت عليه، وهو مريض؛ فذكر ما وضع من كتبه، فقال-: لوددت أن الخلق تعلمه، ولم يُنسب إلي منه شيء أبداً.

وتأمل حكمة هذا الطالب في نصحه لشيخه في القصة التي أوردها ابن قيم الجوزية رحمته الله في الوجه الحادي والمائة من وجوه تفضيل العلم وبيان شرفه من كتابه «مفتاح دار السعادة»، حيث قال: «الحادي والمائة: أن سليمان عليه السلام لما توعد الهدهد بأن يعذبه عذاباً شديداً أو يذبحه إنما نجا منه بالعلم، وأقدم عليه في خطابه له بقوله: أحطت بما لم تحط به خبراً، وهذا الخطاب إنما جرّاه عليه العلم، وإلا فالهدهد مع ضعفه لا يتمكن من خطابه لسليمان مع قوته بمثل هذا الخطاب لولا سلطان العلم.

ومن هذا الحكاية المشهورة: أن بعض أهل العلم سئل عن مسألة فقال: لا أعلمها. فقال أحد تلامذته: أنا أعلم هذه المسألة.

فغضب الأستاذ وهمّ به، فقال له: أيها الأستاذ لست أعلم من سليمان بن داود ولو بلغت في العلم ما بلغت، ولست أنا أجهل من الهدهد، وقد قال لسليمان: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢]، فلم يعتب ولم يعتقه»^(١) اهـ

(١) تنقيح الإفادة من مفتاح دار السعادة (ص ٢٧٦).

قلت: وأحياناً يصاب المعلم بداء الحسد والحقد إذا رأى مَنْ يصغره سنّاً من طلابه قد سبقه في باب التصنيف والدعوة، أو صار له مكانة أعلى بين أهل العلم؛ فيدفعه هذا إلى تسفيهه والانتقاص من قدره تعصباً لنفسه، خاصة إذا كان هذا الحاسد قد بطء به عمله وعجز عن الثبات على مكانته بسبب وقوعه في هوى؛ فظن أن نسبه القديم عند أهل العلم سوف يسرع بعمله؛ ومن ثمّ تقدّم عليه فلان وعلان ممن كان هو أسبق منهم؛ ومثل هذا الداء سببه نقص في التوحيد؛ فقد أخرج البخاري في كتاب التوحيد من صحيحه، باب: في المشيئة والإرادة، وقول الله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾:

ثم قال برقم (٧٤٦٧): حدثنا الحكم بن نافع أخبرنا شعيب عن الزهري أخبرني سالم ابن عبد الله أن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو قائم على المنبر يقول: «إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، أُعطي أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار، ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أعطي أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا حتى صلاة العصر، ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أعطيت القرآن فعملتم به حتى غروب الشمس فأعطيت قيراطين قيراطين، قال أهل التوراة ربنا هؤلاء أقلّ عملاً وأكثر أجراً، قال: هل ظلمتكم من أجركم من شيء؟» قالوا: لا، فقال: فذلك فضلي أوتيته من أشياء.

قلت: فحال هذا المعلم يشبه حال هؤلاء من أصحاب التوراة، وأصحاب الإنجيل، وقد قال مقاتلهم نفسها بلسان حاله: فلان أصغر مني سنّاً، وقد نال في وقت وجيز ما لم أنله في عمري الطويل، فيرد عليه بما جاء في الحديث: «فذلك فضلي أوتيته من أشياء». وبهذا نفهم مقولة الشافعي: «وددت أن كل علم أعلمه تعلمه الناس: أوجر عليه، ولا يحسدوني»^(١).

ولو تواضع هذا الشيخ، وتحلى بآداب الربانيين من العلماء، لنفعه الله سبحانه بطلابه أكثر من انتفاعه بأبنائه الذين من صلبه، كما قال ابن جماعة في «تذكرة السامع» (ص ٦٣): «واعلم

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في آداب الشافعي (ص ٩٢) بإسناد صحيح.

أن الطالب الصالح أعود على العالم بخير الدنيا والآخرة من أعز الناس عليه وأقرب أهله إليه؛ ولذلك كان علماء السلف الناصحون لله ودينه يلقون شباك الاجتهاد لصيد طالب ينتفع الناس به في حياتهم ومن بعدهم، ولو لم يكن للعالم إلا طالب واحد ينتفع الناس بعلمه وعمله وهديه وإرشاده لكفاه ذلك الطالب عند الله تعالى، فإنه لا يصل شئ من علمه إلى أحد فينتفع به إلا كان له نصيب من الأجر كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له». اهـ

قلت: ولهذا تجد أن أهل العلم الذين لم يكن لهم تلاميذ ينقلون علمهم يخمد ذكرهم إلا قليلاً، فأهمية التلميذ المجتهد لشيخه لا تقل كثيراً عن أهمية الشيخ لتلميذه، ومن ثم جاءت الوصية بهم، فعن أبي سعيد الخدري أنه كان لما يأتيه طلاب العلم يقول: «كان رسول الله ﷺ يوصينا بكم، يعني طلبة الحديث»، وقد صححه العلامة الألباني رحمه الله لشواهده في الصحيحة (٢٨٠)، وبوّب عليه البيهقي في المدخل (٣٦٨/١) قائلاً: «تقريب الفتيان من طلاب العلم وترغيبهم في التعلم»، وبوّب الخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» باباً بعنوان: «تقريب الأحداث في سماع الحديث».

وعليه، فإنك إذا رأيت المعلم يبعد طلابه عنه، بل ويزدريهم ويحقّر من شأنهم، ويئد همهم في مهدها بحجة خشيته عليهم من التصدر المبكر^(١)، فاعلم أن هذا المعلم قد خالف سبيل السلف في هذا الشأن.

فقد كان مشايخ السلف لا يحتقرون طلبة العلم لكونهم أصغر منهم سناً، وأقل علماً، فقد قال البيهقي في المدخل إلى السنن (١٥٤/٢) أخبرنا أبو الحسين بن بشران ببغداد أبنا عمرو بن السماك ثنا حنبل بن إسحاق ثنا عفان بن مسلم ثنا جرير بن حازم قال سمعت عبد الله بن عبيد بن عمير قال: كان في هذا المكان خلف الكعبة حلقة فمر عمرو بن العاص

(١) قال الشيخ حسن - حفظه الله -: «ليس الأمر على إطلاقه في هذه الجزئية، بل كلُّ بحسبه، فإذا رأى الشيخ الطالب النابه، فإنه يتعهده ويدربه ويراجع كلامه وكتاباتة؛ حتى يطمئن إليه ثم يصدره لهذا الأمر العظيم؛ حتى يخلف أهل العلم بعضهم بعضاً».

يطوف، فلما قضى طوافه جاء إلى الحلقة فقال: مالي أراكم نحيتم هؤلاء الغلمان عن مجلسكم لا تفعلوا أوسعوا لهم وأدنونهم وأفهموهم الحديث، فإنهم اليوم صغار قوم ويوشكوا أن يكونوا كبار آخرين، قد كنا صغار قوم ثم أصبحنا كبار آخرين^(١).

وقال الدارمي في سننه (٥١١): أخبرنا إسماعيل بن أبان، ثنا مسعود، عن يونس بن عبد الله بن أبي فروه، عن شرحبيل بن سعد قال: دعا الحسن بنيه وبني أخيه فقال: يا بني وبني أخي إنكم صغار قوم يوشك أن تكونوا كبار آخرين فتعلموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يرويه -أو قال:- يحفظه، فليكتبه وليضعه في بيته^(٢).

وعن ابن وهب قال: أخبرني يحيى بن أيوب عن هشام بن عروة قال: كان أبي يقول: إنا كنا أصاغر قوم ثم نحن اليوم كبار، وإنكم اليوم أصاغر ستكونون كباراً، فتعلموا العلم تسودوا به قومكم ويحتاجوا إليكم، فوالله ما يسألني الناس حتى لقد نسيت^(٣).

(١) وأخرجه ابن سعد في الطبقات (١٩٣/٤) قال: حدثنا عفان بن مسلم... به مطوّلًا، وهذا إسناد صحيح، وأخرجه الخطيب في شرف أصحاب الحديث (ص ٦٥) من طريق ابن المبارك عن جرير به مختصرًا.

(٢) إسناده إلى شرحبيل حسن، وشرحبيل ضعّفه ابن معين والنسائي والدارقطني، ولّيّه أبو زرعة وابن عدي. والأثر أخرجه أيضًا البيهقي في المدخل إلى السنن (٦٣٢)، والخطيب في تقييد العلم (ص ٩١)، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٥٩/١٣) من طريق مسعود به.

وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٤٠٧/٨) بإسقاط شرحبيل. وأخرجه الإمام أحمد في «العلل ومعرفة الرجال» (٤١٧/٢) قال حدثنا مطلب بن زياد قال: حدثنا محمد بن أبان قال: قال الحسن بن علي... وذكره، وأخرجه الخطيب في الكفاية (ص ٢٢٩)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٥٩/١٣) من طريق أحمد به.

وأخرجه الخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق (٥٥٤/٢)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٥٩/١٣) من طريق أبي غسان مالك بن إسماعيل عن الحسن به، وهذا منقطع.

(٣) أخرجه يعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (٥٥١/١)، والبيهقي في المدخل (٦٣٣)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (٩٠/٢) من طريق ابن وهب به، وإسناده صحيح.

وأخرجه الدارمي في سننه (٥٥٢) من طريق أنس بن عياض، عن هشام بن عروة، عن أبيه أنه كان يجمع بنيه فيقول: يا بني تعلموا فإن تكونوا صغار قوم فعسى أن تكونوا كبار آخرين، وما أقبح على شيخ يسأل ليس عنده علم.

وأخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل (ص ١٩٤) من طريق عفان عن حماد بن زيد عن هشام ابن عروة عن أبيه بنحوه، وزاد فيه: «فما خير في كبير ولا علم له، فعليكم بالسنة».

وعن يوسف بن الماجشون قال: قال لنا ابن شهاب: أنا وابن أخي، وابن عم لي، ونحن غلمان نسأله عن الحديث لا تحقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم فإن عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - كان إذا نزل به الأمر المعضل دعا الشبان فاستشارهم يبتغي حدة عقولهم^(١).

وعن يزيد بن أبي حبيب قال: كان الحسن يقول: قدموا إلينا أحداثكم، فإنهم أفرغ قلوبا وأحفظ لما سمعوا فمن أراد الله عز وجل أن يتم ذلك له أتمه^(٢).

وعن يزيد بن مهران أبو خالد قال: ثنا أبو بكر بن عياش قال: كنا عند الأعمش ونحن حوله نكتب الحديث فمر به رجل فقال: يا أبا محمد ما هؤلاء الصبيان حولك؟ قال: هؤلاء الذين يحفظون عليك دينك^(٣).

وعن يحيى بن أبي طالب حدثني بعض البصريين قال: مر رجل بحماد بن سلمة وحوله صبيان فقال: يا أبا سلمة ما هذا؟ قال: هؤلاء الذين يحفظون عليك أمر دينك^(٤).

وعلقه المزي في تهذيب الكمال (١٧/٢٠)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٤/٤٢٤) كلاهما في ترجمة عروة، عن المبارك بن فضالة عن هشام بنحوه، وزاد فيه: «وما خير الشيخ يكون شيخاً، وهو جاهل لقد رأيتني قبل موت عائشة بأربع حجج أو خمس حجج، وأنا أقول لو ماتت اليوم ما ندمت على حديث عندها إلا وقد وعيته، ولقد كان يبلغني عن الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ الحديث، فأتيه فأجده قد قال فأجلس على بابه فأسأله عنه».

(١) أخرجه البيهقي في المدخل (٦٣٤)، وفي الكبرى (١٠/١١٣)، وأبو نعيم في الحلية (٣/٣٦٤)، والخليلي في الإرشاد (١/٣٠٩) من طريق الماجشون به، وهو صحيح عن الزهري.

(٢) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل (ص ١٩٢).

(٣) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل (ص ١٩٣)، وإسناده صحيح.

وأخرجه ابن أبي الدنيا في العيال (٦٠٢) قال: حدثنا يوسف بن موسى قال: سمعت بعض أصحابنا يقول: مروا على الأعمش وحوله فتیان.. وذكره بنحوه.

وأخرجه الخطيب في شرف أصحاب الحديث (١٢٥) من طريق أبي أمية الحراني عن مسكين بن بكير بنحوه.

(٤) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل (ص ١٩٣).

وأخرجه ابن أبي الدنيا في العيال (٦٠٢) عن حميد الطويل قال: مر قوم على حماد بن سلمة وحوله فتیان فقالوا: انظروا إلى حماد قد جمع حوله الصبيان، فقال ردوهم فلما أتوه قال: إني رأيت البارحة كأنني أسقي فسيلاً فأولت هؤلاء الصبيان.

وقال الراهمزمي في «المحدث الفاصل» (ص ١٩٤): حدثنا عبد الله بن أحمد بن معدان، ثنا سعيد بن رحمة الأصبحي قال: كنت أسبق إلى حلقة عبد الله بن المبارك بليل مع أقراني لا يسبقني أحد، ويجيء هو مع الأشياخ فقليل له: قد غلبنا عليك هؤلاء الصبيان، فقال: هؤلاء أرجى عندي منكم، أنتم كم تعيشون؟ وهؤلاء عسى الله أن يبلغ بهم، قال: قال سعيد: فما بقي أحد غيري.

وعن الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء أنه: كان يجمع غلمان المكاتب، ويحدثهم لكيلا ينسى حديثه^(١).

وأخرج الخطيب في شرف أصحاب الحديث (١٢٨-١٣٠) بإسناد صحيح عن عبد الله بن داود أنه قال: «ينبغي للرجل أن يكره ولده على سماع الحديث».

وأخرج أيضاً برقم (٨٧) بإسناد صحيح عن حمزة بن سعيد المروزي أنه قال: رأيت أبا بكر بن عيَّاش يضرب ساعد يحيى بن آدم فقال: ما قوم خير من أصحاب الحديث، إن أحدهم ليسألني عن الحديث كذا وكذا مرة، ولو شاء لقال حدثني أبو بكر بن عيَّاش.

قلت: فانظر إلى تحفيز أبي بكر بن عيَّاش لطلبته، وتثبيته لهم بهذه الكلمات التي ترفع همتهم لتحصيل الحديث والأثر.

وقال ابن أبي حاتم في «آداب الشافعي» (ص ١٢٧) حدثنا الربيع بن سليمان المرادي قال: كتب إلي أبو يعقوب البويطي -وهو في المطيق- يسألني أن أصير نفسي للغرباء -مِمَّنْ يسمع كتب الشافعي- ويسألني أن أحسن خُلُقِي لأصحابنا الذين في الحلقة، والاحتمال منهم، ويقول: لم أزل أسمع الشافعي كثيراً يردد هذا البيت:

أهين لهم نفسي لكي يكرمونها ولن تكرم النفس التي لا تُهينها

وقال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٩/٤) في ترجمة سعيد بن جبير: نا محمد بن الحسين بن أشكاب، نا وهب بن جرير، نا شعبة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس

(١) أخرجه الراهمزمي في المحدث الفاصل (ص ١٩٥).

أنه قال لابن جبیر: حدّث، قال: أحدث وأنت شاهد، قال: أو ليس من نعمة الله عزّ وجلّ عليك أن تحدث وأنا شاهد فإن أخطأت علمتُك.

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس^(١)، وهكذا يخالف هذا الشيخ المتعصّب لنفسه هدي ابن عباس هذا، حيث إنه يمنع طلبته من التحدث في بلدته أو في مسجده على عينه، خوفاً من أن يسلبوا مكانه، وإذا أخطؤوا وبخهم وأبعدهم ولم يعلمهم.

وليكن ذاك الشيخ على ذكرى من نصيحة الإمام أبي نصر السجزي رحمه الله التي ذكرها في رسالته إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت (ص ٢٢٠) حيث قال: «فالمبتع للأثر يجب تقديمه وإكرامه، وإن كان صغير السنّ غير نسيب، والمخالف له يلزم اجتنابه، وإن كان مُسنّاً شريفاً»^(٢).

وانظر إلى صبر الحافظ ابن حجر على طلبته، فيما نقله شمس الدين السخاوي رحمه الله في «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» (١٠١٨/٣) حيث قال: «وأما صبره على الطلبة، فشيء لا يُدرّك وصفه، حتى أنه مكث في مرض موته مدة، وهو لا يعلم بعض

(١) وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٦/٢٥٧)، والبيهقي في المدخل (٦٣٥).

(٢) وقال القاضي عياض في الإلماع (ص ٢٠٠) في استنكاره استحسان أبي محمد بن خلاد الرامهرمي سن الخمسين أو الأربعين كحدّ لتصدر المحدث للتحديث والإسماع: «واستحسانه هذا لا يقوم له حجة بما قال، وكم من السلف المتقدمين ومن بعدهم من المحدثين من لم ينته إلى هذا السن -أي الخمسين- ولا استوفى هذا العمر، ومات قبله وقد نشر من الحديث والعلم ما لا يحصى؛ هذا عمر بن عبد العزيز توفي ولم يكمل الأربعين، وسعيد بن جبیر لم يبلغ الخمسين، وكذلك إبراهيم التخعي، وهذا مالك بن أنس قد جلس للناس ابن نيف وعشرين، وقيل: ابن سبع عشرة سنة، والناس متوافرون، وشيوخه أحياء: ربيعة، وابن شهاب، وابن هرمز، ونافع، ومحمد بن المنكدر، وغيرهم... وكذلك محمد بن إدريس الشافعي قد أخذ عنه العلم في سنّ الحداثة، وانتصب لذلك، في آخرين من أئمة المتقدمين والمتأخرين، وقد أنشد بعض البغداديين:

إن الحداثة لا تقصّر ————— ربالفتى المرزوق ذهناً

لكن تذكى قلبه ————— فيفوق أكبر منه سنّاً

وقال ابن عبد البر في الجامع (١/٨٥):

إذا ما المرء لم يولد ليبيّاً ————— فليس بنافع قدم الولادة

مَنْ يقرأ عليه ليلاً بذلك، مراعاة لخاطره، وهو يتحمل المشقة إلى أن أعى، فأعلمه بلطف» اهـ

قلت: وفي الطرف النقيض، هناك طائفة من الشيوخ الأفاضل قد يُفرط أحدهم، ويُغالي في تعظيم طلبته، بصورة تجعل الطالب يتعاضم في نفسه، ويستعلي على أقرانه، بل قد يستعلي على بعض مشايخه الآخرين.

ففي الوقت الذي يثبط فيه الشيخ المتعصب لنفسه طلابه، ويُحقّر من شأنهم، ويزدري جهودهم، ينفخ ذاك الشيخ الآخر في طلابه، ويرفعهم فوق منازلهم التي يستحقونها، ويحفّزهم على خوض غمار التصنيف والتدريس ومزاحمة الأكابر بغير أهلية ولا تحصيل كافٍ، ممّا يصدّ هذا الطالب عن سلوك الطريق التصاعدي في تحصيله للعلم، حيث إنه ظنّ ظناً خاطئاً أنه قد اجتاز عدة درجات في صعوده إلى المراتب العليا في العلم؛ لأن الشيخ رسّخ في نفسه هذا الظنّ الباطل، ولا يدري هذا المسكين أنه قد قفز في الهواء، وتعلّق بقشة ممّا خيل إليه أنه ارتقى السلم، ولكن هيهات فسرعان ما تضعف قواه عن الاستمسك بهذه القشة، فإذا به يسقط هاوياً في دركة أسفل من الدرجة التي بدأ منها قبل أن ينتفخ ويقفز طائراً بغير جناحين، إلا أن يتداركه الله برحمته.

والوسطية في التعامل مع الطالب أنه يحتاج إلى تحفيز دون أن يرفع فوق المرتبة التي يستحقها، ويحتاج إلى تقوية عوده، ووضعه على أرض راسخة حتى لا يتذبذب قبل أن يتحصّر.

ويحتاج أيضاً إلى رفق ولين أحياناً، وإلى الشدة معه أحياناً أخرى فلا يتعارض الصبر على الطالب والرفق به، مع الشدة أحياناً عليه تنبيهاً له إلى خطورة فعل ما، مثلما صنع بهلول بن راشد مع سحنون وغيره من طلبته، فقال أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي في «رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية» (٢٠٤/١) في ترجمة (بهلول بن راشد الحَجْرِي الرعيني): «عن أبي عثمان قال سمعت أبي يقول: مررت بسقيفة العراقي وهم يتناظرون في الاعتزال، فوقفت أسمع منهم مناظرتهم، فبلغ ذلك البهلول، فلما جئته قال: يا

محمد، بلغني أنك مررت بسقيفة العراقي فوقفت تسمع إلى مثل هذا، فلا تقربني، وأغلظ عليّ.

قال سحنون: ولقد أتيت يوماً إلى البهلول فوافاني رجل من أهل الأهواء على بابه، وسألني عن الشيخ، فما رددت عليه جواباً، والشيخ يسمع ذلك، فلما دخلت على الشيخ سلمت عليه، فلم يرد عليّ السلام، وأعرض عني، فلما خرج الناس من عنده تقدمت إليه، فجنثت على ركبتي بين يديه، فقلت له: ما خبري وما قصتي؟ فقال: يسلم عليك رجل من أهل الأهواء، ويسألك عني! فقلت له: والله ما رددت عليه جواباً، فقام لي عند ذلك وقال لي: مرحباً وأهلاً، وسلّم عليّ وقال لي: إن هذا الذي أمرتك به تعرف به الحق من الباطل^(١) اهـ.

وقال أحمد بن أمين الشنقيطي في «الوسيط في تراجم أدياء شنقيط» (ص ٥١٩-٥٢٠) تحت عنوان: «تأديب المدرس - أي: في شنقيط - للطلبة»: «إذا بلغ الشيخ أن أحد التلاميذ أساء، فإنه يعاتبه برفق، بأن لا يلتفت إليه؛ حتى يعلم التلميذ ذلك من حاله، وكان العلامة محمد فال بن أحمد فال التندغي، تجتمع عنده الطلبة من الزوايا ومن قومه، فإذا بلغه عن أحدهم قولاً لا يليق، تركهم حتى يجتمعوا عنده، فيقول:

وقول ما لا ينبغي لا ينبغي لتندغ ولا لغير تندغ

فإذا كان الذي بلغه فعل قال:

وفعل ما لا ينبغي لا ينبغي لتندغ ولا لغير تندغ

وكان رسول الله ﷺ يفعل ذلك على جهة التعميم، فيقول: ما بال أقوام يفعلون كذا، أو يقولون كذا، وما بال أقوام يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله، وهذا النوع أردع للناس، فليت أن علماء الأزهر فعلوا مثله، وتركوا عنهم: يا ابن الفاعلة، أو يا ابن الكلب، أو يا حمار، فإن هذه الألفاظ تذهب هيبة الشيخ من قلب الطالب^١ اهـ.

(١) قال الشيخ حسن - حفظه الله -: «ولله در أهل العلم من السلف في تحذيرهم من مخالطة الحزبيين وأهل الأهواء، فإنهم كالمرض يخشى اللبيب على نفسه من العدوى منهم، ويرد بهذا على من يدعو إلى مخالطة أهل الأهواء والبدع للأخذ من محاسنهم».

قلت: وقد ورد عن السلف ومن تبعهم بإحسان: الحث لطالب العلم على الاجتهاد في طلب العلم، وأن لا يضيع نفسه إذا وجد فيها الهمة والإقبال على طلب العلم، ومن هذا ما علّقه البخاري في كتاب العلم من صحيحه -بصيغة الجزم- عن ربيعة الرأي أنه قال: «لا ينبغي لأحد عنده شيء من العلم أن يضيع نفسه».

قال الحافظ في الفتح (٢١٤/١-ريان): «ومراد ربيعة أن أن من كان فيه فهم وقابلية للعلم لا ينبغي له أن يهمل نفسه فيترك الاشتغال، لئلا يؤدي ذلك إلى رفع العلم». اهـ
وقال العلامة مقبل بن هادي رحمته الله كما في إجابة السائل (ص ٥٦٥): «ثم بعد ذلك نحن ننصح أخانا في الله للإقبال على طلب العلم وأن لا يبقى عالة على فلان ولا على فلان وينبغي أن تحدثه نفسه أن يكون إن شاء الله أعلم من الشيخ ناصر وأعلم من فلان وفلان^(١)، فإن لم تحدثه نفسه أن يكون أعلم فلتحدثه نفسه أن يكون مشاركاً له في طلب العلم ويأخذ من حيث أخذ العلم فإننا نحن الآن ننقل من كلام أهل العلم ومن كتب أهل العلم حتى إن كتبني لو أعطيت كل كلمة جناحاً وطارت إلى موضعها لبقيت الصفحات بيضاء ننقل من كلام أهل العلم والحمد لله». اهـ

وقال إمام الجرح والتعديل العلامة ربيع بن هادي -حفظه الله- في إجابة على سؤال وجه إليه عن طلب العلم (شريط أسئلة وأجوبة وجه أ): «تحتاج الأمة إلى مُجدِّدين^(٢)، فمن يأنس من نفسه الذكاء والفهم والوعي فعليه أن يُجند نفسه ليتسلم رتبة الراسخين في العلم المجتهدين المجاهدين الذين يبلغون رسالات الله ولا يخافون في الله لومة لائم».

فإن العلماء هو ورثة الرسل ولا يستحق رتبة الورثة إلا من سلك مسلكهم: الدعوة إلى الله -إلى توحيد الله، إلى إخلاص الدين لله، إلى محاربة الرذائل والمعاصي والبدع- كما هو

(١) قال الشيخ حسن -حفظه الله-: «هذا من باب الطموحات المحمودة، لكن دون تحد للجهاذة الأكابر، ومن غير أن يخس فضلهم».

(٢) أي: تجديد تذكرة الأمة بمنهج سلفها الصالح، وبث العلم الصحيح فيها، وليس التجديد بمعنى الدعوة إلى البدع المحدثات التي لم يستنها الرسول ﷺ تحت مسمى «تجديد الخطاب الديني»، أو تحت دعوى التطور والارتقاء زعموا!!!

شأن المصلحين في كل زمان ومكان، فنحن لا نحتاج إلى تحصيل علم فقط ثم نركد ونجمد ونموت ونهبط بالأمة، فالعلماء يذهبون بالأمة ينفخون فيها روح الحياة يذهبون بها من طريقة التقليد الأعمى في العقيدة والعبادات والشرعية^(١).

أعيد مرة أخرى لا يتصدر للاجتهاد كل من هبَّ ودبَّ، وإنما الأكفاء الذين يتمتعون بالموهب والطاقات والعلم الواسع الذي يؤهلهم لهذه المرتبة والمنزلة الرفيعة في العلم، فليدرك كل واحد من شباب الأمة أن الأمة الآن بأئس الحاجة إلى هذه النوعيات الطيبة المباركة، فمن أنس من نفسه بقدرة تخدم الإسلام فليجند نفسه للعلم، وليتخفف من أعباء الدنيا والمشغل، ويسخر أعبائه وطاقاته كلها في تحصيل العلم والدعوة إلى الله تبارك وتعالى على طريقة الرسل والمصلحين أسأل الله أن يهيء ذلك» اهـ.

وتأمل هذه النصيحة الشاحذة لهمم طلبة العلم من العالم الرباني: عبد المحسن العباد حيث قال -سلمه الله-:

«أوصي طلبة العلم أن يشكروا الله عز وجل على توفيقه لهم؛ إذ جعلهم من طلابه، وأن يعنوا بالإخلاص في طلبه، ويبدلوا النفس والنفس لتحصيله، وأن يحفظوا الأوقات في الاشتغال به؛ فإن العلم لا ينال بالأمانى والإخلاق إلى الكسل والخمول، وقد قال يحيى بن أبي كثير اليمامي: «لا يستطيع العلم براحة الجسم»، رواه مسلم في صحيحه بإسناده إليه في أثناء إيراد أحاديث أوقات الصلاة...» اهـ.

قلت: وليس المقصود بهذا الحث والتحفيز هو دعوة الشباب المبتدئين من طلبة العلم إلى التصدر المبكر دون أن يضبطوا المسائل ويتقنوا الأصول، بل لا ينبغي أن يتصدر طالب العلم إلا بعد أن يكون قد ضبط أصول العلم من عقيدة وفقه وحديث ولغة، التي تؤهله للتصدر للتدريس والتأليف، وإن كان في بلد يخلو من العلماء فليرحل إلى العلماء في غير بلده وليجالسهم ويعرض علمه عليهم.

لكن المقصود أن سيرة العلماء الربانيين مع طلاب العلم جرت بتحفيز الطلاب على

(١) إلى طريق الهداية والرشد ملتزمين بالكتاب والسنة بفقه سلف الأمة.

الترقي في مدارج العلم، مع استنفار طاقاتهم لتحصيل مزيد من العلم مع إصلاح أخطائهم بالنصح والتوجيه، وتقديم يد العون لهم، ومدّهم بالمساعدات اللازمة لهم في طلب العلم. ومن أكابر العلماء في عصرنا الذين كانوا هم القدوة والأسوة في هذا الشأن:

سماحة العلامة عبد العزيز بن باز رحمته الله، كما قال الشيخ العلامة عبد المحسن العباد رحمته الله في محاضراته «الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز - نموذج من الرعيل الأول» (ص ١٥): «وكان حريصاً على مساعدة المحتاجين، وتعمير المساجد في داخل المملكة وخارجها، وفي مكتبه الخاص في بيته سجلات بأشخاص وبعجبات مختلفة يتلقون المساعدات، سواء كانوا من الفقراء أو من الدعاة في داخل المملكة وخارجها» اهـ.

وليك نموذج رفيع عن علاقة الأستاذ بتلميذه، وهو ما نقله صاحب كتاب «الإنجاز في ترجمة الإمام عبد العزيز بن باز» (ص ٢٦٤) حيث قال: «كان سماعته رحمته الله محباً ومجلاً ومقدراً لتلميذه الشيخ محمد بن عثيمين، يلقبه بسماحة الشيخ والعلامة وغيرها من ألقاب التكريم والعظيم، وله وقفات صادقة معه تنبئ عن عظيم إجلال وكبير تقدير... وقال له مرة: أود أن تكون فتوانا واحدة، وألاً نختلف قدر الإمكان^(١)، وإذا اختلف معه في مسألة قدر له سماحة الشيخ رحمته الله رأيه واجتهاده» اهـ.

والعلامة محمد صالح العثيمين رحمته الله، حيث قال خالد بن صالح النزال: «كان رحمته الله يبذل المكافأة الشهرية لطلابه في السكن، وكانت أعدادهم كبيرة؛ عوناً لهم على طلب العلم، وكان لا يتوانى عن الشفاعة لمن يستحقها، فكان يبذل جأه بكل ما يستطيع عند المسئولين وأولياء الأمر.

قدمت إلى عُنيزة طالباً للعلم عنده في سنة (١٤١١هـ)، وكنت في السنة الأولى من الثانوية في المعهد العلمي في عنيزة، وكان عمري آنذاك ست عشرة سنة، ضمن مجموعة من الطلاب... وكان يهتم بنا اهتماماً شديداً، وذلك لصغر سننا في تلك الفترة؛ حتى كان

(١) قال الشيخ حسن - حفظه الله -: «نعم، قدر الإمكان وليس على الإطلاق فإن علماء السلف اختلفت فتياهم في بعض الأمور بعيداً عن الأصول التي هي ثوابت؛ وكلّ يتوج كلامه بالأدلة من الكتاب والسنة».

يوقع أحياناً على التقرير الشهري الدراسي في المعهد العلمي بدلاً من أولياء أمورنا، وكان يتفقد أحوالنا ويسأل عن أمورنا، ويحرص أشد الحرص على توفير ما يساعدنا على طلب العلم؛ حتى أنه وفر لنا سيارة توصلنا إلى المعهد العلمي في فترة من الفترات، لم نكن نجد فيها سيارة^(١) اهـ.

والعلامة عبد الرحمن بن يوسف الإفريقي رحمته الله، حيث قال الشيخ عطية محمد سالم في كتابه «من علماء الحرمين» في ترجمته للإفريقي (ص ٣٧٥): «كان لبعض كبار الطلاب جلسة علم في بيته، فأذهب معهم لزيارته؛ فوجدته رحمته الله في المسجد وفي المدرسة وفي بيته المعلم المربي الموجه الذي يحث دائماً وفي كل مناسبة على الجد والاجتهاد في طلب العلم؛ ولكأن جميع الطلاب له، وعنده كأعز أولاده عنده» اهـ.

والعلامة المحدث حماد بن محمد الأنصاري رحمته الله، حيث قال الوليد بن محمد العلي -من تلامذته-^(٢): «وقد كان شيخنا رحمته الله ممتلكاً لمكتبة علمية زاخرة بشتى العلوم الشرعية الفاخرة، وكان يستقبل أبناء الطلاب في كل يوم الصباح الباكر حتى صلاة الظهر، ومن بعد صلاة العصر حتى صلاة العشاء.

وكان شيخنا رحمته الله خلال هذه الفترة الطويلة متوسطاً لمكتبته العامرة منهمكاً في القراءة والمطالعة، لا يكاد يرفع رأسه من كتابه، يجيب سؤال العي، ويفتي المستفتي، يقصده العلماء والوجهاء وطلبة العلم من شتى أنحاء المعمورة» اهـ.

والعلامة عبد الرزاق عفيفي رحمته الله، حيث قال راشد بن عثمان الزهراني في «إتحاف النبلاء بسير العلماء» في ترجمة الشيخ عبد الرزاق (٣٠/٢): «كان للشيخ رحمته الله عناية فائقة بطلبته، سواء كان في فترة وجوده في مصر، أو في السعودية، وكان رحمته الله يقول: «همي أن أربي طلاب علم ينفع الله بهم الإسلام والمسلمين» اهـ.

والعلامة محمد أمان الجامي رحمته الله، حيث قال في الثناء عليه تلميذه الشيخ محمد

(١) جريدة الرياض عدد (١١٨٩٣)، كما في صفحات مشرقة من حياة الإمام ابن عثيمين (ص ٦).
(٢) كما في المجموع في ترجمة العلامة المحدث حماد الأنصاري -رحمه الله- لولده عبد الأول (١٣١/١).

حمود الوائلي -وكيل الدراسات العليا والبحث العلمي في الجامعة الإسلامية-^(١): «كان رحمته الله من بين عدد من المشايخ الذين يولون طلابهم عناية خاصة لا تقف عند حدّ علاقة المدرس بتلميذه في الفصل، وكان في عامة دروسه يعنى عناية عظيمة بعقيدة السلف الصالح -رضي الله عنهم-...» اهـ.

فهؤلاء العلماء -رحمهم الله- فتحوا بيوتهم وبذلوا أوقاتهم لطلبة العلم حتى ربوا جيلاً صالحاً من الطلاب النابهين الذين عمّ نفعهم البلاد والعباد.

وقد سار على سننهم شيخنا العلامة ربيع بن هادي -أعزه الله- الذي يكتنف طلابه بعظيم الرعاية وصالح التوجيه حتى يقوى عودهم وتزهو ثمرتهم، ومن ثمّ يصيرون هم حملة الحق فيما بعد.

وصار بيته الآن في منطقة العوالي بمكة -كرمها الله- قبلة لطلاب العلم يأتون إليه من شتى أنحاء العالم للاستفادة من علم الشيخ، وقد فتح بيته لهم، وبذل وقته لإفادتهم.

ولولا هذا السبيل السلفي الحميد في التعامل مع طلاب العلم لما خلف العلماء غيرهم بعد موتهم، ولا انقرض العلم وزال بموت حامله.

و أذكر للعبارة ثلاثة مواقف حدثت لي مع شيخنا العلامة ربيع -سلمه الله- والتي تثبت هذا المسلك الحميد:

الموقف الأول: في أحد المجالس التي رزقني فيها الله سبحانه الانفراد بشيخنا -بارك الله في عمره-، أتى الشيخ ربيع -سلمه الله- بكتاب السنة للمروزي بتحقيقي، وأخذ يقلب صفحاته حتى وصل إلى حديث أبي ثعلبة الخشني أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]. فقال له: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر فإذا رأيتم شحاً مطاعاً وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة...»، وقد جاء الحديث من طريق عتبة بن أبي حكيم عن عمرو بن جارية عن أبي أمية الشعباني عن أبي ثعلبة، فأمعن الشيخ في قراءة تخريجي على الحديث حتى وصل إلى بحثي حول عتبة بن

(١) كما في ترجمة فضيلة العلامة السلفي محمد أمان الجامي -رحمه الله-: إعداد مكتبة الفرقان.

أبي حكيم، وقد ذكرت لابن معين ثلاث روايات فيه: الأولى قال: ثقة، والثانية قال: ضعيف الحديث، والثالثة قال: والله الذي لا إله إلا هو إنه لمنكر الحديث، فعقبت قائلاً: وهذه الثالثة تعد من باب الجرح المفسر الشديد؛ فقال الشيخ ربيع: جيد أحسنت.

ثم جاء الشيخ إلى قولي في أبي أمية الشعباني: «ذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٣١٤/٩) بدون جرح ولا تعديل، وهذا يعد توثيقاً له اعتباراً لشرط ابن أبي حاتم الذي ذكره في مقدمته (١/٩) بالنسبة للتابعين...» اهـ.

فقال الشيخ -أحسن الله إليه-: لي ملاحظة على هذه القاعدة، فقلت: الظاهر من كلام ابن أبي حاتم أنه يشير إلى هذا، فطلب مني الشيخ أن أحضر مقدمة ابن أبي حاتم، ثم أذن للعصر فقال لي الشيخ: نتم البحث في وقت لاحق.

وفي مجلس تال، أتيت للشيخ بالمقدمة وقرأت عليه موضع الشاهد، فقال لي -سلمه الله-: هذا الكلام ينطبق على كبار التابعين المعروفين بالعلم، فهؤلاء إذا ذكر ابن أبي حاتم أحدهم بغير جرح أو تعديل، ولم يأت فيه تجريح في موضع آخر، فالأصل فيه أنه ثقة، أما المجاهيل -أمثال هذا الراوي: أبو أمية -فلا يكفي في توثيقهم سكوت ابن أبي حاتم عنهم، ثم استطرد الشيخ قائلاً: وقد كان الشيخ أحمد شاكر -غفر الله له -يقول بما قلت به لكن كان شرطه أوسع فلم يخص طبقة التابعين بل كان يوثق كل من ذكره ابن أبي حاتم بغير جرح أو تعديل في أي طبقة كان؛ فشكرت الشيخ -أعزه الله- على هذه الفائدة الجليلة.

والشاهد من هذه الواقعة بيان هذا الأسلوب الرفيق الحكيم من شيخنا في إصلاح خطأ علمي لأحد الطلاب، فلم يزرجه ولم يوبخه، بل ناقشه بالدليل والبرهان حتى رده إلى الحق، خاصة وأن المسألة دقيقة وقد اختلفت فيها أنظار الجهابذة أمثال العلامة أحمد شاكر.

والموقف الثاني: أعطيت للشيخ -سلمه الله- بحثاً لي بعنوان: «السمو في عقيدة العلو» رجاء أن يراجعه الشيخ، ثم مرت أيام وسافرت المدينة، وكان ذلك في أول أسبوع من شوال من عام (١٤٢٥هـ)، ونسيت أمر البحث وقد فقدت الأمل في قيام الشيخ بمراجعته

حيث إن الشيخ في مثل هذه الأيام يكون وقته كله مشحونًا بالزيارات؛ ولما عدت من المدينة، فوجئت بالشيخ -حفظه الله- يناديني وقد أمسك البحث في يده قائلاً لي: يا أخي لقد أتعبتني، هذا البحث قد امتلأ بالأخطاء الإملائية؛ فشعرت بخجل شديد، وتذكرت أن أحد إخواني قد صفه لي سريعاً على الحاسب الآلي، ولم يتيسر لي وقتاً كافياً لمراجعة عمله لضيق الوقت قبل السفر، ولم أنتبه إلى وقوع هذه الأخطاء الإملائية.

الشاهد أن الشيخ قد قرأ ما يقرب من نصف البحث رغم هذه الأخطاء الإملائية، ورغم انشغال الشيخ الشديد؛ فأثر في جداً هذا الاعتناء من الشيخ، واعتذرت للشيخ، وقد أثنى الشيخ -أحسن الله إليه- على الكتاب، بعد أن نهني إلى بعض الملحوظات، وحثني على القيام بتدريسه.

وأخيراً الموقف الثالث: كان الشيخ دائماً حريصاً على إمداد طلابه بما تيسر من كتب تعينهم على طلب العلم، وقد أهداني الشيخ -جزاه الله خيراً- عدة كتب منها رسالتيه للماجستير والدكتوراة، وهما: معرفة علوم الحديث للحاكم، والنكت للحافظ ابن حجر. وفي العام قبل الماضي (١٤٢٣هـ) قام الشيخ -أحسن الله إليه- بكتابة خطاب موجه إلى معالي وزير الشؤون الإسلامية الشيخ صالح آل الشيخ -حفظه الله- يشفع لي عنده في أن يقوم معاليه بإمدادي بما أحتاج إليه من كتب ومراجع تعينني على البحث وهذا طبقاً لما تسير عليه وزارة الشؤون هناك من إمداد طلاب العلم بالكتب إذا زكاهم أحد أهل العلم المعترين عند الوزارة، وهذا نص الرسالة التي كتبها الشيخ -أعزه الله-:

بسم الله الرحمن الرحيم

معالي وزير الشؤون الإسلامية -وفقه الله وسدد خطاه-.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

أما بعد، فإن صاحب هذا الخطاب: خالد بن محمد فهمي المصري من المحبين للعلم والبحث، ومن المشتغلين بتحقيق الكتب السلفية وهو بحاجة ماسة إلى المراجع التي يستدعيها البحث والتحقيق لأمثاله.

أرجو من معاليكم مساعدته بما يعينه من الكتب بعد الله على إنجاز أعماله وإحسانها على الوجه المطلوب.

وفقكم الله وسدد خطاكم...

كتبه

ربيع بن هادي المدخلي

في ١٤٢٣/١٠/٥٧ هـ

وكان الشيخ ربيع -نفعا الله بعلمه- دائماً يحثني على محاولة الاجتهاد وينهاني عن التقليد، فأذكر أنه في أحد الأبحاث التي عرضتها على فضيلته احتججت بحديث: «أُطَّت السماء وحُق لها أن تنط، ما من موضع أربع أصابع إلا فيها ملك ساجد...»، وذكرت تحسين العلامة الألباني رحمته الله له، فقال لي الشيخ: هل بحث الحديث بنفسك؟ فأجبت الشيخ: لا، بل اعتمدت على تحسين العلامة الألباني له، فقال الشيخ: لا ينبغي على الباحث الذي عنده قدرة على البحث أن يُقلد غيره من أهل العلم بل عليه أن يبحث بنفسه حتى يصل إلى الصواب.

قلت: وهكذا كان الشيخ ربيع دائماً يزرع فينا حب البحث والتحري عن الصواب، ونبذ التعصُّب والتقليد.

رابعاً: استنكاف الشيخ عن الاستفادة من التلميذ ومن المفضل:

قال ابن جماعة في تذكرة السامع والمتكلم (ص ٢٩) في خلال تعداده لأدب العالم: «أن لا يستنكف أن يستفيد ما لا يعلمه ممن هو دونه منصباً أو نسباً أو سناً بل يكون حريصاً على الفائدة حيث كانت، والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها؛ قال سعيد بن جبير: لا يزال الرجل عالماً ما تعلم، فإذا ترك التعلم وظن أنه قد استغنى واكتفى بما عنده فهو أجهل ما يكون، وأنشد بعض العرب:

وليس العمى طول السؤال وإنما تمام العمى طول السكوت على جهل

وكان جماعة من السلف يستفيدون من طلبتهم ما ليس عندهم، قال الحميدي -وهو تلميذ الشافعي-: صحبت الشافعي من مكة إلى مصر فكنت أستفيد منه المسائل ويستفيد مني الحديث^(١).

وقال أحمد بن حنبل: قال لنا الشافعي: أنتم أعلم بالحديث مني، فإذا صحَّ عندكم الحديث فقولوا لنا حتى آخذ به.

وصحَّ رواية جماعة من الصحابة عن التابعين؛ وأبلغ من ذلك كله قراءة رسول الله ﷺ على أبي وقال: أمرني الله أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البينة: ١]. قالوا: من فوائده: أن لا يمتنع الفاضل من الأخذ من المفضول. اهـ

قلت: ومن أمثلة هذا أيضًا ما ذكره عمر -رضي الله عنه- عن حاله مع جاره الأنصاري حيث قال فيما أخرجه الشيخان: «كان لي جار من الأنصار فكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ، فينزل يومًا وأنزل يومًا فيأتيني بخبر الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك».

قلت: وبلا ريب عمر -رضي الله عنه- أفضل وأعلم من هذا الأنصاري، ورغم هذا لم يستنكف عمر من التعاون معه على معرفة خبر الوحي، ولم يأنف من الاستفادة منه.

وقال الحافظ في «هدي الساري» (ص ٥٠٣-ريان) في ذكر مراتب مشايخ البخاري: «الطبقة الخامسة: قوم في عداد طلبته في السنِّ والإسناد سمع منهم للفائدة كعبد الله بن حماد الأملي، وعبد الله بن أبي العاص الخوارزمي، وحسين بن محمد القباني وغيرهم، وقد روى عنهم أشياء يسيرة، وعمل في الرواية عنهم مما روى عثمان بن أبي شيبة عن وكيع قال: لا يكون الرجل عالمًا حتى يحدث عمَّن هو فوقه، وعمَّن هو مثله، وعمَّن هو دونه، وعن البخاري أنه قال: لا يكون المحدث كاملاً حتى يكتب عمَّن هو فوقه وعمَّن هو مثله، وعمَّن هو دونه» اهـ

وقال محمد بن محمد الجزري في منظومته «الهداية في علوم الرواية» (ص ١٩):

وليحذر استكباره عند الطالب فلم يكن ينبّل إلا من كتب

(١) أخرجه البيهقي في مناقب الشافعي (١/١٥٣)، وبنحوه أبو نعيم في الحلية (٩/٩٦).

عن مثله وفوقه ودونه هذا الذي عندهم يرجونه

وقال السخاوي في «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» (٣٤١/١) في بيان استفادة البلقيني من تلميذه ابن حجر: «ومن ذلك أن قاضي القضاة، شيخ الإسلام جلال الدين البلقيني كان كثير الإرسال إليه -أي إلى ابن حجر- يلتبس منه الجواب عما يستشكله في هذا الفن، خصوصاً الكتاب الذي عمله في «مبهمات البخاري» فهو -كما شهد به الحافظ البرهان الحلبي على ما حكاه ولده أبو ذر، كما تقدم عنه- إنما معوله فيه على صاحب الترجمة، وليس يلحقه بِرَحْمَةِ اللَّهِ نقص من ذلك، بل هو غاية الكمال» اهـ.

قلت: وكان والد العلامة محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني يجلس من ابنه مجلس التلميذ من الأستاذ، ولا يجد في ذلك غضاظة ولا غرابة فالفرع قد يزكو على الأصل، وكان مما قاله هذا الوالد من شعر في مدح ولده:

يمشي مع الحق فلا	يقتاده التعصب
ما زال يهديني إلى	نهج الهدى ويندب
حتى كأني ولد	مؤدب وهو الأب
فاعجب لها قضية	لمثلها يستغرب
وإن أرتنبا عجباً	فإنني لا أعجب
فالفرع قد يزكو على	أصوله وينجب
هذي الثمار كلها	أصولهن الخشب

ومن الشواهد الشعرية التي تبين أن علو الفرع يجعل الأصل هو المنسوب إليه لا العكس ما قاله ابن الرومي كما في «مغني اللبيب» (١٣٧/١):

قالوا: أبو الصَّقر من شيان قلت لهم
وكم أب قد علا بـابن ذوي حسب
كألا لعمري ولكن منه شيان
كما علت برسول الله عدنان

وعلى هذا الخلق الفاضل المبني على التواضع وخفض الجناح سار العلماء الأكابر

في زماننا، وكم كنا نسمع من محدث العصر الألباني رحمته الله -وهو يتحدث مع أحد الطلبة- ممن هو أصغر منه سنًا وعلماً وخبرة- قائلاً له: أفدنا بما عندك، أو «كن بائعاً ولا تكن مشترياً فقط، هات ما عندك من علم في هذه المسألة».

وكان شيخنا محمد بن عبد الوهاب البنا -حفظه الله- يقول لشيخنا العلامة ربيع بن هادي -سلمه الله-:

وإن كنت شيخك لكنك أستاذي، يقصد -رفع الله شأنه- أن العلامة ربيعاً قد فاقه في العلم والصدق بالحق أمام أهل الأهواء.

وكم ظاهرة هامة تتعلق بهذا الشأن يجب الاعتناء بها، وهذه الظاهرة تمس الأستاذ أو المعلم مع تلاميذه، وقد أشار إليها فضيلة الشيخ محمد أمين المصري رحمته الله في محاضرة له بعنوان «تربية القادة» حيث قال: «ومن المؤسف أن كثيراً ممن انتهت إليهم الرئاسة العلمية في مجتمعنا قد نسوا كثيراً من هذه المعاني وأخذوا بتربية أتباعهم على الغلو في تعظيمهم وتأويل خطئهم وتفسير سلوكهم، وإن خالف القواعد الشرعية، بأن وراء أسراراً وحكماً لا تدركها عقول الأتباع القاصرة وبذلك ينتهي هؤلاء الأتباع إلى أن شيوخهم لا يخطئون لأنهم قد بلغوا الدرجات»^(١).

وبهذه المناسبة ربما حسن أن نذكر ظاهرة تتعلق بالأساتذة المربين الذين أسلموا تربية أبناء الأمة فكانوا على ثغرة هامة، وأذكر بهذا الصدد أستاذاً في معهد التربية في القاهرة عام (١٩٤٧م) وضع أمام طلابه المشكلة التالية: أيهما أولى بالمدرس أن يعلن خطأه إذا وقع منه خطأ ويعترف به، أم يتفادى الموقف ويستر خطاه؟ وكان رأي الأستاذ أن يعترف المدرس بخطئه، إذا وقع منه، ويعلنه بكل صراحة، وهذا هو اتجاه الإسلام في رأيي، وإني لأعلم أن ثقة الطلاب بمدرسيهم تهتز حين يرونه قد أخطأ، وكثير من المدرسين يرون أن الاحتفاظ بمكانتهم في نفوس طلابهم أمر ضروري هام يهون معه ارتكاب هذه المخالفة أعني سكوت المرء عن الاعتراف بخطئه.

(١) وهذه نزعات هوى مشوبة بمثالب التصوف.

وفي رأيي أن هذا النوع من التربية الشائع في بيئتنا خطأ يجب إصلاحه أن الشيء الفطري يمكن أن يقع كثيراً أن يفطن أحد الطلاب لأمر قد غفل عنه أستاذه، وأية عظمة في هذا؟ بل أنه لمدعاة إلى الثناء على الأستاذ أن يستطيع يدفع بطلابه إلى البحث والتفطن لِمَ لَمْ يفطن له، ومما يؤسف له أن كثيراً من المدرسين في البلاد الغربية لا يجد أحدهم ما يغض من قدره حين يعلن لطلابه أنه أخطأ في أمر وأن تلميذه قد أصاب، ليس العيب أن يخطئ المرء لكن العيب أن يُصرَّ على خطئه فلا ينزع عنه ولا يعترف به، ولقد أخذ الغربيون هذه العادة الكريمة من المسلمين وتعلّموا منهم أن البشر ليسوا بمعصومين من الخطأ، وكان البابا عندهم يدّعي لنفسه العصمة، وما يزل أمره كذلك لدى بعض الفرق النصرانية وكان نشوء دعوات الإصلاح الديني لدى النصاري بعد الاتصال بالمسلمين في الحروب الصليبية. اهـ

قلت: وتدبر أيضاً هذا المثال الرائع الذي ضربه الأديب السلفي محمود شاكر رحمته الله عندما اعترف باستفادته من امرأة - هو يفضلها علماً وخبرة بلا شك -، بل صرّح بأنه أضاع أيامه هباء منثوراً، وقصّر تقصيراً معيياً عن تتبع كثير من الحقائق التي تتبعها هذه المرأة، حيث قال - أجزل الله مثوبته - كما في «أباطيل وأسمار» (ص ١٥٣): «عندما شرعت أعد هذه الكلمة، قضيت أياماً أطوف بذاكرتي فيما قرأت، أراجع بعض ما قيّدت، فأفانيت وقتاً طويلاً في حشد مادة الكتابة، ثم وقع إليّ كتاب لم أكن سمعت به، فلما بدأت أقرؤه وجدتني قد أضعت أيامي هباءً؛ لأنه لو كان في يدي قبل ذلك، لأغواني عن بحث طويل وتنقيب مضمّن، فلم أستحلّ لنفسي أن أعود إلى قضية الأكاذيب الملفقة؛ حتى أنصف صاحبتة ما استطعت. جاء هذا الكتاب كأنه تفرّيع لي، ولكل من نصب نفسه لعلاج المسائل العامة في حياة الشعب العربي والإسلامي؛ لأننا عشنا دهرًا في موج متلاطم، ثم لم يكن لنا من الحكمة والعقل، ما يدفعنا إلى تقييد ما يجري في زماننا على ترتيب تاريخي متصل، فيكون ذلك معواناً لنا على جلاء الصورة التي عشناها أو التي نعيشها، في ضوء مبين عن حقيقتها، وتلافيها، وتعاريجها، وخفاياها، وهذه هي النكبة التي نكبنا بها، وأنا أشهد على نفسي على

الأقل، أني قصّرت في ذلك تقصيراً معيّباً إذ شغلتنني نفسي عن تتبع كثير من الحقائق وتقييدها، فلما جئت أطلبها، وقعت في المآزق، حتى جاء كتاب «تاريخ الدعوة إلى اللغة العامية وآثارها في مصر»، فأنقذني ممّا تورطت فيه، وهذا الكتاب النفيس من تأليف الدكتورة نفوسة زكريا سعيد -المدرس بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية (الطبعة الأولى ١٣٨٤ هـ/١٩٦٤ م) والجهد المبذول في جمع مادة الكتاب، جهد يدل على التجرد الصحيح السليم في طلب المعرفة، وعلى الصدق في السعي إلى الحقيقة، وعلى النفاذ في إدراك الحقائق، وعلى الصبر في معاناة التعقيب بلا كلال ولا ملل، ولا أظنني قرأت منذ سنوات طوال كتاباً يتناول المسائل العامة في حياتنا الحديثة، بذل فيه صاحبه من الوقت والجهد والأناء، ما بذلت الدكتورة نفوسة في كتابها هذا... إلخ»^(١).

خامساً: استنكاف الشيخ عن قول: «لا أدري» عند عدم علمه ببعض المسائل:

ومن علامات تواضع العالم وعدم تعصّبه لنفسه: أن يعترف بعدم علمه ببعض المسائل التي قد تعرض عليه، ولا يستكبر عن مقولة: «لا أدري»، أو «لا أعلم». قال الأجري في «أخلاق العلماء» (ص ١١٤): «وأما الحجة للعالم يسأل عن الشيء لا يعلمه، فلا يستنكف أن يقول: لا أعلم، إذا كان لا يعلم، وهذا طريق أئمة المسلمين من الصحابة، ومن بعدهم من أئمة المسلمين، اتبعوا في ذلك نبيهم ﷺ، لأنه كان إذا سئل عن الشيء مما لم يتقدم فيه الوحي من الله عز وجل، فيقول: لا أدري. وهكذا يجب على كل من سئل عن شيء لم يتقدم فيه العلم، أن يقول: الله أعلم به، ولا علم لي به، ولا يتكلف ما لا يعلمه، فهو أعذر له عند الله، وعند ذوي الألباب». اهـ

(١) وقد أعادت دار الدعوة الإسلامية طباعة الكتاب مرة أخرى عام (٢٠٠٦)، وقالت د. نفوسة في استهلال الكتاب (ص ٣): «الدعوة إلى اتخاذ العامية أداة للتعبير الأدبي وإحلالها محل العربية الفصحى من أخطر الدعوات التي تعرض فيها التعبير العربي لأعنف أزمة عرفها خلال تاريخه الطويل، وتعرضت فيها الأمم العربية لأعنف انقلاب ثقافي بعد الإسلام...». قلت: والكتاب جيد في بابه؛ إلا أن المصنّفة تعرّضت لمسائل نقدية تتعلق بهذا الفن التمثيلي والمسرحي كان الإعراض عنها واجباً.

قلت: وتواترت الآثار السلفية على الحث على هذا الخلق الرفيع المقرون بالتواضع ومعرفة قدر النفس:

قال البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، باب تفسير سورة الروم: حدثنا محمد بن كثير حدثنا سفيان حدثنا منصور والأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال: بينما رجل يحدث في كندة فقال: يجيء دخان يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمن كهيئة الزكام، ففرعنا فأتيت ابن مسعود وكان متكئاً فغضب فجلس فقال: «من علم فليقل ومن لم يعلم فليقل الله أعلم، فإن من العلم أن تقول لما لا تعلم لا أعلم». وأخرجه مسلم (٢٧٩٨).

وقال أبو خيثمة في العلم (١٠) ثنا محمد بن خازم ثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله: والله إن الذي يفتي الناس في كل ما يسألونه لمجنون.

قال الأعمش: فقال لي الحكم: لو كنت سمعت بهذا الحديث منك قبل اليوم ما كنت أفتي في كثير مما كنت أفتي^(١).

وقال عبد الرزاق في تفسيره (١٠٨/٣): أنا ابن جريج قال: أنا ابن أبي مليكة قال: دخلت أنا وعبد الله بن فيروز مولى عثمان بن عفان على عبد الله بن عباس قال: فقال له ابن فيروز: يا أبا عباس قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَذِبرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ﴾ [السجدة: ٥]. الآية قال ابن عباس: من أنت؟ قال: أنا عبد الله بن فيروز مولى عثمان بن عفان، فقال ابن عباس: ﴿يَذِبرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا تَعُدُّونَ﴾، فقال له ابن فيروز: أسألك يا أبا عباس، فقال ابن عباس: أياماً سماها الله لا أدري ما هي أكره أن أقول فيها ما لا أعلم، قال ابن أبي مليكة: فضرب الدهر حتى دخلت على سعيد ابن المسيب فسئل عنها فلم يدر ما يقول فيها، قال: فقلت له: ألا أخبرك ما حضرت من ابن

(١) إسناده صحيح: وأخرجه البغوي في مسند ابن الجعد (٣٢٠) عن أبي خيثمة به. والدارمي في المقدمة (١٧١)، والبيهقي في المدخل (٢/٢٦٥)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١/١٩٧)، وابن عبد البر في الجامع (١/١٦٤-١٦٥)، والطبراني في الكبير (٩/١٨٨) من طرق عن الأعمش به.

عباس فأخبرته، فقال ابن المسيب للسائل: هذا ابن عباس قد اتقى أن يقول فيها وهو أعلم مني.

وقال ابن المبارك في «الزهد» (٥٢): أخبرنا حيوة بن شريح قال: حدثني عقبة بن مسلم أن ابن عمر سئل عن شيء فقال: لا أدري، ثم اتبعها فقال: أتريدون أن تجعلوا ظهورنا جسوراً إلى جهنم، أن تقولوا أفتانا بهذا ابن عمر^(١).

وأخرج الآجري في «أخلاق العلماء» (١٠٥) من طريق سفيان، عن عطاء بن السائب، عن زاذان أبي ميسرة قال: خرج علينا علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- يوماً، وهو يمسح بطنه وهو يقول: يا بردها على الكبد، سئلت عما لا أعلم، فقلت: لا أعلم، والله أعلم^(٢).

وأخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (٥٢/٢) من طريق خالد بن عطاء، عن زاذان، وأبي البختري، عن علي بن أبي طالب أنه قال: «أي أرض تقلني أو أي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم».

وقال الدارمي في «مقدمة سننه» (١٤٧): أخبرنا محمد بن عيينة، عن أبي إسحاق الفزاري، عن ابن عون، عن ابن سيرين، عن حميد بن عبد الرحمن قال: لأن أردت بعبي أحب إلي من أن أتكلف له ما لا أعلم.

وقال الدارمي (١٨٠): حدثنا يحيى بن حماد، ثنا أبو عوانة، عن مغيرة، عن الشعبي قال: لا أدري نصف العلم^(٣).

(١) إسناده صحيح: وأخرجه من طريق ابن المبارك: الفسوي في المعرفة والتاريخ (١/٤٩٠، ٤٩٣)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١١٠٩).

وتابع ابن المبارك: حفص بن عمر عند ابن الجوزي في «تعظيم الفتيا» (٢٥). وأخرجه الآجري في أخلاق العلماء (١٠٧)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (١/٤٩٠)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١١٠٨) من طريق ابن المبارك قال: أخبرنا ابن عجلان عن نافع عن ابن عمر أنه سئل عن أمر لا يعلمه فقال: «لا أعلمه»، ثم قال: نعم ما قال ابن عمر: سئل عن أمر لا يعلمه فقال: لا أعلمه، وهذا إسناده حسن.

(٢) إسناده صحيح: وأخرجه الدارمي في المقدمة (١٧٦) من طريق شريك عن عطاء به.

(٣) إسناده صحيح: وأخرجه البيهقي في المدخل (٢/٢٧١) من طريق ابن مهدي، والخطيب في الفقيه

وقال الإمام مسلم في مقدمته: حدثنا بشر بن الحكم العبدى، قال: سمعت سفيان بن عيينة: أخبرني عن أبي عقيل صاحب بهية: أن أبناء لعبد الله بن عمر سألوه عن شيء لم يكن عنده فيه علم، فقال له يحيى بن سعيد: والله إنني لأعظم أن يكون مثلك وأنت ابن إمامي الهدى -يعني عمر وابن عمر- تسأل عن أمر ليس عندك فيه علم، فقال: أعظم من ذلك والله عند الله وعند من عقل عن الله أن أقول بغير علم أو أخبر عن غير ثقة.

وقال الدارمي في سننه (١٣٢): أخبرنا محمد بن أحمد، ثنا إسحاق بن منصور، عن عمر بن أبي زائدة قال: ما رأيت أحداً أكثر أن يقول إذا سئل عن شيء (لا علم لي به) من الشعبي.

وقال ابن سعد في «الطبقات» (٣٦٨/٨): أخبرنا عبد الله بن عمرو المنقري قال: حدثنا عبد الوارث بن سعيد قال: حدثنا محمد بن جحادة، أن عامراً الشعبي سئل عن شيء، فلم يكن عنده فيه شيء، فقليل له: قل برأيك، قال: وما تصنع برأيي؟! بل على رأيي.

وقال أيضاً: أخبرنا أحمد بن عبد الله بن يونس قال حدثنا أبو شهاب عن آدم أن رجلاً سأل إبراهيم عن مسألة، فقال: لا أدري، فمر عليه عامر الشعبي فقال للرجل: سل ذاك الشيخ، ثم ارجع فأخبرني، فرجع إليه قال: قال لا أدري، قال إبراهيم: هذا والله الفقه.

وقال ابن أبي شيبة في مصنفه (١٣٦/٦) حدثنا علي بن مسهر عن الحسن بن عمرو عن الشعبي قال: أدركت أصحاب عبد الله وأصحاب علي وليس هم لشيء من العلم أكره منهم لتفسير القرآن^(١)، قال: وكان أبو بكر يقول: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم.

وقال ابن عبد البر في «الجامع» (٥٣/٢) حدثنا خلف بن قاسم حدثنا الحسن بن رشيق، حدثنا علي بن سعيد الرازي، حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب قال: سمعت

والمتفقه (١٧٣/٢) من طريق عفان، كلاهما عن أبي عوانة به، والمغيرة هو ابن مقسم الضبي، وأخرجه الهروي في ذم الكلام (٥١٦) من طريق ابن مهدي عن أبي عوانة به.

(١) خشية من الله تعالى أن يقولوا في القرآن ما لا يعلمون، أفلا يتعظ بهذا المتعصبون الأحداث؟!.

مالكًا يقول: سئل عبد الله بن نافع أيوب السخثياني عن شيء فلم يجبه، فقال له: لا أراك فهمت ما سألتك عنه، قال: بلى، قال: فلم لا تجبني؟ قال: لا أعلمه^(١).

وقال الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٥٤٨/١): حدثنا سليمان بن حرب قال: حدثنا حماد ابن زيد، عن يحيى بن سعيد قال: سئل القاسم يومًا فقال: لا أعلم، ثم قال: والله لئن يعيش الرجل جاهلاً بعد أن يعلم حق الله عز وجل عليه خير له من أن يقول ما لا يعلم. وعن أيوب^(٢) قال: سئل القاسم يومًا عن مسألة فقال: لا أدري، ثم قال: ما كل ما تسألونا عنه نعلم، ولو علمنا ما كتمناكم ولا حل لنا أن نكتمكم^(٣).

وقال الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٥٤٦/١): حدثني محمد بن أبي زكير قال: أخبرني ابن وهب قال: سمعت مالكًا - وذكر قول القاسم: لئن يعيش المرء جاهلاً خير له من أن يقول على الله عز وجل ما لا يعلم - فقال مالك: هذا كلام يقبل، ثم ذكر أبا بكر الصديق وما خصه الله عز وجل به من الفضل وآتاه إياه، قال مالك: يقول أبو بكر في ذلك الزمان: لا أدري، قال مالك: ولا يقول هذا لا أدري^(٤).

وقال البيهقي في «المدخل» (٨١٢): أخبرنا أبو عبد الله الحافظ قال: سمعت أبا عبد الله ابن محمد بن عبد الله الصنفار يقول: سمعت عبد الله بن أحمد بن حنبل يقول: سمعت أبي

(١) وأخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١١٢٠)، ومن طريقه ابن الجوزي في «تعظيم الفتيا» (٢٧) من طريق أخرى عن مالك، ووقع فيه: «عمر بن نافع» بدلاً عن «عبد الله بن نافع».

(٢) أي عن سليمان عن حماد عن أيوب كما في الفقيه والمتفقه.

(٣) إسناده صحيح: أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١٧٣/٢)، وابن عبد البر في الجامع (٥٢/٢).

وقال ابن عبد البر في الجامع (٥٣/٢): قال الحسن - أي ابن علي الحلواني - وحدثنا نعيم بن حماد قال سمعت بعض أصحاب عون أظنه حسين بن حسن عن ابن عون قال: كنت عند القاسم بن محمد إذ جاءه رجل فسأله عن شيء فقال القاسم لا أحسنه فجعل الرجل يقول: إني رفعت إليك لا أعرف غيرك، فقال القاسم: لا تنظر إلى طول لحيتي وكثرة الناس حولي، والله ما أحسنه، فقال شيخ من قریش جالس إلى جنبه: يا ابن أخي الزمها، فوالله ما رأيتك في مجلس أنبل منك اليوم، فقال: القاسم، والله لأن يقطع لساني أحب إلي من أن أتكلم بما لا علم لي به.

(٤) إسناده صحيح: وأخرجه البيهقي في المدخل (٢٧٠/٢) من طريق محمد بن عبد الله بن الحكم عن ابن وهب به، وعزاه ابن عبد البر في الجامع (٥٤/٢) إلى كتاب المجالس لابن وهب.

يقول: سمعت الشافعي يقول: سمعت مالك بن أنس يقول: سمعت محمد بن عجلان يقول: إذا أغفل العالم لا أدري أصيبت مقاتله^(١).

قال يعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (٦٥٥/١): حدثنا زيد بن بشر، أخبرني ابن وهب، أخبرني مالك بن أنس أنه سمع عبد الله بن يزيد بن هرمز يقول: ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده (لا أدري) حتى يكون ذلك أصلاً في أيديهم يفزعون إليه، إذ سئل أحدهم عما لا يدري قال: لا أدري^(٢).

وقال ابن أبي حاتم في مقدمة الجرح والتعديل (ص ١٨): حدثنا أحمد بن سنان قال: سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول: كنا عند مالك بن أنس فجاءه رجل فقال له: يا أبا عبد الله جئتك من مسيرة ستة أشهر حَمَلَنِي أَهْلُ بَلَدِي مَسْأَلَةً أَسْأَلُكَ عَنْهَا، قال: فسل، فسأل الرجل عن أشياء، فقال: لا أحسن، قال: فقطع بالرجل، كأنه قد جاء إلى من يعلم كل شيء، فقال: وأي شيء أقول لأهل بلادي إذا رجعت إليهم؟ قال: تقول لهم: قال مالك ابن أنس: لا أحسن^(٣).

وقال ابن عبد البر (٥٣/٢) وذكر ابن وهب أيضاً في كتاب المجالس قال سمعت مالكا يقول: ينبغي للعالم أن يألف فيما أشكل عليه قول: «لا أدري» فإنه عسى أن يهيا له خير، قال ابن وهب: وكنت أسمعه كثيراً ما يقول: «لا أدري».

وقال في موضع آخر: لو كتبنا عن مالك «لا أدري» لمألنا الألواح^(٤).

(١) إسناده صحيح: وأخرجه ابن عبد البر في الجامع (٥٤/٢) من طريق صالح بن أحمد عن أبيه به، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١٧٣/٢) من طريق إبراهيم الحربي عن أحمد به.

(٢) إسناده صحيح: وأخرجه البيهقي في المدخل (٢٧١/٢)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١٧٣/٢) من طريق يعقوب به، وأخرجه ابن عبد البر في الجامع (٥٢/٢) من طريق سحنون عن ابن وهب بنحوه.

(٣) إسناده صحيح: وأخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١١٢٢)، وفي تاريخ بغداد (٣٥٨/٧)، والأجري في «أخلاق العلماء» (٨٦)، وابن عبد البر في الجامع (٥٣/٢)، والبيهقي في المدخل

(٢/٢٧٥)، وأبو نعيم في الحلية (٣٢٣/٦) من طرق عن ابن مهدي به.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣٢٣/٦).

التعصب للشيء

وقال عبد الله بن أحمد في مسأله لأبيه (١٥٨٣): كنت أسمع أبي كثيراً يسأل عن المسائل، فيقول: لا أدري، وذلك إذا كان مسألة فيها اختلاف، وكثير ما كان يقول: سل غيري، فإن قيل: مَنْ نسأل؟ يقول: سلوا العلماء، ولا يكاد يسمى رجلاً بعينه.

وقال أبو داود في مسأله (٢٧٥): «ما أحصي ما سمعت أحمد سئل عن كثير مما فيه الاختلاف من العلم فيقول: لا أدري».

ومما يؤثر عن العلامة ابن عثيمين رحمته الله أنه سئل مرة في درس تفسير عن ذكر السمع مفرداً والبصر مجموعاً في القرآن كقوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَتَاعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقوله: ﴿وَجَعَلْ لَّكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [السجدة: ٩]، فلماذا؟ فقال راوي هذه الواقعة: فأطرق الشيخ برهة، وقد أشرعنا أقلامنا لكتابة الجواب، ولكن كان الجواب أحسن مما نتوقع فقال الشيخ: لا أعلم، فوالله ما أعطينا فائدة في تلك الليلة أعظم من تلك الفائدة^(١).

وقال المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٤٤١-٤٤٢) قال إسحاق -هو ابن راهويه- قال: يحيى بن آدم: ذكر لأبي حنيفة قول من قال: (لا أدري نصف العلم) قال: فليقل مرتين لا أدري حتى يستكمل العلم.

قال يحيى: وتفسير قوله (لا أدري نصف العلم): أن العلم إنما هو (أدري) و(لا أدري) فأحدهما نصف الآخر.

سادساً: إذا أخطأ الشيخ المتعصب، لنفسه فإنه يستكبر عن الرجوع إلى الحق، ويتمادى في الباطل:

وهذا داء عضال قل من يسلم منه إلا المتجرد المتواضع من الربانيين.

واعلم أن وقوع أحد أهل العلم في زلل أو خطأ: لازم من لوازم البشرية؛ حيث إن العصمة لم تكتب لأحد من البشر إلا الأنبياء -عليهم السلام-؛ لذا فإن مجرد صدور الخطأ من العالم أمر لا ينقص من قدره، لكن الذي يشين العالم ويحط من قدره أنه إذا وقع في باطل ثم ظهر له الحق، أن يتمادى في هذا الباطل ويصر عليه ويأبى الرجوع إلى الحق.

وكمثال رائع لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله في هذا الشأن، حيث قال رحمته الله كما

(١) صفحات مشرقة من حياة الإمام ابن عثيمين (ص ١١٧).

في المسائل الماردينية (ص ١٠٣- ط ابن تيمية- بتحقيقي) في تحقيقه لحكم السمن الذي وقعت فيه فارة: «فإن قيل: فقد روي في الحديث: «إن كان جامدًا فألقوها وما حولها، وكُلوا سمنكم، وإن كان مائعًا فلا تقربوه»، رواه أبو داود، وغيره.

قيل: هذه الزيادة التي اعتمد عليها من فرق بين الجامد والمائع، واعتقدوا أنها ثابتة من كلام النبي ﷺ، وكانوا في ذلك مجتهدين قائلين بمبلغ علمهم واجتهادهم، وقد ضَعَف محمد بن يحيى الذهلي حديث الزهري وصَحَّح هذه الزيادة، لكن قد تبين لغيرهم أن هذه الزيادة وقعت خطأ في الحديث ليست من كلام النبي ﷺ، وهذا هو الذي تبين لنا ولغيرنا، ونحن جازمون بأن هذه الزيادة ليست من كلام النبي ﷺ، فلذلك رجعنا عن الإفتاء بها بعد أن كنا نفتي بها أولاً؛ فإن الرجوع إلى الحق خيرٌ من التماسي في الباطل» اهـ.

قلت: ورحم الله الإمام أبا الفضل محمد بن طاهر المقدسي المعروف بابن القبراني لما قال في مقدمة كتابه «الأنساب المتفقه» (ص ٣): «فرحم الله امرءاً أنصف من نفسه، وانتصف من خصمه فليس يسلم أحد من سهو أو خطأ، والله بمنه وفضله يوفقنا للصواب فيما قصدنا له، إنه ولي الإجابة».

وقال ابن الجوزي في «تعظيم الفتيا» (ص ٩١): «وقد كان السلف -قدس الله أرواحهم- من إذا عرف أنه قد أخطأ لم يستقر له ظهر حتى يظهر خطأه ويُعلم من أفتاه بذلك».

وقال السيوطي في المُرْهَر في علوم اللُّغة (٢/٣٢٠): «وإذا اتفق له -أي العالم- خطأ في شيء ثم بان له الصواب فليرجع، ولا يُصر على غلطه» اهـ.

قلت: وهذا باب مطروق في كتب أدب المفتي.

وختم الخطيب كتابه «الفقيه والمتفقه» (٢/٤٢١) بهذا الباب: «باب رجوع المفتي عن فتواه إذا تبين له أن الحق في غيرها».

وهذا رسول الهدى ﷺ قد رُوي عنه هذا الأدب الرباني، فقد ساق الخطيب في أول الباب المشار إليه حديثاً يأسناده استدل به على هذا الهدى، وأنا أسوقه من التاريخ الكبير للبخاري، حيث قال البخاري في التاريخ الكبير (٢/٥٩) قال لي صدقة: أخبرنا محمد بن يحيى بن قيس عن أبيه عن ثمامة بن شراحيل، عن سمي بن قيس، عن شمير بن عبد المدان

عن أبيض بن حمال قال: خرجت وافداً إلى النبي ﷺ فاستقطعت الملع الذي بمأرب فأقطعتنيه، فلما ولي، قال رجل: تدري ما قطعت له؟ إنما قطعت الماء العذ، فرجع عنه^(١).

ولقد ضرب سلفنا الصالح أروع الأمثلة في نبذ الباطل والرجوع إلى الحق، وهالك بعض الأمثلة التي تبين هذا النهج السوي:

المثال الأول: قال أبو داود في سننه (٢٩٢٧): حدثنا أحمد بن صالح، ثنا سفيان، عن الزهري، عن سعيد قال: كان عمر بن الخطاب يقول: الدية للعاقلة ولا ترث المرأة من دية زوجها شيئاً، حتى قال له الضحاك بن سفيان: كتب إلي رسول الله ﷺ أن أورث امرأة أشيم الضبابي من دية زوجها؛ فرجع عمر^(٢).

المثال الثاني: قال الدارقطني في سننه (٢٠٧/٤): محمد بن مخلد نا عبد الله بن أحمد ابن حنبل، حدثني أبي نا سفيان بن عيينة نا إدريس الأودي عن سعيد بن أبي بردة وأخرج

(١) وأخرجه الترمذي في الجامع (١٣٨٠)، وأبو داود (٣٠٦٤)، والنسائي في الكبرى (٤٠٦/٣)، وابن حبان (٤٤٩٩)، والبيهقي في الكبرى (١٤٩/٦)، والدارقطني في سننه (٢٢١/٤)، والطبراني في الكبير (٢٧٨-٢٧٩)، وابن سعد في الطبقات (٥٢٣/٥)، وابن قانع في معجم الصحابة (٦٣/١)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١٢٠٣)، وفي تاريخ بغداد (١٦٠/١٤) من طريق محمد بن يحيى به. ومحمد بن يحيى، وثقه الدارقطني، لكن قال ابن عدي: أحاديثه مظلمة منكورة، وقال ابن حزم: مجهول، ولعل من أجل ذلك، قال الحافظ في التقریب: لين الحديث، جمعاً بين قول الدارقطني وابن عدي، والذي يظهر أن ما قاله ابن عدي يعد من الجرح المفسر الذي به يضعف الراوي. وأبوه يحيى بن قيس: وثقه الدارقطني أيضاً، واعتمد الحافظ هذا التوثيق في التقریب. وثمامة، قال الدارقطني: لا بأس به شيخ مقل. وسمي بن قيس، قال ابن القطان: لا تعرف له حال، وفي التقریب: مجهول، وفي الكاشف: نكرة. وشمير أيضاً الظاهر من ترجمته أنه مجهول. وعليه فهذا إسناد ضعيف.

وقد خالف محمد بن يحيى: معمر، فرواه عن يحيى عن أبيض بن حمال، وهذا منقطع، أخرجه النسائي في الكبرى (٤٠٥/٣)؛ ومعمر بلا شك أثبت من محمد بن يحيى.

(٢) إسناده صحيح إلى سعيد -وهو ابن المسيب-: وأخرجه الشافعي كما في مسنده (ص ٢٠٣)، وفي الأم (٨٨/٦)، وفي الرسالة (٤٢٦) قال: أخبرنا سفيان بن عيينة به، وأخرجه الترمذي (١٤١٥-٢١١٠)، وابن ماجه (٢٦٤٢)، وابن الجارود في المنتقى (٩٦٦)، والنسائي في الكبرى (٧٨/٤)، وغيرهم من طريق سفيان به. قلت: وفي سماع ابن المسيب من عمر خلاف مشهور.

الكتاب فقال: «هذا كتاب عمر -ثم قرئ على سفيان من هاهنا إلى أبي موسى الأشعري- أما بعد؛ فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة..» إلى أن قال: «لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن تراجع الحق، فإن الحق قديم، وإن الحق لا يبطله شيء، ومراجعة الحق خير من التهادي في الباطل»^(١).

المثال الثالث: قال البخاري في صحيحه (٦٧٣٦): حدثنا آدم، حدثنا شعبة، حدثنا أبو قيس، سمعت هزيل بن شرحبيل قال: سئل أبو موسى عن ابنة وابنة ابن وأخت؟ فقال:

(١) وأخرجه البيهقي في الكبرى (١١٩/١٠)، وابن عبد البر في الاستذكار (١٠٣/٧)، وابن حزم في المحلى (٣٩٣/٩)، وفي الإحكام (٤٤٣/٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٧٢/٣٢) من طريق سفيان به، وقال: «ورواه أحمد بن حنبل وغيره عن سفيان».

وأخرجه يعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (٥٨٠/٢) حدثنا أبو بكر -هو الحميدي- حدثنا سفيان حدثنا إدريس بن يزيد الأودي قال: أخرج إلينا سعيد بن أبي بردة رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري فقال: هذه رسالة عمر إلى أبي موسى الأشعري.

ثم قال يعقوب: وكان سعيد بن أبي بردة وصي أبيه. قلت: وهذا إسناد صحيح إلى سعيد -وهو حفيد أبي موسى الأشعري-، وروايته عنه هنا وجادة، حيث إنه ورث هذا الكتاب عن أبيه أبي بردة الذي ورثه بدوره عن أبي موسى؛ والرواية بالوجادة حجة على الراجح.

وقال البيهقي في الكبرى (١٥٠/١٠)، وفي معرفة السنن والآثار: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، ثنا محمد بن إسحاق الصغاني، ثنا محمد بن عبد الله بن كناسة، ثنا جعفر بن برقان عن معمر البصري، عن أبي العوام البصري قال: كتب عمر فذكره.

وأخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة (١٣٢٥)، وابن حزم في الإحكام (٤٤٢/٧) من طريق عبد الملك بن الوليد بن معدان قال: حدثنا أبي قال كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري -رضي الله عنهما-... قال ابن حزم: «عبد الملك بن الوليد بن معدان وهو كوفي متروك الحديث ساقط بلا خلاف، وأبوه مجهول».

وأخرجه البلاذري في أنساب الأشراف (٢٤٢٣) قال حدثنا إبراهيم بن مسلم الخوارزمي عن وكيع عن سفيان عن رجل عن الشعبي قال: كتب عمر..

وأخرجه ابن عبد البر في الاستذكار (١٠٣/٧) من طريق أحمد بن عمر بن عبد الخالق البزار قال: سمعت أبي يقول: حدثني فضيل بن عبد الوهاب قال: حدثني أبو معشر، عن سعيد بن أبي بردة، عن أبيه -أبي بردة بن أبي موسى الأشعري قال: كتب عمر..

قلت: هذه طرق مختلفة المخرج، وإن كان فيها ضعف، لكنها إذا جمعت مع وجادة سعيد بن أبي بردة، ثبت أن للرسالة أصلاً، وهذا ما جنح إليه الحافظ في التلخيص (١٩٦/٤)، وانظر البدر المنير (٦٠٥/٩).

للابنة النصف وللأخت النصف، وأت ابن مسعود فسيتابعني؛ فسئل ابن مسعود وأخبر -رضي الله عنه- بقول أبي موسى فقال: لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين، أقضي فيها بما قضى النبي ﷺ: للابنة النصف ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين وما بقي فللأخت؛ فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال: لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم.

والشاهد هو رجوع أبي موسى عن فتواه لما تبين له أن الدليل مع ابن مسعود رضي الله عنه.

المثال الرابع: قال أحمد في مسنده (٢١٧/١): ثنا مروان بن شجاع، حدثني خصيف عن مجاهد، عن ابن عباس: أنه طاف مع معاوية بالبيت فجعل معاوية يستلم الأركان كلها، فقال له ابن عباس: لِمَ تستلم هذين الركنين، ولم يكن رسول الله ﷺ يَسْتَلِمُهُمَا، فقال معاوية ليس شيء من البيت مهجوراً، فقال ابنُ عباسٍ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: صَدَقْتَ.

وأخرجه أحمد أيضاً في (٣٢٢/١)، والترمذي (٨٥٨) من طريق عبد الرزاق عن معمر والثوري عن ابن خثيم عن أبي الطفيل عن ابن عباس بنحوه، وعلقه البخاري بصيغة الجزم في كتاب الحج، باب: من لا يستلم إلا الركنين اليمانيين، وانظر تغليق التعليق (٧٢-٧١/٣).

قلت: وهذا من تواضع الخليفة الفاضل معاوية -رضي الله عنه-، ومن تعظيمه للسنة، حيث إنه لم يستكبر عن قبول نصيحة ابن عباس -رضي الله عنهما- الموافقة للسنة، وفي هذا ردٌّ على الروافض الملاحين وعلى أذنانهم نحو سيد قطب ومن جرى مجراه ممن فجروا في الطعن في معاوية حتى كفروه، ولعنوه.

المثال الخامس: قال مسلم في صحيحه (١٥٤٧): حدثنا يحيى بن يحيى، أخبرنا يزيد بن زريع، عن أيوب، عن نافع، أن ابن عمر كان يُكْرِي مزارعه على عهد رسول الله ﷺ وفي إمارة أبي بكر وعمر وعثمان وصدرًا من خلافة معاوية حتى بلغه في آخر خلافة معاوية أن رافع بن خديج يحدث فيها بنهي عن النبي ﷺ فدخل عليه وأنا معه فسأله فقال: كان رسول الله ﷺ ينهى عن كراء المزارع، فتركها ابن عمر بعد، وكان إذا سئل عنها بعد قال: زعم رافع بن خديج أن رسول الله ﷺ نهى عنها.

وقال أيضًا: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا حسين -يعني: ابن حسن- بن يسار، حدثنا ابن عون، عن نافع، أن ابن عمر كان يَأْجُرُ الأرض قال: فنبئ حديثًا عن رافع بن خديج، قال: فانطلق بي معه إليه قال: فذكر عن بعض عمومته ذكر فيه عن النبي ﷺ: أنه نهى عن كراء الأرض، قال: فتركه ابن عمر فلم يَأْجُرْهُ.

المثال السادس: أخرج مالك في الموطأ (١٢٧/٣) (١١٦١-الموطأ برواياته الثمانية) عن نافع: أن عبد الرحمن بن أبي هريرة سأل عبد الله بن عمر عمًا لفظ البحر فنهاه عن أكله، قال نافع ثم انقلب عبد الله فدعا بالمصحف -وفي رواية: فنظر في المصحف-، فقرأ: ﴿أَجَلْ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ [المائدة: ٩٦]، قال نافع: فأرسلني عبد الله بن عمر إلى عبد الرحمن بن أبي هريرة: إنه لا بأس بأكله، وفي رواية: أن ليس به بأس، فكله^(١).

المثال السابع: قال مسلم في صحيحه (١٣٢٨): حدثني محمد بن حاتم، حدثنا يحيى بن سعيد، عن ابن جريج، أخبرني الحسن بن مسلم، عن طاوس قال: كنت مع ابن عباس إذ قال زيد بن ثابت: تفتي أن تصدر الحائض قبل أن يكون آخر عهدها بالبيت؟ فقال له ابن عباس: إِمَّا لَا، فسل فلانة الأنصارية هل أمرها بذلك رسول الله ﷺ؟ قال: فرجع زيد بن ثابت إلى ابن عباس يضحك، وهو يقول: ما أراك إلا قد صدقت.

قال الشافعي في «الرسالة» (٤٤١): «سمع زيد النهي أن يصدر أحد من الحاج حتى يكون آخر عهده بالبيت، وكانت الحائض عنده من الحاج الداخلين في ذلك النهي، فلمَّا أفتاها ابن عباس بالصدر، إذا كانت قد زارت بعد النحر أنكر عليه زيد، فلمَّا أخبره عن المرأة أن رسول الله ﷺ أمرها بذلك، فسألها فأخبرته فصدَّق المرأة، ورأى عليه حقًّا أن يرجع عن خلاف ابن عباس، وما لابن عباس حجة غير خبر المرأة» اهـ.

المثال الثامن: قال أحمد في «مسنده» (٥١/٣): حدثني أبي، ثنا يزيد بن هارون، أنا سليمان بن علي الربيعي، ثنا أبو الجوزاء غير مرة قال: سألت ابن عباس عن الصرف يدًا

(١) صحيح موقوفًا: أخرجه البيهقي في الكبرى (٢٥٥/٩)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١٢١٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٦/٣٥) من طريق مالك به. وأخرجه ابن جرير في تفسيره (٦٦/٧) من طرق أخرى عن نافع به.

يبد؟ فقال: لا بأس بذلك اثنين بواحد أكثر من ذلك وأقل، قال: ثم حججت مرة أخرى والشيخ حي، فأتيته فسألته عن الصرف؟ فقال: وزناً بوزن، قال: فقلت: إنك قد أفتيتني اثنين بواحد! فلم أزل أفتي به منذ أفتيتني، فقال: إن ذلك كان عن رأي، وهذا أبو سعيد الخدري يحدث عن رسول الله ﷺ، فتركت رأيي إلى حديث رسول الله^(١).

وفي رواية لاحق بن حميد أبي مجلز، قال ابن عباس: «ذكرتني يا أبا سعيد أمراً أنسيته، استغفر الله وأتوب إليه، وكان ينهي بعد ذلك أشد النهي»^(٢).

المثال التاسع: قال سعيد بن منصور في «سننه» (٦٠١): نا حديج بن معاوية، عن أبي إسحاق، عن سعد بن إياس، عن رجل تزوج امرأة من بني شَمَخ فرأى بعد أمها فأعجبته، فذهب إلى ابن مسعود فقال: إني تزوجت امرأة، ولم أدخل بها، ثم أعجبتني أمها، فأطلق المرأة واتزوج أمها؟ قال: نعم، فطلّقها، وتزوج أمها، فأتى عبد الله المدينة فسأل أصحاب النبي ﷺ، فقالوا: لا يصلح، ثم قدم فأتى بني شَمَخ، فقال: أين الرجل الذي تزوج أم المرأة التي كانت تحته؟ قالوا: ها هنا، قال: فليفارقها، قالوا: وقد نثرت له بطنها، قال: فليفارقها؛ فإنها حرام من الله عز وجل^(٣).

وفي رواية عبد الرزاق في مصنفه (٢٧٣/٦) عن الثوري عن أبي فروة عن أبي عمرو الشيباني سعد بن إياس: «فتزوجها وولدت له أولاداً»^(٤).

(١) إسناده صحيح: وأخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه (٣٦٨).

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (٢٨٦/٥)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (٣٧٢)، وابن عدي في الكامل (٤٢٥/٢)، وفي إسناده حيّان بن عبيد الله، قال ابن عدي: «عامة ما يرويه أفراد ينفراد بها»، وقال أبو حاتم: صدوق، وقال البيهقي: تكلموا فيه.

(٣) إسناده صحيح: وأخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ (٤٣٩/١) عن سعيد به، ومن طريقه البيهقي في الكبرى (١٥٩/٧)، ومن طريق سعيد: الخطيب في الفقيه والمتفقه (١٢١١)، وسعد بن إياس أبو عمرو الشيباني، ثقة من رواة الجماعة.

(٤) إسناده صحيح: وأخرجه من طريق عبد الرزاق: الطبراني في الكبير (١١١/٩)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (٤٣٨/١-٤٣٩)، ومن طريقه: البيهقي في الكبرى (١٥٩/٧)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١٢١١).

المثال العاشر: بؤب ابن أبي حاتم في «تقدمة الجرح والتعديل» (ص ٢٠٣) في ترجمة الأوزاعي رحمته الله: «باب: ما ذكر من سرعة رجوع الأوزاعي إلى الحق، إذا سمعه»، ثم قال: «ذكره أبي نا العباس بن الوليد بن مزيد قال: سمعت أبي وعقبة بن علقمة يذكران قالاً: ما رأينا أحداً أسرع رجوعاً إلى الحق إذا سمعه من الأوزاعي».

المثال الحادي عشر: أخرج ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٦٥/٥١)، والحافظ ابن حجر في «توالي التأسيس» (ص ١٤٥) من طريق البويطي قال سمعت الشافعي يقول: قد ألّفت هذه الكتب ولم آل منها، ولا بد أن يوجد فيها الخطأ؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فما وجدتم في كتبي هذه مما يخالف الكتاب أو السنة فقد رجعت عنه.

المثال الثاني عشر: قال المزي في تهذيب الكمال في ترجمة نُعَيْم بن حماد: «وروى الحافظ أبو نصر الحسن بن محمد بن إبراهيم اليونارتي بإسناده عن عباس بن محمد الدوري قال: سمعت يحيى بن معين: حضرنا نُعَيْم بن حماد بمصر فجعل يقرأ كتاباً من تصنيفه قال فقرأ ساعة ثم قال: حدثنا ابن المبارك عن ابن عون بأحاديث، قال يحيى: فقلت له: ليس هذا عن ابن المبارك فغضب وقال: ترد علي، قال: قلت إي والله أرد عليك أريد زينك، فأبى أن يرجع، فلما رأيته هكذا لا يرجع قلت: لا والله ما سمعت أنت هذا من ابن المبارك قط ولا سمعها ابن المبارك من ابن عون قط، فغضب وغضب من كان عنده من أصحاب الحديث، وقام نُعَيْم فدخل البيت فأخرج صحائف فجعل يقول وهي بيده: أين الذين يزعمون أن يحيى بن معين ليس أمير المؤمنين في الحديث، نعم يا أبا زكريا غلطت، وكانت صحائف فغلطت فجعلت أكتب من حديث ابن المبارك عن ابن عون وإنما روى هذه الأحاديث عن ابن عون غير ابن المبارك.

قال الحافظ أبو نصر: ومما يدل على ديانة نُعَيْم وأمانته رجوعه إلى الحق لما ثبّه على سهوه وأوقف على غلطه، فلم يستنكف عن قبول الصواب إذ الرجوع إلى الحق خير من التماسي في الباطل، والمتماذي في الباطل لم يزد من الصواب إلا بعداً. اهـ

المثال الثالث عشر: قال الحافظ في «الفتح» (٢٦٢/١٢): «وذكر أبو عبيد بسند صحيح عن زفر أنه رجع عن قول أصحابه فأسند عن عبد الواحد بن زياد قال: قلت لزفر: إنكم تقولون تدرأ الحدود بالشبهات فجئتم إلى أعظم الشبهات فأقدمتم عليها المسلم يقتل بالكافر، قال: فاشهد على أبي رجع عن هذا» اهـ.

المثال الرابع عشر: قال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي في «مجالس العلماء» (المجلد ١٢١) (ص ١٩٦) (مجلس الكسائي مع أبي يوسف): «حدثني الحسن بن عليل العنزي قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن آدم العبيدي قال: حدثنا الأحمر النحوي قال: دخل أبو يوسف الفقيه على الرشيد، وعنده الكسائي يحدثه، فقال: يا أمير المؤمنين، قد سعد بك هذا الكوفي وشغلك، فقال الرشيد: النحو يستفرغني، أستدل به على القرآن والشعر، فقال الكسائي: إن رأي أمير المؤمنين أن يأمره بجوابي في مسألة من الفقه؛ فضحك الرشيد، فقال: أبلغت إلى هذا يا كسائي، يا أبا يوسف أجبه، فقال: ما تقول في رجل قال لامرأته: أنت طالق إن دخلت الدار؟ قال: فقال أبو يوسف: إن دخلت فقد طُلقت، فقال الكسائي: خطأ، إذا فتحت (أن) فقد وجب الأمر، وإن كُسرت فإنه لم يقع بعد. فنظر أبو يوسف بعد ذلك في النحو» اهـ.

قلت: هكذا الهمة العالية والتجرد للحق، اللذان يدفعان صاحبهما إلى التعلم لا إلى التكبر، وهذا فرقان جلي بين العالم الرباني، والمتعالم المستكبر.

المثال الخامس عشر: قال الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد في ترجمة الفقيه أبي ثور (٦٧/٦): «وكان أبو ثور يتفقه أولاً بالرأي، ويذهب إلى قول أهل العراق حتى قدم الشافعي بغداد فاختلف إليه أبو ثور، ورجع عن الرأي إلى الحديث» اهـ.

ونقله ابن كثير في «طبقات الفقهاء الشافعيين» (١٢٠/١) في ترجمة أبي ثور أيضاً -واسمه: إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان- وهي أول ترجمة بدأ بها ابن كثير كتابه في ذكره تراجم أصحاب الطبقة الأولى من النقلة عن الإمام الشافعي رحمته الله.

المثال السادس عشر: قال الذهبي في السير (٤٧٤/١٨): «وحكى الفقيه أبو عبد الله الحسن بن العباس الرستمي قال: حكى لنا أبو الفتح الطبري الفقيه قال: دخلت على أبي

المعالي في مرضه فقال: اشهدوا علي أنني قد رجعت عن كل مقالة تخالف السنة، وأني أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور».

المثال السابع عشر: قال الحافظ في «التهذيب» (١٢١/٤) في ترجمة سلمان الفارسي: «وقد قرأت بخط أبي عبد الله الذهبي: رجعت عن القول بأنه -أي: سلمان- قارب الثلاثمائة أو زاد عليها وتبين لي أنه ما جاوز الثمانين، ولم يذكر مستنده في ذلك؛ العلم عند الله». وفي «جزء فيه أهل المائة» (ص ٣١)، قال الذهبي: «فمن جاز المائة من هذه الأمة من الصحابة -رضي الله عنهم-: من أسنهم سلمان الفارسي -رضي الله عنه-، رأيت سائر الأقوال على أنه عاش أزيد من مائتي سنة، وإنما الاختلاف في مقدار الزائد، ثم رجعت عن هذا وتبين لي أنه ما بلغ التسعين».

المثال الثامن عشر: قال ابن حزم في «المحلى» (٧٤/٦): ثم استدركنا فرأينا أن حديث جرير بن حازم مسند صحيح لا يجوز خلافه، وأن الاعتلال فيه بأن عاصم بن ضمرة أو أبا إسحاق أو جريراً خلط إسناد الحارث بإرسال عاصم هو: الظن الباطل الذي لا يجوز». وعلّق العلامة أحمد شاکر رحمته الله في الحاشية على هذا الكلام قائلاً: «لله در أبي محمد بن حزم رأى خطأ فسارع إلى تداركه، وحكم بأنه الظن الباطل الذي لا يجوز، وهذا شأن المنصفين من أتباع السنة الكريمة وأنصار الحق وهم الهداة القادة، وقليل ما هم؛ رحمهم الله جميعاً» اهـ.

المثال التاسع عشر: قال البغوي في حديث ابن الجعد (٣٥٧): حدثني ابن زنجويه نا عبد الرزاق عن معمر قال قلت: لحماذ كنت رأساً، وكنت إماماً في أصحابك فخالفتهم فصرت تابعاً، قال: إني أن أكون تابعاً في الحق خير من أن أكون رأساً في الباطل. وهذا إسناد حسن، وأخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٣٨٠/١٠) من طريق ابن زنجويه به، وأخرجه بنحوه العقيلي في الضعفاء (٣٠٥/١-٣٠٦).

قلت: وحماذ هو ابن أبي سليمان: تابع المرجئة، وظن أن هذا هو الحق، فرضي أن يكون ذنباً فيه خير من أن يكون رأساً في غيره.

المثال العشرون: تراجع أبي الحسن الأشعري رحمته الله عن مذهب المعتزلة، وإن كان بقي فيه شيء يسير من بقايا الاعتزال، فلم يتمكن من الانفكاك عن الأصول الكلامية بالكلية.

المثال الحادي والعشرون: تراجع الحافظ ابن حجر في فتح الباري، وهي معروفة مشهورة، ويُرجع إلى كتاب الشيخ مشهور حسن آل سلمان في هذا الباب.

المثال الثاني والعشرون: وهذا العلامة ابن عثيمين رحمته الله يضرب لنا مثلاً فريداً في الرجوع إلى الحق في مسألة من أدق مسائل الاعتقاد، وهي مسألة إثبات معية الله لخلقه مع إثبات علوه سبحانه على العرش، فيقول الشيخ حمود التويجري رحمته الله في مقدمة كتابه «إثبات علو الله ومباينته لخلقه والرد على من زعم أن معية الله للخلق ذاتية:

«فقد رأيت مقالاً لبعض المعاصرين -يشير إلى العلامة ابن عثيمين- زعم في أوله أن معية الله لخلقه معية ذاتية تليق بجلاله وعظمته وأنها لا تقتضي اختلاطاً بالخلق ولا حلولاً في أماكنهم، وقال في آخر مقاله:

وهكذا نقول في المعية، ثبتت المعية لربنا معية ذاتية تليق بعظمته وجلاله، ولا تشبه معية المخلوق للمخلوقين وتثبت مع ذلك علوه على خلقه واستوائه على عرشه على الوجه اللائق بجلاله، ونرى أن من زعم أن الله تعالى بذاته في كل مكان، فهو كافر أو ضال إن اعتقده وكاذب إن نسبته إلى غيره من سلف الأمة أو أئمتها؛ فعقيدتنا أن الله تعالى معية ذاتية تليق به وتقتضي إحاطته بكل شيء علماً وقدرة وسمعاً وبصراً وسلطاناً وتديراً، وأنه سبحانه منزّه أن يكون مختلطاً بالخلق أو حالاً في أمكنتهم بل هو العلي بذاته وصفاته، وعلوه من صفاته الذاتية التي لا ينفك عنها وأنه مستو على عرشه كما يليق بجلاله وإن ذلك لا ينافي معيته، ثم صرح أنه قال ذلك مُقرراً له ومعتقداً له، مُنشرخاً له صدره.

وأقول: لا يخفى على من له علم وفهم ما في كلام الكاتب من التناقض والجمع بين النقيضين، وموافقته من يقول من الحلولية إن الله بذاته فوق العالم وهو بذاته في كل مكان، وما فيه أيضاً من مخالفة الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أئمتها.

فأما التناقض ففي تقريره لمعية الله الذاتية لخلقه مع زعمه أن هذه المعية الذاتية لا

تقتضي الاختلاط بخلقه، ولا الحلول في أمكنتهم، ولا يخفى على عاقل أن المعية الذاتية للخلق تستلزم مخالطتهم، والحلول في أمكنتهم فقد تناقض شاء أم أبى.

وأما الجمع بين النقيضين ففي تقريره لمعية الله الذاتية لخلقه مع تقريره أن الله مستور على عرشه، وأنه العلي بذاته وصفاته، وأن علوه من صفاته الذاتية التي لا ينفك عنها فقد جمع في هذا التقرير بين إثبات صفة العلو لله تعالى وإثبات ضدها وهي صفة السفل الذي تستلزمه المعية الذاتية للخلق، وعلى هذا فمن أثبت المعية الذاتية للخلق وأثبت مع ذلك أن علو الرب من صفاته الذاتية التي لا ينفك عنها فقد جمع بين النقيضين شاء أم أبى.

وأما الموافقة لبعض القائلين بالحلول فإنه لازم لمن زعم أن معية الله لخلقه معية ذاتية؛ لأنه يلزم على هذا القول الباطل أن يكون الله مع الخلق في الأرض، وأن يكون مخالطاً لهم وحالاً معهم في أماكنهم.

وفي نهاية الكتاب أرفد الشيخ حمود التويجري تراجع العلامة ابن عثيمين رحمته الله، فقال كما في (ص ١٥٦): «فقد طلب الشيخ محمد الصالح العثيمين من الشيخ عبد العزيز ابن عبد الله بن باز أن يعث إليه بكتابي في الرد على من زعم أن معية الله لخلقه معية ذاتية، فبعث إليه وبعد قراءته له كتب الكلمة التي سيأتي ذكرها، وطلب أن تنشر مع كتابي، وحيث إن فيها رداً على من زعم أن معية الله لخلقه معية ذاتية فقد أجبت الشيخ محمد إلى طلبه، والله المسئول أن يوفق الجميع لما يحب ويرضى».

وهاك نص رسالة الشيخ ابن عثيمين كما في (ص ١٥٧):

«وبعد، فقد قرأت الكتاب الذي ألفه أخونا الفاضل الشيخ حمود بن عبد الله التويجري في إثبات علو الله تعالى ومباينته لخلقه والرد على من زعم أن معية الله تعالى لخلقه معية ذاتية، فوجدته كتاباً قيماً قرّر فيه مؤلفه الحقائق التالية...»، ثم ذكر مجمل الحقائق التي قررها الشيخ التويجري في طول كتابه، والتي نقلنا بعضها أعلاه، إلى أن قال: «وبطلان القول بالحلول معلوم بدلالة الكتاب والسنة والعقل والفطرة والإجماع، وذلك أن القول به مناقض تمام المناقضة للقول بعلو الله تعالى بذاته وصفاته، فإذا كان علو الله تعالى بذاته وصفاته ثابتاً بهذه الأدلة كان نقيضه باطلاً».

وإنكار معية الله الذاتية واجب حيث تستلزم القول بالحلول؛ لأن القول بالحلول باطل، فكان ما استلزمه فهو باطل يجب إنكاره ورؤده على قائله كائنًا من كان...

قاله كاتبه محمد الصالح العثيمين في ١٥/٤/١٤٠٤هـ.

المثال الثالث والعشرون: تراجع الإمام الألباني رحمه الله، وهي معلومة مشهورة، بل كان الألباني رحمه الله يذكر أحيانًا تراجعاً في الموضوع نفسه الذي أخطأ فيه، رغم أنه كان يستطيع أن يحذف القول الخطأ ويبقى القول الصواب قبل دفعه الكتاب إلى المطبعة، ويمثل لهذا بما في «صفة صلاة النبي ﷺ» (هامش رقم ١ ص ٤١) حيث قال الشيخ الألباني عن حديث: «اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم»: صحيح أخرجه الترمذي وأحمد وابن أبي شيبه، وعزاه الشيخ محمد بن سعيد الحلبي في مسلسلاته (٢/١) إلى البخاري فوهم.

ثم تبين لي أن الحديث ضعيف، وكنت اتبعت المناوي في تصحيحه لإسناد ابن أبي شيبه فيه، ثم تيسر لي الوقوف عليه؛ فإذا هو بين الضعف، وهو نفس إسناد الترمذي وغيره، راجع كتابي سلسلة الأحاديث الضعيفة المجلد الأول. هـ.

وقال رحمه الله مقدمة المجلد الثاني من الصحيحة (ص ٥): «فأنا بفضل الله أرجع إلى الحق إذا بدا لي من غيري مهما كان شأنه، وكتبي وتراجعي عما تبين لي من خطئي أكبر شاهد على ما أقول؛ حتى اتخذ ذلك بعض الصبيان الناشئين الجاهلين غرضًا لينسبني إلى ما لا يليق وبأمثاله من الزائغين الضالين». هـ.

وقال رحمه الله في الصحيحة (٦٢١) (١٩٠/٢) بعد تراجعاً عن تضعيف حديث حياة الأنبياء في قبورهم: «ولذلك بادرت إلى إخراجه في هذا الكتاب -أي: الصحيحة- تبرئة للذمة، وأداء للأمانة العلمية، ولو أن ذلك قد يفتح الطريق لجاهل أو حاقد إلى الطعن والغمز واللمز، فليست أبالى بذلك ما دمت أني أقوم بواجب ديني أرجو ثوابه من الله تعالى وحده». هـ.

قلت: وقد ذكر محمد حسن الشيخ صاحب كتاب «تراجع العلامة الألباني فيما نص عليه تصحيحًا وتضعيفًا» (٢٢٢) حديثًا تراجع العلامة الألباني في حكمه عليها تصحيحًا أو تضعيفًا، وهذا من عظيم إنصافه رحمه الله وعدم جموده على الخطأ بعدما يتبين له الصواب.

وكان ﷺ دائماً يندندن حول عدم الجمود على قول تبين لك خلافه، وأن السلفي حقاً ليس جامداً أو متعصباً.

ومن تراجعاته المنهجية الشهيرة، والتي يظنها الجهال تناقضاً:

أولاً: تراجعته عن ثناء مجمل قديم على بعض كتابات سيد قطب، حيث قال كلمته الأخيرة والتي شَيَّدها بخط بنانه، وزَيَّنَها بتوقيعه كما في تعليقه على خاتمة كتاب «العواصم» مما في كتب سيد قطب من القواصم، للعلامة ربيع بن هادي المدخلي -حفظه الله-، وهذا نصُّ هذه الكلمة الجليلة:

«كُلُّ ما رَدَّدْتَه على سيد قطب حقٌّ وصواب، ومنه يتبين لكلُّ قارئٍ على شيء من الثقافة الإسلامية أن سيد قطب لم يكن على معرفة بالإسلام بأصوله وفروعه.

فجزاك الله خيراً -أيها الأخ الربيع- على قيامك بواجب البيان، والكشف عن جهله وانحرافه

عن الإسلام» اهـ.

قلت: وقد اعتبر البعض أن هذه الكلمة لا تخالف الكلام القديم للعلامة الألباني،

ومن هذا الكلام القديم، قوله ﷺ:

«لا يزيد -أي سيد قطب- على كونه كان كاتباً، كان أديباً منشئاً، لكنه لم يكن عالماً،

فلا غرابة أن يصدر منه أشياء وأشياء وأشياء تخالف المنهج الصحيح».

وقوله: «وهو لا يحسن التعبير عن العقائد الشرعية -وبخاصة العقائد السلفية-».

وقال في نقده لكلمة سيد قطب: «إن القرآن من صنع الله»: «كلام خطابي شاعري،

لكن أنا لا أرى أن نقف كثيراً عند مثل هذا الكلام، إلا بأن نبين أنه كلام غير سائغ شرعاً،

وأنه غير معبر عن عقيدة الكاتب في القرآن الكريم: هل هو كلام الله حقيقة أم لا؟».

قلت: لكن الشيخ الألباني نفسه في مرحلة متقدمة لما عُرِضَ عليه كلام سيد في تفسيره

لسورة الإخلاص، والذي ظاهره كلام أهل وحدة الوجود من غلاة المتصوفة نحو ابن عربي

الطائي، والحلاج، وابن سبعين، وابن الفارض، لم يعتبر كلام سيد هذا من قبيل الكلام

الأدبي الحماسي الغير منضبط بضوابط أهل العلم، بل اعتبره صريحاً في بابه، فقال:

«نقل -أي سيد- كلام الصوفية، ولا يمكن أن يفهم منه إلا أنه يقول بوحدة الوجود»، ثم لم يستثن رحمته الله من هذا التقرير إلا التكفير، فقال: «لكن، نحن من قاعدتنا أننا لا نكفر إنساناً -ولو وقع في الكفر- إلا بعد إقامة الحجة»^(١).

وقد نفى الألباني عن نفسه الثناء على سيد قطب، فقال: «فالذي يأخذ إن سيد قطب كفره الألباني مثل الذي يأخذ إنه والله الشيخ الألباني أثنى على سيد قطب في مكان معين، هؤلاء أهل أهواء، يا أخي! هؤلاء لا سبيل لنا أن نقف في طريقهم إلا أن ندعوا الله لهم فقط، ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]^(٢).

وأخيراً، بعد أن اطلع العلامة الألباني على الردّ المفصّل للعلامة ربيع على كتب سيد، ظهر له بجلاء أن الأمر لم يقف عند مجرد عبارات أدبية حماسية لسيد بل تعدى إلى انحرافات ظاهرة في العقيدة، فكانت كلمته الأخيرة التي تعد ناسخة لأي كلام محتمل مشتبّه فيه ثناء ولو من طرف بعيد على سيد قطب، وفيها صرّح الألباني بكل جلاء موافقته التامة للعلامة ربيع في ردوده على سيد، وأن هذه الردود تبين لكل قارئ حصّل شيئاً من العلم جهل سيد، وانحرافه عن الإسلام^(٣).

ثانياً: تراجع عن موقفه من نقد علماء المدينة لسفر الحوالي، وسلمان العودة، وناصر العمر.

فلما سئل الشيخ الألباني عن كتاب: «ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي» لسفر الحوالي، هل رأيته؟

أجاب رحمته الله قائلاً: رأيته فقليل له: الحواشي -يا شيخنا- خاصة الموجودة في

المجلد الثاني؟!!

(١) انظر الأقوال السابقة في كتاب «حق كلمة الألباني في سيد قطب».

(٢) المرجع: شريط للشيخ بعنوان: «مفاهيم يجب أن تصحح».

(٣) ومن أخطر انحرافات سيد قطب: سبّه اللاذع لعدد من أكابر الصحابة بل تكفيره لبعضهم على طريقة الشيعة الروافض، وإسقاطه لخلافة عثمان، وسبّه لكلّ من الله موسى -عليه السلام-، وتكفيره لعامة المجتمعات الإسلامية بلا تفصيل، ورده لحديث الآحاد على طريقة المعتزلة... إلخ. ومن أراد تفاصيل هذه الانحرافات فليرجع إلى ردود العلامة ربيع بن هادي، وإلى فتاوى العلماء الأكابر المؤيّدّة لهذه الردود.

فقال: كان عندي -أنا- رأي صدر مني منذ نحو أكثر من ثلاثين سنة حينما كنت في الجامعة الإسلامية وسئلت في مجلس حافل عن رأيي في جماعة التبليغ؟ فقلت يومئذ: صوفية عصرية، أما الآن خطر في بالي أن أقول بالنسبة لهؤلاء -هنا- تجاوزاً مع كلمة الذين خرجوا في العصر الحاضر وخالفوا السلف في كثير من مناهجهم فبدأ لي أن أسميهم: خارجية عصرية؛ فهذا يشبه الخروج الآن حين نقرأ من كلامهم -في الواقع- ينحو منحى الخوارج في تكفير مرتكب الكبيرة ولعل هذا -ما أدري أن أقول!- غفلة منهم أو مكر منهم. وهذا أقوله أيضاً من باب قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ أَعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

ما أدري لا يصرحون بأن كل كبيرة مكفرة لكنهم يدندنون حول بعض الكبائر ويسكتون -أو يمرون- على بعض الجوانب وهذا من العدل الذي أمرنا به^(١). وقال أيضاً عن كتاب ظاهرة الإرجاء: «... وما كنت أظن أن الأمر يصل بصاحبه -أي: بسفر الحوالي- إلى هذا الحد... ويبدو أن إخواننا المشايخ في المدينة النبوية كانوا أعرف بهؤلاء منا»^(٢). اهـ.

المثال الرابع والعشرون: قال العلامة مقبل بن هادي رحمته الله في مقدمة الطبعة الثانية من كتابه «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين»: «فإن مما وفقني الله له تأليف «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» وبعد خروج الكتاب عشر فيه على أخطاء بعضها من أوهامي، والكثير من أغلاط مطبعية».

وقال في مقدمة الطبعة الأولى (ص ٢٢) تحت عنوان «أوهام»: «كنت أكتب وأنا على وجل من تكرار الحديث وقد حصل، ولكن إن شاء الله عند الجمع سيحذف المكرر، وعلى وجل أن يكون الحديث في الصحيحين، أو في أحدهما؛ فأكون كالحاكم الذي يقول: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه، والواقع أنهما قد أخرجاه».

(١) درس بعنوان: (السرورية خارجية عصرية) وذلك في ليلة السابع من ذي الحجة (١٤١٨ هـ).

(٢) الدرر المتألثة بنقض الإمام محمد ناصر الدين الألباني: فرية موافقته المرجئة (ص ٦٨).

وكذا أخاف أن أصحح حديثاً وهو ضعيف، ولكن الذي يسليني أن لا تكون أوهامي كالحاكم -إن شاء الله-، بل ليست بشيء بالنسبة لأوهام الحاكم رحمه الله.
 وأيضاً من تراجعاته رحمه الله: تراجعاً عمماً قد ذكره من شيء من الثناء على حزب الإخوان المسلمين، وعلى مؤسسه حسن البنا، وذلك في كتابه «المخرج من الفتنة» (ص ٩٨)، حيث قال في طبعة لاحقة مستدركاً على نفسه في الحاشية: «اعلم إنني كتبت هذا قبل أن أَلَم بأحوالهم... وبعد ذلك كشف الواقع كثيراً من أحوالهم الزائفة، وكذا الكتاب فجزاهاهم الله خيراً».

وقال في حاشية (ص ٩٩): «وكذا حسن البنا ما كنت ملماً بأحواله، وبعد قراءة ما كُتِب في بيان أحواله؛ فإذا الرجل مبتدع زائغ».

وفي كتابه «فضائح ونصائح» (الرد على الغبي المعاند) (ص ١٥١): سئل: يقول الأهلل إن حسن البنا وسيد قطب إمامان في الدعوة إلى الله، فهل ذلك الكلام صحيح؟
 فأجاب رحمه الله: «نعم هما إمامان ولكن من أئمة أهل البدع، والدليل على هذا ما حدث من سيد قطب في كتبه من التهاون بشأن الصحابة، وكذا القول بوحدة الوجود، وهناك أشياء بيَّنها الأخ الفاضل ربيع بن هادي -حفظه الله-.

وأما حسن البنا -والذي كنت أظن أنه على خير وهدي- وقد علَّقت على كتاب «المخرج من الفتنة» أنني قلت فيه ما قلت قبل أن أعرف عقيدته وحقيقته، أما الآن فزائغ ضال.
 وأنا في نظري أن حسن البنا أكثر ضلالاً من سيد قطب؛ لأنه يرى التقريب بين السنة والشيعية، ويقول: إن دعوتنا صوفية سلفية، ويدور على القبور ويتمسح بها».

قلت: وقد ضرب العلامة مقبل بن هادي أروع الأمثلة في الإنصاف والرجوع إلى الحق، بتراجعته عن الكلمات الشديدة التي كان ذكرها في حق الدولة السعودية -دولة التوحيد والسنة بآرك الله فيها-، وكانت شدته عليها بسبب الإساءة التي وجهت إليه في حادثة جهيمان، حيث أخذ زوراً وبُهتاناً بجزيرة هؤلاء الخوارج، رغم براءته من صنيعهم.

فألقي في آخر أيامه محاضرة في مدينة جدة يوم الخميس الموافق الخامس عشر من

ربيع الأول من عام (١٤٢٢هـ)، في الدفاع عن الدولة السعودية وبيان فضائلها والاعتراف بإحسان ولاية الأمر فيها إليه، ثم طُبعت هذه المحاضرة بعنوان: «إتحاف الأمة بشرح براءة الذمة»، أعدها للنشر وشرحها: أبو الحسن رضوان بن ياسين الشهابي، وراجعها وقدم لها: فضيلة الشيخ صالح بن فوزان - حفظه الله -.

وكان مما قاله الشيخ رحمته الله في براءة الذمة (ص ٤٨ - ط دار الإمام أحمد): «فقد أمرت الأخ الذي يطبع كتيبي ألاَّ يُبقي شيئاً فيه كلام على السعودية، فالله عز وجل يقول: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فقد أحسنوا إلينا وأكرمونا غاية الإكرام، فنحن لسنا ممن يقابل الإحسان بالإساءة من فضل الله عز وجل».

ثم سئل الشيخ في آخر محاضراته: هل أنتم قدمتم لكتاب في تكفير الدولة للمقدس؟ فقال رحمته الله: «هذا كذب!! كيف أكفرها، والرسول صلوات الله عليه يقول: «من قال لأخيه يا كافر، فقد باء بها أحدهما»، لا يجوز لنا أن نكفرها، فهي دولة مسلمة والله المستعان».

وأخذ الشيخ يعدد بعض محاسن الدولة السعودية، فذكر منها قيامها بتكريم العلماء وتقديرهم غاية التقدير، فجزاه الله خير الجزاء على هذه الشهادة المنصفة التي يعلم بها الشباب كيف يكون الإنصاف والرجوع إلى الحق.

المثال الخامس والعشرون: تراجع العلامة ربيع بن هادي - حفظه الله - عن زلة لسانية في إحدى دروسه، وقد صرَّح بتراجعها في نصيحة جليلة عنون لها بـ «قبول النصيحة والانقياد للحق من الواجبات العظيمة على المسلمين جميعاً»، وإليكم نص هذه النصيحة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، ومن اتبع هدايته، أما بعد: فقد اطلعت على ما نشرته بعض الشبكات العنكبوتية من كلام تُسبب إلي وهو أنني قلت في إحدى محاضراتي: «إذا تبرأ منك رسول الله على لسان ربنا»، قلتها عندما استدلت بقول الله - تبارك وتعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَابًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، على تحريم التفرق، ثم قلت: كيف ما نخاف يا إخوتاه ونختار هذا التفرق ونعيش عليه قروناً وأحقاباً...

أستغفر الله من هذه الكلمة القبيحة الباطلة مئات المرات، وأطلب حذفها من كل شريط توجد فيه، وأشدّد في ذلك على كل من يملك شريطاً توجد فيه هذه الكلمة أن يقوم بحذفها.

وأقول: إن هذا الكلام قبيح وباطل، وتعالى الله عنه وتنزه عنه، فهو تعالى منزّه عن مشابهة المخلوقين.

كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وكما قال عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٣)﴾ وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

ففي هذه الآيات الكريمات إثبات لصفات كماله ونعوت جلاله وتنزيه له عن صفات وسمات النقص ومشابهة المخلوقين، فلا يشبهه ولا يكافؤه أحد في ذاته ولا في صفاته ولا في شيء من صفاته العظيمة.

وأهل السنة والجماعة يثبتون كل صفاته الواردة في الكتاب والسنة من غير تشبيه ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل لأي شيء من صفاته، كاستوائه على عرشه فوق جميع مخلوقاته، والعلو والنزول والسمع والبصر والقدرة والإرادة والعلم والكلام والحكمة وكونه تعالى الخالق الرازق المحيي المميت إلى آخر ما ثبت من أسمائه الحسنی وصفاته العليا، يثبتها أهل السنة من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل، مخالفين فيها أهل الأهواء من الجهمية والخوارج والمعتزلة والروافض والأشعرية.

وأنا والحمد لله ممن أكرمه الله بهذا المنهج وأؤمن به في قرارة نفسي وأدّرسه وأدعو إليه وأذب عنه طالباً ومدرساً وداعياً إليه بكل ما أستطيعه وأوالي عليه وأعادي عليه من أول حياتي.

وهذه الكلمة البغيضة إليّ التي صدرت مني خلال محاضرة أدعو فيها إلى هذا المنهج وأدعو من خالفه إلى الرجوع إليه.

وهذه الكلمة القبيحة إنما كانت مني فلتة لسان ولو نبهني إنسان في اللحظة التي قلتها فيها لرفضتها ولتبرأت منها، وما يحق لأحد اطلع عليها أن يسكت عنها.

وهي مثل قول ذلك الرجل الذي مثل به النبي ﷺ والذي قال من شدة الفرح: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك»، قال رسول الله ﷺ: «أخطأ من شدة الفرح»، ومع ذلك فأنا أتألم منها أشد الألم وأستنكرها من نفسي ومن غيري أشد الاستنكار.

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يغفر لي ذنوبي جميعاً ما أسررت منها وما أعلنت وأن يغفر لي زلاتي وأخطائي: زلات القلم واللسان والجوارح والجنان.

و«كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»، أسأل الله أن يجعلني من التوابين ومن المتطهرين.

وقبول النصيحة واتباع الحق من أوجب الواجبات على المسلمين جميعاً من أي مصدر كان، ولا يجوز للمسلم أن يستصغر الناصح أو يحتقره مهما كان شأنه.

وأعوذ بالله أن أرد نصيحة أو أدافع عن خطأ أو باطل صدر مني فإن هذا الأسلوب المنكر إنما هو من طرق أهل الفساد والكبر والعناد، ومن شأن الذين إذا ذكروا لا يذكرون، وأعوذ بالله من هذه الصفات القبيحة.

وأسأل الله أن يجعلني ممن قال فيهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]، وأنصح نفسي وجميع المسلمين باتباع هذا المنهج والثبات عليه، وقبول نصيحة الناصحين والسير في طريق السلف الصالح في التناصح والتواصي بالحق وقبول النصيحة أخذاً بقول الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

وأخذاً بقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]، ومن علامات الرشد والاستقامة والساد والسعادة في الدنيا والآخرة الثبات على الكتاب والسنة والسير على هذا المنهج عقيدة وعملاً وأخلاقاً وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر وسداً للخلل بالحكمة وبالطرق الشريفة.

وأدعو الله عز وجل أن يوفق هذه الأمة -ولاسيما أهل السنة والجماعة- للنهوض بهذا المنهج العظيم وأن يجمع كلمتها عليه، وأن يحقق لها السيادة والعزة والكرامة في الدنيا،

وأن يحقق لها باتباع هذا المنهج النجاة والسعادة في الآخرة: إن ربي سميع الدعاء.
وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم...

كتبه

ربيع بن هادي المدخلي

١٤٢٥/٧/٨ هـ مكة المكرمة

قلت: وسئل العلامة الإمام عبد العزيز بن باز كما في محاضرة «شرف العلم وآداب أهله» (ط دار الضياء):

إذا سئل شخص عن مسألة فأفتى فيها، وبعد مدة تبين له أن ما أفتى به غير صحيح، فماذا عليه أن يفعل؟

الجواب: عليه أن يرجع إلى الصواب ويفتي بالحق، ويقول: أخطأت، كما قال عمر: «الحق قديم».

فعليه أن يرجع إلى الصواب، ويفتي بالحق ويقول: «أخطأت في المسألة الأولى، أفتيت بكذا وكذا، ثم اتضح لي أنها خطأ، والصواب كذا وكذا»، ولا بأس عليه في ذلك، بل هذا هو الواجب عليه، فالنبي ﷺ -وهو رأس المفتين- لما سألته الناس عن التلقيح -وهو تأبير النخل-، قال: «ما أظنه يضر لو ترك»، ثم أخبره أنه يضره، فقال: «إنما أخبرتكم عن رأيي والرأي يخطئ ويصيب، أما ما أحدثكم به عن الله فإنني لن أكذب على الله»، وأمرهم أن يرجعوا إلى التلقيح.

كذلك عمر -رضي الله عنه- أفتى بإسقاط الإخوة في المسألة المشركة، ثم أفتى بالتشريك بناء على ما ترجح لديه في ذلك.

فالرجوع إلى ما يعتقد العالم أنه الصواب والحق أمر معروف، وهو ما عليه أهل العلم والإيمان، ولا حرج في ذلك ولا نقص بل ذلك يدل على فضله وقوة إيمانه حيث رجع إلى الصواب وترك الخطأ.

ولو قال بعض الناس أو بعض الجهالة: «إن هذا عيب»، فهذا ليس بشيء، والصواب أنه فضل وأنه منقبة وليس بنقص» اهـ.

قلت: وقد أوقفني أحد المنتقدين على خطأ لي في تحقيقي على كتاب الإجماع لابن المنذر (ط- دار الآثار) في موضعين:

الموضع الأول: في حاشية رقم (٤) (ص ٥٨). والموضع الثاني: في حاشية رقم (٤) (ص ٧٢). وهذا الخطأ يتكون من شقين: الشق الأول: قيامي بنسبة كتاب «شرائع الإسلام بين الحلال والحرام» إلى الزيدية، والصواب أنه في فقه الإمامية، والشق الثاني: ظني دخول أقوال الزيدية في الإجماع.

والأمر كما قال العلامة المحدث أحمد شاکر رحمته الله في مقدمة تصحيحه لكتاب «لُبَاب الآداب» للأمر أسامة بن منقذ (ص ٦): «وقد وقعت في الكتاب بعض أغلاط - مع كل ما عانينا في تصحيحه - بعضها جاء سهواً مني، وبعضها جاء خطأ في النظر، وبعضها من الأغلاط المطبعية التي لا يتنزه عنها كتاب» اهـ.

قلت: والخطأ المشار إليه بشقيه هو بلا شك سهو وخطأ في النظر.

وبالنسبة للشق الأول: فهو وهم بلا شك، حيث إنني قد نسبت هذا الكتاب على الصواب إلى فقه الإمامية في تحقيقي على كتاب «المسائل الماردينية» لشيخ الإسلام ابن تيمية. وبالنسبة للشق الثاني: فقد قال الحافظ رحمته الله في «فتح الباري» في شرحه على باب: جهر الإمام بالتأمين، من كتاب الأذان في صحيح البخاري (الفتح ٢/٢٦٥)، ما يلي: «وفي الحديث حجة على الإمامية في قولهم إن التأمين يبطل الصلاة». اهـ فعلى الشيخ ابن باز في الحاشية قائلاً:

«ما كان يحسن بالشارح أن يذكر خلاف الإمامية؛ لأنها طائفة ضالة، وهي من أخبت طوائف الشيعة، وقد سبق للشارح أن خلاف الزيدية لا يعتبر^(١)، والإمامية شر من الزيدية،

(١) يشير - رحمه الله - إلى ما قاله الحافظ في شرح (باب: رفع اليدين في التكبير الأولى مع الافتتاح سواء) من كتاب الأذان (الفتح ٢/٢١٩): «وقال العبدري: ونقل عن الزيدية أنه لا يرفع؛ ولا يعتد بخلافهم».

وكلاهما من الشيعة وليسوا أهلاً؛ لأن يذكر خلافهم في مسائل الإجماع والخلاف، والله أعلم. اهـ

قلت: وبلا شك هذا التقرير من العلامة ابن باز هو الصواب الذي لا محيص عنه؛ فاستغفر الله وأتوب إليه من زللي وتقصيري.

ويحضرني في هذا المقام أيضاً أن الشيخ أحمد شاكِر رَحِمَهُ اللهُ قد ذكر خلاف الإمامية في حكم الإشهاد في الطلاق والرجعة في كتابه «نظام الطلاق في الإسلام» حيث قال في (ص ٨١): «وذهب الشيعة إلى وجوب الإشهاد في الطلاق، وأنه ركن من أركانه كما في كتاب (شرائع الإسلام ص ٢٠٨-٢٠٩ طبعة ١٣٠٢) ولم يوجبوه في الرجعة، والتفريق بينهما غريب، ولا دليل عليه». اهـ

وكما هو معلوم أيضاً أن الصنعاني والشوكاني -رحمهما الله- كانا كثيراً ما يذكران خلاف الزيدية، وأحياناً خلاف الإمامية في بعض المسائل^(١). ولكن مهما كان فالحق أحق أن يتبع، وأقوال العلماء يحتج لها ولا يحتج بها، والله تعالى أعلى وأعلم.

(١) قال العلامة حماد الأنصاري -رحمه الله- كما في المجموع في ترجمته لولده عبد الأول (٢/ ٥٠١): «الشوكاني أصله زيدي، وكذلك الصنعاني، ولكنهم أخذوا كتب السنة وقرءوها وعرفوها ولهذا خفّت زيديتهم».

من غلاة المتعصبين: الحدادية!!؟

من قبل قام شيخنا العلامة المحدث ربيع بن هادي -حفظه الله- بتفنيد أوجه الشبه بين الحدادية والرافضة في مقال له مائع أثلج صدور السلفيين وأوضح لهم بجلاء خطورة هذه الفرقة الماكرة، فأحببت أن أبين -إن شاء الله- شيئاً من أوجه الشبه بين الحدادية والخوارج؛ حيث إنه من يتتبع بعض مواقف الحدادية يكاد يقول في نفسه:

حدادية أم خارجية جديدة!!؟

فمن هذه الأوجه والتي يتبين لنا بها بجلاء أن الحدادية هم من غلاة المتعصبين: أولاً: التظاهر الشديد بالحرص على إقامة الحق، ونبد الباطل من كفر وبدعة ومعصية، كما كان الخوارج يظهرون هذا؛ حتى وقعوا في تكفير بعض الصحابة، ومن ثم لا تقبل طائفة الحدادية البتة أن تصدر البدعة من عالم سلفي على سبيل الخطأ الذي يخلو من التعمد، حيث إن العالم قد يجتهد في مسألة ما، قاصداً اتباع السنة سائراً في اجتهاده على أصول أهل السنة، إلا أنه قد لا يوفق في إصابة الحق في هذه المسألة بعينها، هذا مع ظهور سلفيته في عشرات من المسائل الأخرى الكبار، ثم إذا بُيِّن الحق لهذا العالم سرعان ما يرجع إلى الصواب، ولكن الحدادية تعتبر صدور هذا الخطأ من هذا العالم أو ذاك دليلاً وحده كافياً للحكم عليه بالبدعة، مثلما صنع الخوارج مع الصحابة -رضي الله عنهم-، حيث رأوا في نظرهم الضيق أن علياً -رضي الله عنه- أخطأ حكم الله، ومن ثم أخرجه عن الإسلام، وكذلك الحدادية يخرجون العالم عن السلفية بل يخرجونه من عداد العلماء إلى عداد الجهال بالخطأ الواحد -صغيراً كان أم كبيراً-، وتناسوا قول النبي ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»، أخرجه البخاري في صحيحه، باب: أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب وأخطأ، من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ومسلم (١٧١٦) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما-.

ومن يتبع كلام الحداد في ابن تيمية، وابن القيم، وابن أبي العز، وابن حجر، والنووي، والألباني -رحم الله الجميع-، وطعنه الفاجر فيهم، ثم كلام باشميل وفالح الحربي يدرك وجه تشابه هؤلاء مع الخوارج.

ولمّا يكون ابن تيمية وابن القيم وابن أبي العز عند هؤلاء بهذه المثابة، فكيف بابن حجر، والنووي، والقرطبي؟! بلا شك هم عندهم من كبار المبتدعة.

وهذا الذي حدث بالفعل حيث دعا الحدادية إلى حرق «فتح الباري»، و«شرح النووي على مسلم» في ميدان عام!!

بل وصل الحال بطائفة من هؤلاء إلى إسقاط السلفيين بتوافه الأخطاء، نحو الأخطاء اللغوية والإملائية التي لا يخلو منها عالم أو كاتب.

وهم لا يفرقون بين الأخطاء الصادرة عن هفوة أو خطأ في النظر، والأخطاء الصادرة عن جهل، فمن الجائز أن ينتقل نظر الكاتب حين كتابته من سطر إلى آخر فيقع دون أن يشعر في رفع منصوب أو نصب مرفوع، ولا يكون هذا منه عن جهل بوجوب نصب هذا المنصوب أو رفع هذا المرفوع لكن اختلف نظره، أو أصابته الغفلة البشرية فأخطأ.

وللأسف بعض الشباب السلفيين في الظاهر -الصغار سنًا وخبرة وعلماً- بات يتأثر بهذا الاتجاه، وصار ينحى شيئًا من هذا المنحى في تعامله مع أهل العلم السلفيين -علماء وطلبة علم-، حيث صار أحدهم ضيق الصدر مع أخطاء السلفيين لا يقبل منهم هفوة وكأنه أرادهم أنبياء، فأحيانًا يعتري العالم شيئًا من الإجهاد الذهني -إن صحّ التعبير- فلا يستحضر آية أو حديثًا.. إلخ في مسألة ما كان بصدد مناقشتها في درس علم أو في مصنف له، فإذا أن يذكر ما لم يستحضره بالمعنى فيخطئ أو يقول: لا يحضرني أو لا أذكر الآن ونحو ذلك من العبارات؛ فسرعان ما تتهالك ألسن الحدادية في قذف ذاك العالم بأنه ضعيف الحفظ أو ضعيف العلم لا يحسن حفظ حديث أو آية، ويظنون به الظنون.

وقد قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في الفتاوى (٤١٤/٦): «نحوه لم يحضرني لفظه».

وقال في (٤١٥/٦): «ولم يحضرني سياقه، ولكن أظن فيه الزيادة المذكورة... إلخ

الأمثلة الماثلة في كتب أهل العلم.

وهذا يجرنا إلى السمة الثانية التي شابه فيها هؤلاء الخوارج، وهي:

ثانيًا: إخراج السلفي عن سلفيته أو إخراجه عن عداد أهل العلم أو طلبة العلم واتهامه بالجهل الفادح لخطأ أو هفوة أو قول مرجوح، كما أن الخوارج يُخرجون المؤمن عن إيمانه، والمسلم عن إسلامه بالكبائر والذنوب.

وهذا نذير شر ينبغي على إخواننا أن يتنبهوا إلى خطورته، وأن يلزموا غرز علمائهم، فلا يخرجون عنهم بأفهام خاصة بحجة الاجتهاد وعدم التقليد، فإنك تعجب من شاب لم يتجاوز العشرين أو الخامسة والعشرين من عمره، يظهر السلفية، قد صدر نفسه حكمًا على طلبة العلم السلفيين في بلده، حتى وصل به الأمر إلى أنه صار يستدرك على العلماء الكبار تزكيتهم لفلان أو إعلان من طلبة العلم، ويدعو إلى إيقاف هؤلاء الطلبة عن التصدر للدعوة أو الكتابة، ويقول بلا تورية: «إنه لا يوجد في بلده سلفي يؤخذ عنه العلم»، وذلك لأنه وقف لبعض هؤلاء على أخطاء تافهة وهفوات غير متعمدة لا تمس سلامة عقيدتهم ومنهجهم السلفي، وهذا لا يصدر إلا من شخص قد أعجبته نفسه فأصدر هذا الحكم الخطير دون أي مرجعية للعلماء الكبار، فكان من الواجب عليه أن يناصح إخوانه هؤلاء، فإن أبوا قبول النصيحة فليعرض على العلماء هذه الأخطاء والهفوات ثم ينتظر حكم العلماء وتوجيهاتهم المبنية على الحكمة وعلى مراعاة المصالح والمفاسد.

وقد يكون هؤلاء السلفيون ليسوا في مرتبة العلماء الكبار، وما ادعى أحدهم لنفسه هذه المرتبة أو دعا الشباب إلى أن يرحلوا إليه دون العلماء، ولكن في الوقت نفسه لهم مؤلفات وكتابات وجهود واضحة في الانتصار للمنهج السلفي قد أجازها العلماء وأثنوا عليها خيرًا، حتى أتى هذا الشاب -حديث السن والعلم- فنصّب نفسه راعيًا على الشباب في بلده، وافتأت على العلماء بهذا الحكم وكأنه أعلم وأثبت قدمًا في المنهج وأحرص على الحق من كبار العلماء الذين أثنوا على هؤلاء السلفيين الذين لا يروقون له.

ونحن نسأل هذا الشاب: إذا سقط هؤلاء السلفيون الذين تزدرى جهودهم، ولا يروق لك جهادهم؟ فمن يبقى إذن من السلفيين في بلدك يدل الشباب على المنهج الحق، ويرشدهم إلى العلماء؟

والجواب واضح جلي: لن يبقى إلا أنت، فتصير أنت السلفي الوحيد الذي يُرجع إليه في هذه البلد، خصوصاً أنك قد صدّرت نفسك للتدريس^(١)، فأبحت لنفسك التصدر للتدريس دون إجازة من العلماء، وضيّقت المنطق على إخوانك الذين أجازهم العلماء، وهذا نتاج منهجك الشديد في الحكم على أخطاء السلفيين.

إنها روح حدادية هدامة تدعو إلى وأد جهود السلفيين في مهدها، وإلى كبت طموح أي طالب علم سلفي يجاهد في تحصيل العلم في وسط محيط قد عششت فيه أفراخ الحزبية حيث لا تجد السلفية إلا قليلاً.

ثالثاً: ترفع الحدادية راية العدل التي رفعها ذو الخويصرة التميمي من قبل حينما قال للنبي ﷺ: «يا رسول الله اعدل»، وفي رواية: «اتق الله يا محمد»، وفي أخرى: «لم أرك عدلت»، وكذلك الحدادية ترفع الراية نفسها في وجه العلماء الذين ورثوا ميراث النبوة، فهم يتهمون العلماء بالجور في أحكامهم كما قال أحد غلاة هؤلاء طاعناً في علماء المنهج السلفي: «شيوخ يكذبون، ويفترون، و يظلمون، ويصغون للنمامين الغشاشين الأفاكين ويبنون حكمهم على حكم هؤلاء وهم والله الذي أقسم به لا شريك له لا يعرفون في أي وادٍ سارت فتواهم أو أحكامهم الجائرة»^(٢).

وقال آخر: «لقد جاء هؤلاء العلماء بمنهج جديد غريب على الإسلام».

وأرسل ثالث -وهو من كبار الوعّاظ في هذا الزمان- رسالة إلى علماء الجرح والتعديل سماها بـ«رسالة إلى غلاة التجريح».

(١) قال الشيخ حسن -حفظه الله-: «مثل هذا الشاب جمع مع داء العجب بنفسه، وداء غمط غيره من أهل الحق: داء قصر النظر، إذ أن أصحاب العقيدة السوية والقلوب السليمة يفرحون بظهور دعاة وطلبة علم على المنهج الصحيح حتى يفيدوا العامة، ويخففوا بعض الأعباء الملقاة على كاهل الأكابر».

(٢) وهذا في مقال في مقال سمّاه صاحبه: ﴿لَنَا أَعْيُنُنَا وَلَكُمْ أَعْيُنُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا يَبْنِي الْجَاهِلِينَ﴾ [الفصل: ٥٥].

بتاريخ (٨/٤/٢٠٠٥م)، وقال عنه العلامة ربيع في مقاله «خطورة الحدادية الجديدة»: «ضمّنه -أي:

ضمّن المقال- كلاماً قبيحاً لا يصدر إلا من أخطأ البشر أخلاقاً ويصعبُ حكايته على النفوس الحيّة». اهـ.

قلت: ولا أستبعد أن يكون قائل هذا الكلام رافضياً متسترّاً، فإن هذا الفجور في الطعن على علماء السنة لا يصدر في الغالب إلا منهم.

قلت: هكذا يرفعون عقيرتهم بلا حياء على ورثة الأنبياء.

رابعاً: التعمق في الدين والتشديد الغالي على النفس في تطبيق بعض السنن الظاهرة أو المستحبات، والإنكار الشديد المبالغ فيه على من يترك أحياناً بعض هذه المستحبات لدرجة تصل إلى تبديعه وتضليله، وقد قال النبي ﷺ حينما استأذنه عمر في قتل ذي الخويصرة: «لا دعوه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين؛ حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية».

وقال البخاري في صحيحه: حدثنا عبد السلام بن مطهر قال: حدثنا عمر بن علي، عن معن بن محمد الغفاري، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، عن النبي ﷺ قال: «إن الدين يسرٌ، ولن يشاد الدين أحدٌ إلا غلبه؛ فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»^(١).

خامساً: الاعتداد الزائد بالنفس والعجب بها لدرجة أوصلتهم إلى التفرد عن كبار علماء الأمة بفتاوى وأحكام جائزة خُيِّلَ إليهم أنها الحق المبين، وهم يدأبون في الدفاع عن أقوالهم الباطلة بشتى الطرق الملتوية، وهم يعجبون الناس -من أتباع كل ناعق- بهذه الأقوال الشاذة الغريبة، وقد قال أحمد في مسنده (١٨٩/٣): ثنا إسماعيل أنا سليمان التيمي ثنا أنس بن مالك قال: ذكر لي أن نبي الله ﷺ قال -ولم أسمع منه-: «إن فيكم قومًا يعبدون ويدأبون حتى يعجبون الناس وتعجبهم أنفسهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٩٤٥) من طريق سليمان به، وإسناده صحيح.

سادساً: يتميز أغلبهم بحداثة السن وقلة العلم، وإن كان يُخيل للسامع إذا ابتلي بسماع أحدهم أنه هو الفقيه المفوّه، ولكن هذه الطنطنة البلاغية سرعان ما تذهب أدراج الرياح لأنها لا تعدو ألسنتهم، فهم حدثاء الألسن سفهاء الأحلام يقولون من قول خير البرية، وإنني أقول ما قاله علي رضي الله عنه لما خرجت الحرورية، وقالوا: «لا حكم إلا لله»: «كلمة حق أريد بها باطل، إن رسول الله ﷺ وصف ناساً إنني لأعرف صفتهم في هؤلاء يقولون الحق بألسنتهم لا يجوز هذا منه -وأشار إلى حلقه-...»، أخرجه مسلم (١٠٦٦).

(١) كتاب الإيمان، باب الدين يسر، وقول النبي ﷺ أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة.

حكم أهل العلم على المتعصب

قال ابن القيم رحمه الله في الطرق الحكمية (ص ١٤٦): «فأما أهل البدع الموافقون لأهل الإسلام ولكنهم مخالفون في بعض الأصول -كالرافضة والقدرية والجهمية وغلاة المرجئة ونحوهم- فهؤلاء على أقسام: ...»، ثم قال عن القسم الثالث: «أن يسأل ويطلب ويتبين له الهدى، ويتركه تقليدًا وتعصبًا أو بغضًا ومعاداة لأصحابه، فهذا أقل درجاته: أن يكون فاسقًا...» اهـ.

قلت: فهذا حكم المتعصب من أهل هذه الفرق والأحزاب الضالة ومن شابههم وجرى مجراهم.

وقال الشافعي في الأم (٢١١/٦) ط الشعب (٥١٢/٧)، (ط الوفاء): «من أظهر العصبية بالكلام فدعا إليها وتألف عليها، وإن لم يكن يشهر نفسه بقتال فيها؛ فهو مردود الشهادة؛ لأنه أتى محرّمًا لا اختلاف بين علماء المسلمين علمته فيه»، ثم قال: «فإن أحب امرءًا فليحب عليه، وإن خص امرؤ قومه بالمحبة ما لم يحمل على غيرهم ما ليس يحل له؛ فهذا صلة ليست بعصبية، وقلّ امرؤ إلا وفيه محبوب ومكروه، فالمكروه في محبة الرجل من هو منه أن يحمل على غيره ما حرم الله تعالى عليه من البغي والطعن في النسب والعصبية والبغضة على النسب لا على معصية الله ولا على جناية من المبغض على المبغض: ولكن بقول: أبغضه لأنه من بني فلان، فهذه العصبية المحضة التي ترد بها الشهادة.

فإن قال قائل: ما الحجة في هذا؟ قيل له: قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال رسول الله ﷺ: «وكونوا عباد الله إخوانًا»، فإذا صار رجل إلى خلاف أمر الله -تبارك وتعالى- اسمه وأمر رسول الله ﷺ بلا سبب يعذر به يخرج به من العصبية، كان

مقيماً على معصية لا تأويل فيها ولا اختلاف بين المسلمين فيها، ومن أقام على مثل هذا كان حقيقاً أن يكون مردود الشهادة» اهـ.

ونقله بتلخيص البيهقي في السنن الكبرى (٢٣١/١٠) تحت باب: شهادة أهل العصبية.
قلت: هكذا حكم الشافعي على المتعصب بأن شهادته مردودة.

وجاء في شرح التلويح على التوضيح (٩٠/٢): «علم أن البدعة لا تخلو من أحد الأمرين: إما تعصب وإما سفه، لأنه إذا كان وافر العقل عالماً بقبح ما يعتقد، ومع ذلك يعاند الحق ويكابر، فهو المتعصب، وإن لم يكن وافر العقل كان سفيهاً، إذ السفه خفة واضطراب يحمله على فعل مخالف للعقل لقلة التأمل...» اهـ.

قلت: والشاهد أن المتعصب سفيه صاحب بدعة.

وقال العراقي في طرح التثريب (٥١/٨) في شرح حديث الإفك: «وقال القاضي عياض فيه: إن التعصب في الباطل يخرج عن اسم الصلاح لقول عائشة: «فاحتلمته الحمية وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً»، الصلاح القيام بحقوق الله وما يلزم من حقوق عباده.
قال: وفيه جواز سب المتعصب في الباطل، والمتكلم بنكر القول والإغلاظ في سبه بما يشبه صفته، وإن لم يكن فيه حقيقة لقول أسيد: «كذبت إنك منافق تجادل عن المنافقين»، وحاشا سعداً من النفاق، ولكن لما كان منه من ظاهر التعصب لابن أبي المنافق عرض له بمثل هذا القول الغليظ» اهـ.

قلت: وقد عدَّ الهيثمي التعصب بالباطل من الكبائر، فقال في «الزواجر عن اقتراف

الكبائر» (١٤٢/١):

«ومنها -أي من الكبائر-: التعصب للمذاهب والأهواء^(١)، والحقْد على الخصوم، والنظر إليهم بعين الازدراء والاحتقار، وذلك مما يهلك العباد والعلماء، فضلاً عن غيرهم» اهـ.
وقال ابن حزم في «الإحكام» (١٢٣/٦-١٢٤) في بيان حكم المقلد المتعصب: «وقد أغنانا الله تعالى عن قولهم في ذلك بما نص في كتابه من إبطال التقليد فمن ذلك قول الله

(١) وكذا التعصب للشيوخ والأحزاب.

عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١]، ثم قال الله تعالى على أثر هذه الآية: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

قال أبو محمد: فمن اتخذ رجلاً إماماً يعرض عليه قول ربه وقول نبيه ﷺ فما وافق فيه قول ذلك الرجل قبله، وما خالفه ترك قول ربه تعالى وقول نبيه ﷺ، وهو يقر أن هذا قول الله ﷻ وقول رسوله ﷺ والتزم قول إمامه، فقد اتخذ دون الله تعالى ولياً ودخل في جملة الآية المذكورة، اللهم إننا نبرأ إليك من هذه الفعلية فلا كبيرة أعظم منها.

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦].

قال أبو محمد: ولا وليجة أعظم ممن جعل رجلاً بعينه عياراً على كلام الله تعالى، وكلام رسوله ﷺ، وكلام سائر علماء الأمة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيِّنَا اللَّهُ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ ﴿٦٧﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصْلَحُونَا السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٦٦، ٦٧].

وقال تعالى: ﴿فَأَتَوْا بِكَيْذِبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الصفات: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

قال أبو محمد: فمن لم يأت بكتاب الله تعالى شاهداً لقوله أو ببرهان على صدق قوله، وإلا فليس صادقاً، لكنه كاذب آفك مفتر على الله ﷻ، ومن أطاع سادته وكبراءه وترك ما جاءه عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ، فقد ضل بنص القرآن واستحق الوعيد بالنار، نعوذ بالله منها وما أدى إليها.

وقال تعالى حاكياً عن الجن الذين أسلموا مصداقاً لهم ومثنياً عليهم: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الجن: ٥]، فبطل ظن من ظن ذلك في رئيس قلده لم يأمر الله تعالى بأن يقلده.

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾

قال أبو محمد: هكذا والله يقول هؤلاء الفضلاء الذين قلّدهم أقوام قد نهوهم عن تقليدهم، فإنهم رحمهم الله تبرؤوا في الدنيا والآخرة من كل من قلّدهم، وفاز أولئك الأفاضل الأخيار، وهلك المقلّدون لهم بعدما سمعوا من الوعيد الشديد والنهي عن التقليد، وعلموا أن أسلافهم الذين قلّدوا قد نهوهم عن تقليدهم وتبرؤوا منهم إن فعلوا ذلك». اهـ

وقال شيخ الإسلام كما في الفتاوى (٢٤٨/٢٢): «إذا كان الرجل مُتَّبِعًا لأبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد: ورأى في بعض المسائل أن مذهب غيره أقوى، فاتبعه كان قد أحسن في ذلك ولم يقدح ذلك في دينه ولا عدالته بلا نزاع؛ بل هذا أولى بالحق وأحب إلى الله ورسوله ﷺ ممن يتعصّب لواحد معين غير النبي ﷺ كمن يتعصّب لمالك أو الشافعي أو أحمد أو أبي حنيفة، ويرى أن قول هذا المعين هو الصواب الذي ينبغي اتباعه دون قول الإمام الذي خالفه.

فمن فعل هذا كان جاهلاً ضالاً، بل قد يكون كافراً، فإنه متى اعتقد أنه يجب على الناس اتباع واحد بعينه من هؤلاء الأئمة دون الإمام الآخر فإنه يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل، بل غاية ما يقال: أنه يسوغ أو ينبغي أو يجب على العامي أن يقلد واحداً، من غير تعيين زيد ولا عمرو.

وأما أن يقول قائل: إنه يجب على العامة تقليد فلان أو فلان، فهذا لا يقوله مسلم». اهـ
وقال محمد سلطان المعصومي الخجندي في «هدية السلطان إلى مسلمي بلاد اليابان» (ص ٥٥): «وأما اتباع مذهب من هذه المذاهب الأربعة أو غيرها، فليس بواجب ولا مندوب، وليس على المسلم أن يلتزم واحداً منهم بعينه، بل من التزم واحداً منها بعينه في كل مسألة فهو متعصّب مخطئ مقلد تقليداً أعمى، وهو يمتن فرقوا دينهم وصاورا شيعاً، وقد نهى الله عن التفريق في الدين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُتَفَرِّقِينَ﴾ (٢١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلٌّ جَزَبَ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿ [الروم: ٣١، ٣٢].

فدين الإسلام دين واحد، لا مذاهب فيه، ولا طرق يجب اتباعها إلا طريق محمد

رسول الله ﷺ وهدية». اهـ

وقال ﷺ في (ص ٧٣): «فيا أيها المسلمون إذا قلّدنا مذهب رجل، وبلغنا حديث الرسول المعصوم ﷺ الذي فرض الله تعالى علينا طاعته، وتركنا حديثه ﷺ واتبعنا ذلك الرجل ومذهبه، فمن أظلم منا، وما عذرنا يوم يقوم الناس لرّب العالمين؟! فمن يتعصّب لواحد معين غير رسول الله ﷺ، ويرى أن قوله هو الصواب الذي يجب اتباعه دون الأئمة فهو ضال جاهل، بل قد يكون كافرًا يستتاب^(١)، فإن تاب فيها وإلا قُتِل، فإنه متى اعتقد أنه يجب على الناس اتباع أحد بعينه من هؤلاء الأئمة، فقد جعله بمنزلة النبي ﷺ وذلك كفر...»، إلى أن قال: «وأما من يتعصّب لواحد بعينه من الأئمة دون التابعين، فهو بمنزلة من يتعصّب لواحد من الصحابة دون الباقيين، كالرافضي والناصري والخارجي^(٢)؛ فهذه طرق أهل البدع والأهواء الذين ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أنهم مذمومون خارجون عن الحق» اهـ.



-
- (١) هذا الحكم على الإطلاق، أما تكفير متعصّب بعينه يجب أن تتوفر فيه شروط التكفير، وتنفي عنه موانع التكفير، على ما هو مقرر عند أهل العلم من أهل السنة، وتكفير المعين من المسائل الشائكة التي لا يخوض غمارها إلا العلماء الراسخون.
- (٢) قال الشيخ حسن -حفظه الله-: «لو أنهم اتبعوا الصحابة ثم التابعين بإحسان ما صاروا رافضة ولا نواصب ولا خوارج ولا غيرهم».

بيان آيات القرآن العظيم

في التحذير من التعصّب للآباء والأجداد والمشايخ

لقد اشتمل كتاب الله العظيم على التحذير الشديد من التعصّب للآباء والأجداد والمشايخ، ومن هذه الآيات: قول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوا كَاتِبًا وَابَاءُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧٠، ١٧١].

قال العلامة السعدي رحمه الله في «تيسير الكريم الرحمن تفسیر كلام القرآن»: «أخبر تعالى عن حال المشركين إذا أمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله -مما تقدم وصفه- رغبوا عن ذلك وقالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، فاكثفوا بتقليد الآباء وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا فأباؤهم أجهل الناس، وأشدّهم ضلالاً، وهذه شبهة لرد الحق واهية، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم فلو هدوا لرشدهم وحسن قصدهم لكان الحق هو القصد^(١)، ومن جعل الحق قصده ووازن بينه وبين غيره تبين له الحق قطعاً، واتبعه إن كان منصفاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، لما بين تعالى عدم انقيادهم لما جاءت به الرسل، وردّهم لذلك بالتقليد علم من ذلك أنهم غير قابلين للحق ولا مستجيبين له، بل كان معلوماً لكل أحد أنهم لن يزولوا عن عنادهم أخبر تعالى أن مثلهم عند دعاء الداعي لهم إلى الإيمان، كمثّل البهائم التي ينقّ لها راعيها وليس لها علم بما يقول داعيها ومناديها فهم يسمعون مجرد الصوت الذي

(١) دون الآباء والمشايخ.

تقوم به عليهم الحجة، ولكنهم لا يفقهونه فقهاً ينفعهم^(١)، فلهذا كانوا صمًا لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول، عميًا لا ينظرون نظر اعتبار، بكما فلا ينطقون بما فيه خير لهم، والسبب الموجب لذلك كله أنه ليس لهم عقل صحيح بل هم أسفه السفهاء وأجهل الجهلاء.

فهل يستريب العاقل أن من دعي إلى الرشاد وذيد عن الفساد، ونهي عن اقتحام العذاب، وأمر بما فيه صلاحه وفلاحه وفوزه ونعيمه فعصى الناصح وتولى عن أمر ربه واقتحم النار على بصيرة واتبع الباطل ونبد الحق، أن هذا ليس له مسكة من عقل، وأنه لو اتصف بالمكر والخديعة والدهاء أنه من أسفه السفهاء^(٢). اهـ

وقال ابن حزم في الإحكام (١٢٥/٦) استنباطاً من الآية السابقة: «وهذا نص ما فعل خصومنا بلا تأويل ولا تدبر، بل تعرض عليهم الآية والحديث الصحيح -الذي يقرون بصحته، وكلاهما مخالف لمذاهب لهم فاسدة- فيأبون قبولها لا نفارق ما وجدنا عليه آباءنا وكبراءنا فقد أجابهم تعالى جواباً كافياً وحسبنا الله ونعم الوكيل». اهـ

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٤].

قال العلامة السعدي رحمه الله في «تيسير الكريم الرحمن تفسير كلام المنان»: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتِرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٣].

فلا نقل فيها ولا عقل، ومع هذا فقد أعجبوا بآرائهم التي بنيت على الجهالة والظلم، فإذا دعوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول أعرضوا فلم يقبلوا: ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ من الدين ولو كان غير شديد، ولا ديناً ينجي من عذاب الله، ولو كان في آباءهم كفاية ومعرفة ودراية لهان الأمر، ولكن آباءهم لا يعقلون شيئاً، أي: ليس عندهم من المعقول شيء، ولا من العلم والهدى شيء، فتباً لمن قلّد من لا علم عنده صحيح ولا عقل رجيح،

(١) وهذا وصف دقيق لحال المتعصبين الذين يمشون خلف شيخهم، كما تسير هذه البهائم خلف راعيها، فهم يتقادون لشيخهم دون أن يفقهوا كلامه، كما تنقاد البهائم لصوت راعيها دون أن تفقه معنى كلامه.

(٢) والآية وإن كانت نزلت في الكافرين، إلا أنها عامة في كل من عمل عملهم.

وترك اتباع ما أنزل الله واتباع رسله الذي يملأ القلوب علماً وإيماناً وهدى وإيقاناً^(١). اهـ
وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الاعراف: ٢٨].

قلت: هكذا ينسب المتعصبون ضلالهم إلى آبائهم ومشايخهم، بل يصل الضلال بالغلاة منهم إلى ادعاء أمر الله لهم بهذا الضلال، والله منزّه عن هذا.
وأيضاً: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبَرِيَّةُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨].

قلت: وهكذا يتبرم المتعصبون من ناصحهم، ويفترون عليه بأنه إنما يبغي من نصحهم صرفهم عن طريق شيخهم الذين شبوا على منهجه، وأنه يسعى لتحصيل الشهرة والعلو الدنيوي على حساب شيخهم، كما قال الشوكاني في فتح القدير (٢/٤٦٥): «كأنه قيل فماذا قالوا بعد أن قال لهم موسى ما قال؟ وفي هذا ما يدل على أنهم انقطعوا عن الدليل وعجزوا عن إبراز الحجة ولم يجدوا ما يجيبون به عما أورده عليهم، بل لجؤوا إلى ما يلجأ إليه أهل الجهل والبلادة: وهو الاحتجاج بما كان عليه آبائهم من الكفر، وضموا إلى ذلك ما هو غرضهم وغاية مطلبهم، وسبب مكابرتهم للحق وجحودهم للآيات البينة: وهو الرياسة الدنيوية التي خافوا عليها، وظنوا أنها ستذهب عنهم إن آمنوا، وكم بقى على الباطل وهو يعلم أنه باطل بهذه الدريعة من طوائف هذا العالم في سابق الدهر ولا حقه فمنهم من حبسه ذلك عن الخروج من الكفر، ومنهم من حبسه عن الخروج إلى السنة من البدعة، وإلى الرواية الصحيحة من الرأي البحت».

ثم قال: «والحاصل أنهم علّلوا عدم قبولهم دعوة موسى بأمرين: التمسك بالتقليد للآباء والحرص على الرياسة الدنيوية؛ لأنهم إذا أجابوا النبي، وصدقوه صارت مقاليد أمر أمته إليه، ولم يبق للملك رئاسة تامة؛ لأن التدبير للناس بالدين يرفع تدبير الملوك لهم بالسياسات والعادات» اهـ

(١) وهذا كحال من يسير خلف أهل البدع والأهواء، وخلف المتعالمين من العواظ القصّاص، ممن يسمّون بدعاة الصحوة، ويترون العلماء الربانيين الذين معهم ميراث النبي ﷺ.

وواسى الله سبحانه رسوله بقوله ﷺ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُ هَؤُلَاءُ مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ﴾ نَصِيحَتُهُمْ غَيْرَ مَقْصُودٍ ﴿[هود: ١٠٩].

قال ابن عطية في المحرر الوجيز (٢٠٩/٣): «المعنى أنهم مقلدون لا برهان عندهم ولا حجة، إنما عبادتهم تشبهًا منهم بأبائهم، لا عن بصيرة».

وكذلك يواسى صاحب الحق المضطهد من قبل المتعصبين أن لا يكن في مرية من ضلال من يتعصب له هؤلاء من أهل البدع والضلال، فإنهم مقلدون لا برهان عندهم ولا حجة، والله الموعد.

وهؤلاء قوم هود يتعصبون لأبائهم: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْمِنَّا بِمَا نَدْعُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ [الأعراف: ٧٠]، فرد عليهم هود ﷺ ذامًا هذا التعصب: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَدُّونَنِي فِي أَسمَاءِ سَمَیْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطٰنٍ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعََكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِیْنَ﴾ [الأعراف: ٧١].

وهذا الخليل إبراهيم ﷺ ينكر على أبيه وقومه عبادة غير الله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِیْلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]، فإذا بهم يردون عليه تعصبًا لأبائهم: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عٰدِیْنِ﴾ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلٰلٍ مُّبِیْنٍ﴾ [الأنبياء: ٥٣-٥٤].

وقال سبحانه وتعالى مبكنا للمتعصبين لأباءهم: ﴿إِنَّهُمْ أَلَفُوا ءَابَاءَهُمْ صٰلِحِیْنَ﴾ [الصافات: ٦٩]. قال أبو السعود في تفسيره (١٩٤/٧): «تعليل لاستحقاقهم ما ذكر من فنون العذاب بتقليد الآباء في الدين من غير أن يكون لهم، ولا لأبائهم شيء يتمسك به أصلاً، أي: وجدوهم ضالين في نفس الأمر ليس لهم ما يصلح شبهة فضلاً عن صلاحية الدليل»^(١).

﴿فَهُمْ عَلَىٰ ءَاتِهِمْ مُّرْعَوْنَ﴾ [الصافات: ٧٠]: «من غير أن يتدبروا أنهم على الحق أولاً مع ظهور كونهم على الباطل بأدنى تأمل، والإهراع الإسراع الشديد، كأنهم يزعجون، ويحثون حثًا على الإسراع على آثارهم، وقيل: هو إسراع فيه شبه رعدة» اهـ.

(١) وهذا حال كل متعصب للباطل، تجد كلامه خالياً من الحجج والبراهين، وإنما معه جهالات، وتأويلات باطلة، وأقوال شاذة.

واسمع أيضاً إلى الحجة المشتركة بين كل المتعصبين في كل زمان ومكان: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولَٰئِكَ حُتَّتْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ عَابَاءٌ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ [الزخرف: ٢٢-٢٤].

قال العلامة السعدي في تفسيره: «أي: فهؤلاء ليسوا ببدع منهم، وليسوا بأول من قال هذه المقالة.

وهذا الاحتجاج من هؤلاء المشركين الضالين بتقليدهم لأبائهم الضالين ليس المقصود به اتباع الحق والهدى، وإنما هو تعصب محض يراد به نصرة ما معهم من الباطل، ولهذا كل رسول يقول لمن عارضه بهذه الشبهة الباطلة: ﴿أُولَٰئِكَ حُتَّتْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ عَابَاءٌ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٤]، أي: أفتتبعوني لأجل الهدى؟ ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٤]، يعلم بهذا أنهم ما أرادوا اتباع الحق والهدى وإنما قصدتهم اتباع الباطل والهوى^(٢)، ﴿فَأَنقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، بتكذيبهم الحق ورددهم إياه بهذه الشبهة الباطلة، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [الزخرف: ٢٥]، فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم فيصيبهم ما أصابهم».

قلت: وليحذر المتعصبون لمشايخهم أن يستمروا على رفضهم الحق المؤيد بالأدلة والبراهين، فيصيبهم ما أصاب من قبلهم من المتعصبين.

«فقد صح بنص كلام الله تعالى بطلان تقليد الرجال والنساء جملة، وتحريم اتباع الآباء والرؤساء البتة^(٣)، وعلى هذا كله السلف الصالح^(٤)». اهـ

(١) وهذا حال كل صاحب حق يسير على طريق الأنبياء، يقول لمخالفيه من المتعصبين: أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه مشايخكم؟

(٢) وينحو هذا تكون إجابة المتعصبين لمشايخهم، أنهم في نهاية المطاف لما ييسوا من صاحب الحق يقولون له بملء أفواههم: إنا غير قابلين لما تدعوننا إليه، وإن آتينا بكل برهان ودليل، فلن نترك ما عهدنا عليه مشايخنا.

(٣) فيما خالف الأدلة الشرعية المأخوذة من الكتاب والسنة.

(٤) قاله ابن حزم في الإحكام (١٢٦/٦).

الأحاديث النبوية

في ذم التعصب والحمية الجاهلية

الحديث الأول: قال مسلم في صحيحه (١٨٤٨): حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا جرير -يعني بن حازم- حدثنا غيلان بن جرير عن أبي قيس بن رياح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عُمَيَّة^(١) يغضب لعَصْبَةٍ أو يدعو إلى عَصْبَةٍ أو ينصر عَصْبَةً^(٢) فُقُتِلَ، فِقَتْلُهُ جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها، ولا يتحاش من مؤمنها، ولا يفني لذي عهد عهده فليس مني ولست منه».

الحديث الثاني: قال مسلم في صحيحه (١٨٥٠): حدثنا هريم بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر قال: سمعت أبي يحدث عن أبي مجلز، عن جُنْدُب بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل تحت راية عمية يدعو عصبية أو ينصر عصبية فقتله جاهلية».

الحديث الثالث: قال البخاري في صحيحه، كتاب المناقب: باب ما يُنهى من دعوى الجاهلية^(٣)، رقم (٣٥١٨): حدثنا محمد، أخبرنا مخلد بن يزيد، أخبرنا ابن جريج قال: أخبرني عمرو بن دينار أنه سمع جابرًا -رضي الله عنه- يقول: غزونا مع النبي ﷺ، وقد ثاب

(١) قال القاضي عياض في إكمال المعلم (٢٥٨/٦): «بكسر العين وبضمها، وكسر الميم وتشديدها، وتشديد الياء، قال الإمام: قيل: الأمر الأعمى كالعصبية، لا يستبين ما وجهه». اهـ

(٢) قال القاضي عياض في إكمال المعلم (٢٥٨/٦): «رواية العذري بالغين والضاد المعجمتين، ورواية غيره كلها: عصبية -بالمهملتين-». اهـ

(٣) قال الحافظ في الفتح (٦٣١/٦-ريان): «دعوى الجاهلية: الاستغاثة عند إرادة الحرب، كانوا يقولون: يا آل فلان، فيجتمعون فينصرون القاتل ولو كان ظالمًا، فجاء الإسلام بالنهي عن ذلك». اهـ

معه ناس من المهاجرين حتى كثروا، وكان من المهاجرين رجل لعاب^(١) فكسَع^(٢) أنصاريًا، فغضب الأنصاري غضبًا شديدًا حتى تداعوا، وقال الأنصاري: يا لأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فخرج النبي ﷺ فقال: «ما بال دعوى أهل الجاهلية»، ثم قال: «ما شأنهم؟»، فأخبر بكسعة المهاجري الأنصاري، قال: فقال النبي ﷺ: «دعوها فإنها خبيثة»، وفي رواية مسلم (٢٥٨٤): «دعوها فإنها منتنة»، وزاد أحمد في روايته كما في المسند (٣٣٨/٣): ثم قال: «ألا ما بال دعوى الجاهلية؟ ألا ما بال دعوى الجاهلية؟».

وجاء في رواية أبي الزبير، عن جابر عند مسلم (٢٥٨٤): فخرج رسول الله ﷺ فقال: «ما هذا؟ دعوى أهل الجاهلية؟»، قالوا: لا، يا رسول الله، إلا أن غلامين اقتتلا، فكسع أحدهما الآخر، قال: «فلا بأس، ولينصر الرجل أخاه ظالمًا أو مظلومًا، إن كان ظالمًا فلينه، فإنه له نصر، وإن كان مظلومًا فلينصره»^(٣).

الحديث الرابع: قال أحمد في مسنده (٣٩٣/١): ثنا محمد -هو ابن جعفر- ثنا شعبة عن سماك قال سمعت عبد الرحمن بن عبد الله يحدث عن أبيه -قال شعبة: وأحسبه قد رفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «مثل الذي يعين عشيرته على غير الحق مثل البعير رُدِّي في بئر؛ فهو يَمُدُّ بذَنَبِهِ»، وفي رواية: «من نَصَرَ قومه على غير الحق...»^(٤).

- (١) أي بَطَّال، وقيل: كان يلعب بالحرايب كما تصنع الحبيشة، كما في الفتح (٦٣٢/٦-ريان).
 - (٢) قال القاضي عياض في إكمال المعلم (٥٤/٨): «قال الطبري: والكسع هو ضرب الرجل عجزه الآخر بظهر الرجل، وقال: هو ضرب الدبر، وقيل: هو ضربه بالسيف على مؤخره، وقال الخليل: هو ضربك دبر الرجل بيدك أو رجلك» اهـ.
 - (٣) قال الحافظ في الفتح (٦٣١/٦-ريان) بعد أن ساق هذه الرواية وعزاها إلى إسحاق بن راهوية والمحاملي في «الفوائد الأصبهانية»: «وعرف من هذا أن الاستغاثة ليست حرامًا، إنما الحرام ما يترتب عليها من دعوى الجاهلية» اهـ.
 - (٤) وأخرجه البزار في مسنده (٣٨١/٥) من طريق محمد بن جعفر به، وقال: «وهذا الكلام لا نعلمه يروى عن عبد الله إلا من هذا الوجه».
- وأخرجه الطيالسي في مسنده (٣٤٢- ط هجر) ومن طريقه البيهقي في الكبرى (١٠/٢٣٤) من طريق شعبة وعمرو بن ثابت به، وقال الطيالسي: رفعه عمرو بن ثابت، ولم يرفعه شعبة. وأخرجه ابن عدي في الكامل (١٢١/٥) من طريق عمرو بن ثابت به مرفوعًا. وأخرجه أبو داود (٥١١٧) من طريق زهير بن معاوية عن سماك به موقوفًا.

قال ابن الأثير في النهاية (٢/٢١٦) في بيان معنى الحديث: «أراد أنه وقع في الإنم وهلك كالبعير إذا تردى في البئر وأريد أن ينزع بذنبه فلا يقدر على خلاصه». اهـ

وخالف زهيراً ثقتان من أصحاب سماك، وهما: سفيان الثوري، وإسرائيل فروياه مرفوعاً، وقد يضاف شعبة إلهمما، على حسب ظن غندر -وهو أثبت أصحاب شعبة- ويرجح الرفع أمران:

الأول: سماك قد تغير بأخرة، وكما قال يعقوب بن شيبه في ترجمة سماك: روايته عن عكرمة مضطربة، وهو في غير عكرمة صالح، ومن سمع منه قديماً مثل شعبة وسفيان فحديثه عنه صحيح مستقيم. وقد رواه عنه سفيان بالرفع جزءاً، وشعبة بالشك، فروايتهما المقدمة على رواية زهير. الثاني: يؤكد الرفع أن سفيان رواه مطوياً في قصة فيها زيادة.

وأخرج هذه الرواية: أحمد في مسنده (١/٤٠١)، وأبو يعلى في مسنده (٥٣٠٤)، والحاكم في المستدرک (٤/١٧٥)، وأبو نعيم في الحلية (٧/١٠٢) عن ابن مسعود قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في قبة من آدم في نحو من أربعين رجلاً فقال: «إنكم مفتوح عليكم منصورون ومصبيون، فمن أدرك ذلك منكم فليقت الله وليأمر بالمعروف ولينه عن المنكر وليصل رحمه، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، ومثل الذي يعين قومه على غير الحق كمثل بعير في بئر فهو ينزع منها بذنبه».

ففي هذه الرواية زيادة حفظها سفيان عن بقية أصحاب سماك، وهي قول ابن مسعود: أتيت رسول الله ﷺ وهو في قبة من آدم... وهي تؤكد الرفع، وقد أخرج أبو داود في سننه (٥١١٨) هذا القدر فقط من هذه الرواية.

وأخرجه ابن حبان في صحيحه (٥٩٤٢) من طريق سفيان مختصراً دون القصة مقتصرًا على موضع الشاهد.

ويؤكد أيضاً الرفع أن الطيالسي روى هذه الرواية المطولة عن شعبة لكنها مقطعة إلى ثلاثة أحاديث، جزم فيها بالرفع في الروايتين برقم: ٣٣٥، ٣٤٠؛ والثالثة تقدمت.

وأخرج رواية إسرائيل: أحمد في مسنده (١/٤٤٩)، والهيثم بن كليب الشاشي في مسنده (٢٨٠-٢٨١)، وأبو محمد الفاكهي في فوائده (١٣٠)، وابن بشران في أماليه (٥١٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/١٢٣).

وتابع أيضاً الثوري وشعبة وعمرو بن ثابت على الرفع: حفص بن جميع، أخرجه الرامهرمزي في أمثال الحديث (٦٤) بلفظ: «مثل الذي يعين قومًا على الظلم مثل البعير الذي يتردى في الركي ينزع بذنبه».

قال أبو محمد الرامهرمزي: «الركي البئر الصغيرة تقول ركية وركي وركايا، وأحسب الركي بطرح الهاء في معنى الجميع، والنزع: قلعت الشيء من الشيء، وهذا مثل في ذم الحمية والتعاون على العصية، ومثل بالبعير الذي يتردى في البئر فيحاول نجاة نفسه بهلاك بعضه، وكان هذا من شأن العرب ومذهبها». اهـ

وقال القاري في مرقاة المفاتيح (٦٤٣/٨)^(١): «والمعنى: أن من نصر قومه على غير الحق فقد أوقع نفسه في الهلكة بتلك النصرة الباطلة، حيث أراد الرفعة بنصرة قومه، فوقع في حضيض بئر الإثم، وهلك كالبعير، فلا تنفعه تلك النصرة كما لا ينفع البعير نزعُه عن البئر بذنبه».

وقيل: شبه النبي ﷺ القوم ببعير هالك؛ لأن من كان على غير حق فهو هالك، وشبه ناصرهم بذنب هذا البعير، فكما أن نزعُه بذنبه لا يخلصه من الهلكة، كذلك هذا الناصر لا يخلصهم عن بئر الهلاك التي وقعوا فيها» اهـ.

قلت: وكذا المتعصبون الذين ينصرون شيخهم في غير الحق، هم كذنب هذا البعير، فكما أن هذا الذنب لا ينفع البعير في النجاة من الهلاك في البئر، كذلك المتعصبون لا ينفعون شيخهم من النجاة من البدعة التي سقط فيها، حيث إنهم يعينونه على الاستمرار في بدعته والإصرار عليها، قائلين له بلسان حالهم: نحن ناصرونك على أي حال، فسر في طريق أهل الأهواء، وأحدث ما شئت من بدع في أحكام مولاك، فلن نتركك أو نتخلى عن هواك^(٢).

الحديث الخامس: قال الإمام أحمد في مسنده (٣٦١/٢): ثنا محمد بن عبد الله بن الزبير قال: ثنا هشام بن سعد، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء؛ مؤمن تقي وفاجر شقي، والناس بنو آدم وآدم من تراب، لينتهين أقوام فخرهم برجال أو ليكونن أهون عند الله من عدتهم من الجعلان التي تدفع بأنفها التتن»^(٣).

الحديث السادس: قال مسلم في صحيحه (٢٥٣٠): حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا

(١) نقلاً عن «ذم العنصرية الجاهلية» (٢٨) للشيخ عبد السلام بن برجس -رحمه الله-.

(٢) قال الشيخ حسن -حفظه الله-: «هذا هو واقعهم مع ملاحظة أنهم مغرورون بأنفسهم إذ يفهمون أنهم مع شيخهم على الحق، والله أعلم».

(٣) إسناده جيد: وأخرجه أحمد (٥٢٣/٢)، والترمذي (٣٩٥٦)، وأبو داود (٥١١٦)، والبيهقي (٢٣٢/١٠)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٨٧/٦)، والحاكم في «معرفه علوم الحديث» (ص ١٩٥)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (٢٢/٢)، وانظر: علل الدارقطني (١٥٧/٨).

وله شاهد من حديث ابن عمر: أخرجه الترمذي (٣٢٧٠)، وابن حبان (٣٨٢٨).

عبد الله بن نمير، وأبو أسامة، عن زكريا، عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه، عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة»^(١).

وقال البخاري في صحيحه (٢٢٩٤): حدثنا محمد بن الصباح، حدثنا إسماعيل بن زكرياء، حدثنا عاصم قال: قلت لأنس -رضي الله عنه-: أبلغك أن النبي ﷺ قال: «لا حلف في الإسلام»، فقال: قد حالف النبي ﷺ بين قريش والأنصار في داري. وأخرجه مسلم (٢٥٢٩).

قال ابن الأثير في النهاية (٤٢٤/١): «أصل الحلف المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق فما كان منه في الجاهلية على الفتن والقتال بين القبائل والغارات فذلك الذي ورد النهي عنه في الإسلام بقوله ﷺ: «لا حلف في الإسلام»، وما كان في الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام كحلف المطيبين وما جرى مجراه فذلك الذي قال فيه ﷺ: «وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة»، يريد من المعاقدة على الخير ونصرة الحق» اهـ.

الحديث السابع: قال الإمام أحمد في مسنده (٥٣/٣): حدثنا يحيى، عن التيمي، ثنا أبو نضرة، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «لا يمتنع أحدكم هيبة الناس -في رواية: مخافة الناس- أو بشر- أن يتكلم بحق إذا رآه أو شاهده أو سمعه»، فقال أبو سعيد: وددت أني لم أكن سمعته، وقال أبو نضرة: وددت أني لم أكن سمعته، وفي لفظ: قال أبو سعيد: فما زال بنا البلاء؛ حتى قصرنا وإنّا لنبلغ في الشر^(٢).

(١) وأخرجه أحمد في مسنده (٨٣/٤)، وابن حبان (٤٣٧١)، وقال ابن حبان: «ذكر خبر أوهم عالماً من الناس أن سعد بن إبراهيم لم يسمع هذا الخبر من أبيه»، ثم قال: «أخبرنا أبو يعلى قال: حدثنا أبو خيثمة قال: حدثنا إسحاق الأزرق قال: حدثنا زكريا بن أبي زائدة، عن سعد بن إبراهيم، عن نافع بن جبير بن مطعم، عن أبيه، أن النبي ﷺ قال: «لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية فإن الإسلام لم يزده إلا شدة»، قال أبو حاتم: سمع هذا الخبر سعد بن إبراهيم، عن أبيه، عن جبير، وسمعه من نافع بن جبير، عن أبيه فالإسنادان محفوظان».

(٢) وأخرجه أحمد في مسنده (٣/٤٤٠، ٤٤٧، ٥٣، ٦١، ٨٤، ٨٧، ٩٢)، والترمذي في الجامع (٢١٩١)،

ويؤب ابن حبان على الحديث قائلاً: «ذكر ما يجب على المرء من القول بالحق وإن كرهه الناس»، ويؤب أيضاً: «ذكر الزجر عن السكوت للمرء عن الحق إذا رأى المنكر أو عرفه ما لم يلق بنفسه إلى التهلكة».

وابن ماجه (٤٠٠٧)، والطيالسي في مسنده (٢٢٦٥ - دار هجر)، وابن حبان (٢٧٨، ٢٧٥)، وعبد ابن حميد في المنتخب (٨٦٧، ٨٦٤)، وأبو يعلى في مسنده (١٢١٢)، والطبراني في الأوسط (٤٩٠٦)، وفي الصغير (٧٢٩)، والبيهقي في المدخل (٣٦٠)، في الكبرى (٩٠ / ١٠)، وفي الشعب (٧٥٧٣)، وأبو نعيم في الحلية (٩٩ / ٣) من طرق عن أبي نضرة به، وهذا إسناد صحيح. وأخرجه أحمد (٨٧ / ٣)، وغيره من طريق الحسن عن أبي سعيد به.

قواصم التعصب

من كلام السلف الصالح ومن اتبعهم بإحسان

وقد تقدّم ذكر طائفة طيبة من هذا الكلام فيما سبق، ونسعى هنا في هذا الفصل إلى جمع شتات الأقوال الأخرى التي لم نذكرها، مرتبة على أسماء قائلها بدءاً بالصحابة ثم من بعدهم قرناً بعد قرن.

وتتضمن هذه الأقوال: القواصم لكل صور التعصب، من تعصب للشيوخ، وتعصب للآراء والأهواء، وتعصب للنفس.

وقد تقدم ذكر سمات تعصب الأتباع لشييوخهم، ثم ذكرنا علامات تعصب الشيخ لنفسه، وذكرنا نماذج من أقوال السلف والعلماء الربانيين في علاج هذا الداء اللعين. ونذكر فيما يلي نماذج أخرى عنهم في تقديم السنة على آرائهم، وآراء مشايخهم؛ فكانوا لا يعدلون بسنة رسول الله ﷺ رأياً أو اجتهاذاً لأنفسهم أو لغيرهم ممن يحبونهم من أساتذتهم ومشايخهم.

(١) كلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

قال -رضي الله عنه-: «والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، قال عمر رضي الله عنه: فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر -رضي الله عنه- فعرفت أنه الحق»^(١).

وقال -رضي الله عنه-: «لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، فأني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الزكاة: باب وجوب الزكاة).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الخمس: باب فرض الخمس)، ومسلم (١٧٥٩).

قال ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٢٤٦/١): «هذا يا إخواني الصديق الأكبر يتخوف على نفسه الزيغ إن خالف شيئاً من أمر نبيه ﷺ، فماذا عسى أن يكون من زمان أضحى أهله يستهزئون بنبيهم وبأوامره ويتباهون بمخالفته ويسخرون بسنته، نسأل الله العصمة من الزلل ونجاة من سوء العمل» اهـ.

(٢) كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

قال البيهقي في المدخل (٢٩٤/١) أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، أبنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أبنا ابن وهب، أخبرني يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال وهو على المنبر: «يا أيها الناس إن الرأي إنما كان من رسول الله ﷺ مصيباً؛ لأن الله -جل وعز- كان يريه، إنما هو منا الظن والتكلف»^(١).

قال: وأبنا ابن وهب قال: وأخبرني عبد الله بن سليمان، عن ابن عجلان، عن عبيد الله ابن عمر، أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: «اتقوا الرأي في دينكم»^(٢).

(١) وأخرجه ابن حزم في الأحكام (٢١٣/٦).

(٢) وأخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٣٤/٢)، وصوَّب الأعظمي محقق المدخل أنه سقط من إسناده البيهقي: عبد الله بن عياش بين عبد الله بن سليمان وابن عجلان، وهو كما قال؛ وإسناده ضعيف للإرسال.

وقال الحافظ في الفتح (٢٨٩/١٣): «أخرجه البيهقي في المدخل هكذا مختصراً، وأخرجه هو والطبري والطبراني مطولاً بلفظ: «اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله ﷺ برأيي اجتهداً فوالله ما آلو عن الحق وذلك يوم أبى جندل حتى قال لي رسول الله ﷺ تراني أرضى وتأبى».

قلت: أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٥٥٨)، والطبراني في الكبير (٧٢/١)، والبزار في البحر الزخار (٢٥٤/١)، واللاكثي في أصول الاعتقاد (٢٠٨)، والقطيعي في جزء الألف دينار (٣٠٣)، والضياء في المختارة (٢١٩) من طريق مبارك بن فضالة عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر عن عمر مطولاً، والمبارك صدوق يدلّس تدليس التسوية، وقد عنعن هنا.

وأورده الهيثمي في كشف الأستار (٣٣٨/٢) لكن جاء في إسناده: ثنا محمد بن المثنى ثنا يحيى بن سعيد عن عبيد الله.... وأما الإسناد في البحر الزخار كما يلي: ثنا محمد بن المثنى، نا يونس بن عبيد الله العميري، نا مبارك بن فضالة، عن عبيد الله...

فالذي يظهر أن الهيثمي خلط بين إسناده هذا الحديث وإسناده الحديث الذي قبله في البحر الزخار، بدليل أنه نقل في نهاية الحديث قول البزار: «تفرد به مبارك عن عبيد الله».

ثم ذكر البيهقي أثرًا ثالثًا عن عمر، وقال: «وهذه الآثار عن عمر كلها مراسيل». وروي عنه أنه قال أيضًا: إياكم وأصحاب الرأي فإنهم أعداء السنن أعييتهم الأحاديث أن يحفظوها فقالوا بالرأي فضلوها وأصلوا^(١).

(٣) كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

قال البخاري في صحيحه (١٥٦٣) حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن الحكم عن علي بن حسين عن مروان بن الحكم قال: شهدت عثمان وعليًا - رضي الله عنهما -، وعثمان ينهى عن المتعة وأن يجمع بينهما، فلما رأى ذلك عليُّ أهلًا بهما: لبيك بعمرة وحجة، قال: «ما كنت لأدع سنة النبي ﷺ لقول أحد».

وقال - رضي الله عنه -: «يا هذا إنه ملبس عليك، الحق لا يُعرف بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله»^(٢).

(٤) كلام معاذ بن جبل رضي الله عنه:

قال أبو داود في سننه (٤٦١١): حدثنا يزيد بن خالد بن يزيد بن عبد الله بن موهب الهمداني، حدثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب، أن أبا إدريس الخولاني عائد الله أخبره أن يزيد بن عميرة - وكان من أصحاب معاذ بن جبل - أخبره قال: كان لا يجلس مجلسًا للذكر حين يجلس إلا قال: «الله حكم قسط هلك المرتابون» - فقال معاذ بن جبل يومًا -: «إن من ورائكم فتنًا يكثر فيها المال، ويُفتح فيها القرآن؛ حتى يأخذه المؤمن والمنافق والرجل والمرأة والصغير والكبير والعبد والحر، فيوشك قائل أن يقول: ما للناس لا يتبعوني وقد

ومن ثم لم يصب الشيخ وصي الله العباس حينما قال في تحقيقه على «فضائل الصحابة»: «وهو في كشف الأستار.. وإسناده صحيح كما قال الهيثمي».

قلت: وأيضًا ليس في نسخة كشف الأستار أن الهيثمي صحَّح إسناده.

(١) أخرجه البيهقي في المدخل (٢١٣)، واللاكثي في شرح أصول الاعتقاد (٢٠١)، والدارقطني في سننه (٤/١٤٦)، وابن حزم في الأحكام (٦/٢١٣).

(٢) ذكره أبو المكارم الكتاني في كتابه «تحديد الأسنة للذب عن السنة» (مخطوط: ق ٢)، وقال: «ذكره العلامة الزرقاني على المواهب في الخصائص في مبحث اختلاف هذه الأمة».

قرأت القرآن، ما هم بمتبعي حتى أبتدع لهم غيره، فيأكم وما أبتدع؛ فإن ما أبتدع ضلالة، وأحذركم زينة الحكيم^(١)؛ فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق.

قال: قلت لمعاذ: ما يدريني رحمك الله! أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة، وأن المنافق قد يقول كلمة الحق؟ قال: «بلى اجتنب من كلام الحكيم المشتبهات التي يقال لها: ما هذه، ولا يثنيك ذلك عنه، فإنه لعله أن يراجع، وتلق الحق إذا سمعته؛ فإن على الحق نوراً»^(٢).

قال أبو داود: قال معمر عن الزهري في هذا الحديث: «ولا يثنيك ذلك عنه» مكان «يثنيك»، وقال صالح بن كيسان عن الزهري في هذا الحديث: «بالمشتبهات» مكان «المشتبهات»، وقال: «لا يثنيك» كما قال عقيل، وقال ابن إسحق عن الزهري قال: «بلى ما تشابه عليك من قول الحكيم حتى تقول ما أراد بهذه الكلمة».

وفي رواية الحاكم: «وكيف لي أن أعلم زينة الحكيم؟ قال: كلمة ضلالة يلقيها

(١) قال العظيم آبادي في عون المعبود (٢٣٧/١٢): «زينة الحكيم: أي انحراف العالم عن الحق، والمعنى: أحذركم مما صدر من لسان العلماء من الزينة والزلة وخلاف الحق، فلا تتبعوه».

(٢) قال العظيم آبادي في عون المعبود (٢٣٧/١٢): «أي فلا يخفى عليك كلمة الحق وإن سمعتها من المنافق لما عليها من النور والضياء، وكذلك كلمات الحكيم الباطلة لا تخفى عليك؛ لأن الناس إذ يسمعونها ينكرونها لما عليها من ظلام البدعة والبطان، ويقولون إنكاراً: ما هذه؟ وتشتهر تلك الكلمات بين الناس بالبطان، فعليك أن تجتنب من كلمات الحكيم المنكرة الباطلة، ولكن لا تترك صحة الحكيم فإنه لعله يرجع عنها».

قلت: وليست هذه دعوة لتلق الحق عن المنافقين وأهل الأهواء، لكن هذا أمر افتراضي؛ أي أنه لو افترضنا أن الحق قيل على لسان المنافق أو صاحب الهوى فيجب قبوله ما دام الدليل قائماً عليه، وكذلك لو قيل الباطل على لسان العالم الرباني فلا يجوز قبوله لمجرد أن صاحبه من أهل الحق، فإن قبول الباطل لا يجوز من أي فرد كائنًا من كان.

وهذا بالطبع لا يتعارض مع كون الأصل هو هجر أهل الأهواء وعدم مجالستهم أو التعلم منهم، وكذلك الأصل هو قبول كلام الحكيم - أي: العالم الرباني - المؤيد بالأدلة، فإنه لا يقول الباطل في الغالب.

الشیطان على لسان الرجل فلا يحملها ولا يتأمل منه، فإن المنافق قد يقول الحق، فخذ العلم أنى جاءك فإن على الحق نوراً وإياك ومعضلات الأمور»^(١).

(٥) كلام ابن مسعود رضي الله عنه:

قال ابن أبي الدنيا في الصمت (٤٥١): حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا ابن عليه، عن ليث، عن أبي حصين، أن رجلاً أتى ابن مسعود - رضي الله عنه - فقال: علمني كلمات نوافع جوامع، فقال: «تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتزول مع القرآن أينما زال، ومن جاءك بالصدق من صغير أو كبير، وإن كان بعيداً بغيضاً فاقبله منه، ومن أتاك يكذب من صغير أو كبير، وإن كان قريباً فاردده عليه»^(٢).

قال أبو محمد بن حزم في كتابه «الإحكام في أصول الأحكام» (١٨٥/٤)، تعليقاً على هذا الأثر: «جوامع الحق: اتباع القرآن، وفيه اتباع بيان الرسول، وأخذ الحق ممن أتى به، وإن كان لا خير فيه، وممن يجب بغضه وإبعاده، وأن لا يقلد خطأ فاضل، وإن كان محبوباً واجباً تعظيمه».

(١) والأثر أخرجه أيضاً كل من: عبد الرزاق (٣٦٤/١١)، والفريابي في صفة المنافق (٤١، ٤٢)، واللاكاثي في أصول الاعتقاد (١١٦)، ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (١٨٦/٢)، والبيهقي في الكبرى (٢١٠/١٠)، وفي المدخل إلى السنن (٢٨٦-٢٨٨)، وأبو نعيم في الحلية (٢٣٢/١)، والمزي في تهذيب الكمال (٢١٩/٣٢)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٣٨، ٣٣٧/٦٥)، والخطيب في تالي تلخيص المتشابه (٤٩٧/٢)، والآجري في الشريعة (ص ٤٧، ٤٨) من طرق عن الزهري به، وإسناده صحيح.

وأخرجه الحاكم في المستدرک (٥١٣/٤) والطبراني في المعجم الكبير (١١٥/٢٠) من طريق أيوب السخيتاني عن أبي قلابة عن يزيد بن عميرة بنحوه؛ وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وصححه العلامة الألباني - رحمه الله - في صحيح أبي داود (٤٨٥٥).

(٢) وأخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (٣٣)، ومن طريقه الخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (١٣٧)، من طريق ليث به، وليث هو ابن أبي سليم، وهو ضعيف.

لكن أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٣٤/١) من طريق ابن الجعد عن شريك عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن ابن مسعود بنحوه.

وأخرجه ابن حزم في الإحكام (٥٧٠/٤) من طريق سعيد بن منصور، عن سفيان بن عيينة، عن مسعر بن كدام، عن معن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن ابن مسعود بنحوه.

وقال الطبراني في المعجم الكبير (١٥٢/٩): حدثنا محمد بن النضر الأزدي، ثنا معاوية بن سـرو، ثنا زائدة، عن الأعمش، عن سلمة بن كهيل، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: «لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً فإن آمن آمن، وإن كفر كفر، فإن كنتم لا بد مقتدين فاقتدوا بالميت، فإن الحي لا يؤمن عليه الفتنة»^(١).

وقال أيضاً في (١٥٣/٩): حدثنا محمد بن العباس الأخرم الأصبهاني، ثنا أحمد بن زياد الكوفي، ثنا عمرو بن عبد الغفار، ثنا الأعمش، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: «كنا في الجاهلية نسمي الإمعة الذي يأتي الطعام ولم يدع إليه، ألا وإن الإمعة فيكم الْمُحْقَب دينه»^(٢).

وقال البيهقي في «المدخل إلى السنن» (٣٧٨): أخبرنا أبو الحسين بن بشران، أبنا أبو جعفر محمد بن عمرو الرزاز (ح) وأخبرنا أبو محمد عبد الله بن يوسف الأصبهاني، أبنا أبو سعيد بن الأعرابي قالاً: ثنا سعدان بن نصر، ثنا سفيان، عن عاصم، عن زر قال: قال عبد الله: «اغد عالماً أو متعلماً، ولا تغد إمعة بين ذلك»^(٣).

قال سفيان: قال أبو الزعراء عن أبي الأحوص قال: قال عبد الله: «كنا ندعو الإمعة في الجاهلية الرجل الذي يدعى إلى الطعام فيذهب بآخر معه لم يدع».

-
- (١) وأخرجه أبو نعيم في الحلية (١/١٣٤)، واللالكائي (١٣٠)، وإسناده صحيح.
- (٢) وأخرجه الحاكم في المستدرک (٤/١٤٦).
- (٣) وأخرجه أيضاً يعقوب الفسوي في السنة كما في المعرفة والتاريخ (٣/٥٠١)، ومن طريقه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/٢٩)، عن الحميدي عن سفيان به، وهذا إسناد حسن.
- وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥/٢٨٤)، وأبو خيثمة في العلم (ص ٨ رقم ١) من طريق الأعمش عن تميم بن سلمة عن أبي عبيدة قال: قال عبد الله: ... وذكره.
- وأخرجه الطبراني في الكبير (٩/١٥٠) من طريق عبد الملك بن عمير عن ابن مسعود به، وزاد فيه: «فإن لم تفعل فأحب العلماء ولا تبغضهم».
- وأخرجه أيضاً أبو خيثمة في العلم (١١٦): ثنا جرير، عن أبي سنان، عن سهل الفزاري - كذا - قال: قال عبد الله: «اغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً، ولا تكونن الرابع فتهلك»، وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٤/٩٩) قال: قال لي زهير: ثنا جرير، عن أبي سنان، عن سهل الفزاري... به، والصواب: الفزاري - لا الفزاري -، قال البخاري: «وقرار قبيلة».

زاد الرزاز في روايته قال: ثنا سعدان، ثنا سفيان، ثنا عمار الدهني قال: قال عبد الله: «وهو فيكم الْمُحَقَّبُ الرجال دينه».

قال أبو عبيد في الغريب المصنّف (٤/٤٩-٥٠): «في حديث عبد الله رضي الله عنه: لا يكونن أحدكم إمعة، قيل: وما الإمعة؟ قال: الذي يقول أنا مع الناس».

(أمع) قال أبو عبيد: لم يكره عبد الله من هذا الكينونة مع الجماعة، ولكن أصل الإمعة هو الرجل الذي لا رأي له ولا عزم فهو يتابع كل أحد على رأيه ولا يثبت على شيء، وكذلك الرجل الإمرة هو: الذي يوافق كل إنسان على ما يريد من أمره كله، ويروى عن عبد الله أنه قال: كنا نعد الإمعة في الجاهلية الذي يتبع الناس إلى الطعام من غير أن يدعى، وإن الإمعة فيكم اليوم الْمُحَقَّبُ الناس دينه، والمعنى الأول يرجع إلى هذا^(١).

(٦) كلام ابن عباس رضي الله عنهما:

أخرج البيهقي في المدخل (٢/٢٨٩)، وابن حزم في الأحكام (٦/٢٥٧)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢/١١٢)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (٢/٢٧) من طريق حماد بن زيد عن المثني بن سعيد رده إلى أبي العالية قال: سمعت ابن عباس: «ويلٌ للأتباع من عثرات العالم، قيل له: كيف ذلك؟ قال: يقول العالم من قبل رأيه ثم يبلغه عن النبي ﷺ فيأخذ به، وتمضي الأتباع بما سمعت»، وفي لفظ: «فيبلغه عن النبي ﷺ خلافاً، فيرجع وتمضي

(١) وفي المدخل إلى السنن (٣٧٩): «قال أبو عبيد:... والمحقب الناس دينه: الذي يتبع هذا وهذا». وقال ابن الأثير في النهاية (١/٤١٢): «وحديث أبي أمامة: أنه أحقب زاده خلفه على راحلته أي جعله وراءه حقيقة».

(س) ومنه حديث ابن مسعود: «الإمعة فيكم اليوم المحقب الناس دينه»، وفي رواية: «الذي يُحَقَّبُ دينه الرجال»، أراد الذي يقلد دينه لكل أحد، أي يجعل دينه تابعاً لدين غيره، بلا حجة ولا برهان ولا رؤية، وهو من الإرداف على الحقيقة، ونقله ابن منظور في لسان العرب (٣/٢٥٤) ط دار إحياء التراث العربي).

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذ (٦/١٢٣): «والمراد هنا من يكون مع ما يوافق هواه ويلائم أرب نفسه وما يتمناه، وقيل: المراد هنا الذي يقول أنا مع الناس كما يكونون معي إن خيراً فخير وإن شراً فشر». وقال أبو يوسف الفسوي: قال أهل العلم: الإمعة أهل الرأي.

الأتباع بما سمعوا»، وفي لفظ آخر: «يقول العالم شيئاً برأيه، ثم يجد من هو أعلم برسول الله ﷺ منه، فيترك قوله ذلك ثم تمضي الأتباع»^(١).

قال ابن حزم: «فأعلمك ابن عباس أن كاتب رأي العالم والآنخذ به له الويل، وأن العالم يقول برأيه وأنه يلزمه ترك ذلك الرأي إذا سمع عن النبي ﷺ خلافه». اهـ
قلت: يقصد بالرأي القول العاري عن الدليل الصحيح.

وقال الإمام أحمد في مسنده (٢٥٢/١): ثنا عفان، ثنا وهيب، ثنا أيوب، عن ابن أبي مليكة قال: قال عروة لابن عباس: حتى متى تضل الناس يا ابن عباس؟ قال: ما ذاك يا عروة؟ قال: تأمرنا بالعمرة في أشهر الحج، وقد نهى أبو بكر وعمر، فقال ابن عباس: قد فعلها رسول الله ﷺ، فقال عروة: كانا هما أتبع لرسول الله ﷺ، وأعلم به منك^(٢).

قال الخطيب: «قد كان أبو بكر وعمر على ما وصفهما به عروة إلا أنه لا ينبغي أن يقلد أحداً في ترك ما ثبتت به سنة رسول الله ﷺ».

وقال الإمام أحمد في مسنده (٣٣٧/١): ثنا حجاج، ثنا شريك، عن الأعمش، عن الفضيل بن عمرو قال: أراه عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: تمتع النبي ﷺ، فقال عروة بن الزبير: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة، فقال ابن عباس، ما يقول عروة؟ قال: يقول نهى أبو بكر وعمر عن المتعة، فقال ابن عباس: أراهم سيهلكون، أقول: قال النبي ﷺ، ويقول: نهى أبو بكر وعمر^(٣).

قال ابن حزم: «والله إنها لعظيمة ما رضي بها قط أبو بكر ولا عمر - رضي الله عنهما -».

(١) هذا منقطع بين المشئى بن سعيد - ويقال: ابن سعد -، وأبو العالية، لكن وصله البيهقي من طريق سليمان بن حرب عن حماد عن المشئى عن أبي تيمية طريف بن مجالد الهجيمي عن أبي العالية رفيع بن مهران به، وهذا إسناد متصل رجاله ثقات.

(٢) إسناده صحيح: وأخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار (١٨٩/٢)، والطبراني في الأوسط (٢١)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (٣٨٣).

(٣) وأخرجه ابن حزم في حجة الوداع (٣٩١)، والمقدسي في المختارة (٣٣١/١٠)، وشريك هو ابن عبد الله النخعي، القاضي، في حفظه شيء، ويشهد له ما قبله. وهذا الأثر اشتهر بلفظ: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول لكم: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر».

وأخرج أبو نعيم في «الحلية» (٣٢٩/١)، واللاكثي في «شرح أصول الاعتقاد» (١٣١)، والأجري في «الشريعة» (ص ٥٨)، وابن حزم في «الإحكام» (٦٠٧/٤) (٣١٥/٦)، وابن بطة في «الإبانة» (٢٣٧-٢٢٨) من طرق عن عبد الله بن طاوس عن أبيه قال: قال معاوية لابن عباس: أنت على ملة علي؟ قال: لا، ولا على ملة عثمان، أنا على ملة النبي ﷺ. وفي لفظ: عن ابن عباس قال: قال لي معاوية: أنت قلت: ما أنا بعلي ولا عثماني، ولكنني على ملة رسول الله ﷺ.

(٧) كلام عبادة بن الصامت رضي الله عنه:

قال الشافعي في «السنن المأثورة» (٢٣٠): أخبرنا عبد الوهاب بن عبد المجيد، عن أيوب السختياني، عن أبي قلابه، عن أبي الأشعث قال: كنا في غزاة علينا معاوية فأصبنا ذهباً وفضة، فأمر معاوية رجلاً أن يبيعها الناس في أعطياتهم، قال: فسارع الناس فيها فقام عبادة، فنهاهم فردوها، فأتى الرجل معاوية فشكا إليه، فقام معاوية خطيباً فقال: ما بال رجال يحدثون عن رسول الله ﷺ أحاديث يكذبون فيها على رسول الله ﷺ لم نسمعها، فقام عبادة فقال: والله لنحدثن عن رسول الله ﷺ، وإن كره معاوية، قال رسول الله ﷺ: «لا تبيعوا الذهب بالذهب، ولا الفضة بالفضة، ولا البر بالبر، ولا الشعير بالشعير، ولا التمر بالتمر، ولا الملح بالملح إلا مثلاً بمثل، سواء بسواء، يداً بيد، عيناً بعين».

وأخرجه مسلم (١٥٨٧) بنحوه من طريق حماد بن زيد، عن أيوب به، وزاد في المرفوع: «فمن زاد أو ازداد فقد أربى»، وفيه أيضاً: فقام عبادة بن الصامت فأعاد القصة، ثم قال: لنحدثن بما سمعنا من رسول الله ﷺ وإن كره معاوية، أو قال: وإن رغم، ما أبالي أن لا أصحبه في جندة ليلة سوداء^(١).

قال النووي في شرحه على مسلم (١٣/١١): «وفي هذا الاهتمام بتبليغ السنن ونشر العلم وإن كرهه من كرهه لمعنى، وفيه القول بالحق وإن كان المقول له كبيراً».

(١) وأخرجه ابن أبي شيبه في مصنفه (٤٩٦/٤)، والطحاوي في شرح المعاني (٩٦/٤)، والبيهقي في الكبرى (١٣٥/٥)، وأبو عوانة في مسنده (٣٨١/٣)، وإسماعيل بن إسحاق القاضي في «جزء فيه أحاديث أيوب السختياني» (٢٨).

قال مالك في «الموطأ» (٣٨٩/٣) (١٤٤٢) (الموطأ برواياته الثمانية): عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، أن معاوية بن أبي سفيان باع سقاية من ذهب أو ورق بأكثر من وزنها، فقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذا إلا مثلاً بمثل، فقال له معاوية: ما أرى بمثل هذا بأساً، فقال أبو الدرداء: مَنْ يعذرني من معاوية؟ أنا أخبره عن رسول الله ﷺ، ويخبرني عن رأيه؟ لا أسألك بأرض أنت بها!! ثم قدم أبو الدرداء على عمر بن الخطاب فذكر ذلك له، فكتب عمر بن الخطاب إلى معاوية: أن لا تباع ذلك إلا مثلاً بمثل وزناً بوزن^(١).

(٨) كلام ابن عمر رضي الله عنهما:

قال مسلم (١٢٣٣): حدثنا يحيى بن يحيى، أخبرنا عبث، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن وبرة قال: كنت جالساً عند ابن عمر فجاءه رجل فقال: أياصلح لي أن أطوف بالبيت قبل أن آتي الموقف؟ فقال: نعم، فقال: فإن ابن عباس يقول: لا تطف بالبيت حتى تأتي

(١) وأخرجه الشافعي في الرسالة (٤٤٦)، وكما في مسنده (ص ٢٤٢)، وفي السنن المأثورة (٢٢٣)، والبيهقي في الكبرى (٢٨٠/٥)، وفي «معركة السنن والآثار» (٢٩٣/٤)، والجوهري في مسند الموطأ (٣٤٨)، والهروي في ذم الكلام (٢٢٧/٢)، والذهبي في معجم الشيوخ (١٩٨/٢) من طريق مالك به. وأخرجه مختصراً النسائي في المجتبى (٤٥٧٢) عن قتيبة عن مالك به. قال ابن عبد البر في التمهيد (٧٠/٤): «ظاهر هذا الحديث الانقطاع؛ لأن عطاء لا أحفظ له سماعاً من أبي الدرداء، وما أظنه سمع منه شيئاً؛ لأن أبا الدرداء توفي بالشام في خلافة عثمان لستين بقيتاً من خلافته، ذكر ذلك أبو زرعة عن أبي مسهر عن سعيد بن عبد العزيز».

ثم قال: «وممكن أن يكون سمع عطاء بن يسار من معاوية؛ لأن معاوية توفي سنة ستين وقد سمع عطاء بن يسار من أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن عمر، وجماعة من الصحابة هم أقدم موتاً من معاوية، ولكنه لم يشهد هذه القصة؛ لأنها كانت في زمن عمر وتوفي عمر سنة ثلاث وعشرين أو أربع وعشرين من الهجرة واختلف في وقت وفاة عطاء بن يسار، فقال الهيثم بن عدي: توفي سنة سبع وتسعين، وقال الواقدي توفي عطاء بن يسار سنة ثلاث ومائة وهو ابن أربع وثمانين سنة أخبرني بذلك أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه، على أن هذه القصة لا يعرفها أهل العلم لأبي الدرداء إلا من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار وأنكرها بعضهم؛ لأن شبيهاً بهذه القصة عرضت لمعاوية مع عبادة بن الصامت وهي صحيحة مشهورة محفوظة لعبادة مع معاوية من وجوه وطرق شتى».

لذلك قال الجوهري: «وهذا حديث مرسل».

الموقف، فقال ابن عمر: فقد حجَّ رسول الله ﷺ فطاف بالبيت قبل أن يأتي الموقف، فبقول رسول الله ﷺ أحق أن تأخذ، أو بقول ابن عباس إن كنت صادقاً.

وفي لفظ: «فسنة الله وسنة رسوله ﷺ أحق أن تتبع من سنة فلان إن كنت صادقاً».

وفي لفظ ثالث عند الهروي في «ذم الكلام» (٢٩١): «سنة رسول الله ﷺ أحق أن تتبع من سنة ابن عباس».

وقال الإمام مسلم (٤٤٢): حدثني حرملة بن يحيى، أخبرنا ابن وهب أخبرني يونس، عن ابن شهاب قال: أخبرني سالم بن عبد الله: أن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنكم إليها»، قال: فقال بلال بن عبد الله: والله لنمنعن، قال: فأقبل عليه عبد الله فسبَّه سباً سيئاً ما سمعته سبَّه مثله قط، وقال: أخبرك عن رسول الله ﷺ، وتقول والله لنمنعن.

وقال البخاري في صحيحه: كتاب الحج، باب: تقبيل الحجر: حدثنا مسدد حدثنا حماد عن الزبير بن عري قال: سأل رجل ابن عمر -رضي الله عنهما- عن استلام الحجر؟ فقال: رأيت رسول الله ﷺ يستلمه ويقبله، قال: قلت: رأيت إن زحمت، رأيت إن غلبت؟ قال: اجعل رأيت باليمن، رأيت رسول الله ﷺ يستلمه ويقبله.

(٩) كلام عمران بن حصين رضي الله عنه:

قال البخاري في صحيحه (٦١١٧): حدثنا آدم، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أبي السوار العدوي قال: سمعت عمران بن حصين قال: قال النبي ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير»، فقال بشير بن كعب: مكتوب في الحكمة: «إن من الحياء وقاراً، وإن من الحياء سكينه»، فقال له عمران: أحدثك عن رسول الله ﷺ، وتحدثني عن صحيفتك.

وأخرجه مسلم (٣٧) من طريق شعبة به، وأخرجه أيضاً من طريق أخرى عن أبي قتادة قال: كنا عند عمران بن حصين في رهط منا وفيها بشير بن كعب فحدثنا عمران يومئذ قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء خير كله»، قال: -أو قال-: «الحياء كله خير»، فقال بشير بن كعب: إنا لنجد في بعض الكتب أو الحكمة أن منه سكينه ووقاراً لله، ومنه ضعف، قال فغضب عمران حتى احمرَّتَا عيناه، وقال: ألا أراني أحدثك عن رسول الله ﷺ، وتعارض فيه،

قال: فأعاد عمران الحديث، قال فأعاد بشير: فغضب عمران، قال: فما زلنا نقول فيه إنه منا يا أبا نجيذ، إنه لا بأس به.

(١٠) كلام أبي هريرة رضي الله عنه:

قال ابن ماجه في «سننه» (٤٨٥): حدثنا محمد بن الصباح، ثنا سفيان بن عيينة، عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، أن النبي ﷺ قال: «توضؤوا مما غيّرت النار»، فقال ابن عباس: أتوضأ من الحميم؟! فقال له يا ابن أخي: إذا سمعت عن رسول الله ﷺ حديثاً؛ فلا تضرب له الأمثال^(١).

(١١) كلام سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

قال الشافعي في «الأم» (٢١٥/٧): أخبرنا ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن سالم بن عبد الله قال^(٢): قال عمر: من رمى الجمرة فقد حلّ ما حرم عليه إلا النساء والطيب، وقال سالم: قالت عائشة: طيّبت رسول الله ﷺ بيدي، وسنة رسول الله ﷺ أحق أن تتبع^(٣). قال ابن حزم في «المحلى» (٨٥/٧): «هكذا نص كلام سالم في الحديث، ولم يتبع ما جاء عن أبيه وجده في ذلك».

قلت: هكذا ترى سالم في بيت ابن عمر على عدم التعصّب للرجال، وإن كانوا آباءه وأجداده.

قال ابن حزم في «حجة الوداع» (ص ٢٤٨): «وقد خالف سالم أباه وجده كما ترى يرحمه الله فهكذا يفعل المؤمن»، ثم قال: «وهؤلاء لا يرون تنكب قول مالك وأبي حنيفة لسنة رسول الله ﷺ، فسالم يترك قول أبيه لسنة النبي ﷺ، وهؤلاء لا يرون ذلك لسنة ﷺ».

(١) إسناده حسن: وأخرجه الترمذي (٧٩).

(٢) جاء في مسند الشافعي: «ربما قال عن أبيه وربما لم يقله»، قلت: وصرح الشافعي في الأم بأنه رواه عن أبيه، وكذا ابن حزم في المحلى.

(٣) وأخرجه الشافعي كما في مسنده (ص ١١٩)، والحميدي في مسنده (٢١٢)، والبيهقي في الكبرى (١٣٥/٥)، وابن خزيمة في صحيحه (٢٩٣٨)، وابن حزم في المحلى (١٣٩/٧)، وفي حجة الوداع (٢٤٦)، وفي الإحكام (٢٩١/٦).

(١٢) كلام سعيد بن المسيّب رضي الله عنه:

قال البخاري في صحيحه: كتاب المغازي، باب: غزوة الحديبية: حدثنا محمود، حدثنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن طارق بن عبد الله قال: انطلقت حاجاً، فمررت بقوم يصلون، قلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، فأتيت سعيد بن المسيّب فأخبرته، فقال سعيد: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فلما خرجنا من العام المقبل أنسيناها، فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها، وعلمتموها أنتم فأنتم أعلم. وأخرجه مسلم (١٨٥٩).

(١٣) كلام محمد بن سيرين:

أخرج عبد الرزاق في المصنف (٢٢٢/٧) عن معمر، عن أيوب، عن ابن سيرين قال: «ما أرى عدة الأمة إلا كعدة الحرة إلا أن يكون مضت بذلك سنة، فالسنة أحق أن تتبع». (١٤) كلام الحسن البصري:

أخرج ابن بطة في الإبانة (٣٨٩/١) من طريق روح بن عبادة ثنا عوف عن الحسن أنه كان يقول: «اتهموا أهواءكم ورأيكم على دين الله، وانتصخوا كتاب الله على أنفسكم». (١٥) كلام عمر بن عبد العزيز:

قال الدارمي في سننه (٤٣٢): أخبرنا الحسن بن بشر، ثنا المعافى، عن الأوزاعي قال: كتب عمر بن عبد العزيز أنه لا رأي لأحد في كتاب، وإنما رأي الأئمة فيما لم ينزل فيه كتاب، ولم تمض به سنة من رسول الله ﷺ، ولا رأي لأحد في سنة سنّها رسول الله ﷺ^(١). وقال ابن سعد في الطبقات (٣٤٠/٥) أخبرنا يزيد بن هارون قال: أخبرنا عبد الله بن يونس الثقفي عن سيار أبي الحكم قال: كان أول ما أنكر من عمر بن عبد العزيز أنه لما

(١) إسناده جيد: وأخرجه المروزي في السنة (٨٢-بتحقيقي)، وفي تعظيم قدر الصلاة (٧٤٦)، من طريق بشر بن عبد الله بن يسار وسواده بن زياد وعمرو بن مهاجر، والآجري في الشريعة (١١٣)، وابن حزم في الإحكام (٢٢١/٦)، والهروي في «ذم الكلام» (٢٩٩/٢) من الطريق نفسه لكن بإسقاط بشر.

دفن سليمان بن عبد الملك أتي بدابة سليمان التي كان يركب فلم يركبها، وركب دابته التي جاء عليها فدخل القصر، وقد مهدت له فرش سليمان التي كان يجلس عليها فلم يجلس عليها، ثم خرج إلى المسجد فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإنه ليس بعد نبيكم نبي، ولا بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب، ألا إن ما أحل الله حلال إلى يوم القيامة وما حرم الله حرام إلى يوم القيامة، ألا إني لست بقاضٍ ولكني منفذ، إلا أني لست بمبتدع ولكني متبع، ألا إنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله، ألا إني لست بخيركم، ولكني رجل منكم غير أن الله جعلني أثقلكم حملاً، ثم ذكر حاجته^(١).

(١٦) كلام محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري:

قال الخطيب في الفقيه والمتفقه (٣٩٦): أنا البرقاني قال: قرئ على أبي العباس بن حمدان وأنا أسمع، حدثكم محمد بن أيوب، أنا أبو الربيع، حدثنا حماد نا أيوب قال: سأل الحكم بن عتيبة الزهري -وأنا شاهد- على عدة أم الولد، فقال: «السنة أربعة أشهر وعشراً»، فقال الحكم: ما يقول ذلك أصحابنا، قال: فغضب، وقال: «يأتيكم الحديث عن رسول الله ﷺ، ثم تعرضون له برأيكم؟!»، قال: «إن بريرة أعتقت، فأمرها رسول الله ﷺ أن تعتد عدة الحرة».

(١) وأخرجه يعقوب بن سفيان في (١/٥٧٤)، ومن طريقه البيهقي في المدخل (٣٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٣/٢٦٤) من طريق ابن بكير حدثني الليث عن عبد العزيز بن أبي سلمة عن عبيد الله ابن عمر بن حفص عن رجل من أهل واسط يقال له شيبه بن مساور أنه سمع عمر بن عبد العزيز... وذكره بنحوه، وفيه زيادة: «ألا وأنه ليس لأحد أن يطاع في معاصي الله ألا هل أسمعت ألا هل أسمعت».

وهذا إسناد رجاله ثقات ماعدا شيبه، فقد ترجمه ابن بحشل في تاريخ واسط (١٨٧)، ولم يورد في ترجمته إلا هذا الأثر.

وأخرجه الدارمي في سننه (٤٣٣) من طريق معتمر بن سليمان عن عبيد الله عن عمر به -ياسقاط شيبه-.

وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٥/٣٦٨) فقال: أخبرنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب قال أخبرنا مالك بن أنس قال: قال عمر بن عبد العزيز... وذكره مختصراً.

وأخرجه من طرق أخرى: أبو نعيم في الحلية (٥/٢٩٦)، وابن عساكر (٤٥/١٧٢).

(١٧) كلام وكيع بن الجراح:

قال أبو عيسى الترمذي في الجامع (٩٠٦) وسمعت أبا السائب يقول: كنا عند وكيع فقال لرجل عنده -ممن ينظر في الرأي-: أشعر رسول الله ﷺ ويقول أبو حنيفة هو مثله، قال الرجل: فإنه قد روي عن إبراهيم النخعي أنه قال: الإشعار مثله، قال: فرأيت وكيعاً غضب غضباً شديداً، وقال: أقول لك قال رسول الله ﷺ، وتقول قال إبراهيم، ما أحقك بأن تحبس، ثم لا تخرج حتى تنزع عن قولك هذا.

(١٨) كلام محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب^(١):

قال الشافعي في الرسالة (ص ٤٥٠)^(٢): أخبرني أبو حنيفة بن سماك بن الفضل الشَّهَابِي^(٣) قال: حدثني ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي شريح الكعبي، أن النبي قال عام الفتح: «من قُتل له قتيل فهو بخير النظرين: إن أحب أخذ العقل، وإن أحب فله القود»، قال أبو حنيفة: فقلت لابن أبي ذئب: أتأخذ بهذا يا أبا الحارث؟ فضرب صدري، وصاح عليّ صياحاً كثيراً، ونال مني، وقال: أحذثك عن رسول الله، وتقول: تأخذ به!! نعم أخذ به، وذلك الفرض عليّ، وعلى من سمعه، إن الله اختار محمداً من الناس فهداهم به، وعلى يديه واختار لهم ما اختار له وعلى لسانه، فعلى الخلق أن يتبعوه طائعين أو داخرين، لا مخرج لمسلم من ذلك، قال: وما سكنت حتى تمنيت أن يسكت.

(١) أحد الأعلام الثقات متفق على عدالته، كما في الميزان للذهبي، وهو من رواة الجماعة، وقال أبو داود: سمعت أحمد بن حنبل يقول: كان ابن أبي ذئب يشبه بسعيد بن المسيب، قيل لأحمد: خلف مثله ببلاده؟ قال: لا، ولا بغيرها.

وقال يونس بن عبد الأعلى: سمعت الشافعي يقول: ما فاتني أحد فأسفت عليه ما أسفت على الليث وابن أبي ذئب.

(٢) وأخرجه أيضاً كما في مسنده (ص ٢٤٣).

والخطيب في الفقيه والمتفقه (٢٨١) من طريق الربيع عن الشافعي به.

(٣) انظر بحثاً مائعاً للعلامة المحدث أحمد شاكر -رحمه الله- في تعليقه على الرسالة، فيه تمييز هذا الرواي عن غيره ممن اشتبه به عند الحفاظ وغيره، وقد عزا ترجمته إلى الكنى للدولابي (١/١٥٩)، (١٦٠)، وفيها أخرج الدولابي ذلك الأثر عن الربيع عن الشافعي.

(١٩) كلام الأوزاعي:

قال الأجرى في «الشرعة» (ص ٥٨): قال: أخبرنا العباس بن الوليد بن مزيد البيروتي قال: أخبرني أبي قال: سمعت الأوزاعي يقول: عليك بآثار من سلف؛ وإن رفضك الناس، وإياك ورأي الرجال وإن زخرفوه بالقول^(١).

(٢٠) كلام أبي حنيفة:

أخرج ابن عبد البر في «الانتقاء» (ص ١٤٤) من طريق إبراهيم بن هانئ قال: قيل لنعيم ابن حماد: ما أشد إزرائهم على أبي حنيفة، إنما ينقم على أبي حنيفة ما حدثنا عنه أبو عصمة -نوح الجامع- قال: سمعت أبا حنيفة يقول: ما جاءنا عن رسول الله ﷺ، قبلناه على الرأس والعينين، وما جاءنا عن أصحابه -رحمهم الله- اخترنا منه، ولم نخرج عن قولهم، وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال، وأما غير ذلك فلا تسمع التشنيع^(٢).

وأخرج أيضاً ابن عبد البر (١٤٤) من طريق علي بن الحسن بن شقيق قال: نا أبو حمزة قال: سمعت أبا حنيفة يقول: «إذا جاءنا الحديث عن رسول الله ﷺ أخذنا به، وإذا جاءنا عن الصحابة تخيرنا، وإذا جاءنا عن التابعين زاحمناهم».

وأخرج أيضاً (ص ١٤٣) من طريق ابن معين قال: نا عبد الله بن أبي قرة، عن يحيى بن ضريس^(٣) قال: قال أبو حنيفة: إذا لم يكن في كتاب الله، ولا في سنة رسول الله نظرت في أقاويل أصحابه، ولا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم، فإذا انتهى الأمر أو جاء الأمر إلى إبراهيم والشعبي وابن سيرين والحسن وعطاء وسعيد بن جبير، وعدد رجالاً، فقوم اجتهدوا فأجتهد كما اجتهدوا، فسكت سفيان طويلاً، ثم قال كلمات: ما بقي أحد في المجلس إلا

(١) وأخرجه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (٦)، والبيهقي في المدخل (٢٣٣)، والهروي في ذم الكلام (٣٢٤) من طريق العباس به، وزادوا في آخره: «فإن الأمر ينجلي وأنت على طريق مستقيم».

(٢) وذكره الذهبي في «مناقب أبي حنيفة وصاحبيه» (ص ٢٠).

(٣) جاء في رواية الذهبي زيادة عن ابن الضريس أنه قال: «شهدت الثوري وأتاه رجل فقال: ما تنقم على أبي حنيفة؟ قال: وما له؟ قال: سمعته يقول... وذكره».

كتبهن: «نستمع الشديد من الحديث فنخافه ونستمع اللين فنرجو ولا نحاسب الأحياء، ولا يقضي على الأموات نسلم ما سمعنا، ونكل ما لم نعلم إلى عالمه ونتهم رأينا لرأيهم»^(١).

وقال أيضاً: «حرام على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي».

وقال الدمهوري في «إتحاف المهتدين بمناقب أئمة الدين» (ق ١١/أ): «وذكر بعضهم أنه كان يجمع العلماء في كل مسألة لم يجدها صريحة في الكتاب والسنة، ويعمل بما يتفقون عليه... وكذلك كان يفعل إذا استنبط حكماً فلا يكتبه حتى يجمع عليه علماء عصره، فإن رضوه قال لأبي يوسف: اكتبه»، ثم قال: «وكان إذا أفتى يقول: هذا رأي أبي حنيفة، وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن أتى بأحسن منه فهو أولى».

وقال الذهبي في «مناقب أبي حنيفة» (ص ٢١): «قال ابن حزم: جميع أصحاب أبي حنيفة مجمعون على أن مذهب أبي حنيفة أن ضعيف الحديث أولى عنده من القياس والرأي».

(٢١) كلام مالك بن أنس:

بؤب ابن أبي حاتم في مقدمة الجرح والتعديل (ص ٣١) قائلاً: «باب ما ذكر من اتباع مالك لأثار رسول الله ﷺ، ونزوعه عن فتواه عندما حدث عن النبي ﷺ خلافه».

ثم قال: نا أحمد بن عبد الرحمن بن أخي بن وهب قال: سمعت عمي يقول: سمعت مالكا: سئل عن تخليل أصابع الرجلين في الوضوء؟ فقال: ليس ذلك على الناس، قال: فتركته حتى خف الناس، فقلت له: عندنا في ذلك سنة، فقال: وما هي؟ قلت: حدثنا الليث بن سعد وابن لهيعة وعمرو بن الحارث عن يزيد بن عمرو المعافري عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن المستورد بن شداد القرشي قال: رأيت رسول الله ﷺ يدلك بخنصره ما بين أصابع رجليه، فقال: إن هذا الحديث حسن، وما سمعت به قط إلا الساعة، ثم سمعته بعد ذلك يسأل فيأمر بتخليل الأصابع.

وقال الإمام مالك: «إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه».

(١) وذكره الذهبي في «مناقب أبي حنيفة وصاحبيه» (ص ٢٠-٢١).

وذكر ابن مزين، عن عيسى بن دينار قال: عن القاسم عن مالك قال: ليس كلما قال رجل قولاً - وإن كان له فضل - يُتبع عليه؛ لقول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨]^(١).

وقال الإمام أحمد في «العلل ومعرفة الرجال» (١٥٨٥) (رواية عبد الله): قال حدثنا إسحاق بن الطباع قال: رأيت مالك بن أنس يعيب الجدال والمرء في الدين، قال: أفكلما كان رجل أجدل من رجل أردنا أن نرد ما جاء به جبريل إلى النبي ﷺ^(٢).

وقال ابن بطة في «الإبانة» (٣٥٥/١): حدثنا أبو عبد الله بن مخلد وجعفر القافلائي قالوا: حدثنا محمد بن إسحاق الصاغانى قال: حدثنا يعقوب الدورقي قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي قال مالك بن أنس: قيل لرجل عند الموت: على أي دين تموت؟ قال: على دين أبي عمارة، كأنه رجل كان يتولاه من بعض أهل الأهواء، قال: فقال مالك: يدع المشؤوم دين أبي القاسم، ويموت على دين أبي عمارة.

وقال ابن القيم في «الإعلام» (ص ٣٧٧): «وقد صرح مالك بأن من ترك قول عمر بن الخطاب لقول إبراهيم النخعي أنه يُستتاب، فكيف بمن ترك قول الله ورسوله لقول من هو دون إبراهيم أو مثله؟!

وقال جعفر الفريابي: حدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي، حدثني الهيثم بن جميل قال: قلت لمالك بن أنس: يا أبا عبد الله إن عندنا قومًا وضعوا كتبًا يقول أحدهم: ثنا فلان عن فلان عن عمر بن الخطاب بكذا وكذا، وفلان عن إبراهيم بكذا، ويأخذ بقول إبراهيم، قال مالك: وصح عندهم قول عمر؟ قلت: إنما هي رواية كما صحَّ عندهم قول إبراهيم، فقال مالك: هؤلاء يستتابون، والله أعلم. اهـ.

(١) ذكره ابن القيم في إعلام الموقعين (ص ٣٧٥)، وعليش في فتح العلي المالك (١٣٩/٢)، وانظر أيضاً مجموعة التوحيد: «أسباب نجاة السؤل من السيف المسلول» (ص ١٦٨).

(٢) وأخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٧٣١)، واللاكاثي في شرح أصول الاعتقاد (٢٩٣)، والبيهقي في المدخل (٢٣٨)، وفي الشعب (٨٤٩٠)، وأبو نعيم في الحلية (٣٢٤/٦)، وذكره السيوطي في «تزيين الممالك» (ق ١/٧).

(٢٢) كلام محمد بن إدريس الشافعي:

قال ابن أبي حاتم في «آداب الشافعي» (ص ٦٧): حدثنا الربيع بن سليمان المرادي قال: سمعت الشافعي - وذكر حديثاً عن النبي ﷺ - فقال له رجل: تأخذ به يا أبا عبد الله؟ فقال: «سبحان الله! أروي عن رسول الله ﷺ شيئاً لا آخذ به؟! متى عرفت لرسول الله ﷺ حديثاً، ولم آخذ به: فأنا أشهدكم أن عقلي قد ذهب».

ثم قال: وحدثني أبي عن الربيع بزيادة - لم أسمعها من الربيع - قال: سمعت الشافعي يقول: متى سمعتني حدثت بحديث عن رسول الله ﷺ: صحيح؛ فلم آخذ به: فأنا أشهدكم أن عقلي قد ذهب».

ثم قال: حدثنا أبي قال: سمعت حرمة بن يحيى يقول: قال الشافعي: «كل ما قلت - وكان عن النبي ﷺ - خلاف قولي: مما يصح؛ فحديث النبي ﷺ أولى؛ فلا تقلدوني»^(١). ثم قال (ص ٩٣): أخبرني أبو محمد البستي السجستاني - فيما كتب إلي - عن أبي ثور قال: سمعت الشافعي يقول: «كل حديث عن النبي ﷺ فهو قولي، وإن لم تسمعه مني». ثم قال (ص ٩٤): حدثنا أبو محمد البستي - نزيل مكة - فيما كتبه إلي - قال: قال الحسين: قال لنا الشافعي: «إن أصبتم الحجة في الطريق: مطروحة؛ فاحكوها عني، فإنني قائل بها».

ثم قال: أخبرني عبد الله بن أحمد بن حنبل - فيما كتب إلي - قال: قال أبي: قال لنا الشافعي: «أنتم أعلم بالحديث والرجال مني، فإذا كان الحديث صحيحاً، فأعلموني: كوفيّاً كان، أو بصريّاً، أو شامياً؛ حتى أذهب إليه، إذا كان صحيحاً».

وقال أيضاً كما في (ص ٨٢): أخبرني أبي: حدثنا أحمد بن أبي سريج قال: سمعت الشافعي يقول: «يقولون: يحابي، فلو حابينا: لحابينا الزهري؛ وإرسال الزهري: ليس بشيء؛ وذلك أننا نجد روى عن سليمان بن أرقم».

قلت: وهذا يبرهن أن الشافعي ما كان يتعصب لإمام من الأئمة مهما كان قدره وعلمه

(١) وكرر ابن أبي حاتم هنا الأثر مع الأثر الأول في (ص ٩٣-٩٤).

على حساب الحق؛ فهل يتعظ الأصاغر المتعصبون، ويتأسون بالشافعي، أم يصرون على مشابهة الرافضة في تعصبهم لأنمتهم!!؟

وقال ابن أبي حاتم أيضاً في (ص ٨١): أخبرني عبد الله بن أحمد بن حنبل -فيما كتب إليّ- سمعت أبي يقول: كان الشافعي إذا ثبت عنده الخبر: قلّده؛ وخير خصلة كانت فيه: لم يكن يشتهي الكلام؛ وإنما همته الفقه^(١).

وقال في (ص ٩٩، ١٠٠): في كتابي عن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي -وذكر من يحمل العلم جزافاً- فقال: هذا مثل حاطب ليل: يقطع حزمة الحطب فيحملها، ولعل فيها أفعه تلدغه، وهو لا يدري.

وقال البيهقي في «مناقب الشافعي» (١/٧٢): أخبرنا أبو سعيد محمد بن موسى قال: حدثنا أبو عباس الأصم قال حدثنا الربيع بن سليمان قال: قال الشافعي: قد أعطيتك جملة تغنيك إن شاء الله: «لا تدع لرسول الله ﷺ حديثاً أبداً، إلا أن يأتي عن رسول الله ﷺ خلافه، فتعمل بما قلت لك في الأحاديث إذا اختلفت»^(٢).

ثم قال: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو سعيد بن أبي عمرو قالوا: سمعنا أبا العباس محمد بن يعقوب -وهو الأصم- يقول: سمعت الربيع بن سليمان المرادي يقول: سمعت الشافعي يقول: «إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ؛ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ، ودعوا ما قلت»^(٣).

وأخبرنا أبو الحسين بن بشران قال: حدثنا دعلج بن أحمد قال: سمعت أبا محمد الجارودي سمعت الربيع يقول: سمعت الشافعي يقول: «إذا وجدتم سنة من رسول الله ﷺ، خلاف قولي فخذوا بالسنة ودعوا قولِي؛ فإنِّي أقول بها»^(٤).

أخبرنا أبو حازم عمر بن أحمد العبدوني الحافظ قال: سمعت أبا عمرو بن مطر

(١) الأسانيد السابقة التي نقلتها من «آداب الشافعي» كلها صحيحة.

(٢) هذا النص بتمامه في كتاب «اختلاف مالك والشافعي» (٨/٥٣٥/الأم ط دار الوفاء).

(٣) وأخرجه الهروي في ذم الكلام (٣٩٦) قال: أخبرنا محمد بن موسى، ثنا محمد بن يعقوب به.

(٤) وأخرجه الهروي في ذم الكلام (٣٠٣/٢).

يقول: سمعت أبا جعفر الأرخياني يقول: سمعت أحمد بن علي بن عيسى بن ماهان الرازي يقول: سمعت الربيع بن سليمان يقول: سمعت الشافعي يقول: «كل مسألة تكلمت فيها صحَّ الخبر عن النبي ﷺ، عند أهل النقل بخلاف ما قلت، فأنا راجع عنها في حياتي وبعد موتي»^(١).

وقال أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠٦/٩): حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن، ثنا بشر بن موسى، ثنا الحميدي قال: كنت بمصر فحدث محمد بن إدريس الشافعي بحديث عن رسول الله ﷺ، فقال له رجل: يا أبا عبد الله تأخذ بها؟ فقال: «إن رأيتني خرجت من الكنيسة أو ترى علي زناراً! إذا ثبت عندي عن رسول الله ﷺ حديث قلت به، وقولته إياه ولم أزل عنه؛ وإن هو لم يثبت عندي لم أقله إياه، أترى علي زناراً حتى لا أقول به؟»^(٢).

ثم قال أبو نعيم: حدثنا محمد بن علي بن حبيش، ثنا الحسن بن علي الجصاص قال: سمعت الربيع بن سليمان يقول: سأل رجل الشافعي عن حديث النبي ﷺ، فقال له الرجل: فما تقول؟ فارتعد وانتفض وقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا رويت عن رسول الله ﷺ، وقلت بغيره^(٣).

وزاد البيهقي: قال الربيع: وسمعت الشافعي يقول: «ما من أحد إلا تذهب عنه سنة لرسول الله ﷺ وتعزب عنه، فمهما قلت من قول أو أصلت من أصل فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت، فالقول ما قال رسول الله ﷺ، وهو قولي».

وقال: «إذا صح خبر يخالف مذهبي فاتبعوه واعلموا أنه مذهبي».

وقال: «أجمع المسلمون على أن من استبان له سنة عن رسول الله ﷺ لم يحل له أن يدعها لقول أحد».

(١) وأخرجه الهروي في ذم الكلام (٣٠٢/٢) من طريق أبي جعفر الأصبهاني به.

(٢) وأخرجه البيهقي في مناقب الشافعي (٤٧٤/١) قال: قرأت في كتاب أبي الحسن العاصمي فيما أخبره أبو العباس الأزهري قال: سمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول: سمعت الحميدي به.

(٣) وأخرجه البيهقي في مناقب الشافعي (٤٧٤/١) من طريق أبي سعيد الجصاص به.

وقال: «إذا صح الحديث فهو مذهبي»^(١).

وأخرج الخطيب في الفقيه والمتفقه (٣٩٨) بإسناد صحيح عن الشافعي قال: «لقد ضلّ من ترك حديث رسول الله ﷺ لقول من بعده».

وقال في الرسالة (ص ٤٢٥): «فإن قال قائل فادلني على أن عمر عمل شيئاً، ثم صار إلى غيره بخبر عن رسول الله ﷺ».

قلت: فإن أوجدته؟

قال: ففي إيجادك إياي ذلك دليل على أمرين: أحدهما: أنه قد يقول من جهة الرأي إذا لم توجد سنة، والآخر: أن السنة إذا وجدت وجب عليه ترك عمل نفسه، ووجب على الناس ترك كل عمل وجدت السنة بخلافه، وإبطال أن السنة لا تثبت إلا بخبر بعدها، وعلم أنه لا يوهنها شيء غن خالفها».

وانظر قواعد التحديث (ص ٣٠٣).

وقال رحمه الله في أول كتابه «جماع العلم» (ص ٥/الأم-مجلد ٩ ط دار الوفاء): «لا أعلم أحداً نسبته الناس، أو نسب نفسه إلى علم يخالف في أن فرض الله عز وجل اتباع أمر رسول الله ﷺ، والتسليم لحكمه؛ بأن الله -جل ثناءؤه- لم يجعل لأحد بعده إلا اتباعه، وأنه لا يلزم قول بأي حال إلا بكتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، وأن ما سواهما تبع لهما، وأن الله فرض علينا وعلى من بعدنا وقبلنا في قبول الخبر عن رسول الله ﷺ لا يختلف في أن الفرض والواجب قبول الخبر عن رسول الله ﷺ».

وقال الربيع بن سليمان المرادي رحمه الله في كتاب «اختلاف مالك والشافعي» (الأم ٥١٣/٨- ط دار الوفاء): «سألت الشافعي: بأي شيء ثبت الخبر عن رسول الله ﷺ؟... فقال: إذا حدث الثقة عن الثقة حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ، فهو ثابت عن رسول الله ﷺ، ولا

(١) قال تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي في رسالة «معنى قول الإمام المطلبي: إذا صح الحديث فهو مذهبي» (١/٩٨-الرسائل المنيرية): «سألت وفقك الله عن قول إمامنا الشافعي -رضي الله عنه-: إذا صح الحديث فهو مذهبي، وهو قول مشهور عنه، لم يختلف الناس في أنه قاله، وروي عنه معناه أيضاً بالفاظ مختلفة»، ثم بدأ يسرد بعض الأقوال التي أوردناها أعلاه.

نترك لرسول الله حديثاً أبداً إلا حديثاً وجد عن رسول الله ﷺ حديث يخالفه..» ثم قال: «فإذا كان الحديث عن رسول الله ﷺ لا مخالف له عنه، وكان يروى عن رسول الله ﷺ حديث يوافقه لم يزد قوة، وحديث النبي ﷺ مستغن بنفسه، وإن كان يروى عن رسول الله ﷺ حديث يخالفه، لم ألتفت إلى ما خالفه، وحديث رسول الله ﷺ أولى أن يؤخذ به.» اهـ.

وقال ابن حبان في صحيحه (٤٩٧/٥) (ص ٦٤٩) (ط دار المعرفة): «سمعت ابن خزيمة يقول سمعت المزني يقول سمعت الشافعي يقول: إذا صح لكم الحديث عن رسول الله ﷺ فخذوا به ودعوا قولي.»

وللشافعي -رحمة الله عليه- في كثرة عنايته بالسنن وجمعه لها وتفقهه فيها وذبه عن حريمها وقمعه من خالفها زعم أن الخبر إذا صح فهو قائل به راجع عما تقدم من قوله في كتبه، وهذا مما ذكرناه في كتاب الميز^(١) أن للشافعي رحمه الله ثلاث كلمات ما تكلم بها أحد في الإسلام قبله ولا تفوه بها أحد بعده إلا والمأخذ فيها كان عنه، إحداها: ما وصفت.

والثانية: أخبرني محمد بن المنذر بن سعيد، عن الحسن بن محمد الصباح الزعفراني قال: سمعت الشافعي يقول: ما ناظرت أحداً قط فأحببت أن يخطئ^(٢).

والثالثة: سمعت موسى بن محمد الديلمي بأنطاكية يقول سمعت الربيع بن سليمان يقول سمعت الشافعي يقول: وددت أن الناس تعلموا هذه الكتب، ولم ينسبوا إلي^(٣).

(١) كذا.

(٢) وأخرجه ابن أبي حاتم في آداب الشافعي (ص ٩١) قال: قال الحسن بن عبدالعزيز الجروي المصري: قال الشافعي... وذكره، ثم زاد: «وما في قلبي من علم إلا وددت أنه عند كل أحد، ولا ينسب إلي.» والحسن هو شيخ البخاري، ثقة، وثقه أبو حاتم، والخطيب.

وأخرجه أيضاً (ص ٩٢) من طريق الزعفراني مقروناً بأبي الوليد بن أبي الجارود به.

(٣) وأخرجه ابن أبي حاتم في آداب الشافعي (ص ٩١) قال: أخبرنا الربيع قال: سمعت الشافعي، ودخلت عليه، وهو مريض، فذكر ما وضع من كتبه، فقال: لو ددت أن الخلق تعلمه، ولم ينسب إلي منه شيء أبداً.

(٢٣) كلام أحمد بن حنبل رحمه الله:

قال أبو داود في مسائله لأحمد (١٧٧٩): سمعت أحمد وقال له رجل: جامع سفيان نعمل به؟ قال: عليك بالآثار.

وفي (١٧٨٩): سمعت أحمد يقول: الاتباع: أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي ﷺ وعن أصحابه، ثم هو من بعد في التابعين مخير.

وفي (١٧٩٣): قلت لأحمد: أليس الأوزاعي هو أتبع من مالك؟ قال: «لا تقلد دينك أحداً من هؤلاء، ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه فخذ به ثم التابعين بعد الرجل فيه مخير». وقال رحمه الله في «أصول السنة» (فقرة ٨): «وليس في السنة قياس، ولا تضرب لها الأمثال، ولا تدرك بالعقول، ولا الأهواء، إنما هو الاتباع وترك الهوى»، وقال في (فقرة ١٠): «ومن لم يعرف الحديث وبلغه عقله، فقد كفي ذلك وأحكم له، فعليه الإيمان به والتسليم له، مثل حديث الصادق المصدوق».

وقال أيضاً: «لا تقلدني ولا تقلد مالكاً ولا الثوري ولا الأوزاعي، وخذ من حيث أخذوا». وقال: «من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال».

وقال سلمة بن شبيب: سمعت أحمد يقول: رأي الشافعي ورأي مالك ورأي أبي حنيفة كله عندي رأي: وهو عندي سواء، وإنما الحجة في الآثار.

وقال ابن عبد البر في الجامع: أنشدني عبد الرحمن بن يحيى قال أنشدنا أبو علي بن الخضر الأسيوطي بمكة قال أنشدنا أبو القاسم محمد بن جعفر الأخباري قال أنشدنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه:

دين النبي محمد أخبار	نعم المظية للفتى آثار
لا ترغبن عن الحديث وآله	فالرأي ليل والحديث نهار
ولربما جهل الفتى أثر الهدى	والشمس بازغة لها أنوار ^(١)

(١) ونقله ابن القيم في الإعلام (ص ٦١).

(٢٤) كلام أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة:

قال رحمه الله عن حكم رفع اليدين إذا قام من الركعتين: «هو سنة، وإن لم يذكره الشافعي فالإسناد صحيح، وقد قال: قولوا بالسنة ودعوا قولنا»^(١).

وقال البيهقي في «المدخل» (٢٩): أخبرنا أبو عبد الله قال: سمعت أبا زكريا العنبري يقول: سمعت أبا بكر بن خزيمة يقول: «ليس لأحد مع رسول الله ﷺ قول إذا صح الخبر عنه».

(٢٥) كلام ابن حزم:

قال في الإحكام (٢٩١/٦): «هذه صفة المقلدين لأبي حنيفة ومالك والشافعي ولا يحرمون إلا ما جاء عن صاحبهم تحريمه، ولا يحلون إلا ما جاءهم عن صاحبهم تحليله نبراً إلى الله تعالى من مثل هذا الاعتقاد، ونعوذ به منه في أحد من ولد آدم حاشا رسول الله ﷺ».

(٢٦) كلام أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي:

ذكر الحافظ في ترجمة الإمام الطحاوي رحمه الله في «لسان الميزان» (٣٧٩/١): «قال ابن زولاق: وسمعت أبا الحسن علي بن أبي جعفر الطحاوي يقول: سمعت أبي يقول -وذكر فضل أبي عبيد بن خربويه وفقهه، فقال: كان يذاكرني بالمسائل، فأجبتة يوماً في مسألة، فقال لي: ما هذا قول أبي حنيفة، فقلت له: أيها القاضي، أو كل ما قاله أبو حنيفة أقول به؟ قال: ما ظننتك إلا مُقلداً، فقلت له: وهل يقلد إلا عاصي، فقال لي: أو غبي؟!، فطارت هذه الكلمة بمصر حتى صارت مثلاً، وحفظها الناس».

(٢٧) كلام شيخ الإسلام ابن تيمية:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (٢٧١/٣): «قد قلت فيما مضى: ما ينبغي لأحد أن يحمله تحننه لشخص وموالاته له على أن يتعصب معه بالباطل أو يعطل لأجله حدود الله تعالى».

وقال في (٣٤٧/٣، ٣٤٨): «وبهذا يتبين أن أحق الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية أهل

(١) كما في الفتح (٢/٢٦٠ - ط الريان)، وعلق على قوله هذا العلامة ابن باز -رحمه الله- قائلاً: «قد أحسن ابن خزيمة في هذا قدس الله روحه، وهذا هو اللائق به -رحمه الله-».

الحديث والسنة؛ الذين ليس لهم متبوع يتعصّبون له إلا رسول الله ﷺ، وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله، وأعظمهم تمييزاً بين صحيحها وسقيمها، وأئمتهم فقهاء فيها وأهل معرفة بمعانيها واتباعاً لها: تصديقاً وعملاً وحباً وموالة لمن والها ومعاداة لمن عادها الذين يردون المقالات المجملة إلى ما جاء به من الكتاب والحكمة؛ فلا ينصبون مقالة ويجعلونها من أصول دينهم وجمل كلامهم إن لم تكن ثابتة فيما جاء به الرسول، بل يجعلون ما بعث به الرسول من الكتاب والحكمة هو الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه، وما تنازع فيه الناس من مسائل الصفات والقدر والوعيد والأسماء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك يردونه إلى الله ورسوله، ويفسرون الألفاظ المجملة التي تنازع فيها أهل الفرق والاختلاف، فما كان من معانيها موافقاً للكتاب والسنة أثبتوه، وما كان منها مخالفاً للكتاب والسنة أبطلوه؛ ولا يتبعون الظن وما تهوى الأنفس؛ فإن اتباع الظن جهل واتباع هوى النفس بغير هدى من الله ظلم» اهـ.

وقال في (٢٠٢/٢٦): «وليس لأحد أن يحتج بقول أحد في مسائل النزاع وإنما الحجة النص والإجماع، ودليل مستنبط من ذلك تقرر مقدّماته بالأدلة الشرعية لا بأقوال بعض العلماء؛ فإن أقوال العلماء يحتج لها بالأدلة الشرعية لا يحتج بها على الأدلة الشرعية» اهـ.

وقال في (١٨/٢٨): «وليس للأول -أي للمدرس الأول- أن يمنع أحداً من إفادة التعلم من غيره -أي من مدرس ثانٍ- وليس للثاني أن يقول: شد لي وانتسب لي دون معلمك الأول، بل إن تعلم من اثنين، فإنه يراعي حق كل منهما ولا يتعصّب لا للأول ولا للثاني، وإذا كان تعليم الأول له أكثر كانت رعايته لحقه أكثر».

وقال في (٢٣٣/٣٥): «فمن صار إلى قول مقلداً لقائله لم يكن له أن ينكر على من صار إلى القول الآخر مقلداً لقائله؛ لكن إن كان مع أحدهما حجة شرعية وجب الانقياد للحجج الشرعية إذا ظهرت، ولا يجوز لأحد أن يرجح قولاً على قول بغير دليل، ولا يتعصّب لقول على قول ولا قائل على قائل بغير حجة؛ بل من كان مقلداً لزم حكم التقليد؛ فلم يرجح؛ ولم يزيّف؛ ولم يصوب؛ ولم يخطئ؛ ومن كان عنده من العلم والبيان ما يقوله سُمع ذلك منه فقيّل ما تبين أنه حق ورد ما تبين أنه باطل ووقف ما لم يتبين فيه أحد الأمرين» اهـ.

(٢٨) كلام ابن قيم الجوزية:

ولا بن القيم رحمه الله صولات وجولات مع المتعصبين في كتابه «إعلام الموقعين عن رب العالمين»، وقد ساق قواصم شتى لداء التعصب تقدم نقل بعضها في مباحث سابقة، وإليك أيضًا هذا الموضع في (٧٤/٢):

«وأن لحزب الله^(١) أن لا تأخذهم في الله لومة لائم، وأن لا يتحيزوا إلى فئة معينة وأن ينصروا الله ورسوله بكل قول حق قاله من قاله، ولا يكونوا من الذين يقبلون ما قاله طائفتهم وفريقهم كائنًا من كان، ويردون ما قاله منازعوهم وغير طائفتهم كائنًا ما كان فهذه طريقة أهل العصبية وحمية أهل الجاهلية، ولعمر الله إن صاحب هذه الطريقة لمضمون له الدم وغير ممدوح إن أصاب، وهذا حال لا يرضى بها من نصح نفسه وهدى لرشده والله الموفق» اهـ.

وقال رحمه الله في «مدارج السالكين» (١٩٧/٣) في وصف الغرباء: «وترك الانتساب إلى أحد غير الله ورسوله، لا شيخ ولا طريقة ولا مذهب ولا طائفة، بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده، وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقًا، وأكثر الناس لائم لهم، فلغربتهم بين هذا الخلق يعدونهم أهل شذوذ وبدعة ومفارقة للسواد الأعظم» اهـ.

(٢٩) كلام موفق الدين بن قدامة:

جاء في ترجمة محمد بن الخضر بن محمد بن علي بن عبد الله بن تيمية الحراني^(٢)، في «ذيل طبقات الحنابلة» (١٥٤/٢-١٥٦) أنه حدث خلاف بين فخر الدين وموفق الدين حول مسألة تخليد أصحاب البدع المكفرة في النار، فقال ابن رجب: «وكان الشيخ موفق لا يطلق عليهم الخلود، فأنكر ذلك عليه الشيخ الفخر، وقال: إن كلام الأصحاب مخالف لذلك،

(١) أي حزب الله الذي جاء ذكره في القرآن العظيم، وليس بأي حال الحزب المزيف الذي يحمل عقائد الرفض والتشيع، فهو حزب على الله وعلى شريعة الله المنزل على رسول الله، وإن سمي نفسه «حزب الله»، وتسمى قائده بال«حسن نصر الله».

(٢) قال ابن رجب: «الفقيه المفسر، الخطيب الواعظ، فخر الدين، شيخ حران وخطيبها، ولد في أواخر سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، بخران».

وأرسل يقول للشيخ موفق الدين أنظر كيف تستدرك هذه الهفوة؟ فأرسل إليه الشيخ موفق الدين كتاباً...، قلت: وكان مما جاء في هذا الكتاب، وهو موضع الشاهد:

«إنني لم أنه عن القول بالتخليد نافيًا له، ولا عبت القول به منتصرًا لصدده، وإنما نهيت عن الكلام فيها من الجانبين إثباتًا أو نفيًا، كفاً للفتنة بالخصام فيها، واتباعاً للسنة في السكوت عنها، إذ كانت هذه المسألة من جملة المحدثات، وأشرت عليّ من قبل نصيحتي بالسكوت عما سكت عنه رسول الله ﷺ وصحابته، والأئمة المقتدى بهم من بعده- إلى أن قال- وأما قوله- وفقه الله- إني كنتُ مسألة إجماع، فصرت مسألة خلاف، فإنني إذا كنت مع رسول الله ﷺ في حربه، متبعًا لسنة؛ ما أبالي من خالفني، ولا من خالف في، ولا أستوحش لفراق من فارقتني، وإني لمعتقد أن الخلق كلهم لو خالفوا السنة وتركوها، وعادوني من أجلها، لما ازددت لها إلا لزومًا، ولا بها إلا اغتباطًا، إن وفقني الله لذلك؛ فإن الأمور كلها بيديه، وقلوب العباد بين إصبعيه. وأما قوله: إن هذه المسألة مما لا تخفى: فقد صدق وبرّ، ما هي بحمد الله عندي خفية، بل هي منجلية مضية، ولكن إن ظهر عنده بسعاده تصويب الكلام فيها، تقليدًا للشيخ أبي الفرج وابن الزاغوني، فقد تيقنت تصويب السكوت عن الكلام فيها، اتباعاً لسيد المرسلين، ومن هو حجة على الخلق أجمعين، ثم لخلفائه الراشدين، وسائر الصحابة والأئمة المرضيين، لا أبالي من لامي في اتباعهم، ولا من فارقتني في وفاقهم، فأنا كما قال الشاعر:

أجد الملامة في هواك لذيدة حباً لذكرك فليلمني اللوم

فمن وافقني على متابعتهم، وأجابني إلى مرافقتهم وموافقتهم فهو رفيقي وحيبي وصديقي، ومن خالفني في ذلك فليذهب حيث شاء، فإن السبل كثيرة، ولكن خطرة، وقوله بسعاده: إن تعلقه بأن لفظ «التخليد» لم ترد: ليس بشيء. فأقول: لكنني عندي أنا هو الشيء الكبير، والأمر الجليل الخطير، فأنا أوافق أئمتي في سكوتهم، كموافقني لهم في كلامهم، أقول إذا قالوا، وأسكت إذا سكتوا، وأسير إذا ساروا، وأقف إذا وقفوا، وأحتذي طريقهم في كل أحوالهم جهدي، ولا أنفرد عنهم خيفة الضيعة إن سرت وحدي.

فأما قوله: إن كتب الأصحاب القديمة والحديثة فيها القول بتكفير القائل بخلق القرآن: فهذا متضمن أن قول الأصحاب هو الحجة القاطعة، وهذا عجب، أترى لو أجمع الأصحاب على مسألة فروعية، أكان ذلك حجة يقتنع بها، ويكتفى بذكرها؟ فإن كان فخر الدين يرى هذا فما يحتاج في تصنيفه إلى ذكر دليل سوى قول الأصحاب، وإن كان لا يرى ذلك حجة في الفروع، فكيف جعله حجة في الأصول؟ وهبُ أنا عذرنا العامة في تقليدهم الشيخ أبي الفرج وغيره من غير نظر في دليل، فكيف يعذر من هو إمام يرجع إليه في أنواع العلوم؟ ثم إن سلمنا ما قال، فلا شك أنه ما اطلع على جميع تصانيف الأصحاب، ثم إن ثبت أن جميعهم اتفقوا على تكفيرهم، فهو معارض بقول من لم يكفرهم، فإن الشافعي وأصحابه لا يرون تكفيرهم إلا أبا حامد، فيم يثبت الترجيح؟ ثم إن اتفق الكل على تكفيرهم، فليس التخليد من لوازمه، فإن النبي ﷺ قد أطلق التكفير في مواضع لا تخليد- فيها، وذكر حديث: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»، وغيره من الأحاديث، وقال: قال أبو نصر السجزي: اختلف القائلون بتكفير القائل بخلق القرآن.

قال بعضهم: كفر ينقل عن الملة. ثم إن الإمام أحمد- الذي هو أشد الناس على أهل البدع- قد كان يقول للمعتصم: يا أمير المؤمنين، ويرى طاعة الخلفاء الداعين إلى القول بخلق القرآن، وصلاة الجمع والأعياد خلفهم ولو سمع الإمام أحمد من يقول هذا القول، الذي لم يرد عن النبي ﷺ، ولا عن أحد قبله: لأنكره أشد الإنكار، فقد كان ينكر أقل من هذا، ثم إن علمتم أنتم هذا، أفيحل لي ولمثلي ممن لم يعلم صحة هذا القول أن يقول به؟ وهل فرض الجاهل بشيء إلا السكوت عنه؟ فأنا ما أنكرت هذا إلا على الجاهل به، أما من قد اطلع على الأسرار، وعلم ما يفعله الله تعالى على جليته فما أنكرت عليه، ولا ينبغي له أن يأمرني أن أقول بمقالتي، مع جهلي بما قد علمه، لكن إذا اعتقدتم هذا، فينبغي أن يظهر عليكم آثار العمل به في ترك مصادقتهم، وموادتهم وزيارتهم، وأن لا تعتقدوا صحة ولايتهم، ولا قبول كتاب حاكم من حكامهم، ولا من ولاه أحد منهم وأنتم تعلمون أن قاضيكم إنما ولايته من قبل أحد دعائهم.

وأما قولك بسعادتك: «أنظر كيف تتلافى، هذه الهفوة، وتزيل تكدير الصفوة»، فإن قنع مني بالسكوت فهو مذهبي وسبيلي، وعليه تعويلي، وقد ذكرت عليه دليلي، وإن لم يرض مني إلا أن أقول ما لا أعلم، وأسلك السبيل الذي غيره أسدّ وأسلم، وأخلع عذارى في سلوك ما فيه عثاري، ويسخط عليّ الباري: ففي هذا التلافي تلافٍ، وتكدير صافي أوصافي، لا يرضاه لي الأخ المصافي، ولا من يريد إنصافي، ولا من سعى في إسعافي، وما أتابعه ولو أنه بشر الحافي.

إلى أن قال: واعلم أيها الأخ الناصح أنك قادم على ربك، ومسئول عن مقالتك هذه، فانظر من السائل، وانظر ما أنت له قائل، فأعد للمسألة جواباً، وادرع للاعتذار جليلاً، ولا تظن أنه يقنع منك في الجواب بتقليد بعض الأصحاب، ولا يكتفي منك بالحوالة على الشيخ أبي الفرج وابن الزاغوني وأبي الخطاب، ولا يخلصك الاعتذار بأن الأصحاب اتفقوا على أنهم من جملة الكفار، ولازم هذا الخلود في النار، فإن هذا الكلام مدخول، وجواب غير مقبول.

إلى أن قال: فأنتم إن كنتم أظهركم الله على غيبه، وبرأكم من الجهل وعيبه، وأطلعكم على ما هو صانع بخلقه: فنحن قوم ضعفاء، قد قنعنا بقول نبينا ﷺ وسلوك سبيله، ولم نتجاسر على أن نتقدم بين يدي الله ورسوله، فلا تحملوا قوتكم ضعفنا، ولا علمكم على جهلنا. وهي رسالة طويلة، لخصت منها هذا القدر. اهـ

(٣٠) كلام أبي بكر بن أبي داود:

قال رحمه الله في حائيته:

ودع عنك آراء الرجال وقولهم فقول رسول الله أزكى وأشرح

(٣١) كلام الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب:

قال الشيخ إسحاق بن عبد الرحمن بن حسن -رحمهم الله تعالى- في رسالته التي كتبها في بيان عقيدة الإمام ابن عبد الوهاب ما يلي:

«ولا يرى ترك السنن والأخبار النبوية لرأي فقيه ومذهب عالم خالف ذلك باجتهاده، بل السنة أجل في صدره، وأعظم عنده من أن تترك لقول أحد كائناً من كان... نعم عند الضرورة

وعدم الأهلية المعرفة بالسنن والأخبار وقواعد الاستنباط والاستظهار يصار إلى التقليد، لا مطلقاً، بل فيما يعسر ويخفى.

ولا يرى إيجاب ما قاله المجتهد إلا بدليل تقوم به الحجة من الكتاب والسنة خلافاً لغلاة المقلدين^(١).

وقال رحمه الله في رسالته إلى عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الأحسائي:

«ولست -ولله الحمد- أدعو إلى مذهب صوفي أو فقيه أو متكلم أو إمام من الأئمة الذين أعظمهم مثل: ابن القيم، والذهبي، وابن كثير، أو غيرهم، بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وأدعو إلى سنة رسوله ﷺ التي أوصى أول أمته آخرهم»^(٢) اهـ.

وقال رحمه الله في رسالته التي أجاب بها الشيخ إسماعيل الجراعي حينما سأله عما يقوله الكذّابون عنه من أنه لا يعلم بكتب المتأخرين: «وأما المتأخرون -رحمهم الله- فنعمل بما وافق النص منها، وما لا يوافق النص لا نعمل به»^(٣) اهـ.

(٣٢) كلام الإمام الشوكاني:

قال رحمه الله في مقدمة كتابه «نيل الأوطار» (ص ١٤) واصفاً الجهد الذي بذله في الكتاب: «وقد قمت والله الحمد في هذه المقامات مقاماً لا يعرفه إلا المتأهلون، ولا يقف على مقدار كنهه من حملة العلم إلا المبرزون، فدونك يا من لم تذهب ببصر بصيرته أقوال الرجال، ولا تدنس فطرة عرفانه بالقييل والقال، شرحاً يشرح الصدور ويمشي على سنن الدليل وإن خالف الجمهور، وإني معترف أن الخطأ والزلل هما الغالبان على من خلقه الله منعجل، ولكنني قد نصرت ما أظنه الحق بمقدار ما بلغت إليه الملكة، ورضت النفس حتى صفت عن قدر التعصب الذي هو بلا ريب الهلكة» اهـ.

(١) الدرر السنية (١/ ٥٢٦).

(٢) الدرر السنية (١/ ٣٧).

(٣) الدرر السنية (١/ ١٠٠).

(٣٣) كلام الإمام محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني:

قال رحمه الله^(١) في وصفه لأحد السائلين: «... يستكشف عن جمل من المسائل طالباً لتحقيقها وربطها بالدلائل، وإبانة الحق فيها بالنظر إلى الاستدلال لا بالنظر إلى من قال..». وفي (ق ٥١): «وهذا منا زيادة تأييد لمن لم يقنع بالدليل حتى يعضده من الرجال الأفاضل».

وفي (ق ٥٤): «فليتأمل الناظر العارف للفرق بين مرجوح القول الأول والراجح يعرف الحق في أي الأقوال إن كان ممن يعرف الحق بالاستدلال لا من لا يعرفه إلا بما قاله الرجال ويقلدهم في دينه فيذهبون به من يمين وشمال».

وفي (ق ٣٢٦): «إذا عرفت هذا عرفت أنه لا يكشف عن وجه هذه المسألة القناع إلا تحقيق الأدلة من غير تقليد لأحد ولا اتباع»^(٢).

وفي (ق ٣٤٣): «ولا يدفع ما سقناه هنالك إلا من سلب حظه من الإنصاف، وهاب مخالفة الأصحاب والأحلاف».

وفي (ق ٣٤٩): «فإنه قد وصل السؤال المطلوب جوابه بالاستدلال لا بأقوال الرجال». وقال في «إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد» (ص ١٤٦): «الأدلة معيار الحق من الباطل، فإن قلت القائلون بجواز التقليد طائفة من العلماء، ولهم أدلة على جوازه قلت القائلون بتحريمه طائفة أيضاً من الأمة ولهم أدلة على ذلك ولا يهولنك القائلون وكثرتهم من الفريقين بل ارجع إلى الأدلة فهي معيار الحق من الباطل وبها تبين الحال جيدة من العاطل» اهـ.

(٣٤) كلام العلامة المعلمي اليماني:

قال رحمه الله في التنكيل في «القائد إلى تصحيح العقائد» (القسم الرابع من كتاب التنكيل) (ص ٣٤٦): «هذا وما منا إلا من يعتز بآبائه وأشياخه، و يعز عليه أن يتبين أنهم كانوا على

(١) (ق ٨) من مجموع رسائل للأمير الصنعاني مخطوط، وقد انتهت بفضل الله من تحقيق الرسائل الفقهية من المجموع، وقد طبعته دار الفاروق الحديثة، وقد كنت نقلت هذه الشواهد أعلاه من المخطوط قبل طباعة الرسائل الفقهية منه، ولذا كان عزوي إلى رقم الصفحة في المخطوط.

(٢) أي ولا اتباع لأحد إلا لرسول الله ﷺ.

باطل، ولكن أقل ما يجب علينا أن نعلم أن آبائنا وأشياخنا لم يكونوا معصومين، وهباً أنه يبعد عندنا جداً أن يكونوا تعمدوا الباطل، فما الذي يبعد أن يكونوا غلطوا وأخطؤوا؟ وعلى كل حال فليسوا إلا أفراداً من المسلمين وقد اختلف المسلمون، وفي الفرق الأخرى أئمة وأكابر إن لم يكونوا أفضل من آبائنا وأشياخنا فلم يكونوا دونهم، وإذا راجعت نفسك علمت أنك لست بأحق من مخالفك بالقناعة بما مضى عليه الآباء الأشياخ، وأنه كما يجتمل أن يكون آبائهم وأشياخهم هم المبطلين عمداً أو خطأ فمن المحتمل أن يكونوا هم المحققين، بل الحق أنه لا حق لك ولا له في التضحية بالنفس والدين في سبيل التعصب الفارغ الذي يعود بالخسران المبين، وبالضرر على الآباء والأشياخ أنفسهم، كما مر في أوائل الرسالة، فدع الآباء والأشياخ، والتمس الحق من معدنه، ثم إن شئت فاعرض عليه مقالة آبائك وأشياخك فما وافقه حمدت الله تعالى على ذلك، وما خالفه التمسست لهم العذر، برجاء أن يكونوا لم يعتمدوا الباطل، ولم يقصروا تقصيراً لا يسعه عفو الله -تبارك وتعالى-، بل قد ثبت رجوع بعض أكابرهم...، ولعل غيرهم قد رجع وإن لم ينقل؛ فإذا سلكت هذه الطريق فقد هديت، وإن أبيت إلا التعصب لآبائك وأشياخك، والجمود على اتباعهم، فقد قامت عليك الحجة، والله المستعان» اهـ

(٣٥) كلام أبي النصر علي بن حسن بن صديق حسن القنوجي:

قال في رسالته «القول السديد في أدلة الاجتهاد والتقليد» (ص ٣٤): «فدع عنك الاحتجاج بالرجال والاعتزاء إلى الآراء والأقوال، وجرّد نفسك للحق واغسل قلبك من درن العصبية، فإنك إن فعلت ذلك نظرت إلى الحق من وراء ستر رقيق».

(٣٦) كلام الشيخ تقي الدين الهاللي:

قال رحمه الله في كتابه «الحسام الماحق على كل مشرك ومنافق» (ص ١٨): «اعلم أيها الطالب للحق المتبرئ من الشرك والبدعة وأهلها! أن الله أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق بشيراً ونذيراً، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فبلغ الرسالة ولم يخص بها أحداً دون أحد وأدى الأمانة على أكمل وجه، وجاهد في الله حق جهاده وعبد الله

حتى أتاه اليقين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه العدول الثقات الذين هم أغزر هذه الأمة علماً، وأقومها سبيلاً، وأطهرها قلباً وأتقاهما لله، اختارهم الله لصحبة نبيه وقال فيهم: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وأمر كل من بعدهم باتباعهم فقال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]. ثم تحمل الرسالة بعد الصحابة الكرام التابعون، ورعوها حق رعايتها وكانوا أحق بها وأهلها، ثم حملها تابعوهم من الأئمة المجتهدين والحفاظ المبرزين نفوا عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهليين.

ولم يكن في تلك القرون المفضلة تشدد في الدين، ولا تمذهب، ولا تحزب، ولا تعصب، بل كانوا عباد الله إخواناً، وعلى طاعته أعواناً، وكان العامي في تلك العصور إذا عنت له مسألة سأل من يصادفه من العلماء، فكان الواحد يسأل في مسألة أحد الخلفاء الراشدين، وفي الأخرى عبد الله بن عباس، وفي الثالثة عبد الله بن مسعود، وفي الرابعة عبد الله بن عمر، وفي الخامسة جابر بن عبد الله، وهكذا ولم يتخذ أحد منهم رجلاً بعينه يخص بالسؤال والاتباع دون غيره كأنه نبي مرسل حاشاهم من ذلك، وإنما حدث ذلك بعد القرون المفضلة أي في القرون المذمومة على لسان رسول الله ﷺ. اهـ

(٣٧) كلام الشيخ عبد الرحمن الوكيل:

قال رحمه الله في كتابه «دعوة الحق» (ص ١٥٥): «ولكن ما بالنا نرى شيعاً متعددة وطرائق قدداً متخاصمة ومذاهب متباينة، كلما قام تابع راح يقسم بكل محرجة من الإيمان أن الحق في مذهبه وحده؟».

وقال أيضاً: «..... وإنما نحارب العصبية الجاهلية لهؤلاء الأئمة، تلك العصبية التي تنزع إلى جعلهم أرباباً، واتخاذهم آلهة». اهـ

(٢٨) كلام الإمام العلامة عبد العزيز بن باز رحمته الله:

قال رحمته الله^(١): «من جهل الحق وجب عليه أن يسأل أهل العلم المعروفين بالعلم والفضل، وحسن العقيدة والسيرة، ويتبصر في ذلك، مع تقدير العلماء، ومعرفة فضلهم، والدعاء لهم بمزيد من التوفيق وعظيم الأجر، لأنهم سبقوا إلى الخير العظيم، وعلموا وأرشدوا، وأوضحوا الطريق، فرحمة الله عليهم، فلهم فضل السبق، وفضل علمهم ودعوتهم إلى الله: من الصحابة ومن بعدهم من أهل العلم والإيمان، فيعرف لهم قدرهم وفضلهم، ويترحم عليهم ويتأسى بهم في النشاط في العلم والدعوة إلى الله، وتقديم ما قاله الله ورسوله على غيره، والصبر على ذلك، والمصارعة إلى العمل الصالح، يتأسى بهم في هذه الفضائل العظيمة، ويترحم عليهم، ولكن لا يجوز أبداً أن يتعصب لواحد منهم مطلقاً، وأن يقال: قوله هو الصواب مطلقاً، بل يقال: كل واحد قد يخطئ ويصيب، والصواب فيما وافق ما قاله الله ورسوله، وما دل عليه شرع الله من طريق الكتاب والسنة وإجماع أهل العلم، فإذا اختلفوا وجب الرد إلى الله ورسوله، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَزُودُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال ﷺ: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]. هكذا قال أهل العلم قديماً وحديثاً.

ولا يجوز أبداً التعصب لزيد أو عمرو، ولا لرأي فلان أو علان، ولا لحزب فلان أو الطريقة الفلانية، أو الجماعة الفلانية، كل هذا من الأخطاء الجديده، التي وقع فيها كثير من الناس. فيجب أن يكون المسلمون هدفهم واحد، وهو اتباع كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام في جميع الأحوال، في الشدة والرخاء، في العسر واليسر، في السفر والإقامة، وفي جميع الأحوال، وعند اختلاف أهل العلم ينظر في أقوالهم، ويؤيد منها ما وافق الدليل من دون تعصب لأحد من الناس.

أما العامة وأشباه العامة، فيسألون أهل العلم، ويتحرون في أهل العلم، من هو أقرب إلى الخير وأقرب إلى السداد والاستقامة، يسألونه عن شرع الله، وهو يعلمهم بذلك ويرشدهم إلى الحق، حسب ما جاء في الكتاب والسنة، وأجمع عليه أهل العلم» اهـ.

(١) مجموع الفتاوى والمقالات، الجزء الثاني (الموقع الرسمي لسماحة الشيخ على الإنترنت).

وقال ﷺ في المقابلة التي أجرتها معه مجلة «المجلة»^(١):

«أنا -الحمد لله- لست بمتعصب، ولكني أحكم الكتاب والسنة، وأبني فتاوي على ما قاله الله ورسوله، لا على تقليد الحنابلة ولا غيرهم. الفتاوى التي صدرت مني إنما أبنيتها على الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة حسب ما ظهر لي.

وهذا هو الذي سرت عليه منذ عرفت العلم، ومنذ أن كنت في الرياض قبل القضاء وبعد القضاء، وكذلك في المدينة، وما بعد المدينة، وإلى الآن والحمد لله».

وسألة مندوب المجلة: سماحتكم أميل للحديث في الدراسة؟

فقال ﷺ: «لا بد من الحديث، الحديث سمعناه في القرآن، وكما قال الله -جل وعلا-: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، فالرد إلى الله: القرآن، والرد إلى الرسول: الحديث.

فلا علم ولا فتوى إلا عن طريق القرآن والحديث، هذا هو العلم، أما التقليد فليس بعلم» اهـ.

(٣٩) كلام العلامة المحدث حماد الأنصاري:

سئل ﷺ^(٢): وما رأيكم في القول بأن علماء اليوم يعيشون عالة على علماء الأمس؟

فأجاب قائلاً: «أما هذه الكلمة حقاً أنها تستحق أن تسلط عليها الأضواء.

علماء اليوم حقاً أن أغلبيتهم عالة على من تقدمهم، وكونهم عالة على من تقدمهم هذا ليس عيباً فيهم، ولكن ينبغي للعالم أن يكون عنده حرية الرأي، وأن يكون عنده التمييز بين الصواب والخطأ؛ لأن الذي قبله قد يصيب وقد يخطئ، فلذلك يجب على عالم اليوم أن لا يعتمد على ما قاله عالم الأمس إلا بعد دراسته طبق القرآن وطبق السنة وطبق الفقه الإسلامي، وإلا حقاً أن القصور -أو التقصير- حاصل من كثير من علماء اليوم، حيث إنه تجد أغلبهم يتقيدون بمذهب من المذاهب: هذا حنفي، هذا شافعي، هذا حنبلي، هذا مالكي، تجد أنه يعتمد على كتب جامدة -الكتب التي في أغلب هذه المذاهب كتب جامدة-

(١) عدد (٨٠٦) (٢٥ صفر ١٤٠٦) (ص ٢٣) بواسطة: «الإقناع بما جاء عن أئمة الدعوة من أقوال في

الاتباع» للشيخ محمد بن هادي المدخلي (ص ٨١).

(٢) المجموع في ترجمة العلامة حماد الأنصاري (٨٣٢/٢) (الرحلة من أفريقيا إلى بلاد الحرمين).

يعني قل أن تجد بجانب هذه القضية في هذا الكتاب دليلاً تستطيع أن تعتمد عليه، فتجد هؤلاء يتمسكون بما وجدوا في هذه الكتب بدون دراسة وبدون تمحيص، فهذا في الحقيقة لا ينبغي أن يستمر ولا ينبغي أن يكون، بل إن العالم -إذا كان عالماً، وأنا أعد أولئك غير علماء-، أنا أعد أولئك الذين لا يدرسون المسائل على ضوء القرآن والسنة أعدهم جهلاء ليسوا بعلماء، العالم هو ذلك الذي إذا درس مسألة في أي مذهب من المذاهب، وفي أي قضية من القضايا يسلط عليها الأضواء من القرآن والسنة، ما وافق القرآن والسنة أخذ، وما لم يوافق القرآن والسنة رفضه وتركه، هكذا يكون العالم.

أما مجرد التقليد هذا المقلد ليس بعالم، المقلد كما قال ابن عبد البر:

لا فرق بين مقلد وبهيمية تنقاد بين دعاقل وجنادل

المقلد على خطر، اللهم إلا للضرورة، التقليد يجوز للضرورة، إذا كان الإنسان -مثلاً- في غابات أفريقيا التي لا يوجد فيها علماء، ولا يوجد فيها كتب الحديث، ولا يوجد فيها كتب التفسير المعتبر، فوجد «مختصر خليل» مثلاً، جاز له أن يقلد ما وجد لغاية ما يفتح الله عليه، فإذا فتح الله عليه بالعلم الصحيح لا يجوز أن يقلد «مختصر خليل» إلا بعد تسليط الأضواء عليه.

ثم سئل رحمته الله: يا شيخ ما رأيك في القول بأن باب الاجتهاد أغلق؟

فقال: «قولهم: باب الاجتهاد أغلق، هذه الكلمة جاءت من عدم فهم معنى الاجتهاد، هؤلاء الذين يطلقون هذه الكلمة أطلقوها لأنهم لا يعرفون معنى الاجتهاد ففسروا الاجتهاد بغير معناه، وهذا المعنى الذي فسروا به الاجتهاد حقاً أن هذا المعنى الذي تبادر إليهم لا وجود له.

هم فسروا الاجتهاد بالاختراع، يعني تخترع شيئاً لم يسبقك أحد إليه لا قرآن ولا سنة ولا اجتهاد عالم من العلماء، هذا معناه الاختراع، الاختراع يكون في الصناعات والحرف، أما الاجتهاد الذي هو -كما قاله الأصوليون، اسمع-:

والاجتهاد بذل الوسع في بلوغ الغرض لذي التصرف

أما الاجتهاد بهذا المعنى بابه مفتوح إلى أن تقوم الساعة، الاجتهاد بذل الوسع في بلوغ الغرض، يعني معناه بذل الجهد والطاقة لفهم ما دلت عليه هذه الآية الكريمة أو دلت عليه هذه السنة النبوية، وهذا الجهد وهذا الاجتهاد لا يزال إلى أن تقوم الساعة.

لو فسر أولئك العوام -أنا ما أسميهم بالعلماء، وحتى كلمة الجهال ما أطلقها عليهم، هؤلاء عوام ما يفقهون-، لو فسرُوا الاجتهاد بهذا المعنى الذي فسره به جميع العلماء قاطبة لعرفوا أن الاجتهاد بهذا المعنى الذي هو مراد العلماء بالمعنى الصحيح لا يمكن أن يغلق إلى أن تقوم الساعة؛ ولهذا أهل العلم الذين فقهوا وأدركوا مراد هؤلاء العوام ردوا عليهم ويُنوِّهونهم أن الصواب خلاف ما قلتم أنتم، فكتبوا كتبًا منها: أولاً: جامع بيان العلم لابن عبد البر، ومنها تيسير الاجتهاد للصنعاني، ومنها: القول المفيد في الاجتهاد والتقليد للشوكاني. اهـ

(٤٠) كلام العلامة ابن عثيمين رحمته الله:

سئل رحمته الله في «نور على الدرب»:

السؤال: سؤاله الثالث والأخير يقول هل الناس العوام غير العالمين بالمذاهب ملزمون باتباع مذهب معين من المذاهب الأربعة، وما هو المذهب الذي تحبذون اتباعه، وجزاكم الله عنا خير الجزاء؟

فأجاب الشيخ: الصحيح أنه لا يلزم أحدًا أن يتبع مذهبًا دون مذهب إلا مذهبًا واحدًا، وهو مذهب رسول الله ﷺ، وهؤلاء الأئمة الأربعة كلهم يريدون أن يتمسكوا بمذهب الرسول -عليه الصلاة والسلام-، ولكنهم بشر يخطئون ويصيبون، ولا نرى أن واحدًا منهم يجب إتباع قوله إتباعًا مطلقًا، بل نقول من تبين أن الصواب في قوله وجب اتباعه من أجل أنه صواب لا من أجل أنه قول فلان أو فلان، هذا ما نراه في هذه المسألة. اهـ

وقال رحمته الله في القواعد المثلى في صفات الله (ص ٨٧): «الحق لا يوزن بالرجال وإنما يوزن الرجال بالحق، هذا هو الميزان الصحيح».

(٤١) كلام العلامة المحدث مقبل بن هادي رحمته الله:

قال رحمته الله في «مقتل الشيخ جميل الرحمن» (ص ٣٠): «نحن نحب علماء السنة، أما الدين فلسنا مستعدين أن نقلد أحدًا، وإذا كنا على الحق لا نخاف من هذا، ولا من هذا».

(٤٢) كلام العلامة صالح الفوزان - حفظه الله -:

سئل - حفظه الله -^(١): ما حكم من أحب عالمًا أو داعية، وقال: إنني أحبه حبًا كثيرًا، لا أريد أن أسمع أحدًا يرد عليه، وأنا آخذ بكلامه حتى وإن كان مُخالفًا للدليل، لأن هذا الشيخ أعرف منَّا بالدليل؟

فأجاب الشيخ - أحسن الله إليه -: «هذا تعصب ممقوت مذموم، ولا يجوز. نحن نحب العلماء ولله الحمد، ونحب الدعاة في الله عز وجل، لكن إذا أخطأ واحد منهم في مسألة، فنحن نبين الحق في هذه المسألة بالدليل، ولا يُنقص ذلك من محبة المردود عليه، ولا من قدره.

يقول الإمام مالك رحمته الله: «ما منَّا إلا رادٍ ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر - يعني: رسول الله صلوات الله عليه وآله».

نحن إذا رددنا على بعض أهل العلم، وبعض الفضلاء، ليس معنى هذا أننا نُبغضه أو نتنقصه، وإنما نُبين الصواب، ولهذا يقول بعض العلماء لما أخطأ بعض زملائه، قال: «فلان حبيبنا، ولكن الحق أحبُّ إلينا منه»، هذا هو الطريق الصحيح. ولا تفهموا أن الرد على بعض العلماء في مسألة أخطأ فيها معناه تنقص له أو بغض، بل ما زال العلماء يرد بعضهم على بعض وهم إخوة ومُتحابون. ولا يجوز لنا أن نأخذ كلَّ ما يقوله الشخص أخذًا مُسلَّمًا، أصاب أو أخطأ؛ لأن هذا من التعصب.

الذي يؤخذ قوله كُله، ولا يُترك منه شيئًا هو رسول الله لأنه مُبلَّغ عن ربِّه، لا ينطق عن الهوى، أما غيره فهم يخطئون ويصيبون، وإن كانوا من أفضل الناس، هم مُجتهدون يخطئون ويصيبون. ليس أحد معصومًا من الخطأ إلا رسول الله.

يجب أن نعرف هذا، ولا نتكتم على الخطأ مُحابة لفلان، بل علينا أن نُبين الخطأ. يقول النبي صلوات الله عليه وآله: «الدين النصيحة»، قلنا لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

(١) الأجوبة المفيدة عن أسئلة المناهج الجديدة (س ٦٧) (ص ١٦٣، ١٦٤).

وبيان الخطأ من النصيحة للجميع، وأما كتمانها فهو مُخالف للنصيحة»^١.
وسئل أيضاً^(١): البعض من الناس هداهم الله يقدسون الرجال ويتعصبون لأرائهم، فما نصيحتكم لهؤلاء؟

فأجاب: «الواجب اتباع الحق مع من كان، لا اتباع الرجال المخالفين للحق.
قال الإمام أحمد رحمه الله: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].
وقال ابن عباس -رضي الله عنهما-: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال الله، وتقولون: قال أبو بكر وعمر.

فإذا كان هذا التحذير والوعيد في اتباع أفضل الناس بعد الأنبياء من غير دليل، فكيف باتباع من هو «لا في العير ولا في النفير»، ممن لا يعرف بعلم ولا فضل، إلا أنه يجيد شقشقة الكلام؟! اهـ

وقال في «الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد»: «فلا أسباب التي أدت إلى ظهور البدع تتلخص في الأمور التالية:

الجهل بأحكام الدين، اتباع الهوى، التعصب للآراء والأشخاص، التشبه بالكفار وتقليدهم».

(٤٣) كلام إمام الجرح والتعديل العلامة ربيع بن هادي:

قال -حفظه الله- في «النقد منهج شرعي» (ص ١٢، ١٣): «الشافعي يقول: انظروا كتبي هذه، لا تظنوا أن كلها حق لا بد أن يكون فيها شيء خالف كتاب الله عز وجل وسنة الرسول ﷺ، والذي خالف فيها أحدهما فخذوا واضربوا به عرض الحائط.

وكتبي هذه خذوها واقرووها وأنا لا أقول لكم إن كل ما فيها صواب لا بد -وأؤكد لكم أن فيها أخطاء- قال أحدهم مرة: فلان يريد أن يناقشك؟ قلت: فليسرع قبل أن أموت يبين أخطائي، وأنا أرجوكم اذهبوا وترجؤا سلمان وسفر كلهم يجمعوا كتبي ويناقشوها ويبينون الحق فيها حتى أتوب منها قبل موتي، ما نغضب من النقد أبداً والله نفرح، وأنا

(١) الأجوبة المفيدة عن أسئلة المناهج الجديدة (س ٥٨) (ص ١٤٩، ١٥٠).

أحملُ كلاً منكم المسؤولية يذهب إليهم ليأخذوا كتيبي ويناقشوها والذي يطلع بخطأ أقول له: جزاك الله خيراً وأرسل لهم جوائز وإذا عجزت أدعو لهم، والله ما نخاف من النقد؛ لأننا لسنا معصومين وأستغفر الله العظيم، من نحن حتى نقول: لسنا بمعصومين هذا يقال للصحابة والأئمة الكبار، أما نحن -والعياذ بالله- فالزلل والأخطاء الكبيرة متوقعة منا.

فأنا أرجو أن يأخذوا كتيبي هذه وينتقدونها في الصفحة الفلانية، قلت كذا وهو غلط، واستدل لك غلط من الوجه الفلاني والوجه الفلاني، والحديث الفلاني أخطأت في الاستدلال به، والحديث نقلته غلط، هيا يا أخي تفضل، لماذا تغضبون؟ وتعلمون الناس التعصب والهوى والجهل والهمجية والفوضى؟ لماذا تدمرون عقول الشباب بهذه العصبية العمياء؟! هل في يوم من الأيام تعصب أناس للشافعي ومالك مثل هذا التعصب؟ هذا التعصب لا نعرفه إلا من الروافض، يعني يرفع الرجل إلى درجة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ما ينتقد، أنا أسمع من بعض الناس أنه يقول: نحن نفرح بالنقد ونرحب بالنقد، لكن والله إنه يموت من النقد والناس يموتون وراءه لماذا تنتقده؟ لهذا رأينا كل ما وجهناه من نقد إلى أخطائهم لا يتراجعون عنها أبداً لا هم ولا أتباعهم، يعني كأن ديننا غير دينهم، كأن عندنا دين غير الدين الذي عرفوه!! اهـ.

وفي لقاء لي مع فضيلة الشيخ ربيع -سلمه الله- في شوال (١٤٢٤هـ) قام فضيلته بتوجيه نصيحة إلى الشباب وطلبة العلم بمصر، كان منها:

«أوصيهم بالتزام العدل والإنصاف في قضايا الخلاف فإننا نرى كثيراً -حتى من المنتسبين إلى السنة- نرى في مواقفهم الجور والخيف والتعصب للأشخاص والأهواء، وهذا داء ويبل يضر الإسلام والمسلمين فعلى العلماء وطلاب العلم أن يكونوا في غاية التقوى والمراقبة لله والقيام بدين الله - سبحانه وتعالى -، وجعل هذه الآية نصب أعينهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]؛ فإننا نرى كثيراً من الناس يتناسون هذا الأصل العظيم وتغلب عليهم الأهواء والعواطف العمياء، وينصرون الباطل ويلبسون على الناس، ويلبسون عليهم أمر دينهم؛ فعلى هؤلاء أن يتقوا الله

تبارك وتعالى وأن يراقبوه، وأن يستشعر هؤلاء أنهم سوف يُحاسِبون أمام الله -تبارك وتعالى-، ومن سنَّ سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، فسُنَّ هذا المنهج الذي يجعل الحقَّ باطلاً والباطل حقاً فيه ضررٌ خطير، والله تبارك وتعالى أكَّد الوعيد الشديد على الذين لا يُبينون للناس الحق بل يكتُمونه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَلْهَدُوا مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أَُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

فنصيحتي لطلاب العلم أن يقوموا بواجب الشهادة لله، وأن يقوموا بهذا القسط العظيم الذي لا تقوم حياة المسلمين في دينهم ودنياهم إلا إذا نهضوا به على الوجه المشروع كما أمرهم الله بذلك.

أسأل الله أن يُصلح أحوال المسلمين، وأن يُصلح طلاب العلم، وأن يرزقنا وإياهم الإخلاص والاستقامة والثبات على دين الله الحق، إن ربنا سميع الدعاء. اهـ

وقال -حفظه الله- في درس له بعنوان: «من القلب إلى القلب» (١/أ): «الإشاعات الكاذبة حالت بين الشباب وبين الحق، ودفعتهم إلى الباطل، وإلى تولي أهل الباطل، وإلى نُصرة أهل البدع الكبرى لا أقول البدع الصغرى؛ الإشاعات الكاذبة والافتراءات ضد أهل الحق شوهت جمال الحق وحالت بين الناس وبين الحق، فأصبحوا لا يقبلون الحق إلا من فلان وفلان... حتى لو كان كلام فلان باطلاً جعلوه حقاً، هذا هو المرض الفتاك ... يجب أن تحتشد القوى كلها لعلاج هذا المرض الفتاك». اهـ

٤٤) كلام العلامة أحمد النجمي:

قال رحمه الله في توضيحه حول بيانه عن حال الشيخ فالح الحربي: «أنكر على الشيخ فالح غلوه في التقليد بقوله: «من لم يقلد هدم الرسالات السماوية والكتب الإلهية».

ونقول: التقليد ينقسم إلى قسمين: محمود ومذموم:

فالتقليد الم محمود : هو المتابعة على القول بالدليل، وهذا لا يعتبر تقليداً .

والمذموم : هو المتابعة على القول بلا دليل، فمن تابع أحداً على كل ما يقوله سواء كان

بدليل أو بلا دليل فهذا مذموم لكنه لا يخرج أحداً من الإسلام، فمن قلد مذهباً بعينه، وتابع إمام ذلك المذهب، تابعه في جميع أقواله ما كان منها بدليل وما كان منها بلا دليل فهو مُسيء ولا يخرج من الإسلام.

والتقليد جائز للعامي بدليل قوله تعالى: ﴿فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، أما طلاب العلم فينبغي لهم أن يفتشوا عن الأدلة بحسب الاستطاعة^(١) اهـ.

(٤٥) كلام العلامة زيد بن هادي المدخلي:

قال -حفظه الله- في المنظومات الحسان «منظومة أهمية الفتوى ومدى حاجة الناس إليها وتفصيل القول في مسألة التقليد»:

وإنما اللوم على من قدما
ومن لشخص عامداً تعصبا
ومن يصرح دائماً لا يستحي
لأنه قد خالف المنقول
أما هموا قد أوضحوا المقالا
شيخي إمامي رأييه مقدّم
في كل حال غيره لا أقبل
لا تأخذوا عنا فإننا بشر

آراء قوم فوق أخبار السما
غير الرسول ذمّه محتسبا
بهجر كتبهم ففكره امسح
وبأين المقبول والمعقولا
وأعلنوا جهراً لمن قد قالا
وما سواه آخرن يا مسلم
ولو أتى نص فشيخي أنبل
نصيب تارة ونخطي في آخر

(١) وانظر: «مناقشة فالح في قضية التقليد» للعلامة ربيع بن هادي -حفظه الله-.

آثار التعصُّب الذمِّيم

من خطورة التعصُّب أنه ليس داءً مُفردًا بل هو داء متبوع، أي أنه تتبعه أدواء شتى تصيب قلب المتعصب، وتؤهن منهجه، وتجرح عليه أهواء متفرقة، فإن آثار التعصُّب بالباطل دائماً غير حميدة على الفرد والمجتمع فلا ينبغي إغفالها، وقد بينا طرفاً من هذه الآثار السيئة في طيات الكتاب، وإليك المزيد منها في النقاط التالية:

أولاً: الوقوع -بلا شعور- في مغبة منهج الموازنات الفاسد، وهذا المنهج المحدث معناه: إيجاب ذكر حسنات صاحب البدعة والهوى حين التحذير من مساوئه، وهو ما سموه بالموازنة بين حسناته وسيئاته.

ولما سئل سماحة الشيخ ابن باز رحمته الله: بالنسبة لمنهج أهل السنة في نقد أهل البدع وكتبهم، هل من الواجب ذكر محاسنهم ومساوئهم أم فقط مساوئهم؟ فأجاب رحمته الله: «المعروف في كلام أهل العلم نقد المساوئ للتحذير، وبيان الأخطاء التي أخطؤوا فيها للتحذير منها، أما الطيب معروف مقبول الطيب لكن المقصود التحذير من أخطائهم: الجهمية، المعتزلة، الرافضة، وما أشبه ذلك». اهـ

قلت: وهذا الأمر لا يتعلق بنقد أهل البدع فحسب، بل أي مسلم يخطئ ويترتب على هذا الخطأ ضرر على المسلمين، فلا يجب على من أراد تحذير المسلمين من خطأ هذا المخطئ أن يذكر حسناته، ومن أوجب هذا فقد وقع في هذه المحدثه، وهذا ما أشار إليه العلامة الألباني رحمته الله حينما سئل عن هذا المنهج المحدث، فقال: «هذه طريقة المبتدعة حينما يتكلم العالم بالحديث برجل صالح وعالم فقيه، فيقول عنه: سيئ الحفظ، هل يقول: إنه مسلم وإنه صالح وإنه فقيه وإنه يرجع إليه في استنباط الأحكام الشرعية، الله أكبر!

الحقيقة القاعدة السابقة ^(١) مهمة جداً تشتمل فرعات عديدة خاصة في هذا الزمان. من أين لهم أن الإنسان إذا جاءت مناسبة لبيان خطأ مسلم، إن كان داعية أو غير داعية، لازم يعمل محاضرة ويذكر حسناته من أولها إلى آخرها؟! الله أكبر!! شيء عجيب والله شيء عجيب...!!!^(٢).

قلت: صدق الشيخ رحمه الله في وصف هذا المنهج بأنه منهج عجيب فإنه مناقض للفطرة والعقل الصحيح.

والمقصد أنك إذا رُمت تحذير المتعصبين من خطأ صدر ممن يتعصبون له، ثاروا عليك قائلين: لِمَ تذكّر حسنات شيخنا وبلاءاته السالفة؟ فإذا أجبت: أنا في مقام التحذير من خطئه فلا يلزمني ذكر الحسنات، رأيتهم يعرضون عنك في غضاضة، وهذا أثر من آثار التعصب الدميم.

وقد تناسى هؤلاء أن الرسول ﷺ كان يُحذّر من أخطاء بعض الأفاضل دون أن يذكر حسناتهم، كما قال ﷺ عن أبي جهم ومعاوية -رضي الله عنهما- حينما كان يحذر فاطمة بنت قيس لما أرادت أن تتزوج أحدهما: «أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له».

قال العلامة ربيع بن هادي -حفظه الله-: «ولا شك أن للرجلين فضائل ومحاسن ولكن المقام مقام نصيحة ومشورة لا يتطلب أكثر من ذلك، ولو كان ذكر المحاسن لازماً في مثل هذا المقام -مقام النصيحة والمشورة- لشرع لنا ذلك رسول الله ﷺ ولقام به على الوجه الأكمل»^(٣).

ثانياً: التلبس بمنهج التميع، وذلك أن المتعصبين يسعون لتميع أي انتقاد يوجه لمن يتعصبون له، وبعضهم قد يقع في هذا التميع لجهله أصلاً بمورد الانتقاد، وحقيقة المخالفة

(١) يشير -رحمه الله- إلى قاعدة الموازنات.

(٢) سلسلة الهدى والنور (٨٥٥).

(٣) منهج أهل السنة في نقد الرجال والكتب والطوائف (ص ٢٧).

إلا أنه لما استنفر من قبل إخوانه المتعصّبين صار في سلوكهم مُدافعاً عن الشيخ المتعصّب له لمجرد أنه شيخه الذي تربطه به عاطفة قوية، ليس لأنه يدافع عن الحق.

ثالثاً: وقوع المتعصّبين في التنقص من أكابر أهل العلم وأهل الحق وبخس فضلهم -بقصد أو بغير قصد-؛ فذاك واحد من غلاة المتعصّبين يقول عن عالم سلفي كبير: لقد كُبر سنه وخرِف -كُبرت كلمة تخرج من فيه- وما هذا إلا لأنه وصل إلى مسامع هذا المتعصّب أن هذا العالم الكبير قد حذّر من أخطاء شيخ هذا المتعصّب.

وقال آخر: لقد أتى هؤلاء الناس -يقصد بعض العلماء الكبار الذين خطّوا شيخه- بمنهج غريب على الإسلام.

وقال ثالث: لقد وضع شيخنا العلماء -كلاً في موضعه الذي يستحقه-^(١).

والبعض منهم قد يعتقد هذه النقائص في العلماء، إلا أنه قد بقي عنده شيء من الأدب السلفي يحجزه عن التصريح بهذا المكنون بلسانه.

رابعاً: الوقوع في الحزبية المقيّنة التي يترتب عليها بغض من يظهر مخالفة الشيخ المتعصّب له في -مسألة ما-، ولو كان مع هذا المخالف الدليل، مع إظهارهم المودة الخالصة لمن يمالئ الشيخ ولو بالباطل.

ويصل الأمر بهم أنهم يعاملون من أبغضوه -تعصّباً لشيخهم- معاملة المبتدع صاحب الهوى الذي حكم العلماء بتبديعه وهجره زجراً له، فتجدهم يشنعون عليه في كل مكان، ويحذّرون الناس من التعامل معه بحجة أن العلماء قد حذّروا منه، فإذا استوثقت عن صحة هذا التحذير قالوا لك: سوف نأتيك بالدليل، وتمر الشهور تلو الشهور، فلا يأتون بشيء، بل تأتي تزكية أهل العلم لصاحب الحق فتدمغ باطلهم، وتفضح مكرهم، وتبين كذبهم.

ومن ثمّ ندرك وجهاً من أوجه بغض ومعاداة أهل الحق رغم صلاحهم كما قال الحافظ في الفتح (٣٤٢/١١): «قوله من عادى لي ولياً المراد بولي الله: العالم بالله المواظب على طاعته المخلص في عبادته، وقد استشكل وجود أحد يعاديه؛ لأن المعادة إنما تقع من الجانبين، ومن

(١) وهذا قد يُحمل على الإطراء، ويُحمل على التنقص من العلماء على حسب قصد القائل.

شأن الولي: الحلم والصفح عمن يجهل عليه، وأجيب بأن المعادة لم تنحصر في الخصومة والمعاملة الدنيوية مثلاً، بل قد تقع عن بغض ينشأ عن التعصب كالرافضي في بغضه لأبي بكر، والمبتدع في بغضه للسني، فتقع المعادة من الجانبين، أما من جانب الولي فله تعالى، وفي الله، وأما من جانب الآخر فلما تقدّم» اهـ.

خامساً: تثبيط صاحب الحق عن الإنكار عليهم خشية أن يُنسب إلى كراهية ومحاربة -من يتعصبون له-، فيناله الأذى البليغ منهم، ومن الرعاع أتباع كل ناعق، كما قال العلامة المعلمي اليماني رحمته الله في كتابه «التنكيل» (٦/١): «من أوسع أودية الباطل الغلو في الأفاضل، ومن أمضى أسلحته أن يرمي الغالي كل من يُحاول ردّه إلى الحق يُغض أولئك الأفاضل ومعاداتهم، يرى بعض أهل العلم أن النصاري أول ما غلوا في عيسى عليه السلام كان الغلاة يرمون كل من أنكر عليهم بأنه يُغض عيسى ويُحقره ونحو ذلك؛ فكان هذا من أعظم ما ساعد على انتشار الغلو؛ لأن بقايا أهل الحق كانوا يرون أنهم إذا أنكروا على الغلاة نُسيبوا إلى ما هم أشد الناس كراهية له من بُغض عيسى وتحقيره، ومقتهم الجمهور وأوذوا فثبّطهم هذا عن الإنكار وخلا جو الشيطان، وقريب من هذا حال الغلاة الروافض وحال القبوريين، وحال غلاة المقلدين» اهـ.

سادساً: يحمل التعصب بعضهم على وضع أخبار مُلفقة من أجل تحسين صورة الشيخ أمام الآخرين، فمثلاً قد يقول قائلهم: لقد علمت أن الشيخ سوف يسافر إلى العلماء، ويتحاور معهم، وسوف يلحق به فلان وفلان من أهل العلم. فإذا سألت فلاناً وفلاناً -ممن أشار إليهم المتعصب- أجابك بأنه لا يدري شيئاً عن هذا الكلام.

ويقول آخر: إن العالم الفلاني قد قال: إن شيخنا هو أعلم الناس في البلد الفلاني، ثم إذا استوثقت من صحة هذه الدعوى وجدت إنها مكذوبة على هذا العالم. ويقول ثالث جهول: إن الألباني قام من مكانه وأجلس شيخنا مكانه، دلالة على أنه خليفته، وهذا من المضحك المبكي.

وقد قال بدر الدين العيني في عمدة القاري (١٤٩/٢): «بيان أصناف الواضعين: الأول قوم زنادقة كالمغيرة بن سعيد الكوفي ومحمد بن سعيد المصلوب، أرادوا إيقاع الشك في قلوب الناس فرووا: أنا خاتم النبيين لا نبي بعدي إلا أن يشاء الله، الثاني: قوم متعصبون، ومنهم من تعصب لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فوضعوا فيه أحاديث، وقوم تعصبوا لمعاوية ورووا له أشياء...» اهـ.

قلت: وهناك من وضعوا الأحاديث في فضل مالك وأبي حنيفة والشافعي.

وهكذا شابه المتعصبون الجدد أقرانهم من المتعصبين القدماء الذين كانوا يضعون الأخبار والأحاديث على رسول الله ﷺ انتصاراً لشيخهم ومدحاً له بالباطل، إلا أنه لبعد الزمان بيننا وبين الرسول ﷺ لم يتمكن الجدد من نسبة أخبارهم الموضوععة إليه ﷺ، إنما ينسبونها إلى ورثته من أهل العلم ممن لهم حق التعديل والتجريح.

وقال بديع الدين شاه الراشدي السندي في جلاء العينين (ص ٥٣): «وأطم من هذا أن بعضهم افتعل الأحاديث ما ذكره ابن الفرضي في تاريخ العلماء والرواة بالأندلس (٩٣/١) في ترجمة إصبع بن خليل أبي القاسم القرطبي، وهذا سياق كلامه: كان حافظاً للرأي على مذهب مالك وأصحابه، فقيهاً في الشروط، بصيراً بالعقود، ودارت عليه الفتيا بالأندلس خمسين عاماً... ولم يكن له علم بالحديث ولا معرفة بطرقه، بل كان يباعد ويطعن على أصحابه، وكان متعصباً لرأي أصحاب مالك، ولابن القاسم من بينهم، وبالع في التعصب لأصحابه أن افتعل حديثاً في ترك رفع اليدين في الصلاة بعد الإحرام، وقف الناس على كذبه فيه...»

قال أبو محمد - بديع الدين -: فإذا من كان إليه المرجع في الفتيا إلى خمسين سنة قد بلغ إلى هذا الحد من التعصب فإلى الله المشتكى، وأعوذ بالله من هذا التعصب الشديد بحيث لا يستحي من الله فيجتري على الكذب على النبي ﷺ حماية لمذهبه، نسأل الله العافية.

ونظير ذلك أن الشيخ علاء الدين الكاساني الحنفي الملقب عندهم بملك العلماء، قال في بدائع الصنائع (٥٤٨/٢) روي أنه ﷺ رأى بعض أصحابه يرفعون أيديهم عند الركوع

وعند رفع الرأس من الركوع، وقال: مالي أراكم رافعي أيديكم كأنها أذنان خيل شمس اسكنوا في الصلاة، وفي رواية: قاروا في الصلاة إلخ.

قال أبو محمد: هذه الرواية بهذا اللفظ لا أصل لها في شيء من كتب الحديث لا القديمة، ولا الحديثة، قبح الله من وضعه. اهـ

قلت: وفي الوقت الذي يلمعون فيه شيخهم ويخلعون عليه صفات الأولياء وسمات الشجعان المجاهدين، ويخترعون له الكرامات، ففي الجانب الآخر يغمطون صاحب الحق الذي خالف شيخهم ويخلعون عليه صفات الأعداء الأشقياء، وخذ هذا المثال حتى يتضح المقال:

قال أبو عبد الله محمد بن دواد الجراح في «الورقة» (ص ٨٠): «حدثني أحمد بن أبي خيثمة قال: قال الزبير بن بكار حدثني سعيد بن عمرو الزيري قال: كان أبو الرميح حبيب بن شوذب الأسدي يفضل الفرزدق على جرير ويتعصب له عليه -وقد كان أدركهما- فسأله عن صفتها، فقال: أما جرير فكان طويلاً مضطرباً أغنّ - فنعتة يؤهن خلقه حتى كان يُخثّنه - وأما الفرزدق: فكان غضنّراً عظيم الهامة، رحب الصدر، عظيم القصرة كأنه أسد». اهـ

سابعاً: وقوعهم في التأويل الفاسد لبعض النصوص الشرعية أو تصريحات بعض العلماء من أجل أن تتوافق مع منهج شيخهم، وقد صدق وأبر ابن أبي العز رحمته الله حينما بين خطورة التأويل الفاسد بقوله كما في شرح الطحاوية (ص ١٨٩): «ولا يشاء مبطل أن يتأول النصوص ويحرفها عن مواضعها إلا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجده متأول هذه النصوص».

وهذا الذي أفسد الدنيا والدين، وهكذا فعلت اليهود والنصارى في نصوص التوراة والإنجيل، وحذّرنا الله أن نفعل مثلهم، وأبى المبطلون إلا سلوك سبيلهم، وكم جنى التأويل الفاسد على الدين وأهله من جناية، فهل قتل عثمان رضي الله عنه إلا بالتأويل الفاسد؟ وكذا ما جرى في يوم الجمل وصفين ومقتل الحسين والحرّة؟ وهل خرجت الخوارج واعتزلت المعتزلة، ورفضت الروافض وافتترقت الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة إلا بالتأويل الفاسد؟! اهـ

وبعضهم إذا واجهته بكلام شيخه المخالف للحق، انبرى مدافعاً عنه بأن هذا الكلام مدسوس على الشيخ، فإذا قلت له إنه مسجل بصوت الشيخ أو أن هذا الكتاب من تأليف الشيخ، تبلبل تائهاً تدور عينيه في حلقاته كالذي يُخشى عليه من الموت.

وهذا يذكرني بما قاله محمد عبد الله السمان في مقال له بمجلة التوحيد (عدد ربيع الأول ١٣٩٦) (ص ٢١) بعنوان «كتاب يهذي: تأثيم الذمة في خداع الأمة، لا: تبرئة الذمة في نصيح الأمة» في التحذير من محمد عثمان عبده البرهاني من كبراء الطريقة البرهانية في السودان -وهو مؤلف هذا الكتاب الذي يهذي- حيث قال:

«وأعجب من هذا وذاك أنني منذ شهور أثرت قصة هذا الكتاب الذي يهذي باسم الإسلام الذي أصبح مغلوباً على أمره، فانبرى أحد المشتغلين بحرفة التصوف يحاول إقناعي أن هذا الكتاب مدسوس على الشيخ، ولست أدري كيف يدس كتاب من ثلاثمائة وثلاثين صفحة من القطع الكبير جداً على شيخ ذائع الصيت، دون أن يصدر بيان من الشيخ ينفي ما نسب إليه؟! بل إن أتباع الشيخ المتعصبين له أشد التعصب لا يزالون يروجون لهذا الكتاب يقنعون به الأميين ويخدعون به أنصاف المتعلمين!!» اهـ.

قلت: قاتل الله التعصب وأهله.

واقراً كتاب «الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية» لعبد الوهاب الشعراني، لترى العجب العجيب في التأويلات السمجة للكلام الكفري الظاهر الذي تفوه به نحو ابن عربي الطائفي، ومن على شاكلته من أئمة الضلال، والشعراني أرق نفسه بهذا العنت تعصباً لهم، ومحاولة منه لإظهارهم في صورة المتبعين للكتاب والسنة.

وبنحو هذا صنع د: القاري وأنصاره في محاولاتهم السمجة في تلميع أئمة التصوف والضلال ساعين لإظهارهم بمظهر العلماء الربانيين العاملين بالكتاب والسنة، وهم غارقون في عبادة القبور، والقول بوحدة الوجود والحلول والاتحاد، وتأويل صفات الله عز وجل، وتحريف معناها... إلخ ضلالاتهم، وقد انبرى لكشف ألعيب هؤلاء شيخنا العلامة ربيع بن هادي المدخلي -حفظه الله- من خلال مقالات ماتعة جمعها في كتابه: «كشف زيف التصوف وبيان حقيقته وحال حمّله». فجزاه الله عن المسلمين خير الجزاء.

الولاء والبراء إنما يكون على العلماء الراسخين

أئمة السنة وأعلام المنهج السلفي

وَكَمْ شَبْهَةٌ قَدْ تَدُورُ فِي أَذْهَانِ الْبَعْضِ، وَهِيَ قَوْلُ أَحَدِهِمْ: لَقَدْ شَرَّقَتْ، وَغَرُبَتْ فِي هَذَا الْجُزْءِ تَحْذَرْنَا مِنْ عَقْدِ الْوَلَاءِ وَالْبِرَاءِ عَلَى الشُّيُوخِ وَاخْتِبَارِ النَّاسِ بِهِمْ، وَلَكِنْ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ هَدْيِ السَّلَفِ عَقْدُ الْوَلَاءِ وَالْبِرَاءِ عَلَى مَشَائِخِ السَّنَةِ، بَلْ وَاخْتِبَارِ الْآخَرِينَ بِحُبِّهِمْ وَبَغْضِهِمْ؟ وَمِنْ أَمْثَلِهِ هَذَا:

الباب الذي عقده ابن أبي حاتم في مقدمة الجرح والتعديل (ص ٣٠٨) بعنوان: «باب استحقاق الرجل السنة بمحبة أحمد بن حنبل»، ثم ذكر تحته الآثار التالية، فقال:

حدثنا عبد الرحمن، نا أحمد بن القاسم بن عطية^(١) قال: سمعت عبد الله بن أحمد بن شويه المروزي^(٢) يقول سمعت: أبا رجاء يعني قتيبة بن سعيد يقول: إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل، فاعلم أنه صاحب سنة وجماعة.

نا محمد بن علي بن سعيد النسائي قال: سمعت قتيبة بن سعيد يقول: إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل، فاعلم أنه على الطريق.

سمعت أبي يقول: إذا رأيتم الرجل يحب أحمد بن حنبل، فاعلم أنه صاحب سنة. سمعت أبا جعفر محمد بن هارون الفلاس يقول: إذا رأيت الرجل يقع في أحمد بن حنبل فاعلم أنه مُبتدع ضال.

وقال القاضي ابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة (١٩٩/١-٢٠٠) في ترجمة أبي زرعة: «قرأت على المبارك قلت له: حدثك محمد الصوري، حدثنا أبو بكر بن الخصب المصيصي

(١) قال عنه ابن أبي حاتم: كتبنا عنه، وهو صدوق ثقة، كما في الجرح (١-١-٦٧).

(٢) ترجمه ابن أبي حاتم في الجرح (٢-٢-٦)، ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً، وترجمه الخطيب في تاريخ بغداد (٩/٣٧٤).

قال: سمعت أحمد بن صالح يقول سمعت أبا زرعة الرازي يقول: إذا رأيت الكوفي يطعن على سفيان الثوري وزائدة فلا تشك أنه رافضي، وإذا رأيت الشامي يطعن على مكحول والأوزاعي فلا تشك أنه ناصبي، وإذا رأيت الخراساني يطعن على عبد الله بن المبارك فلا تشك أنه مُرجئ، واعلم أن هذه الطوائف كلها مُجمعة على بُغض أحمد بن حنبل؛ لأن ما منهم أحد إلا وفي قلبه منه سهم لا بُرء له.

وقال أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني في «عقيدة السلف وأصحاب الحديث» (ص ١١٢): «أخبرنا الحاكم أبو عبد الله الحافظ -أسكنه الله وإيانا الجنة-: حدثنا محمد بن إبراهيم بن الفضل المزكي حدثنا أحمد بن سلمة قال: قرأ علينا أبو رجاء قتيبة بن سعيد كتاب «الإيمان» له، فكان في آخره:

«فإذا رأيت الرجل يحب سفيان الثوري، ومالك بن أنس، وشعبة، وابن المبارك، وأبا الأحوص، وشريكاً، ووكيعةً، ويحيى بن سعيد، وعبد الرحمن بن مهدي، فاعلم أنه صاحب سنة».

* والجواب عن هذه الشبهة أن يقال:

شتان شتان بين الأمرين، فهل يسوى التعصّب بالباطل لشيخ من شيوخ أهل الأهواء، بالمحبة والنصرة لأئمة الهدى والسنة؟!

﴿وَمَا يَسْتَوِ الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۖ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۖ وَلَا الظُّلُمُتُ وَلَا الْحُرُورُ ۚ وَمَا يَسْتَوِ الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢].

فهل من يتعصّب للجهنم بن صفوان، أو للحارث المحاسبي، أو لغيلان القدري، أو لابن كلاب، أو لنجدة بن عامر الحروري، أو للماتريدي، أو لمحمد بن كرام، أو لعمر بن عبيد المتعزلي، أو لابن عربي الطائي، أو للحلاج، أو لابن سبعين، أو لأبي حامد الغزالي، أو للجيلاني ... إلخ أئمة الرافض والتصوف والتجهم والخروج والتمشعر؛ كالذي يوالي أصحاب النبي ﷺ، ومن سار على طريقهم من أعلام أهل الحديث والأثر نحو ابن سيرين، وابن المسيّب، والزهرري، ومالك، والشافعي، وعبد الرحمن بن مهدي، والأوزاعي، والسفيانيين، والحمادين، وأحمد، وعثمان بن سعيد الدارمي، وابن مندة، والمروزي، والآجري، وابن

بطة، واللاكائي، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، وابن عبد الهادي، والشوكاني، والصنعاني... إلخ أئمة السنة في كل قرن من القرون السابقة؟!؟

وهل الذي يتعصب لأهل الأهواء في هذا القرن كالأفغاني، ومحمد عبده، وحسن البنا، وسيد قطب، والمودودي، ومحمد إلياس، ومحمد الغزالي، والقرضاوي، ومحمد سرور زين العابدين، وأسامة بن لادن، وأبو قتادة الفلسطيني... إلخ؛ كالذي يوالي أئمة السنة في هذا الزمان السائرين على سبيل السلف الصالح نحو أحمد شاكر، ومحمد حامد الفقي، وعبد العزيز بن باز، وعبد الرزاق عفيفي، ومحمد ناصر الدين الألباني، وابن عثيمين، ومقبل بن هادي، وصالح الفوزان، وربيع بن هادي، وعبد المحسن العباد، وأحمد النجمي، وزيد المدخلي.. إلخ - رحم الله الأموات منهم، وحفظ الله الأحياء - (١)؟!؟

فإن قيل: لماذا خصّصت هؤلاء الأئمة بالثناء، وطعنت في الآخرين بالبدعة والهوى؟
قلت: لأن هؤلاء الأئمة - كما بيّنا في طيات الكلام السابق، ولكنك لم تنتبه - ساروا على آثار الرسول ﷺ وعلى آثار أصحابه النجباء.

«فإن قيل: ما الدليل على صحة ذلك؟ قيل له: اتفاق أهل العلم على الشهادة لهم بذلك، ولم ينزلهم الله عز وجل هذه المنزلة إذ أنطق أئمة أهل العلم لهم بذلك إلا وقد جعلهم أعلاماً لدينه ومناراً، لاستقامة طريقه، وألبسهم لباس أعمالهم» (٢).

ومن ثمّ كانت موالاتهم واجبة؛ لأن موالاتهم تعني موالة الرسول ﷺ، وموالة أصحابه، ومن أبغضهم فقد أبغض سنة الرسول ﷺ، وأبغض سبيل أصحابه.

[وأنا بفضل الله عز وجل متبع لآثارهم، مستضيء بأنوارهم، ناصح لإخواني وأصحابي أن لا يرفعوا غير منارهم، ولا يتبعوا غير أقوالهم، ولا يشتغلوا بهذه المحدثات من البدع التي اشتهرت فيما بين المسلمين، والمناكير من المسائل التي ظهرت وانتشرت، ولو جرت

(١) لمعرفة الفروق الجلية بين دعوات أهل الأهواء، وأئمة السنة: انظر كتابي: «الكواشف الجلية للفروق بين السلفية والدعوات الحزبية البدعية».

(٢) مقدمة الجرح والتعديل (ص ٣).

واحدة منها على لسان واحد في عصر أولئك الأئمة لهجروه، وبدّعوه، وكذبوه، وأصابوه، بكل سوء ومكروه، ولا يغرنّ إخواني -حفظهم الله- كثرة أهل البدع، ووفور عددهم، فإن وفور أهل الباطل، وقلة عدد أهل الحق من علامات اقتراب اليوم الحق، فإن ذلك من علامات اقتراب الساعة، إذ الرسول المصطفى ﷺ قال: «إن من علامات الساعة واقترابها أن يقل العلم، ويكثر الجهل»، والعلم هو السنة، والجهل هو البدعة^(١).

(١) ما بين المعقوفين من كلام الإمام أبو عثمان الصابوني -رحمه الله- في خاتمة كتابه «عقيدة السلف وأصحاب الحديث» (ص ١١٤).

صفحات مقيمة من تاريخ المتعصبين

إن تاريخ المتعصبين تاريخ أسود مر باد كالكوز مجخياً، لا ترى فيه معروفاً، ولا تلمس فيه رافة ولا رحمة، بل ترى التعنت والاستكبار والعجب.. إلخ.

ونشأة التعصب كانت مع ظهور الشرك في بني آدم، حيث تعصب المشركون لمعبوداتهم، وأبوا الإذعان لدعوة الرسل والأنبياء، ودفعهم هذا التعصب المقيت إلى محاربة رسل الله، وإيذائهم يشي أنواع الإيذاء.

ونال رسولنا ﷺ النصيب الأوفر من أنواع الإيذاء من متعصبي قريش، الذين رموه بالعظام نظراً لتعصبهم المقيت لما هم عليه من باطل.

وجرت سنن الله مع أصحابه -رضوان الله عليهم-، ثم مع أتباعهم بإحسان من ورثة الأنبياء، فكانت أكثر فئة ابتليت بجهالات المتعصبين هم أهل الفرقة الناجية والطائفة المنصورة: أصحاب الحديث والأثر أتباع السلف الصالح -خاصة من ينتسب منهم إلى الإمام أحمد بن حنبل-.

وانظر «نقض كلام المفترين على الحنابلة السلفيين» للشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي، تدرك طرفاً من هذه المآسي.

وبدأت نعرات المتعصبين تظهر في هذه الأمة بظهور ذي الخويصرة التميمي، الذي خرج من ضئضئه غلاة المتعصبين من الخوارج، وكان الجيل الأول منهم قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، حيث تعصبوا ضده وافتروا عليه ما لم يقتضه، وانتهى بهم تعصبهم المقيت إلى قتله -رضي الله عنه-.

وتلا هؤلاء المتعصبين قتل علي -رضي الله عنه- بعد أن كفروه واستحلوا دمه، واستحلوا أيضاً دم معاوية -رضي الله عنه-، لكن الله سبحانه لم يمكنهم من معاوية.

وهكذا ظلت فتنة المتعصّبين من غلاة الخوارج تقطع أوصال هذه الأمة، وتضعف قواها قرناً بعد قرن، حتى وصلنا إلى هذا الزمان، وظهر هذا الجيل الأخير من المتعصّبين الحزبيين الذين آذوا السلفيين -أهل الحديث والأثر-، وطعنوا في علمائهم، وهيجوا الفتن في بلاد الإسلام، حتى تحولت بعض البلاد إلى برك من الدماء، نحو الجزائر وأفغانستان، أو إلى معقل من معاقل الشرك والوثنية، تحت شعار: «الإسلام هو الحل»، وشعار: «نجتمع على ما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه»، وشعار: «لا فرق بين السلفي والإخواني والتبليغي»^(١)، كلنا نقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وبهذه الشعارات خدعوا الشباب المتحمس، ليغروا بهم ويجروا أقدامهم إلى الحمية العصبية لحزبهم، تحت دعوى أنه هو الحزب المجاهد الذي يسعى لإعادة الخلافة الساقطة^(٢). وقد عانى علماء الصحابة من هؤلاء الجهلة المتعصّبين، حتى شعر بعضهم بغربة المنهج الحق، رغم عدم انصرام القرن الأول من القرون الثلاثة الفاضلة، فهذا سعد بن أبي وقاص -أحد العشرة المشهود لهم بالجنة- قد قاسى من متعصّبي أهل الكوفة، حتى وصل بهم الأمر أنهم شكوه في كل شيء، كما قال له عمر -رضي الله عنه-: «لقد شكوك في كل شيء حتى في الصلاة»، كما ثبت هذا في الصحيحين.

وهذا الشافعي أؤذي من المتعصّبين لمالك من أهل مصر، فيما حكاه شيخ الإسلام كما في الفتاوى (٣٣٢/٢٠): «ثم إن الشافعي -رضي الله عنه- لما كان مجتهداً في العلم ورأى من الأحاديث الصحيحة، وغيرها من الأدلة ما يجب عليه اتباعه، وإن خالف قول أصحاب

(١) ولعلّه استحنى أن يقول: «والشيعي».

(٢) وأخفوا على الشباب أسباب سقوط الخلافة، والتي تتلخص في تفشي عبادة الأضرحة في ربوع البلاد، وتفشي البدع والمحدثات، مع حربهم لدولة التوحيد التي أقامها الإمام محمد بن عبد الوهاب، وأفتعوههم أن السبب الرئيسي لسقوط الخلافة هو تكالب اليهود وأعوانهم من المنافقين على إسقاط هذه الدولة، وتناسوا أن مكر هؤلاء ما هو إلا مآل الأسباب الحقيقية النابعة من داخل الخلافة، فعلقوا الفشل على مآل الداء، وتناسوا أصله وسببه، فصاروا كحال من يقول: إن سبب الموت هو تحلل الجسد!! ونسوا أن تحلل الجسد هو مآل الميت ليس سبب موته الذي قدره الله -عز وجل-.

المدنيين، قام بما رآه واجباً عليه وصنّف الإملاء على مسائل ابن القاسم وأظهر خلاف مالك فيما خالفه فيه، وقد أحسن الشافعي فيما فعل وقام بما يجب عليه، وإن كان قد كره ذلك من كرهه وآذوه وجرت محنة مصرية معروفة، والله يغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات» اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «القواعد النورانية» (١/١١٠، ١١١): «وأما بقية الفقهاء فيختارون بعض ذلك ويكرهون بعضه! فمنهم من يكره الترجيع في الأذان كأبي حنيفة، ومنهم من يكره تركه كالشافعي، ومنهم من يكره شفع الإقامة كالشافعي، ومنهم من يكره إفرادها؛ حتى صار باتباعهم إلى نوع جاهلية، فصاروا يقتتلون في بعض بلاد المشرق على ذلك حمية جاهلية!! مع أن الجميع حسن، قد أمر به رسول الله ﷺ: أمر بالآحاد بإفراد الإقامة، وأمر أبا محذورة بشفعها، وإنما الضلالة كل الضلالة أن ينهى أحد عما أمر به النبي ﷺ».

فأما صفة الصلاة فمن شعائرها: مسألة البسملة، فإن الناس اضطربوا فيها نفياً وإثباتاً: في كونها آية من القرآن، وفي قراءتها، وصنّفت من الطرفين مصنّفات، يظهر في بعض كلامها نوع جهل وظلم، مع أن الخطب فيها يسير.

وأما التعصب لهذه المسائل ونحوها فمن شعائر الفرق بين الأمة، وإلا فهذه المسائل من أخف مسائل الخلاف جدّاً، لولا ما يدعو إليه الشيطان من إظهار شعار الفرق» اهـ.

وفي تفصيل أوسع بيّن شيخ الإسلام صفحة من التاريخ الأسود للتعصب، وبيّن المفساد العظيمة التي ترتبت على التعصب لأقوال الشيوخ، والمالاة عليها حتى سلط الله سبحانه التتر على بلاد الإسلام، حيث سئل كما في «مجموع الفتاوى» (٢٢/٢٥٢) (المجلد الثاني في الفقه: الصلاة): عن رجل حنفي صلى في جماعة وأسر نيته ثم رفع يديه في كل تكبيرة؛ فأنكر عليه فقيه الجماعة وقال له: هذا لا يجوز في مذهبك وأنت مبتدع فيه وأنت مذدب لا يمامك اقتديت ولا بمذهبك اهتديت، فهل ما فعله نقص في صلاته ومخالفة للسنّة وإمامه أم لا؟

فكان من ضمن ما أجاب به قوله: «ومن تعصّب لواحد بعينه من الأئمة دون الباقيين

فهو بمنزلة من تعصّب لواحد بعينه من الصحابة دون الباقيين: كالرافضي الذي يتعصّب لعليّ دون الخلفاء الثلاثة وجمهور الصحابة، وكالخارجي الذي يقدح في عثمان وعلي -رضي الله عنهما-.

فهذه طرق أهل البدع والأهواء الذين ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أنهم مذمومون خارجون عن الشريعة والمنهاج الذي بعث الله به رسوله ﷺ، فمن تعصّب لواحد من الأئمة بعينه ففيه شبه من هؤلاء سواء تعصّب لمالك أو الشافعي أو أبي حنيفة أو أحمد أو غيرهم، ثم غاية المتعصّب لواحد منهم أن يكون جاهلاً بقدره في العلم والدين وبقدر الآخرين، فيكون جاهلاً ظالماً، والله يأمر بالعلم والعدل وينهى عن الجهل والظلم، قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الاحزاب: ٧٢]. ﴿يُعَذِّبُ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ [الاحزاب: ٧٣]. إلى آخر السورة.

وهذا أبو يوسف ومحمد أتبع الناس لأبي حنيفة وأعلمهم بقوله، وهما قد خالفاه في مسائل لا تكاد تحصي لما تبين لهما من السنة والحجة ما وجب عليهما اتباعه وهما مع ذلك معظمان لإمامهما، لا يقال فيهما مذذبان: بل أبو حنيفة وغيره من الأئمة يقول القول ثم تتبين له الحجة في خلافه فيقول بها، ولا يقال له مذذب؛ فإن الإنسان لا يزال يطلب العلم والإيمان، فإذا تبين له من العلم ما كان خافياً عليه اتبعه وليس هذا مذذباً؛ بل هذا مهتد زاده الله هدى، وقد قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، فالواجب على كل مؤمن موالاة المؤمنين وعلماء المؤمنين وأن يقصد الحق ويتبعه حيث وجده ويعلم أن من اجتهد منهم فأصاب فله أجران ومن اجتهد منهم فأخطأ فله أجر لا جتهاده وخطؤه مغفور له، وعلى المؤمنين أن يتبعوا إمامهم إذا فعل ما يسوغ؛ فإن النبي ﷺ قال: «إنما جعل الإمام ليؤتم به»، وسواء رفع يديه أو لم يرفع يديه لا يقدح ذلك في صلاتهم، ولا يبطلها لا عند أبي حنيفة ولا الشافعي ولا مالك ولا أحمد، ولو رفع الإمام دون المأموم أو المأموم دون الإمام لم يقدح ذلك في صلاة واحد منهما، ولو رفع الرجل في بعض الأوقات دون بعض لم يقدح ذلك في صلاته، وليس لأحد أن يتخذ قول بعض العلماء شعاراً يوجب اتباعه وينهى عن

غيره مما جاءت به السنة؛ بل كل ما جاءت به السنة فهو واسع: مثل الأذان والإقامة، فقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ: أنه أمر بلالاً أن يشفع الأذان ويوتر الإقامة، وثبت عنه في الصحيحين: أنه علم أبا محذورة الإقامة شفعاً شفعاً كالأذان، فمن شفع الإقامة فقد أحسن، ومن أفردا فقد أحسن، ومن أوجب هذا دون هذا فهو مخطئ ضال، ومن وإلى من يفعل هذا دون هذا بمجرد ذلك فهو مخطئ ضال^(١).

وبلاد الشرق من أسباب تسليط الله التتر عليها كثرة التفرق والفتن بينهم في المذاهب وغيرها؛ حتى تجد المنتسب إلى الشافعي يتعصب لمذهبه على مذهب أبي حنيفة؛ حتى يخرج عن الدين، والمنتسب إلى أبي حنيفة يتعصب لمذهبه على مذهب الشافعي وغيره؛ حتى يخرج عن الدين، والمنتسب إلى أحمد يتعصب لمذهبه على مذهب هذا أو هذا؛ وفي المغرب تجد المنتسب إلى مالك يتعصب لمذهبه على هذا أو هذا، وكل هذا من التفرق والاختلاف الذي نهى الله ورسوله عنه، وكل هؤلاء المتعصبين بالباطل المتبعين الظن وما تهوى الأنفس المتبعين لأهوائهم بغير هدى من الله مستحقون للذم والعقاب، وهذا باب واسع لا تحتل هذه الفتيا لبسطه؛ فإن الاعتصام بالجماعة والائتلاف من أصول الدين والفرع المتنازع فيه من الفروع الخفية فكيف يقدح في الأصل بحفظ الفرع، وجمهور المتعصبين لا يعرفون من الكتاب والسنة إلا ما شاء الله، بل يتمسكون بأحاديث ضعيفة أو آراء فاسدة أو حكايات عن بعض العلماء والشيخوخ قد تكون صدقاً، وقد تكون كذباً، وإن كانت صدقاً فليس صاحبها معصوماً، يتمسكون بنقل غير مصدق عن قائل غير معصوم، ويدعون النقل المصدق عن القائل المعصوم، وهو ما نقله الثقات الأثبات من أهل العلم ودونوه في الكتب الصحاح عن النبي ﷺ، فإن الناقلين لذلك مصدقون باتفاق أئمة الدين، والمنقول عنه معصوم لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، قد أوجب الله تعالى على جميع الخلق طاعته واتباعه، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ

(١) قال الشيخ حسن -حفظه الله-: «هذا إذا كان عالماً بالحكم الشرعي، ثم تعصب لقول شيخه، أو لقول نفسه، مع علمه بأن في الأمر سعة».

ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿[النساء: ٦٥]﴾، وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، والله تعالى يوفقنا وسائر إخواننا المؤمنين لما يحبه ويرضاه من القول والعمل والهدى والنية والله أعلم، والحمد لله وحده» اهـ.

قلت: ومعلوم ما ناله الإمام أحمد من عظيم الأذى من جهلة المتعصبين الجهمية الذين أظهروا القول بخلق القرآن.

وقال القاضي أبو بكر العربي في «أحكام القرآن» (٤/١٩٠) في تفسير سورة الانشقاق: «كان شيخنا أبو بكر الفهري يرفع يديه عند الركوع، وعند رفع الرأس منه، وهذا مذهب مالك والشافعي، وتفعله الشيعة، فحضر عندي يوماً بمحرس ابن الشواء بالثغر موضع تدريسي عند صلاة الظهر، ودخل المسجد من المحرس المذكور، فتقدم إلى الصف الأول وأنا في مؤخره قاعد على طاقات البحر، أتسم الريح من شدة الحر، ومعه في صف واحد أبو ثمنة رئيس البحر وقائده، مع نفر من أصحابه ينتظر الصلاة، ويتطلع على مراكب تحت الميناء، فلما رفع الشيخ يديه في الركوع وفي رفع الرأس منه قال أبو ثمنة وأصحابه: ألا ترون إلى هذا المشرقي كيف دخل مسجدنا؟ فقوموا إليه فاقتلوه وارموا به في البحر، فلا يراكم أحد؛ فطار قلبي من بين جوانحي، وقلت: سبحان الله، هذا الطرطوشي فقيه الوقت، فقالوا لي: ولِمَ يرفع يديه؟ فقلت: كذلك كان النبي ﷺ يفعل، وهو مذهب مالك في رواية أهل المدينة عنه، وجعلت أسكنهم وأسكتهم، حتى فرغ من صلاته، وقمت معه إلى المسكن من المحرس، ورأى تغير وجهي، فأنكره، وسألني فأعلمته فضحك، وقال: ومن أين لي أن أقتل على سنة، فقلت له: ولا يحل لك هذا فإنك بين قوم إن قمت بها قاموا عليك، وربما ذهب دمك، فقال: دع هذا الكلام وخذ في غيره»^(١) اهـ.

(١) قال العلامة أبو محمد بدیع الدین شاه الراشدي السندي في «جلاء العينين بتخريج روايات البخاري في جزء رفع اليدين» (ص ٤٧): «وقد أؤذي فيه - في رفع الأيدي في الصلاة - كثير من عباد الله المتمسكين كالشيخ أبي بكر الفهري، إذ هموا بقتله فعصمه الله، وكالشيخ أبي الحسن السندي، وقد جنوه فثبته الله وصبر واحتسب».

ومن الصفحات المقيمة التي سطرت في تاريخ المتعصبين ما حدث لعبد الخالق بن عيسى بن أحمد الحنبلي المشهور بـ«الشريف أبي جعفر»، وقد ترجمه ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة (١/١٥-٢٦)، وكان مما قاله: «وقال -القاضي أبو الحسين-: بدأ يَدْرُسَ الفقه على الوالد من سنة ثمان وعشرين وأربعمائة إلى سنة إحدى وخمسين، يقصد إلى مجلسه ويعلق، ويعيد الدرس في الفروع وأصول الفقه، وبرع في المذهب، ودَرسَ، وأفتى في حياة الوالد، وكان مختصر الكلام، مليح التدريس، جيد الكلام في المناظرة، عالماً بالفرائض، وأحكام القرآن والأصول، وكان له مجلسٌ للنظر في كل يوم اثنين ويقصده جماعة من فقهاء المخالفين، وكان شديد القول واللسان على أهل البدع ولم تزل كلمته عالية عليهم، ولا يَرُدُّ يده عنهم أحد، وانتهى إليه في وقته الرحلة لطلب مذهب الإمام أحمد؛ وذكره ابن السمعاني فقال: إمام الحنابلة في عصره بلا مدافعة، مليح التدريس، حسن الكلام في المناظرة، ورع زاهد، متقن عالم بأحكام القرآن والفرائض، مَرُضِي الطريقة...».

ثم ذكر ابن رجب محنته مع المتعصبين والتي كانت نهايتها بمقتله ظلمًا بِرَحْمَةِ اللَّهِ، فقال ابن رجب في (ص ١٩-٢٤): «وأخر ذلك كله: فتنة ابن القشيري، قام فيها الشريف قيامًا كليًا، ومات في عقبها.

ومضمون ذلك: أن أبا نصر بن القشيري ورد بغداد سنة تسع وستين وأربعمائة، وجلس في النظامية، وأخذ يذم الحنابلة، وينسبهم إلى التجسيم.

وكان المتعصب له أبو سعد الصوفي، ومال إلى نصره أبو إسحاق الشيرازي، وكتب إلى نظام الملك الوزير يشكو الحنابلة، ويسأله المعونة، فاتفق جماعة من أتباعه على الهجوم على الشريف أبي جعفر في مسجده، والإيقاع به، فرتب الشريف جماعة أعدهم لرد خصومه إن وقعت.

فلما وصل أولئك إلى باب المسجد رامهم هؤلاء بالآجر، فوقعت الفتنة، وقتل من أولئك رجل من العامة، وجرح آخرون، وأخذت ثياب.

وأغلق أتباع ابن القشيري أبواب سوق مدرسة النظام، وصاحوا: المستنصر بالله، يا

منصور- يعنون العبيدي صاحب مصر- وقصدوا بذلك التشجيع على الخليفة العباسي، وأنه مماليء للحنابلة، لا سيما والشريف أبو جعفر ابن عمه.

وغضب أبو إسحاق، وأظهر التأهب للسفر، وكتب فقهاء الشافعية نظام الملك بما جرى، فورد كتابه بالامتعاظ من ذلك، والغضب لتسلط الحنابلة على الطائفة الأخرى، وكان الخليفة يخاف من السلطان ووزيره نظام الملك ويداريهما.

وحكى أبو المعالي صالح بن شافع، عن شيخه أبي الفتح الحلواني وغيره، ممن شاهد الحال: أن الخليفة لما خاف من تشجيع الشافعية عليه عند النظام أمر الوزير أن يجيل الفكر فيما تنحسم به الفتنة، فاستدعى الشريف أبا جعفر بجماعة من الرؤساء منهم ابن جرادة، فتلففوا به حتى حضر في الليل، وحضر أبو إسحاق، وأبو سعد الصوفي، وأبو نصر بن القشيري، فلما حضر الشريف عظمه الوزير ورفع، وقال: إن أمير المؤمنين ساء ما جرى من اختلاف المسلمين في عقائدهم، وهؤلاء يصلحونك على ما تريد، وأمرهم بالدنو من الشريف، فقام إليه أبو إسحاق، وكان يتردد في أيام المناظرة إلى مسجده بدرب المطبخ، فقال: أنا ذاك الذي تعرف، وهذه كتبي في أصول الفقه، أقول فيها: خلافاً للأشعرية، ثم قبل رأسه.

فقال له الشريف: قد كان ما تقول، إلا أنك لما كنت فقيراً لم تُظهر لنا ما في نفسك، فلما جاء الأعوان والسلطان وخوaja بُزُرْك- يعني النظام- أبديت ما كان مخفياً.

ثم قام أبو سعد الصوفي، فقبل يد الشريف، وتلفف به، فالتفت مغضباً وقال: أيها الشيخ، إن الفقهاء إذا تكلموا في مسائل الأصول فلهم فيها مدخل، وأما أنت: فصاحبُ لهو وسماع وتعبير، فمن زاحمك على ذلك حتى داخلت المتكلمين والفقهاء، فأقمت سوق التعصُّب؟

ثم قام ابن القشيري -وكان أقلهم احتراماً للشريف- فقال الشريف: من هذا؟ فقيل: أبو نصر بن القشيري، فقال لو جاز: أن يشكر أحد على بدعته لكان هذا الشاب لأنه باد هنا بما في نفسه، ولم يناقنا كما فعل هذان، ثم التفت إلى الوزير فقال: أي صلح يكون بيننا،

إنما يكون الصلح بين مختصمين على ولاية، أو دنيا، أو تنازع في ملك، فأما هؤلاء القوم: فإنهم يزعمون أننا كفار، ونحن نزعم أن من لا يعتقد ما نعتقده كان كافراً، فأئى صلح بيننا، وهذا الإمام يصدع المسلمين، وقد كان جداه- القائم والقادر- أخرجنا اعتقادهما للناس، وقرىء عليهم في دواوينهم، وحمله عنهم الخراسانيون والججيج إلى أطراف الأرض، ونحن على اعتقادهما.

وأنهى الوزير إلى الخليفة ما جرى، فخرج في الجواب: عرف ما أنهيته من حضور ابن العم- كثر الله في الأولياء مثله- وحضور من حضر من أهل العلم، والحمد لله الذي جمع الكلمة، وضم الألفة، فليؤذن للجماعة في الانصراف، وليقل لابن أبي موسى: إنه قد أفرد له موضع قريب من الخدمة ليراجع في كثير من الأمور المهمة، وليتبرك بمكانه. فلما سمع الشريف هذا قال: فعلتموها.

فحمل إلى موضع أفرد له بدار الخلافة، وكان الناس يدخلون عليه مدة مديدة. ثم قيل له: قد كثر استطراق الناس دار الخلافة، فاقصر على من تُعين دخوله، فقال: ما لي غرض في دخول أحد علي، فامتنع الناس. ثم إن الشريف مرض مرضاً أثّر في رجله فانتفختا، فيقال: إن بعض المتفقهة من الأعداء ترك له في مداسه سماً، والله تعالى أعلم^(١). اهـ.

قلت: وبهذا تفوح الرائحة الكريهة للتعصب المقيت، لما يبلغ الغلو بأصحابه إلى إراقة دماء العلماء ورثة الأنبياء، كما كان يقتل بنو إسرائيل أنبياءهم.

وقال ابن رجب في ذكر المحن التي تعرض لها الحافظ عبد الغني المقدسي كما في ترجمته في الذيل (١٩/٢)، وقد ذكر أربع محن: «كان أبو نعيم الحافظ قد أخذ على الحافظ

(١) قال ابن رجب (ص ٢٣): «توفي -رحمه الله- ليلة الخميس سحراً، خامس عشر صفر سنة سبعين وأربعمائة... وصلي عليه يوم الجمعة ضحى بجامع المنصور، وأم الناس أخوه الشريف أبو الفضل محمد، ولم يسع الجامع الخلق وانضغطوا، ولم يتهاى لكثير منهم الصلاة».

ثم قال: «وكانت العامة تقول: ترحموا على الشريف الشهيد، القتيل المسموم؛ لما ذكر من أن بعض المبتدعة ألقى في مداسه سماً، ودفن إلى جانب الإمام أحمد». اهـ.

أبي عبد الله بن مَنَدَةَ أشياء في كتاب «معرفة الصحابة»، وكان الحافظ أبو موسى المديني يشتهي أن يأخذ على أبي نعيم -يعني: في كتاب «معرفة الصحابة»- فما كان يحسن، فلما جاء الحافظ عبد الغني إلى أصبهان أشار إليه بذلك. قال: تأخذ على أبي نعيم في كتابه «معرفة الصحابة»، نحواً من مائتين وتسعين موضعاً، قال: فلما سمع بذلك الصدر عبد اللطيف ابن الخُجَندي طلب الحافظ عبد الغني، وأراد إهلاكه فاختم الحافظ.

وسمعت أبا الثناء محمود بن سلامة الحراني قال: ما أخرجنا الحافظ من إصبهان إلا في إزار، وذلك أن بيت الخجندى أشاعرة، كانوا يتعصبون لأبي نعيم، وكانوا رؤساء البلد. **قلت:** هذا في غاية الجهل والهوى، وإلا فما الذي يتعلق بهذا من المذاهب واختلاف المقالات؟

قال الضياء: وسمعت الحافظ يقول: كنا بالموصل نسمع الجرح والتعديل للعُقيلي، فأخذني أهل الموصل، وحبسوني، وأرادوا قتلي من أجل ذكر أبي حنيفة فيه، فجاءني رجل طويل ومعه سيف، فقلت: لعل هذا يقتلني وأستريح، قال: فلم يصنع شيئاً، ثم إنهم أطلقوني.

قال: وكان يسمع هو والإمام ابن البرني الواعظ، فأخذ ابن البرني الكراس التي فيها ذكر أبي حنيفة فاشتالها، فأرسلوا وفتشوا الكتاب فلم يجدوا شيئاً، فهذا سبب خلاصه، والله أعلم.

قال: وكان الحافظ يقرأ الحديث بدمشق، ويجتمع الخلق عليه، ويبكي الناس، ويتنفعون بمجالسه كثيراً، فوقع الحسد عند المخالفين بدمشق، وشرعوا يعملون وقتاً يجتمعون في الجامع، ويقرأ عليهم الحديث، ويجمعون الناس من غير اختيارهم، فهذا ينام، وهذا قلبه غير حاضر، فلم تشتف قلوبهم بذلك، فشرعوا في المكيدة بأن أمرو الإمام الناصح أبا الفرج عبد الرحمن بن نجم بن الحنبلي الواعظ بأن يجلس يعظ في الجامع تحت قبة النسر بعد الجمعة وقت جلوس الحافظ، فلما بلغني ذلك قلت لبعض أصحابنا: هذه مكيدة والله، ما ذلك لحبهم الناصح وإنما يريدون أن يعملوا شيئاً، فأول ذلك: أن

الحافظ والناصح أراد أن يختلفا للوقت، ثم اتفقا على أن يجلس الناصح بعد صلاة الجمعة، ثم يجلس الحافظ بعد العصر، فلما كان بعض الأيام، والناصح قد فرغ من مجلسه، وكان قد ذكر الإمام أحمد رحمته الله في مجلسه - فسدوا إليه رجلاً ناقص العقل من بيت ابن عساكر فقال للناصح كلاماً معناه: إنك تقول الكذب على المنبر فضرب ذلك الرجل وهرب، فأتبع، فخبى في الكلاسة، فتمت لهم المكيدة بهذه الواقعة، فمشوا إلى الوالي، وقالوا له: هؤلاء الحنابلة ما قصدهم إلا الفتنة، واعتقادهم يخالف اعتقادنا، ثم إنهم جمعوا كبراءهم، ومضوا إلى القلعة إلى الوالي، وقالوا: نشتهي أن يحضر الحافظ عبد الغني، وكانت مشايخنا قد سمعوا بذلك، فانحدروا إلى دمشق: خالي الإمام موفق الدين، وأخي الإمام أبي العباس أحمد البخاري، وجماعة الفقهاء، وقالوا: نحن نناظرهم، وقالوا للحافظ: أقعد أنت لا تجيء، فإنك حاد ونحن نكفيك، فاتفق أنهم أرسلوا إلى الحافظ من القلعة وحده فأخذوه، ولم يعلم أصحابنا بذلك، فناظروه، وكان أجهلهم يغري به فاحتدّ وكانوا قد كتبوا شيئاً من اعتقاداتهم وكتبوا خطوطهم فيه، وقالوا له: اكتب خطك، فلم يفعل، قالوا للوالي: الفقهاء كلهم قد اتفقوا على شيء وهو يخالفهم، وكان الوالي لا يفهم شيئاً فاستأذنه في رفع منبره، فأرسلوا الأسرى فرفعوا ما في جامع دمشق من منبر وخزانة ودرابزين، وقالوا: نريد أن لا يجعل في الجامع إلا صلاة أصحاب الشافعي، وكسروا منبر الحافظ، ومنعوه من الجلوس، ومنعوا أصحابنا من الصلاة في مقامهم في الجامع، ففاتهم صلاة الظهر، ثم إن الناصح ابن الحنبلي جمع السوق وغيرهم، وقال: إن لم يخلونا نصلّي باختيارهم صلينا بغير اختيارهم، فبلغ ذلك القاضي - وهو كان صاحب الفتنة - فأذن لهم بالصلاة وخاف أن يصلّي بغير إذنه، وكان الحنفية قد حموا مقصورتهم بالجند.

ثم إن الحافظ ضاق صدره، ومضى إلى بعلبك، فأقام بها مدة يقرأ الحديث، وكان الملك العادل في بلاد الشرق، فقال أهل بعلبك للحافظ: إن اشتيت جئنا معك إلى دمشق نؤذي من أذاك، فقال: لا، ثم إنه توجه إلى مصر، ولم يعلم أصحابنا بسفره، فبقوا مدة بنابلس يقرأ الحديث.

قال الضياء: وهذا سمعته من أصحابنا، وكنت أنا في ذلك الوقت بمصر أسمع

الحديث» اهـ

وقال محمد بن عبد الهادي المقدسي في «الانتصار في ذكر أحوال قانع المبتدعين وآخر المجتهدين» (ص ٣١٧) تحت عنوان «جماعة من الغوغاء»^(١) يضربون الشيخ -أي ابن تيمية- بمصر: «فلما كان في رابع شهر رجب من سنة إحدى عشرة وسبعمائة، جاء رجل -فيما بلغني- إلى أخيه الشيخ شرف الدين وهو في مسكنه بالقاهرة.

فقال له: إن جماعة بجامع مصر قد تعصبوا على الشيخ، وتفردوا به وضربوه.

فقال: حسبنا ونعم الوكيل، وكان بعض أصحاب الشيخ جالساً عند شرف الدين، فقال: فقممت من عنده، وجئت إلى مصر، فوجدت خلقاً كثيراً من الحسينية وغيرها رجالاً وفرساناً يسألون عن الشيخ، فجئت فوجدته بمسجد الفخر كاتب الممالك على البحر، واجتمع عنده جماعة، وتتابع الناس، وقال له بعضهم: يا سيدي، قد جاء خلق من الحسينية، ولو أمرتهم أن يهدموا مصر كلها لفعلوا، فقال لهم الشيخ: لأي شيء؟ قال: لأجلك، فقال لهم: هذا يجوز؟ فقالوا: نحن نذهب إلى بيوت هؤلاء الذين آذوك، فنقتلهم ونخرب دورهم فإنهم شوّشوا على الخلق وأثاروا هذه الفتنة على الناس.

فقال لهم: هذا ما يحل، قالوا: فهذا الذي قد فعلوه معك يحل؟ هذا شيء لا نصبر عليه، ولا بد أن نروح إليهم ونقاتلهم على ما فعلوا.

والشيخ ينهاهم ويزجرهم، فلما أكثروا في القول قال لهم: إما أن يكون الحق لي أو

(١) قال أبو علي القالي في «المقصود والممدود» (ص ٣٧٠): «في لغة من يصرفها: فعلاء، وهي الجراد إذا هاج بعضه في بعض، ولم يستقل، وبه سمي الغوغاء من الناس.

وقال أبو بكر بن الأنباري: الغوغاء: شيء يشبه البعوض إلا أنه لا يعض، ولا يؤذي، وهو ضعيف. وقال الأصمعي: يقال للجراد إذا صارت له أجنحة، أو كادت تصير قبل أن تستقل غوغاء، وبه سمي الناس.

وقال أبو عبيدة: الجراد أول ما يكون سريرة، فإذا تحرك فهو دباً قبل أن تنبت أجنحته، ثم يكون غوغاء، وبه سمي الغوغاء من الناس».

لكم أو لله، فإن كان الحق لي فهم في حلٍ منهم، وإن كان لكم فإن لم تسمعوا مني فلا تستفتوني، فافعلوا ما شئتم، وإن كان الحق لله فالله يأخذ حقه إن شاء كما يشاء.

قالوا: هذا الذي فعلوه معك هو حلالٌ لهم؟ قال: هذا الذي فعلوا قد يكونون مثابين عليه مأجورين فيه، قالوا: فتكون أنت على الباطل وهم على الحق؟ فإن كنت تقول إنهم مأجورون فاسمع منهم ووافقهم على قولهم، فقال لهم: ما الأمر كما تزعمون، فإنهم قد يكونون مجتهدين مخطئين، ففعلوا ذلك باجتهادهم، والمجتهد المخطئ له أجر.

فلما قال لهم ذلك، قالوا: فقم واركب معنا، حتى نجيء إلى القاهرة.

فقال: لا، وسأل عن وقت العصر، فقليل له: إنه قريب، فقام قاصداً إلى الجامع لصلاة العصر...، إلى أن قال: «فدخل الجامع ودخلنا معه، فصلى ركعتين، فلما سلّم منها أذن المؤذن بالعصر فصلّى العصر، ثم افتتح بقراءة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، ثم تكلم في المسألة التي كانت الفتنة بسببها إلى أذان المغرب.

فخرج أتباع خصومه، وهم يقولون: والله لقد كنا غالطين في هذا الرجل لقيامنا عليه، والله إن الذي يقوله هذا هو الحق، ولو تكلم هذا بغير الحق لم نمهله إلى أن يسكت، بل كنا نبادر إلى قتله، ولو كان يبطن خلاف ما يظهر لم يخف علينا، وصاروا فرقتين يخاصم بعضهم بعضاً»^(١) اهـ.

قلت: وانظر إلى هذه الأسطر السقيمة التي سوّد بها تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب بن علي السبكي طبقات الشافعية الكبرى، وفيها الطعن الفاجر على شيخه: الإمام شمس الدين الذهبي رحمته الله، وما دفعه إلى هذا إلا التعصب الذميم للأشاعرة، حيث إن الذهبي قد كشف عوارهم في كتبه، وفضحهم، فقال ابن السبكي كما في ترجمة «أحمد بن صالح المصري» من الطبقات (١٣/٢): «وهذا شيخنا الذهبي رحمته الله... له علم وديانة، وعنده على أهل السنة^(٢) تحمّل مفرط، فلا يجوز أن يُعتمد عليه».

(١) وكان أصحاب ابن تيمية يلقون العنت والأذى من أمثال هؤلاء المتعصبين الجهال، بسبب انتسابهم إليه، بل كانوا يتخفون أحياناً خوفاً من أن ينكل المتعصبون بهم.

(٢) يقصد الأشاعرة.

ثم نقل كلامًا للعلائي فيها طعن على الذهبي، وأردفه بقوله: «والحال في حق شيخنا الذهبي أزيد مما وصف، وهو شيخنا ومعلمنا، غير أن الحق أحق أن يتبع، وقد وصل من التعصب المفرط إلى حدٍّ يسخر منه^(١)، وأنا أخشى الله عليه يوم القيامة من غالب علماء المسلمين، وأئمتهم الذين حملوا لنا الشريعة النبوية، فإن غالبهم أشاعرة، وهو إذا وقع بأشعري لا يبقى ولا يذر، والذي أعتقد أنه خصماؤه يوم القيامة عند من لعل أدناهم عنده أوجه منه، فالله المسئول أن يخفف عنه، وأن يلهمهم العفو عنه، وأن يشفعهم فيه.

والذي أدركنا عليه المشايخ النهي عن النظر في كلامه، وعدم اعتبار قوله، ولم يكن يستجري أن يظهر كتبه التاريخية إلا لمن يغلب على ظنه أنه لا ينقل عنه ما يُعاب عليه» اهـ.

قلت: هكذا أعمى التعصب عين ابن السبكي؛ فرأى الحق باطلاً، ورأى الباطل حقاً، ووسم أهل السنة بالبدعة والظلم، وألبس الأشاعرة المبتدعة وسام السنة.

وقال علي بن أحمد بن يوسف البصروي في تاريخه (ص ٨٧): «سنة أربع وثمانين وثمان مائة رجب مستهله الجمعة ثالث عشرة: جمع الشيخ تقي الدين بن قاضي عجلون جماعة من العلماء والقضاة بالمشهد من الجامع الأموي بسبب أن الشيخ برهان الدين البقاعي الشافعي أنكر على الإمام الغزالي قوله في إحياء علوم الدين: ليس في الإمكان أبدع مما كان، وصرح بتكفير ابن البقاعي، وأحضروا شيئاً من نسخ مصنف البقاعي في ذلك، وكان قاضي القضاة برهان الدين ابن مفلح ضعيفاً، وقاضي القضاة شهاب الدين المريني مسافراً، فأشار النائب بتأخير المناقشة في ذلك لحين حضورهما، وذهب إلى البقاعي جماعة، وهو في مسكنه قبلي المدرسة البدرائية وأسأؤوا إليه إساءة بالغة.

وهذه المسألة قد أنكرها على الغزالي جماعة في زمنه، وأجاب عن اعتراضهم في كتاب له سماه: الأجوبة المسكتة عن الأسئلة المشككة في الإحياء» اهـ.

وقال الشيخ المحدث أبو محمد عبد الحق الهاشمي في عقيدته التي سماها: «عقيدة الفرقة الناجية» (ص ٦): «ولقد تحملت في زمن طلب العلم مشقات كثيرة من جهلة المقلدين

(١) أرايتم كيف فعل التعصب بابن السبكي؟! يسبُّ شيخه ويسفهه !!.

الجامدين في التقليد الشخصي من زملائي في الطلب، ونالني منهم أذى كثير، حتى ما كنت في أوائل زمن طلب الحديث أصلي صلاة إلا وأنا ملتحف برداء، فأرفع يدي عند الركوع والسجود والرفع منهما من تحت الرداء مخافة إيدائهم، ولئلا يكونوا سبباً لإخراجي من حلقة الدرس لصغر سني ومخالفتي منهجهم، فلما قويت شكيمتي واستحكمت في المناظرة وأمنت أذاهم بدت منهم البغضاء لهجري التقليد، وكانوا يسخرون مني، ويقولون: إني على ضلالة وعمى لأنني أفني بتحريم التقليد وتركه...» اهـ.

قلت: ومن الصفحات السوداء القائمة التي سوّدها المتعصبون في هذا الزمان، قيام الشيعة الروافض المجرمين بقتل الشيخ العلامة إحسان إلهي ظهير -رحمه الله رحمة واسعة- حين قيامه بإلقاء محاضرة علمية، وذلك تعصباً منهم لأباطيلهم الكفرية التي كشفها وحذّر منها الشيخ إحسان في سلسلة من الردود العلمية الفذة.

وكذلك ما صنعه حكمتيار وحزبه في أفغانستان من اغتيال الشيخ السلفي جميل الرحمن رحمه الله، لما قام بتأسيس ولاية سلفية في إمارة «كونر»، وجمع حوله طلبة العلم النابهين، فكانت هذه الإمارة بحق هي نواة للدولة الإسلامية على أرض أفغانستان، التي تعلّقت بها آمال آلاف الشباب المسلم، ولكن أمراء الأحزاب والفصائل الأفغانية الخونة تعصّبوا لأحزابهم ولمناهجهم الباطلة، فخشوا أن يكشف الشيخ جميل الرحمن وطلبته ألعينهم، وأن يخطف أتباعهم، فقتلوه غيلةً، وتعقبوا طلابه، وشدّوهم؛ حتى هدموا هذه الولاية القائمة على الكتاب والسنة، ولم تمر سنوات على هذه الجريمة إلاّ وسلط الله الحكم العدل هذه الأحزاب بعضها على بعض، فصار يقتل بعضهم بعضاً، ثم سلط عليهم العدو الأمريكي الكافر مع حلفائه الشيعة الروافض، فاستباحوا بيضتهم، واحتلوا ديارهم ﴿جَزَاءً وَفَاءً﴾ [البأ: ٢٦]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

ومن آخر الصفحات -ولست الأخيرة- التي أضافها المتعصبون إلى تاريخهم الأسود هذه القصة التي حكاها بعض من حضرها من الشباب في المملكة، ونشرت على شبكة سحاب السلفية، وإليك القصة كما حكاها رواتها:

ذهب الشيخان: صالح السحيمي وعبد الرزاق العباد -حفظهما الله- إلى منطقة القصيم

لإلقاء بعض المحاضرات ونصح الناس، وفي أثناء محاضرة بعنوان: «الدين النصيحة» أطفأ الحزيون الكهرباء على المسجد، وهجموا على الشيخ صالح السحيمي يريدون ضربه وإخراجه من المسجد، وهم يصيحون بهمجية: «أخرجوهم من المسجد، هؤلاء الذين فرقوا المسلمين، ويتكلمون في المشايخ»^(١).

ولقد كسروا نظارة الشيخ السحيمي، وهو رجل ضرير لا يرى. وخرجنا بالشيخ مسرعين خوفاً من أمور لا تحمد عقباها من هؤلاء الخوراج. وخرج الشيخ عبد الرزاق العباد من المسجد حافي القدمين، والحمد لله أنه نجا بنفسه، ومن معه. اهـ

قلت: وما زال المتعصبون يزيدون في صفحاتهم السوداء صفحات أخرى في كل يوم، والله الموعد، وإليه المرجع والمآل.

ولولا إيثار الحق على الخلق، وقلة الصادعين بهذا الحق، وعظم الداء وشدة خطورته، ما سوّدت هذه الأوراق؛ ولا أرهقت ذهن القارئ بذكر هذه التوجعات التي تحزن كل محق، وتفرح كل مبطل، ولكن العاقبة للمتقين، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

وصلى الله على محمد، وعلى آله وأصحابه ومن اتبع هداية^(٢)....

تم بحمد الله

(١) كذا زعموا!! وهذه نتيجة متوقعة من أناس تربوا على التعصب للرجال، وتقديس حرمتهم على حرمة الدين، فيا حسرتاه على ضياع شباب الأمة في آتون هذه العصبية الجاهلية، التي جعلتهم يطعنون في علم من أعظم العلوم التي خص الله به هذه الأمة، ألا وهو علم الكلام في الرجال جرحاً وتعديلاً، وأئمة هذا العلم هم حماة هذا الدين، وإن كره الشانئون المتعصبون.

(٢) قال الشيخ حسن -حفظه الله-: «الحمد لله، وقد تمت المراجعة -بتوفيق من الله- في صبيحة يوم الثلاثاء السادس من جمادى الآخرة (١٤٢٩هـ)، الموافق العاشر من يونيو (٢٠٠٨م)».

فهرس الفوائد العلمية لكتاب

« التَّعَصُّبُ لِلشُّيُوخِ »



- ٢١ © طبقات أهل العلم والدعوة.
- ٢٣ © طبقات الناس كما ذكرها «علي بن قاسم حنش»، ونقلها الشوكاني في ترجمته من «البدر الطالع».
- ٢٤ © هل يصح أن تُطلق كلمة (الشيخ) لكلِّ أحدٍ من الناس؟!
- ٢٥ © آثار هامة في بيان خطورة مجالسة الناشئ للمتعصِّبين.
- ٢٦ © التعصُّب داء قديم جذوره.
- ٢٧ © مَنْ هُمُ الحداثيَّة.
- ٢٨ © وصف دقيق لحال الحداثيَّة، وأنهم مولعون بالخلاف، أخذًا مِنَّا نقله الخطابي في (العزلة).
- ٢٨ © الإشارة إلى ردود العلامة ربيع بن هادي على الحداثيَّة. (حاشية)
- ٣٠ © طالب الحق اليوم شبيه بطلابه أيام الفترة.
- ٣٧ © الردُّ على مَنْ ألزم العامي اتباع مذهب إمام بعينه لا يخرج عن أقواله واجتهاداته، نقلًا عن ابن الوزير في (الروض الباسم).
- ٤٠ © هل إجماع العامة حجة؟
- ٤٢ © تفصيل جيد من شيخ الإسلام ابن تيمية في شأن الاجتهاد والتقليد.
- ٤٣ © تقسيم الشاطبي المكلفين إلى ثلاثة أقسام.

- ٤٦ © حال أهل البوادي والقرى من غير العلماء في زمن النبي ﷺ من ناحية العمل بالحديث.
- ٤٧ © تاريخ ظهور الاختلاف بين العلماء المجتهدين، وكيف نشأ؟
- ٤٩ © نقل هام عن العلامة محمد إسماعيل السلفي في كتابه «حجية الحديث النبوي» عن فقه التقليد.
- ٥١ © شبهة واهية للكوثري في مقاله «اللامذهبية كنطرة اللادينية»، والرد عليها.
- ٥٢ © هل الدعوة إلى نبذ التمدب دعوة إلى الانفضاض من حول أئمة الدين؟
- ٥٤ © نقض دعوى رمضان البوطي الباطلة على السلفيين أنهم يُسفّهون اجتهادات الأئمة الأربعة.
- ٥٧٠٥٨ © درجة حديث: «أصحابي كالنجوم»، ونقل تأويل ابن عبد البر له تحت فرض صحته، أن ذلك في النقل، لا في اجتهاداتهم الفقهية.
- ٦١ © جواب العلامة الألباني عن شبهة وقوع السلفيين في التعصب له، رغم نهيمهم غيرهم عن التعصب لرجل بعينه.
- ٦٥ © فارق دقيق بين العلماء المجتهدين وأهل الأهواء المتعصبين.
- ٦٨ © دين الإسلام مبني على السماع والنقل.
- ٦٩ © سرد بعض ألفاظ الحديث المتواتر: «نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً...».
- ٦٩ © علوم اللغة مبنية أيضاً على السماع.
- ٧١ © بيان طرف من كيد حُسّاد الحافظ عبّاد الغني المقدسي له.
- ٧٥ © من أصناف المتعصبين.
- ٧٦ © من عبارات الغلو والإطراء الزائد من المتعصبين. (حاشية)
- ٧٦ © هل قول أبي إسماعيل الهروي: «أنا حنبلي ما حييت...» يُعد تعصباً للإمام أحمد. (حاشية)
- ٧٧ © إذا أردت أن تعرف خطأ شيخك فجالس غيره.

- ٧٨ ◉ نقل هام عن المزنّي في ردّ شبهة داحضة للمتعصّبين.
- ٨٠ ◉ أبيات رائقة لمنذر بن سعيد يشكو فيها حال المتعصّبين لمالك وأصحابه.
- ٨١ ◉ سهام المتعصّبين ضد صاحب الحق.
- ٨٢ ◉ حالة عبد الرحمن بن بطة مع المخالفين له.
- ٨٤ ◉ الإمام بقي بن مخلّد يؤذّي من متعصّبي الأندلس.
- ٨٦ ◉ ابن حزم يشكو من أهل الأندلس.
- ٨٨ ◉ أبو سعيد السّيرافي يشهد بضعف أبي بكر بن دُرَيْد في التصريف والنحو.
- ٨٨ ◉ حراسة العلم أولى من حراسة العالم.
- ٨٩ ◉ صرخة متعصّب.
- ٩٠ ◉ حجة أهل التعصّب في الأزمان السالفة.
- ٩٠ ◉ نصيحة عزيزة من صديق حسن خان القنوجي إلى المتعصّبين.
- ٩١ ◉ تخريج حديث: «البركة مع أكابركم».
- ٩٤ ◉ أبيات أبي الحسن بن الفضل المقدسي في حق من تصدر للتدريس وهو بليد.
- ◉ حكاية أحمد بن علي الأبار مع شاب بالأهواز يطعن في أصحاب الحديث، وهو أول أثر في (الكفاية) للخطيب.
- ٩٥
- ٩٧ ◉ قول الشافعي: «العلم جهل عند أهل الجهل».
- ٩٩ ◉ تعريف المرء وبيان خطورته.
- ٩٩ ◉ تعريف الجدل.
- ١٠٠ ◉ أقسام الجدل المذموم.
- ١٠١ ◉ الأحاديث الدالة على النهي عن الجدل المذموم.

- ١٠٢ * أئمة السنة يخصصون باباً في كتب الاعتقاد في التحذير من الخصومات في الدين، والجدال مع أهل البدع.
- ١٠٤ * باقية من الآثار السلفية في التحذير من الخصومات في الدين، والمناظرات مع أهل البدع، ومجالستهم، والمرء.
- ١١٧ * أصل ضلال بني آدم ومنشأ البدع من الألفاظ المجملة والمعاني المشتبهة.
- ١١٧ * الحزبيون يطرحون المسائل الجدلية العقيمة في أوساط السلفيين لشغلهم وإضاعة أوقاتهم.
- ١٢١ * أمثلة صالحة للجدال بالتي هي أحسن من كتاب «تنبيه الرجل العاقل».
- ١٢٢ * أبو القاسم الزجاجي ينتقد في «تفسير رسالة أدب الكاتب» استنكار ابن قتيبة على الفلاسفة والمناطق.
- ١٢٣ * ضوابط المناظرة مع المخالف، كما بينها الآجري، وابن سيرين، والشافعي، وأحمد النجمي - رحم الله الجميع -.
- ١٢٥ * فائدة عزيزة في ترجمة «بهلول بن راشد الحجري» من «رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية» لأبي بكر المالكي.
- ١٢٦ * أدب الجدال والمناظرة ملخصة من كتاب «الفقيه والمتفقه» للخطيب.
- ١٢٩ * البيان الحسن ليس مذموماً.
- ١٣٠ * الحكم على عبارة: «لا تقل: أخطأ الشيخ، ولكن قل: جانب الصواب».
- ١٣٤ * نصيحة غالية من العلامة ربيع بن هادي.
- ١٤٠ * رد ابن تيمية على الإخنائي في وصفه لمشايخه: «الذين لا يعتد بخلاف من سواهم، ولا يرجع في ذلك لمن عداهم».
- ١٤١-١٤٣ * يؤثرون شيوخهم على رسول الله ﷺ.
- ١٤٩ * حكم قول الرافضة في مدح علي - رضي الله عنه -: «إمام المتقين».

- ١٥١ © مثال للغلو الشنيع في إطرء الشيخ من كتاب: «التحفة البهية في تملك آل عثمان للديار المصرية».
- ١٥٥ © محمود الحداد المصري يناقض صنائعه.
- ١٥٨ © هدي الصحابة في الكف عن الفتيا.
- ١٦٠ © طالب الإمارة في الفتيا كطالب الإمارة في الدنيا.
- ١٦٠ © تخريج أثر: «سلوني قبل أن تفقدوني». (حاشية)
- ١٦١ © تحذير الشيخ حسن من منهج القصائص والوعاظ. (حاشية)
- ١٦٤ © وصف العلاج للمعلم الذي يحسد طلابه الذين تقدموا عليه في العلم.
- ١٦٥ © الطالب النابه أنفع لشيخه من أبنائه.
- ١٧٠-١٦٥ © هدي علماء السلف في تعاملهم مع الطلبة الصغار سنًا.
- ١٧٠ © توصيف حال الشيخ المفرط في تعظيم طلبته.
- ١٧١، ١٧٠ © مثالان لشدة الشيخ على تلميذه رغبة في إصلاحه.
- ١٧٤ © سيرة طائفة من العلماء الربانيين المعاصرين مع طلبتهم.
- ١٧٩-١٧٦ © ثلاثة مواقف فيها عبرة حدثت لي مع شيخنا العلامة ربيع بن هادي.
- ١٨٠ © البخاري يحدث عمَّن هو دونه في السن والإسناد.
- ١٨١ © الفرع قد يزكو على الأصل.
- ١٨٢ © التحذير من خطأ شائع في تربية الشيخ لتلاميذه.
- ١٨٣ © الأديب محمود شاكر يعترف باستفادته من امرأة هو يفضلها علمًا وخبرة.
- ٢٠١ © العلامة ابن عثيمين يرسل رسالة إلى الشيخ حمود التويجري يتراجع فيها عن قوله بـ«المعية الذاتية».
- ٢٠٢ © العلامة الألباني قد يتراجع عن خطأ له في الموضوع نفسه الذي أخطأ فيه.

- ٢٠٣ © كلمة الألباني الأخيرة في حق سيد قطب.
- ٢٠٤ © العلامة الألباني يصف من يدعي عليه أنه يثني على سيد قطب بأنهم أهل أهواء.
- ٢٠٦ © العلامة مقبل بن هادي يقول عن حسن البنا وسيد قطب: «هما إمامان ولكن من أئمة أهل البدع».
- ٢٠٦ © العلامة مقبل يرى أن البنا أكثر ضلالاً من سيد قطب.
- ٢٠٧ © العلامة مقبل يتراجع عن طعنه القديم في الدولة السعودية.
- ٢١١ © تراجعني عن خطأ وقع لي في تحقيقي لكتاب الإجماع لابن المنذر.
- ٢١٧-٢١٣ © أوجه الشبه بين الحداية والخوارج.
- ٢١٩ © التعصب في الباطل يخرج عن اسم الصلاح.
- ٢١٩ © التعصب للشيوخ، والأحزاب، والأهواء من الكبائر.
- ٢٣١-٢٢٩ © معنى حديث: «من نصر قومه على غير الحق، مثل البعير رُدِّي في بئر؛ فهو يُمَدُّ بَدَنِهِ» مع تخريجه.
- ٢٣٤ © الصديق يتخوف على نفسه الزيف إن خالف شيئاً من أمر نبيه ﷺ.
- ٢٣٦ © عمر -رضي الله عنه- يُحذّر من أصحاب الرأي.
- ٢٣٧ © أحذركم زينة الحكيم.
- ٢٣٩ © معنى (الإمعة).
- ٢٤٠ © معنى (المحبب الرجال دينه). (حاشية)
- ٢٤١ © تخريج قول ابن عباس: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء...». (حاشية)
- ٢٤٢ © ما أنا بعلوي ولا عثماني.
- ٢٤٤ © سنة الرسول ﷺ أحق أن تُتبع من سنة ابن عباس -رضي الله عنهما-.
- ٢٤٤ © أحدثك عن رسول الله ﷺ وتحدثني عن صحيفتك.

- ٢٤٥ ◉ إذا سمعت عن رسول الله ﷺ حديثًا فلا تضرب له الأمثال.
- ٢٤٦ ◉ لا رأي لأحد في سنة سنّها رسول الله ﷺ.
- ٢٤٨ ◉ أقول لك: قال رسول الله ﷺ، وتقول: قال إبراهيم، ما أحقك أن تُحبس.
- ٢٥١ ◉ يدع المشثوم دين أبي القاسم ﷺ، ويموت على دين أبي عمارة.
- ٢٥٢ ◉ دُرر الشافعي في تعليم طلابه تجريد المتابعة للرسول ﷺ، وترك التعصب له.
- ٢٥٦ ◉ للشافعي ثلاث كلمات ما تكلم بها أحد في الإسلام قبله.
- ٢٥٧ ◉ دُرر أحمد بن حنبل في الاتباع، وترك التعصّب للرجال.
- ٢٥٨ ◉ ابن خزيمة يضرب مثلاً رائعاً في ترك التعصب.
- ٢٥٨ ◉ هل يقلد إلا عصبي أو غبي؟!
- ٢٥٩ ◉ أقوال العلماء يُحتج بها، لا يُحتج بها.
- ٢٦٠ ◉ «حزب الله» المذكور في القرآن ليس الحزب الرافضي الشيعي. (حاشية)
- ٢٦٣-٢٦٠ ◉ مسألة تخليد أصحاب البدع المكفرة في النار.
- ٢٦٩ ◉ بيان العلامة حمّاد الأنصاري لمعنى مقولة: «علماء اليوم يعيشون عالة على علماء الأمس».
- ٢٧٠ ◉ هل باب الاجتهاد أغلق؟
- ٢٧٢ ◉ الفوزان يجيب عن سؤال: ما حكم من أحب داعية، وقال: لا أريد أن أسمع من يرد عليه.
- ٢٧٤ ◉ نصيحة العلامة ربيع بن هادي إلى طلبة العلم بمصر.
- ٢٧٥ ◉ ردّ العلامة أحمد النجمي على مقولة: «مَن لم يقلدْ هدم الرسالات السماوية».
- ٢٧٧ ◉ التعصّب داءٌ متبوع ليس داءً مفردًا.
- ٢٧٩ ◉ قول متعصّب: «لقد وضع شيخنا العلماء كلاً في موضعه الذي يستحقه».
- ٢٨٠ ◉ من أوسع أودية الباطل الغلو في الأفاضل.

- ٢٨٣ ⊙ التأويلات السمجة من الشعراني لكلام كفري ظاهر لابن عربي الطائفي.
- ٢٨٤ ⊙ استحقاق الرجل السنة بمحبة أحمد بن حنبل.
- ٢٨٥ ⊙ هل يستوي التعصّب بالباطل للشيخ، بالمحبة والنصرة لأئمة الهدى والسنة؟!.
- ٢٨٩ ⊙ شعارات الحزبيين المتعصّبين الكاذبة.
- ٢٨٩ ⊙ الشافعي أودي من المتعصّبين لمالك من أهل مصر.
- ٢٩١ ⊙ أمثلة لمسائل صار التعصّب لها من شعائر الفرقة بين الأمة.
- ٢٩٢ ⊙ من أسباب تسليط التتر على بلاد الإسلام: المتعصّبون.
- ٢٩٣ ⊙ قصة أبي بكر الفهري شيخ القاضي أبي بكر العربي مع المتعصّبين لمأرفع يديه في الصلاة.
- ٢٩٦-٢٩٤ ⊙ مقتل الشريف أبي جعفر عبد الخالق بن عيسى الحنبلي على يد المتعصّبين في فتنة ابن القشيري.
- ٢٩٩-٢٩٦ ⊙ أربع محن للحافظ عبد الغني المقدسي مع المتعصّبين.
- ٢٩٩ ⊙ قصة شيخ الإسلام ابن تيمية مع جماعة من الغوغاء المتعصّبين.
- ٢٩٩ ⊙ تعريف (الغوغاء) لغة. (حاشية)
- ٣٠٠ ⊙ تاج الدين أبو نصر بن السبكي -صاحب طبقات الشافعية الكبرى- يطعن في شيخه الإمام الذهبي -رحمه الله-، ويسبّه تعصّباً للأشاعرة.
- ٣٠١ ⊙ قصة المحدث أبي محمد عبد الحق الهاشمي مع جهلة المقلدين الجامدين.
- ٣٠٢ ⊙ الشيعة الروافض المتعصّبون يقتلون العلامة إحسان إلهي ظهير -رحمه الله-.
- ٣٠٢ ⊙ حكمتيار وحزبه المتعصّبين يغتالون الشيخ جميل الرحمن -رحمه الله-.
- ٣٠٣ ⊙ قيام المتعصّبين بقطع الكهرباء عن مسجد بالقصيم فيه مجاضرة للشيخين: صالح السحيمي وعبد الرزاق العباد.

« فهرس الموضوعات »

الموضوع	رقم الصفحة
- مقدمة فضيلة الشيخ: حسن بن عبد الوهاب مرزوق البنا - حفظه الله-	٥
- مقدمة فضيلة الشيخ: هشام بن فهمي بن موسى العارف المقدسي الفلسطيني - حفظه الله-	١١
- المقدمة	١٩
- حد التعصب	٣٣
طاعة العلماء وسؤال أهل الذكر	٣٦
والحدُّ الفاصل بين الاتباع والتقليد	
منشأ التعصب	٧٠
هو اتباع الهوى والعاطفة	
⊙ سمات المتعصبين ⊙	٧٣
السمة الأولى	
عدم الانقياد للحق إذا جاءه عن غيره	٧٣
السمة الثانية	
عدم قبول الحق والتحمس له إلا إذا قال به شيخه	٧٤
السمة الثالثة	
ضعف حصيلتهم العلمية	٩٤

السمة الرابعة للمتعصبين

٩٨ أوتوا الجدل بالباطل مع الفجور واللد في الخصومة مع مخالفهم

السمة الخامسة

١٣٠ يرفعون عقيرتهم بلا حياء على كل من يمس شيخهم بكلمة حق

السمة السادسة

١٣٨ تمنيههم إثبات موافقة شيخهم الصواب ولو بتخطئة أكابر العلماء
بغير حق

السمة السابعة

١٤٠ معارضة السنة بأقوال الشيخ

السمة الثامنة

١٤٤ عدم قبولهم الجرح والتعديل إلا من شيخهم أو من زكاه شيخهم

السمة التاسعة

١٤٦ يكذبون بما لم يحيطوا بعلمه

السمة العاشرة

١٤٧ الطعن في نية الناصح لهم

السمة الحادية عشرة

١٤٩ المبالغة في تعظيم شيخهم بعبارات الإجلال دون غيره من أهل العلم

السمة الثانية عشرة

١٥٢ إدعاء الإجماع الوهمي على الإشاعات

○ تعصب الشيخ لنفسه ○

١٥٥

○ صور تعصب الشيخ لنفسه

١٥٦

أولاً: عدم رضا الشيخ بوجود من ينشر الدعوة والتعليم في بلده أو في

١٥٦

قريته غيره

- ثانياً: اغترار الشيخ بكثرة الحاضرين لمجالسه، بل اشتراخه كثرة العدد
للعقد المجالس ١٦١
- ثالثاً: احتقار الشيخ لطلبته، واستصغاره لهم، واستكباره عن قبول الحق
منهم ١٦٢
- رابعاً: استنكاف الشيخ عن الاستفادة من التلميذ ومن المفضل
خامساً: استنكاف الشيخ عن قول: «لا أدري» عند عدم علمه ببعض
المسائل ١٨٤
- سادساً: إذا أخطأ الشيخ المتعصب لنفسه فإنه يستكبر عن الرجوع إلى
الحق، ويتمادى في الباطل ١٩٠
- من غلاة المتعصبين: الحدادية؟! ٢١٣
- حدادية أم خارجية جديدة؟! ٢١٣
- حكم أهل العلم على المتعصب ٢١٨
- بيان آيات القرآن العظيم
- في التحذير من التعصب للأباء والأجداد والمشايع ٢٢٣
- الأحاديث النبوية
- في ذم التعصب والحمية الجاهلية ٢٢٨
- قواطع التعصب
- من كلام السلف الصالح ومن اتبعهم بإحسان ٢٣٤
- (١) كلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٢٣٤
- (٢) كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٢٣٥
- (٣) كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ٢٣٦
- (٤) كلام معاذ بن جبل رضي الله عنه ٢٣٦
- (٥) كلام ابن مسعود رضي الله عنه ٢٣٨
- (٦) كلام ابن عباس رضي الله عنهما ٢٤٠

- ٢٤٢ (٧) كلام عبادة بن الصامت رضي الله عنه
- ٢٤٣ (٨) كلام ابن عمر رضي الله عنهما
- ٢٤٤ (٩) كلام عمران بن حصين رضي الله عنه
- ٢٤٥ (١٠) كلام أبي هريرة رضي الله عنه
- ٢٤٥ (١١) كلام سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنه
- ٢٤٦ (١٢) كلام سعيد بن المسيب رضي الله عنه
- ٢٤٦ (١٣) كلام محمد بن سيرين رضي الله عنه
- ٢٤٦ (١٤) كلام الحسن البصري رضي الله عنه
- ٢٤٦ (١٥) كلام عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه
- ٢٤٧ (١٦) كلام محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري رضي الله عنه
- ٢٤٨ (١٧) كلام وكيع بن الجراح رضي الله عنه
- ٢٤٨ (١٨) كلام محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب رضي الله عنه
- ٢٤٩ (١٩) كلام الأوزاعي رضي الله عنه
- ٢٤٩ (٢٠) كلام أبي حنيفة رضي الله عنه
- ٢٥٠ (٢١) كلام مالك بن أنس رضي الله عنه
- ٢٥٢ (٢٢) كلام محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه
- ٢٥٧ (٢٣) كلام أحمد بن حنبل رضي الله عنه
- ٢٥٨ (٢٤) كلام أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة رضي الله عنه
- ٢٥٨ (٢٥) كلام ابن حزم رضي الله عنه
- ٢٥٨ (٢٦) كلام أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي رضي الله عنه
- ٢٥٨ (٢٧) كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه
- ٢٦٠ (٢٨) كلام ابن قيم الجوزية رضي الله عنه
- ٢٦٠ (٢٩) كلام موفق الدين بن قدامة رضي الله عنه

- ٢٦٣ (٣٠) كلام أبي بكر بن أبي داود رحمته الله
- ٢٦٣ (٣١) كلام الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمته الله
- ٢٦٤ (٣٢) كلام الإمام الشوكاني رحمته الله
- ٢٦٥ (٣٣) كلام الإمام محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني رحمته الله
- ٢٦٥ (٣٤) كلام العلامة المعلمي اليمني رحمته الله
- ٢٦٦ (٣٥) كلام أبي النصر علي بن حسن بن صديق حسن القنوجي
- ٢٦٦ (٣٦) كلام الشيخ تقي الدين الهاللي
- ٢٦٧ (٣٧) كلام الشيخ عبد الرحمن الوكيل
- ٢٦٨ (٣٨) كلام الإمام العلامة عبد العزيز بن باز رحمته الله
- ٢٦٩ (٣٩) كلام العلامة المحدث حماد الأنصاري
- ٢٧١ (٤٠) كلام العلامة ابن عثيمين رحمته الله
- ٢٧١ (٤١) كلام العلامة المحدث مقبل بن هادي رحمته الله
- ٢٧٢ (٤٢) كلام العلامة صالح الفوزان - حفظه الله -
- ٢٧٣ (٤٣) كلام إمام الجرح والتعديل العلامة ربيع بن هادي
- ٢٧٥ (٤٤) كلام العلامة أحمد النجمي
- ٢٧٦ (٤٥) كلام العلامة زيد بن هادي المدخلي
- ٢٧٧ - آثار التعصّب الذميمة
- ٢٧٧ - أولاً: الوقوع في مغبة منهج الموازنات الفاسد
- ٢٧٨ - ثانياً: التلبس بمنهج التميع
- ٢٧٩ - ثالثاً: التنقص من أكابر أهل العلم
- ٢٧٩ - رابعاً: الوقوع في الحزبية المقيتة.
- ٢٨٠ - خامساً: تثبيط صاحب الحق عن الإنكار.
- ٢٨٠ - سادساً: تلفيق الأخبار لتحسين صورة الشيخ

- سابعاً: الوقوع في التأويل الفاسد

٢٨٢

الولاء والبراء إنما يكون على العلماء الراسخين

أئمة السنة وأعلام المنهج السلفي

٢٨٤

- صفحات مقيمة من تاريخ المتعصبين

٢٨٨ - ٣٠٤

① فهرس الفوائد العلمية

٣٠٥ - ٣١٢

② فهرس الموضوعات

٣١٣ - ٣١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

قائمة بالأعمال العلمية

لأبي عبد الأعلى خالد بن محمد بن عثمان

أولاً: كتب قام على توثيق نصوصها وتصحيحها على أصول خطية:

- (١) الرد على الجهمية والزنادقة فيما تأولوه من متشابه القرآن، للإمام أحمد بن حنبل. (دار المنهاج).
- (٢) كتاب السنة لمحمد بن نصر المروزي. (دار الآثار).
- (٣) الإجماع لابن المنذر. (دار الآثار).
- (٤) تسهيل الانتفاع بمتن العقيدة الطحاوية بترتيبه على أركان الإيمان والأصول السلفية، ويشمل: توثيق نص المتن على خمس نسخ خطية. (دار الآثار).
- (٥) أصول السنة للإمام أحمد بن حنبل. (دار علم السلف).
- (٦) صريح السنة لابن جرير الطبري. (دار علم السلف).
- (٧) الرد على ابن القطان للذهبي. (دار الفاروق الحديثة).
- (٨) مجموع الرسائل الفقهية للأمير الصنعاني. (دار الفاروق الحديثة).
- (٩) المهذب فيما جاء في القرآن من المعرب للسيوطي. (دار الفاروق الحديثة).
- (١٠) مجموع فيه ستة أجزاء حديثة - لم تطبع من قبل -، وهي: فوائد حسان، وأحاديث منتخبة من أجزاء أبي منصور الخوجاني - كلاهما - لأبي طاهر السلفي، وجزء في أمالي الحافظ سراج السنة أبي نصر الغازي، وجزء في حديث الحافظ ابن ديزيل، وجزء في أحاديث ابن بلال، وجزء فيه فوائد أبي القاسم الخُرُفي. (دار الفاروق الحديثة).

(١١) المسائل الماردينية لشيخ الإسلام ابن تيمية. (مكتبة ابن تيمية).

(١٢) العدة شرح العمدة في فقه الإمام أحمد لبهاء الدين المقدسي. (مكتبة أولاد الشيخ).

(١٣) جزء فيه أحاديث من حديث أبي حفص عمر بن محمد بن علي الزَّيات. (مكتبة أولاد الشيخ).

ثانياً: كتب قام بتخريج أحاديثها والتعليق عليها:

- (١) الرد على البردة لعبد الله أبي بطين. (دار الآثار).
- (٢) أشرط الساعة الكبرى للسفاري. (دار الآثار).
- (٣) الأنوار الرحمانية لهداية الفرقة التيجانية للشيخ عبد الرحمن بن يوسف الإفريقي. (دار علم السلف).
- (٤) رسالة الإمام عبد العزيز الأول في التوحيد. (دار علم السلف).

٤) أزهار من رياض سيرة الإمام العادل عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل للعلامة محمد حامد الفقي. (دار علم السلف).

٦) ترجمة وفتاوى العلامة الإمام عبد الرزاق عفيفي. (دار علم السلف).

ثالثاً: مؤلفات:

١) الكواشف الجليلة للفروق بين السلفية والدعوات الحزبية البدعية، وهو شرح محاضرة للشيخ محمد بن رمان، راجعة وقدم له: الشيخ حسن بن عبد الوهاب. (دار علم السلف).

٢) التفجيرات والأعمال الإرهابية والمظاهرات هي من منهج الخوارج والبغاة، وليست من منهج السلف الصالح، راجعه وقدم له: الشيخان الشقيقان: محمد، وحسن ابنا عبد الوهاب. (دار المحجة البيضاء).

٣) دفع بني الجائر الضائل على إمام الجرح والتعديل والمنهج السلفي بالباطل: نقد علمي لكتاب «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»، راجعه وقدم له: الإمام المحدث ربيع بن هادي المدخلي، والشيخان الشقيقان: محمد، وحسن ابنا عبد الوهاب. (دار علم السلف).

٤) جزء في أحكام مشاورة النساء، راجعه وقدم له: أ.د. عبد المحسن المنيف. (دار علم السلف).

٥) وصل الثناء البديع العالي على إمام الجرح والتعديل العلامة ربيع بن هادي. (دار علم السلف).

٦) مختصر منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله للعلامة ربيع بن هادي. (دار المحجة البيضاء).

٧) دفع الشبهات عن كلمة العلامة ربيع: دعوة جادة إلى العالم الإسلامي. (دار المحجة البيضاء).

٨) تعليم فتيان الإسلام عقيدة السلف الصالح في صفات رب الأنام. (دار الآثار).

٩) صحيح القصص في العقيدة والمنهج. (دار الآثار).

١٠) أتباع هاروت وماروت، راجعه وقدم له: الشيخ حسن بن عبد الوهاب. (دار الآثار).

١١) التعصّب للشيخوخة... عواطف مشنوبة بالأهواء. (دارسة نقدية في تحليل داء التعصّب، وبيان سماته، وطرق علاجه).